

مصر في كتابات الرحالة الأتراك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

مصر في كتابات الرحالة الأتراك



مصر في كتابات الرحالة الأتراك



سامية جلال



كانت لمصر طبيعة متميزة فى علاقتها بالدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر، حيث كانت لها شخصيتها شبه المستقلة، مما دفعها إلى قيام نهضة شملت مختلف مناحى الحياة، والتي كانت نتاج عوامل فكرية وحضارية واقتصادية، ومن ثم اتجهت إليها أنظار الرحالة الأتراك، وأصبحت محط اهتمامهم، فقصدوها الكثيرون منهم. ويتناول هذا الكتاب بالدراسة إبراز صورة مصر فى كتابات أولئك الرحالة الأتراك الذين قدموا إلى مصر خلال هذه الفترة، والتي اتسمت بتعدد المجالات التى تطرق إليها مؤلفوها من خلال رحلاتهم وفقاً لتعدد اهتماماتهم واختلاف دوافعهم، مما أتاح فرصة تنوع مادتها ومناهجها ووثرائها. وبناء على هذا، سوف يلمس قارئ هذا الكتاب وجود تنوع فى مستويات الرؤية لهؤلاء الرحالة، فمنهم من انصرف إلى إبراز صورة تحليلية نقدية انطباعية لمصر من الناحية الاجتماعية، ومنهم من حرص على إعطاء صورة صادقة ودقيقة عن مصر وأحوالها الاقتصادية، ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب حرص الرحالة الأتراك أصحاب النظرة الانطباعية الذين اهتموا بالجانب الاجتماعى فقط، على إبراز الجوانب السلبية دون مراعاة للجوانب الإيجابية، فى حين أن أصحاب النظرة الموضوعية جنحوا إلى إبداء إعجابهم الشديد وانبهارهم بما وصلت إليه مصر من تقدم وازدهار فى تلك الفترة، وتفوقها فى كثير من المجالات إلى حد أن تمنى بعض الرحالة أن تستفيد تركيا من ذلك النموذج الرائع الذى حدث فى مصر فتحذو حذوها.

مكتبة مصر فى كتابات الرحالة



900302222



مصر فى كتابات الرحالة الأتراك

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية
جلال/ سامية محمد مصر فى كتابات الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر/ تأليف: سمية محمد جلال ؛ القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، ط ١ ، ٢٠١٤ ٣٩٦ ص، ٢٤ سم ١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - الملك فؤاد (١٩٢٨ - ١٩٣٦) (أ) العنوان ٩٢٦،٠٥٢
رقم الإيداع : ١٠٥٣٩ / ٢٠١٠ الترقيم الدولى : 9 - 096 - 704 - 977 - 978 - I.S.B.N طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها،
ولا تعبّر بالضرورة عن رأى المجلس.

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

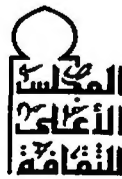
Tel. : 27352396

Fax : 27358084

www.scc.gov.eg

مصر في كتابات الرحالة الأتراك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

سامية محمد جلال



٢٠١٤

المجلس الأعلى للثقافة

الأمين العام
أ.د. سعيد توفيق

رئيس الإدارة المركزية
د. طارق النعمان

الإشراف على التحرير والنشر
غادة الريدي

الإشراف الطباعي والمالي
ماجدة البربري

السكرتير التنفيذي
عزة أبو اليزيد

الإخراج الفني
مها عصام

التدقيق اللغوي
محمود عبد الرزاق جمعة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	11
المدخل.....	19
أ- الرحلة في اللغة والاصطلاح .. ومفهومها في الأدب التركي.....	19
ب- أدب الرحلات التركية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.....	20
ج- أهم الرحلات التركية إلى مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر:	27
- مناهج كتابات الرحالة الأتراك (موضوع الدراسة).....	38
- البنية.....	39
- الأسلوب.....	40

الباب الأول

الفصل الأول: إطلالة على علاقة مصر بالدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر:	43
- علاقة مصر بالدولة العثمانية منذ تولية محمد علي حكم مصر سنة ١٨٠٥م.....	45
- طبيعة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية بعد التسوية في أواخر عهد محمد علي وحكم إبراهيم.....	47
- الخديو عباس الأول وأزمة التنظيمات.....	49

51	- الخديو سعيد وتركيا.....
53	- الدولة العثمانية ومسألة قناة السويس.....
54	- مصر والتسلط الأجنبي.....
56	- الخديو إسماعيل والأتراك.....
58	- موقف الخديو إسماعيل من مشروع قناة السويس.....
	- زيارة السلطان عبد العزيز لمصر (سنة ١٢٧٩ هـ -
59	سنة ١٨٦٣م) مسار رحلة السلطان.....
60	- مسار رحلة السلطان عبد العزيز.....
	- تصدع العلاقات المصرية العثمانية في عهد الخديو
63	إسماعيل.....
63	- عزل الخديو إسماعيل وتولية الخديو توفيق.....
64	- موقف الدولة العثمانية من الثورة العربية.....
66	- الدولة العثمانية والاحتلال الإنجليزي لمصر.....
	الفصل الثاني: الحياة السياسية كما صورها الرحالة الأتراك في النصف
69	الثاني من القرن التاسع عشر.....
	الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية للمصريين كما صورها الرحالة
79	الأتراك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر:
81	أولاً: من الناحية الزراعية.....
87	ثانياً: التجارة:
87	أ- التجارة الخارجية.....
91	ب- التجارة الداخلية.....
102	ثالثاً: الصناعة.....

الباب الثانى:

الحياة الاجتماعية فى مصر كما وردت عند الرحالة الأتراك

109 الفصل الأول: السكان وطبقات المجتمع المصرى:
111 أولاً: السكان
114 ثانياً: طبقات السكان:
118 ١- طبقة الفلاحين
122 ٢- قبائل العرب والبدو
124 ٣- طبقة الأقباط
126 ٤- طبقة الأتراك
127 ٥- طبقة الأجانب
 الفصل الثانى: الأعراف والعادات المصرية كما وردت عند الرحالة
131 الأتراك:
133 ١- الزواج
135 ٢- أزياء السكان
140 ٣- مراسم الجنائز
142 ٤- الأمراض والأوبئة
145 الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية العامة
147 ١- الاحتفالات:
155 ٢- وسائل اللهو فى مصر:
155 أ- الموسيقى والغناء
162 ب- الأوبرا
163 ج- مسارح الغناء بالفنادق
163 د- المسرح

167	٣- المتنزهات في مصر:
167	١- حديقة شبرا.....
169	٢- حديقة الأزبكية.....
172	٣- حديقة الحيوان.....
174	٤- الحديقة العامة في القناطر الخيرية.....
	الفصل الرابع: معالم الشخصية المصرية "الإيجابيات والسلبيات
179	الاجتماعية التي لفتت نظر الرحالة الأتراك".....

الباب الثالث:

وصف مصر كما ورد في كتابات الرحالة الأتراك

197	الفصل الأول: التقسيمات الجغرافية والمناخية للحدودية المصرية.....
199	أ- موقع مصر.....
201	ب- نهر النيل في كتابات الرحالة الأتراك.....
211	ج- مناخ مصر.....
219	الفصل الثاني: القاهرة والإسكندرية في كتابات الرحالة.....
221	[أ] القاهرة وما بها من آثار:
222	أ- وصف شوارع القاهرة:
240	- بولاق.....
240	- مصر العتيقة.....
242	- المطرية.....
247	ب- آثار القاهرة في كتابات الرحالة الأتراك.....
247	١- وصف الأهرام وأبي الهول.....
269	٢- وصف المساجد والمزارات في نصوص الرحالة.....

278	- الجامع الأزهر.....
283	- جامع السلطان حسن.....
292	٣- وصف متحف بولاق.....
296	٤- بعض نماذج الآثار القبطية بالقاهرة:
296	- فى منطقة مصر القديمة.....
297	- فى منطقة المطرية.....
299	[ب] الإسكندرية.....
313	- آثار الإسكندرية فى كتابات الرحالة الأتراك:
319	الفصل الثالث: وصف مدن الوجه البحرى.....
321	تمهيد عن التقسيمات السياسية التى اعتمد عليها الرحالة.....
322	- مديرية القليوبية.....
325	- مديرية الشرقية.....
327	- مديرية الدقهلية.....
330	- مديرية المنوفية.....
331	- مديرية الغربية.....
337	- مديرية البحيرة.....
339	الفصل الرابع: وصف مدن الوجه القبلى.....
341	- مديرية الجيزة.....
345	- مديرية بنى سويف.....
346	- مديرية الفيوم.....
348	- مديرية المنيا.....
340	- مديرية أسيوط.....
354	- مديرية جرجا.....
356	- مديرية قنا.....

الفصل الخامس: دراسة مقارنة بين الرحالة الأتراك وبعض الرحالة

361	الغربيين.....
	- تأثر جناب شهاب الدين ببعض المؤلفات
371	الفرنسية.....
383	- خاتمة الفصل.....
385	الخاتمة.....
391	المصادر والمراجع.....

المقدمة

مما لا شك فيه أن الرحلة قد عرفها الإنسان منذ العصور الغابرة، إلا أن مصطلح "أدب الرحلة" لم يظهر كفن أدبي إلا في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من اختلاف آراء النقاد حول استقلالية هذا الأدب كفن قائم بذاته - مثل باقى الفنون الأدبية الأخرى، كفن القصة أو الشعر أو المقالة الأدبية مثلاً - فإنه فى "أدب الرحلة" تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها دون أن تضبطه معاييرها، أو أن تخضعه لمقاييسها^(١).

ويحاول هذا البحث تسليط الضوء على هذا الجنس الأدبي فى أدب الرحلات التركية، مقتصرًا على مصر، حيث يهدف إلى معرفة صورة مصر فى أعين الرحالة الأتراك، خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فقد زار عدد منهم مصر، جابوا مدنها، وتوغلوا فى صعيدها، وصحارها، واستطاعوا أن يصفوا الكثير من أحوالها الاجتماعية والاقتصادية، والقليل من أحوالها السياسية.

ويلاحظ أن هؤلاء الرحالة قد تنوعت وظائفهم فى تلك الفترة، فمنهم المترجم، والأديب، ومنهم المكلف بمأمورية خاصة فى مصر.

ولقد كان لكل رحالة من أولئك الذين سوف ندرسهم، دافع خاص للقيام برحلته، فهناك أصحاب الدافع الدينى وهؤلاء لم يقصدوا مصر، وإنما كانت مصر فى طريقهم إلى الحجاز، وهناك أصحاب الدافع الخاص مثل السياحة.

(١) انظر حسنى محمود حسين: أدب الرحلات عند العرب، القاهرة، سنة ١٩٧٦، ص ١٠؛

شوقى ضيف: الرحلات - القاهرة سنة ١٩٥٦، ص ٦؛

جورج غريب: أدب الرحلة - تاريخه وأعلامه، بيروت، ١٩٧٩، ص ١١.

وتسعى هذه الدراسة إلى رسم ملامح هذه الرحلات التي تعددت أغراضها وتنوعت أهدافها، وكذلك محاولة الكشف عن طبيعة العلاقات المصرية التركية خلال هذه الفترة.

ومن الطبيعي أن تهتم هذه الدراسة بتتبع أولئك الرحالة حتى تتضح صورتان:

الصورة الأولى: صورة مصر في أعينهم خلال تلك الفترة.

الصورة الثانية: صورة أدب الرحلات في تركيا خلال تلك الفترة أيضا ومراحل تطوره.

ولأننا سوف ندرس مصر في أعين الرحالة الأتراك خلال تلك الفترة، فالذي يعنينا هو دراسة مصر ببيئاتها الطبيعية والاجتماعية، أو بعبارة أخرى بيئة مصر المادية والمعنوية من خلال رؤية أولئك الغرباء عنها.

إن الهدف من دراسة أعمال هؤلاء الرحالة الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة ليس مادة الرحلات ذاتها بقدر تحليل العقلية التي أنتجت هذه الأعمال، ولذلك يجب على هذا البحث أن يوجه نحو سبر غور البنية العميقة للتفكير التركي، خصوصا أن مصر كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية، ومن ناحية أخرى فإن ما يعنينا - بغض النظر عن دوافع تلك الرحلات وأغراضها المختلفة - ليس تقييم هذه الرحلات فحسب، بل وإبراز نتائجها، ومدى ما أسهمت بتقديمه من معلومات، وصور حية لمصر مستمدة من الملاحظة المباشرة، والمعاينة الشخصية عن الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وعن طبائع أهلها ومعالم حضاراتها.

إن قيمة أعمال الرحالة بصفة عامة تُردُّ أساسا إلى كون هؤلاء الرحالة موسوعيي التفكير، فمن المؤكد أن ينعكس ذلك على أعمالهم ولا شك في أنهم يختلفون في ما بينهم في دقة ملاحظاتهم، وفي درجة اهتماماتهم، وفي نوع هذا

الاهتمام، وفي مصداقيتهم وأمانتهم، وكذلك فى أساليبهم، ومناهجهم، والمصادر التى اعتمدوا عليها وتأثروا بها.

وعلى هذا الأساس، فإن هذا البحث يقتضى الوقوف على أعمال هؤلاء الرحالة، مع التركيز على الجوانب المختلفة التى تعرضوا لها، وكذلك الرجوع إلى المصادر الأصلية التى تأثروا بها، لمعرفة ما اقتبسوه من معلومات أوردوها فى كتاباتهم.

ومما لا شك فيه أن سبر أغوار أعمال هذه الرحلات على اختلاف أغراضها ومادتها يستلزم بالطبع استخدام أكثر من منهج وطريقة لتناولها، فإلى جانب المنهج التحليلى النقدى الذى يعتمد على دراسة النصوص الأصلية للرحالة الأتراك الذين زاروا مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، لا بد أيضا أن يتناول البحث بعضا من هذه النصوص من منظور إثنوجرافى لتحقيق نظرة شاملة للحياة التى يصفها أصحابها سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو اقتصادية أو حضارية، ولذلك لا بد أن يدرس أدب الرحلات بصفة عامة دراسة علمية لجمع شتاته ولمّ شمله.

ويذل نتاج أصحاب هذه الرحلات على مدى تحكم الهدف والغرض من الرحلة، وتمكنه من الرحالة، حيث انقسم عملهم إلى:

١- أدب جغرافى: وازنوا فيه بين المنهج العلمى والأسلوب الأدبى.

٢- أدب الرحلات: ويمثل الأدب فيه محور الانتباه، وإن لم يخل أيضا من الجانب العلمى الذى يرد فى صورة غير مباشرة.

ولقد توزعت النصوص التى تناولت الرحلات التركية إلى مصر على هذين القسمين، ولذلك فإن المعين الأول لهذه الدراسة هو كتب الرحالة نفسها، مع التركيز على المصادر التى اعتمدوا عليها وتأثروا بها، ثم يأتى بعد ذلك مجموعة المراجع

التي تناولت بالدراسة هذه الرحلات، وهذه المراجع هي المراجع التركية. وأخيراً، الرجوع إلى الكتب العربية والأجنبية الخاصة بوصف مصر في تلك الفترة الزمنية.

وقد اقتضت طبيعة موضوع الكتاب أن ينقسم إلى مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة. ويتناول المدخل الأقسام الآتية:

أ- الرحلة في اللغة والاصطلاح .. ومفهومها في الأدب التركي.

ب- أدب الرحلات التركية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ج- أشهر الرحلات التركية إلى مصر في تلك الفترة.

ويختص الباب الأول بدراسة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويتوزع هذا الباب في فصول ثلاثة: يدرس الأول منها: إطلالة على علاقة مصر بالدولة العثمانية خلال هذه الفترة.

والفصل الثاني: الحياة السياسية في مصر كما صورها الرحالة الأتراك.

والفصل الثالث: الحياة الاقتصادية للمصريين كما رآها الرحالة الأتراك، وتنقسم إلى:

أ- الناحية الزراعية.

ب- الناحية الصناعية.

ج- الناحية التجارية.

أما الباب الثاني من الكتاب، فيدرس الحياة الاجتماعية في مصر كما وردت عند الرحالة الأتراك، وينقسم هذا الباب إلى أربعة فصول:

يبحث الفصل الأول السكان وطبقات المجتمع المصرى كما ذكرها الرحالة الأتراك.

ويختص الفصل الثانى بدراسة الأعراف والعادات المصرية التى وردت عند الرحالة الأتراك.

ويقف الفصل الثالث على دراسة الحياة الاجتماعية العامة كما صورها الرحالة الأتراك.

ويتناول الفصل الرابع معالم الشخصية المصرية، ويشمل الإيجابيات والسلبيات الاجتماعية التى لفتت أنظار الرحالة الأتراك.

أما الباب الثالث فيدرس وصف مصر كما ورد فى كتابات الرحالة الأتراك، وينقسم إلى خمسة فصول:

يتناول الفصل الأول التقسيمات الجغرافية والمناخية للحدودية المصرية، ويبحث عن:

أ- موقع مصر.

ب- نهر النيل فى كتابات الرحالة الأتراك.

ج- المناخ.

ثم يدرس الفصل الثانى القاهرة والإسكندرية فى كتابات الرحالة، ويشمل:

أ- القاهرة وما بها من آثار.

ب- الإسكندرية وما بها من آثار.

ويختص الفصل الثالث بدراسة وصف مدن الوجه البحرى.

والفصل الرابع يختص بدراسة وصف مدن الوجه القبلى.

أما الفصل الخامس، فحاولت فيه القيام بدراسة مقارنة بين الرحالة الأتراك وبعض الرحالة الغربيين.

ثم الخاتمة التى تبين أهم النتائج التى وصل إليها البحث.

ويرجع اختياري هذا الموضوع إلى سببين:

السبب الأول: هو سبب شخصى، يتعلّق بشغفى بأدب الرحلات بصفة عامة، وإطلاعى على مؤلفات الأديب العثمانى جناب شهاب الدين الخاصة بأدب الرحلات، وذلك خلال فترة دراستى لأشعاره فى مرحلة الماجستير.

أما السبب الآخر، فهو يتصل بمنظور فكرى جديد نحو دراسة أدب الرحلات التركية مقتصرًا على مصر، وقد حددت الفترة الزمنية التى يتناولها هذا البحث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والملاحظ فى هذا الشأن أن الدراسات الحالية تقتصر على رحالين بأعينهم بينما تتعدم وجود كتابات أخرى فى هذا المجال تتناول صورة مصر خلال هذه الفترة أو أى فترة أخرى.

وقد حرصت منذ تسجيلى هذا البحث على الاطلاع على كل ما توافر لدى من فهرس المطبوعات التركية سواء الموجودة بالكتبخانة الخديوية أو الخزانة التيمورية، أو تلك الفهارس التى أصدرتها وزارة المعارف التركية وهى كثيرة ومتوافرة بدار الكتب المصرية.

ولم يقتصر البحث على هذه الفهارس المتعددة فحسب، بل اعتمدت فى تجميعى لمؤلفات الرحالة الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة على ثلاثة مصادر مهمة:

١- فهرس المطبوعات العثمانية - عن محفوظات دار الكتب المصرية
إصدار دار الكتب.

٢- الفهارس الخاصة بمكتبة الأمير إبراهيم حلمى المهداة إلى جامعة القاهرة.

٣- الأمير إبراهيم حلمى وكتابه: التأليف عن مصر والسودان^(*).

ومن ثم، تَجَمَّع لدى ما تم تأليفه فى مجال الرحلة إلى مصر فى هذه المرحلة الزمنية. ولا أخفى ما لاقيناه من عناء ومشقة فى سبيل حصر هذه المؤلفات.

بالإضافة إلى أننى حرصت أيضاً على الاطلاع على كتب الرحلات التى قام أصحابها بزيارة مصر ضمن رحلة قاموا بها إلى إفريقيا أو آسيا، وقد وجدت بالفعل عدداً منها قمت بتجميعه ضمن البحث.

(*) The Literature of Egypt and The Sudan, Ibrahim Hilmi, Vol. 1.II.

هذا الكتاب به بيان بالمؤلفات التى ظهرت عن مصر منذ العصور القديمة وحتى سنة ١٨٨٥، وله ملحق لغاية سنة ١٨٨٧.

مدخل

أ. الرحلة في اللغة والاصطلاح ... ومفهومها في الأدب التركي:

الرحلة لغوياً: من رحل يرحل رحلاً، وارتحل و(تَرَحَّل)^(١).

ويقال ارتحل القوم عن المكان ارتحالاً، ورحل عن المكان يرحل، وهو راحل من قوم رُحُل، وصيغة المبالغة: رَحَّال، وقد تزايد التاء للمبالغة فيقال: "قُلالن رَحَّالَة"، والترحل والارتحال هو الانتقال، وهو: الرحلة والرحلة، والرحلة اسم للارتحال للمسير. ومشتقات المادة جميعاً تدور حول محور واحد هو الحركة، والرحلة في جوهرها حركة وانتقال، وهذه الحركة ذات هدف - وإلا كانت سفهاً - قد يتحقق وقد لا يتحقق، وسيتم في الحالتين كليهما اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجحة عن المخالطة، وبذلك يتم التقابل بين الرحلة في اللغة والرحلة في الاصطلاح، حيث يجمعها أنيما "حركة"^(٢).

وإذا ما انتقلنا إلى مفهوم الرحلة في اللغة التركية فإننا لا نجد اختلافاً كبيراً حيث يذكر شمس الدين سامي في قاموسه مشتقات هذه المادة بنفس المعنى، غير أنه أورد كلمة "رحلت" بمعنى الانتقال، وكذلك تعنى الوفاة^(٣).

ويستخدم الأتراك أيضاً كلمة عربية أخرى وهي "سياحت" بمعنى الرحلة، حيث يطلق مصطلح "سياحت أدبياتي" على أدب الرحلة وهناك أيضاً كلمة "سياح" كثير السفر والترحال.

(١) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، بيروت (دون تاريخ) ص ٢٣٧.

(٢) ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، القاهرة سنة ١٩٩٥، ص ٢٤، ٢٥.

(٣) شمس الدين سامي: قاموس تركي، در سعادت سنة ١٣١٧، ص ٦٦٠.

ولا يختلف مفهوم الرحلة كاصطلاح عن المعنى السابق، ويعرف أكاد سري (أحد مؤرخي الأدب التركي) كتب أدب الرحلات بأنها مؤلفات الرحلة المتعلقة بالجغرافيا، أو هي انعكاسات وانطباعات الرحلة بصورة مباشرة^(١).

بد أدب الرحلات التركية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر:

من المعروف تاريخيًا، أن الرحلة قديمة لدى الأتراك قدم هجراتهم منذ ظهورهم على مسرح الأحداث، فقد كانوا قوماً رُحَّلًا، عاشوا أولاً في جنوب سيبيريا، وفي التركستان، ثم توسعوا جنوباً، وغرباً، وأقاموا إمبراطوريات عدة في آسيا. وكان من الطبيعي أن تكون فتوحاتهم باعثاً رئيسياً على الرحلة، والاهتمام بوصف البلاد التي دخلت في حوزتهم، إلا أن النظرة العامة إلى تاريخ أدب الرحلات في الأدب التركي تقود إلى تعيين فترتين متميزتين:

الفترة الأولى: تبدأ بظهور كتب الجغرافيا والرحلات في القرن الخامس عشر، وتستمر حتى القرن السابع عشر.

وكان من الطبيعي أن تقع هذه المؤلفات تحت تأثير المؤلفات العربية والفارسية. فلم يكن ما ظهر منها في القرن الخامس عشر سوى ترجمات منقولة من القزويني^(٢) وابن الوردي^(٣)، أو ترجمات منقولة عن بطليموس^(٤) أي من اللغة اليونانية.

(1) Agah: Sırrı Türk edebiyatı. Tarihi. cilt 1; giriş. S. 157.

(2) كتابا القزويني (وهو زكريا محمد توفي سنة ٦٨٢ هـ / سنة ١٢٨٣م) هما "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" و "آثار البلاد وأخبار العباد". قد ترجما إلى اللغة التركية، انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد ٢٥، ص ١٤٧.

(3) هو ابن الوردي سراج الدين بن حفص قاضي عمر مظفر (توفي سنة ٧٤٩ هـ سنة ١٣٤٨م)، وكتابه "تنمة المختصر" انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد ٢ ص ٤٢.

(4) ترجمة كتاب بطليموس "مجسّتي" وهو يشمل معلومات جغرافية وفلكية. انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثاني مادة ترك، ص ١٥٢.

وفى القرن السادس عشر ظهرت مؤلفات مهمة بعد توسع أراضي الإمبراطورية العثمانية، وقد ترجمت مؤلفات القزويني، وابن الوردى للمرة الثانية فى القرن السادس عشر، ونقل "سبا هي زاده" كتاب أبى الفداء تقويم البلدان"، كما ترجم "شريف أفندى" كتب الأصطخرى^(١).

وترجم أيضا مؤلف على قوشجى فى الجغرافية الرياضية، والجغرافية المحلية، وكتب فى جغرافية مصر. وترجم لمراد الثالث فى أوائل القرن السادس عشر كتاب "جين سياحتنامه" الذى كتبه بالفارسية تاجر يدعى على أكبر خطايى فى إستانبول^(٢).

وكان من النتائج البحرية التى اتبعتها سياسة الإمبراطورية أن كتب ببرى رئيس عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٩م)^(٣) كتابه المشهور "بحرية" الذى يعطى معلومات حول طرق البحر، وحوادث المد والجزر، والمرافئ، والأماكن الصالحة لإقامة المرافئ الحديدية، والعواصف، والرياح، والبوصلة، والخريطة، معتمداً فى ذلك على العلم والتجربة، وكذلك اعتمد فى بعضه على أصحاب الخرائط القدماء مثل صفائى (توفى سنة ١١٩٦م)، كما اعتمد على الخرائط البحرية الإيطالية القديمة.

وبعد أن صارت الملاحة العثمانية قوة تجاوزت البحار الخارجية، والبعيدة ظهر من ناحية شعراء غنائيون ملأحون بين نوتية الأتراك الذين يذهبون إلى هذه البحار البعيدة، ومن ناحية أخرى فقد عكس هؤلاء الملأحون الأدباء، ومؤلفات الشعراء المنظومة بتعبيرات زمرة من الملاحين مثل "أكهى" (توفى سنة ٩٨٥)،

(١) الأصطخرى أبو إسحاق (ق ٤ هـ) يعد كتابه "مسالك الممالك" أول كتب الجغرافيا. انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثانى ص ١٢١.

(2) Nihad Sami Banarlı: Resimli Türk Edebiyatı Tarihü/ S. 621.

(*) ببرى رئيس: هو ابن الحاج محمد المقتول بمصر سنة ٩٦٢ هـ. وكتابه بحرية فى جغرافية البحر الأبيض المتوسط، وصف فيه المؤلف جزائر هذا البحر، ومساكنه ومراسيه بأشكالها بدقة وتفصيل، وأهداه إلى السلطان سليمان خان فى حدود سنة ٩٣٠ هـ.

عكس هؤلاء الحياة العامة للملاحة، وكانت عجائب الأحداث التي مروا بها، والحروب التي دارت في البحار البعيدة من المؤلفات التي يمكن أن تتدرج تحت فن أدب الرحلات^(١).

ومن أثار الحملات التي شنّها السلطان سليمان القانوني في البر أن ألف مطراقبي نصوح (توفي سنة ٩٤٥ هـ) كتابًا قيمًا يحوى رسومات مخططة، وصور الممرات وعدداً من المدن من إستنبول إلى تبريز ومن تبريز إلى إيران.

وكتب سيدي علي رئيسي (توفي سنة ٩٧٠ هـ)^(٢) كتابه المشهور "محيط" ذكر فيه محاولاته الفاشلة في بحار الهند (المحيط الهندي)، ويُعتبر كتابه الثاني "مرآة الممالك" أثراً مهماً أصيلاً حتى إن مؤرخي الأدب يضعونه في مقدمة كتب الرحلات^(٣)، ففيه من الأصالة والإبداع أكثر مما في الأول، وأيضاً يُعدُّ كتاب "مناظر العوالم" لمحمد عاشق الطرابذني (توفي سنة ٩٩٨ هـ) الذي أتمه في نهاية هذا القرن أثراً مهماً في الجغرافيا، إذ يعطي معلومات جديدة، وقيمة عن الممالك العثمانية، وعلى الرغم من أن هذا المؤلف يعد ترجمة شاملة وافية لمصادر العصور الوسطى مثل "تقويم البلدان" فإنه ذو قيمة كبيرة لاحتوائه على معلومات مهمة تعتمد على مشاهدة المؤلف نفسه للممالك العثمانية أو رؤية الآخرين^(٤).

(1) Nihad Sami Banarlı: Resimli Türk Edebiyatı Tarihi, S. 618-621.

(*) سيدي علي رئيسي: من مشاهير الأدياء وقد برز اسمه في عالم الرياضة والبحرية أيضاً، تخلص في أشعاره بكاتبتي. عين سنة ٩٦١ رئيساً على أسطول السويس في عهد سليمان القانوني، إلا أنه تعرض لعاصفة أغرقت معظم السفن، حينئذ عاد إلى بلده، وتوفي سنة ٩٧٠ هـ، انظر قاموس الأعلام مج ٤ ص ٢٧٤٦.

(2) Ahmet Kapaklı: Türk Edebiyatı Tarihi, Cilt I, S. 567.

(3) Nihad Sami Banarlı: a. g.e. S. 721.

كما ترجم "محمد يوسف الهروى" (توفى سنة ١٠١١ هـ) (*) عن إحدى اللغات الأجنبية كتاب "تاريخ هند غربى" سنة ١٥٨٣، وقدمه إلى مراد الثالث، ويقدم فيه معلومات عن أحوال العالم الجديد، وتاريخه^(١).

ولا ينبغي أن نغفل ذكر المؤلف الذى كتب بالتركية الشرقية فى هذا القرن أيضاً، وهو "بابور نامه"^(٢).

ويطالعنا فى القرن السابع عشر العديد من المؤلفات فى هذا المجال، ومن أهمها ما كتبه كاتب جلبى (١٠٠٠-١٠٦٧ هـ) (***) "تحفة الكبار فى أسفار البحار".

وهناك أيضاً كتاب "سياحتنامه" أوليا جلبى^(***). وتعد رحلته أهم رحلة إلى مصر فى العصر العثمانى، وقد تجول فى القاهرة وتحدث عن القلعة مقر إقامة

(*) محمد يوسف الهروى: وهو من مشاهير العلماء، ألف قاموساً فى العلوم اسمه "بحر الجواهر"، انظر قاموس الإعلام، المجلد ٦، ص ٤١٩٥.

(1) Nihad Sami Banarlı: a. g. e.s 721.

(2) Ahmet Kapaklı: a. g.e.s 567.

(**) كاتب جلبى: وهو الحاج مصطفى بن عبد الله ويعد من مشاهير العلماء العثمانيين. ولد فى إستانبول سنة ١٠٠٠ هـ، داوم على تحصيل دراسته فى مختلف العلوم. له العديد من المؤلفات أشهرها تحفة الكبار فى أسفار البحار وكشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون. توفى سنة ١٠٦٧ (انظر قاموس الإعلام المجلد الخامس، ص ٣٨٠٦).

(***) أوليا جلبى: كان والده درويش محمد جواهرى قويمجى باشى البلاط السلطانى، وكان فى معية السلطان سليمان القانونى فى أكثر من حملة عسكرية، وتوفى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨م، ولد أوليا عام ١٠٢٠ هـ = ١٦١١م. وظهرت لديه منذ البداية ميول علمية، وفى عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٦م كان حافظاً بمسجد آيا صوفيا، وقد اجتذب اهتمام السلطان مراد الذى ضمه إلى حاشيته، ثم التحق بالجيش النظامى برتبة سباهى، إلا أنه بدأت منذ تلك اللحظة تتبلور اتجاهاته كرحالة، فبدأت أسفاره منذ عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١. وأخذ يتجول فى نواحى القسطنطينية والمواضع المحيطة بها، ثم ساقته أسفاره إلى بلاد الفرس والقوقاز وبغداد وسوريا ومكة ومصر وجنوبى روسيا والأفلاق والبوسنة والنمسا والمجر وأعماق ألمانيا، وأخر تاريخ يذكره فى وصف أسفاره هو عام ١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨م، ولهذا يفترض أنه قد توفى عقب ذلك بقليل وذلك فى عام ١٠٩٠ هـ = ١٦٧٩م.

الوالى العثمانى ومصنع البارود بها، وعن جوامع القاهرة ومدارسها وتكاياها وحماماتها ومقاهيها، ويتحدث أيضا عن المهن التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت، فيذا الكتاب - بصفة عامة - قد تناول الحياة الاجتماعية فى مصر فى تلك الفترة من جميع مناحيها.

كما ظهر فى هذا القرن أيضا أول كتاب من طراز "سفارتنامة" (كتب السفارة)، وكتب السفارة هى المؤلفات التى ألفها السفراء الذين أرسلوا إلى عواصم الدول الأجنبية، ويشمل معظمها الأحداث والوقائع التى جرت فى تلك البلاد ووصف أحوالها حال اضطلاعهم بوظائفهم الرسمية.

الفترة الثانية: وفيها اتجه الرُّحَلْ غالبا صوب أوروبا، وذلك فى الفترة من القرن الثامن عشر، حتى القرن التاسع عشر، وكثرت خلالها الرحلات عند الأتراك، وتنوعت بتنوع أسبابها، ودوافعها السياسية، والدينية، والسياحية، فقد كثر عدد السفراء الذين أرسلوا إلى خارج الإمبراطورية العثمانية بوظائف السفارة الرسمية خلال القرن الثامن عشر، إذ أرسل ما يقرب من أربعمئة سفير سياسى إلى بلاد إيران، والنمسا، وروسيا، وبولندا، وفرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وإسبانيا، والسويد، وبروسيا، والمغرب، وأوزبكستان، والهند، وكان هؤلاء يقدمون تقاريرهم للدولة عن الوقائع الجديرة بالذكر، وغالبا ما تحوى فى جزء منها تقارير سياسية تماما، حيث يخبرون فيها بأنهم قد أدوا المهمة التى كُلِّفوا بها. وقد لجأ بعضهم إلى تأليف هذا النوع من كتب السفارة، نظما، ومهما يكن من أمر الصعوبات التى كان يواجهها أولئك السفراء فى التعريف بالبلاد التى يذهبون إليها، وتعرف نواحيها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، فإن هذه الرسائل تعد أول النماذج المهمة بعد أوليا جلبى فى أدب الرحلات التركى، حيث توضح لنا كيفية رؤية التركى العثمانى لهذه البلاد، ومدى تقبُّله لحضارة الغرب، ودقة ملاحظاته عنها.

ومن ناحية أخرى، ازداد شغف تدوين مذكرات الرحلة بين الكتاب الذين تجولوا في أوروبا وغيرها من البلاد، ومن أمثال نامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨)^(*) الذى ألف "رسالة لندن" التى توضح مدى ثروة لندن وعظمتها، وضيا باشا (١٨٢٩ - ١٨٨٠)^(**) وسامى باشا سزائى (١٨٥٨ - ١٩٣٦)^(***) وعبد الحق حامد (١٨٥٢ - ١٩٤٧)^(****) ومعلم ناجى (١٨٥٩ - ١٩١٨)^(*****) وأحمد مدحت

(*) نامق كمال: ولد نامق كمال فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٤٠، قام جده عبد اللطيف باشا - وهو من عليّة القوم - برعايته وهو صغير بعد فقده أمه، وبعد أن أتم تعليمه الأول فى إستانبول سافر هو وجده إلى "قارص" و "صوفيا". وفى سنة ١٨٥٧ عاد إلى إستانبول، وبدأ ينظم الأشعار فى تلك الفترة ثم عمل فى جريدة "تصوير أفكار" وانضم إلى مؤسس جمعية العثمانيين الجدد .. كتب العديد من المسرحيات فى الفترة من سنة ١٨٧٣، وفى أوائل حكم السلطان عبد الحميد كان نامق كمال ضمن الهيئة التى أعدت القانون الأساسى. توفى فى سافز فى الثانى من ديسمبر سنة ١٨٨٨ بعد أن قدم نماذج ناجحة فى كل من الفنون الأدبية. تعرض خلال حياته للنفى عدة مرات، منها إلى باريس سنة ١٨٦٧.

(**) ضيا باشا: (١٨٢٩ - ١٨٨٠): بعد أن أتم تعليمه الأول فى إستانبول عُيّن موظفاً فى قلم من أقلام الصدارة، ثم التحق بوظائف إدارية فى إستانبول وخارجها، وفى سنة ١٨٧٦ هرب إلى باريس، حيث قام بترجمة بعض الأعمال الفرنسية، ثم عاد إلى إستانبول سنة ١٨٧١ حيث عمل كاتباً فى الباب العالى فى عهد السلطان مراد الرابع، وفى عهد السلطان عبد الحميد منحه حنيا باشا رتبة وزير، وأرسل إلى سورية واليًا عليها، ثم انتقل إلى ولاية قونية، وبينما كان واليًا على أطنّة توفى سنة ١٨٨٠ ودفن بها.

(***) سامى باشا: (١٨٥٨ - ١٩٣٦): ولد سزائى فى إستانبول، والده من رجالات الدولة العثمانية. تلقى تعليمه الأول على يد والده الذى كان ملماً بأدب العصر. وفى سنة ١٨٨١ عمل كاتباً فى سفارة لندن لمدة ثلاث سنوات، وفى سنة ١٩٠١ انضم إلى جمعية الشبيبة التركية وترك إستانبول إلى باريس. وفى سنة ١٩٠٩ عين فى سفارة مدريد وبعد أن بقى فيها ١٢ عاماً تركها حين بلغ سن التقاعد، توفى سنة ١٩٣٦، وله العديد من المؤلفات الأدبية.

(****) عبد الحق حامد: ولد فى إستانبول سنة ١٨٥٢ وهو ابن خير الدين أفندى (من مؤرخى العصر. ومن رجال الدولة)، أتم تعليمه فى إستانبول ثم سافر إلى باريس سنة ١٨٦١ والتحق بإحدى كليّاتها، ثم عاد إلى إستانبول والتحق بالكلية الأمريكية وعين سنة ١٨٧٦ كاتباً فى سفارة باريس. اشتغل بالأدب، وفى أثناء إقامته بباريس عامين ونصف عام تابع كتاباته الأدبية. عمل عبد الحق حامد مستشاراً فى سفارة لندن وسفارة بروكسل، وانتخب عضواً فى البرلمان التركى بعد إعلان الجمهورية. توفى فى الثالث عشر من أبريل سنة ١٩٤٧.

(*****) معلم ناجى: ولد فى إستانبول سنة ١٨٥٩، وهو ابن سروجى، واسمه فى الأصل عمر، عين فى وزارة الخارجية، وعمل بالتدريس فى كل من مكتب حقوق، وسلطانية، وغلطة سراي، كما عمل بتدوين الوقائع فى عهد السلطان عبد الحميد. قام بترجمة العديد من المؤلفات الفرنسية على الرغم من أنه لم يتعلم الفرنسية إلا متأخراً، فقد كان معلم ناجى واحداً من المؤيدين للأدب القديم بكل صدق وإيمان وقضى عمره متافعاً عن هذا الأدب.

(١٨٤٤ - ١٩١٣م) (١٠) الذى ألف كتاباً اسمه "جولة فى أوربا" (أوربا ده برجولان) سنة ١٨٨٩، بعد حضور مؤتمر المستشرقين فى استكبولم سنة ١٨٨٩، كما ألف رواية أخرى بعنوان "تركى فى باريس (باريس ده برتورك) ويعد سعد الله باشا (توفى سنة ١٣٠٩ هـ) (١١) من بين أدباء عصر التنظيمات وألف أول النماذج الأدبية لفن الرحلة، وصف خلاله بطريقة موضوعية أوربا، حيث ألف كتابين وصف فى أحدهما قصر شارلوتبرج وفى الآخر معرض باريس سنة ١٨٧٨م.

وكانت الأغراض الدينية من الدوافع للرحلة فى هذا العصر أيضاً، حيث ألف بعض رجال الدين الإسلامى كتباً فى هذا المجال، ومن أبرزها "رحلة من إستانبول إلى آسيا الوسطى" (= استانبولدن اسيايى وسطاية سياحت) الذى نُشر مسلسلاً سنة ١٨٧٨م فى ترجمان حقيقت للرحالة محمد أمين أفندى (توفى سنة ١٨٩٨) وتحدث فيه عن آسيا الوسطى فقط، وأيضاً ألف أحمد حمدى أفندى (توفى سنة ١٨٨٦) كتابه "رحلة الهند وأفغانستان" (= هندستان وأفغانستان سياحتنامه سى).

وأيضاً كتاب "رحلة إلى برازيليا" (= برازيليا سياحتنامه سى) للسيد بكر أفندى (توفى سنة ١٨٩٥) وهى من الرحلات التى نفذت لأغراض دينية،

(١٠) أحمد مدحت: ولد فى إستانبول سنة ١٨٤٤ لتاجر صغير، تلقى تعليمه الأول فى ویدن سنة ١٨٥٤ إلا أنه ترك المدرسة قبل إتمام التعليم. وبعد أربع سنوات سافر إلى نيس، وهناك أتم تعليمه الابتدائى، ثم عمل فى قلم المراسلة بولاية طونة سنة ١٨٦٤. وتولى رئاسة العديد من الجرائد. وفى سنة ١٨٧٨ أصدر جريدة "ترجمان حقيقت"، التى ساعدت على اتساع صيته وشهرته. وبعد سنة ١٩٠٨ اشتغل بتدريس تاريخ العالم وتاريخ الأديان فى جامعة إستانبول حتى توفى فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٢.

(١١) سعد الله باشا: من الوزراء العثمانيين، كان يجيد اللغة الفرنسية، ولهذا عين مستشاراً للثقافة ومترجماً فى الديوان الهمايونى فى عهد السلطان عبد العزيز، وبعد ذلك عين رئيس كتاب ما بين الهمايون. وفى النهاية عين فى سفارة فيينا برتبة وزير، توفى سنة ١٣٠٩ مسموماً فى فيينا. انظر ص ٢٥٧٠ المجلد الرابع.

ويشير أحد مؤرخي الأدب التركي^(١) إلى أن الفترة ما بين ١٨٨٣ و ١٩٠٨ من الفترات التي كان السفر فيها خارج تركيا محظوراً، بل كان يحظر التجول داخل البلد إلا بالإذن، خصوصاً أنه لم يكن من الممكن الوصول إلى إستانبول على الإطلاق، لذا لم تكن الظروف تسمح بانتشار الرحلة خلال هذه الفترة، غير أنني لا أتفق مع هذا الرأي، فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت مكبلة بمشكلاتها الداخلية والخارجية في تلك الفترة، فإن الرحلة قد تنوعت دوافعها ومجالاتها.

ويعضد هذا الرأي كتبُ الرحالة الأتراك التي ظهرت في تلك الأثناء، والتي هي محل دراستنا.

جـ- أهم الرحلات التركية إلى مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

(أ) الرحلة التركية (موضوع الدراسة) إلى مصر: أنواعها ودوافعها:

إن كانت الرحلة تسفر عادة عن تحقيق أهداف متعددة، فإن كتابات الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد اتسمت بتعدد المجالات التي تطرق إليها مؤلفوها من خلال رحلاتهم، ويمكن أن نقسم نتائجهم حسب طريقة تدوينهم إلى قسمين أساسيين:

١- القسم الأول أن بعض الرحالة الذين نتناول أعمالهم في هذه الدراسة (مثل محمد عزت ومحمد محسن) لم يكن هدفهم الرئيسي الرحلة في حد ذاتها، قدر اهتمامهم بوضع مؤلف في تقديم البلدان ومن الطبيعي أن يكون هذا هو الغرض من كتابة الرحلات، ولقد تنقل بنا كل من محمد محسن ومحمد عزت في قارة إفريقيا، وقد جذبهما أمر النظر والتحقيق

(١) إسماعيل حبيب: تورك تجداد أدبياتي. إستانبول سنة ١٣٣٤، ص ٢٣٤.

فى تلك القارة وعادة ما يصنّف مثل هذه الأعمال على أنه جغرافيا وصفية، إذ إنها تهدف إلى الوصف الجغرافى العلمى أساسا، مستخدمة منهج العلم وأسلوبه دون أن يكون لهذا الأسلوب خصائص أدبية، فيكون كل التركيز على توصيل المعلومات توصيلاً مباشراً، لا تراعى فيه النواحي الجمالية أو الذاتية.

والحقيقة أن ثمة علاقة تجمع بين الأدب والجغرافيا فى مثل هذا النوع من الدراسات - كما يوضح شوقى ضيف فى كتابه "الرحلات"^(١) - إما باعتبارهما صنوين وإما باعتبار الجغرافيا فرعاً من فروع الأدب، وصحيح أن كلا منهما يعتمد على الدراسة الميدانية التى تقتضى ثلاث عمليات رئيسية: المشاهدة والتسجيل والتفسير، ولكن التسجيل يفصل بين كتاب فى أدب الرحلة وآخر فى الجغرافيا الوصفية، وذلك التسجيل يتأتى - غالباً - فى صورتين:

فى الصورة الأولى يكون التسجيل فى كتاب يهتم صراحة بالرحلة، ويتناول بالفعل حديثاً يتناول كل ما يحرص الكاتب على تسجيله، وفى الصورة الثانية يكون التسجيل فى كتاب جغرافى يهتم صراحة بالجغرافية الوصفية، ويلتقط من حصاد الرحلة ما يناسب الصور الوصفية الجغرافية، فالجغرافى حين يدرس مكاناً يعتبره - غالباً - جماذاً أو مادة بحث منفصلة عنه، بينما يعتبره الرحالة كائناً حياً يتفاعل معه وينفعل به، يربط المكان وما عليه بنفسه ثم بالرفاق ليخرج لنا موقفاً أو تجربة تستحق الوصف.

وتكاد الصورة الثانية تنطبق على كتابى محمد عزت ومحمد محسن، ومعلوماتنا عن هذين المؤلفين شديدة الندرة، إذ لم يذكر فى أى من كتب تاريخ

(١) شوقى ضيف: الرحلات، دار المعارف ١٩٧٦، ص ٢٣.

الأدب التركي أو كتب التراجم التركية ولا نعرف عن أولهما (محمد عزت) سوى أنه من مترجمي الباب العالي^(١).

ويتناول مؤلفه "يكي أفريقيا" (إفريقيا الجديدة) - كما هو واضح من عنوانه - قارة إفريقيا من النواحي الطبيعية والسياسية والتاريخية ثم يتحدث عن خديوية مصر في ما يتجاوز العشرين صفحة، وقدم لنا في كتابه معلومات جديدة خاصة بالأحوال الجغرافية لخديوية مصر وأصول الحكم فيها، وكذلك، أوجز القول في وصف أوضاعها الاقتصادية من الناحية الزراعية والصناعية والتجارية، وبعد ذلك تناول البلاد الإفريقية الآتية:

١- السودان الشرقية.

٢- حكومة أوغندا.

٣- حكومة أوينور.

٤- الحبشة.

٥- الصومال.

(١) لم يذكر محمد ثريا الكثير عن محمد عزت في كتابه "سجل عثمانى"، حيث أوجز القول في المجلد الرابع، ولم يتعد الحديث عنه سطرًا واحدًا ذكر فيه أنه كان رئيس كتاب الباب العالي، ثم عين مترجمًا بعد ذلك. انظر: ص ٧٣١ من سجل عثمانى - المجلد الرابع مطبعة عامره إستانبول سنة ١٣٠٨ - ١٣١١. وقد قمت بتجميع مؤلفات محمد عزت (المتوفى سنة ١٩٣٩) من فيارس المطبوعات التركية، فوجدتها أربعة مؤلفات:

١- إداره بيئية: وهو مقرر على السنة الأولى لمدارس الرشدية بإستانبول سنة ١٣٣٠.

٢- علم حساب إستانبول سنة ١٣٢٠ هـ.

٣- علم جبر: بالاشتراك مع محمد أمين إستانبول سنة ١٣١٢ هـ. وهو مقرر على المدارس الإعدادية الصفين السادس والسابع، وصفحاته ٢٨٢.

٤- يكي أفريقيا: إستانبول استبان مطبعة سى سنة ١٣٠٨ هـ، وصفحاته ٢٣٥.

٦- زنجبار.

٧- ممتلكات ألمانيا في شرق إفريقيا.

٨- ممتلكات إنجلترا في جنوب إفريقيا.

٩- ممتلكات ألمانيا في جنوب غرب إفريقيا.

١٠- حكومة الكونغو المستقلة، البلاد البربرية، الصحراء الكبرى - السودان الوسطى.

أما محمد محسن فهو قنصل فوق العادة لمصر^(١)، وقد استفاد من فترة إقامته بمصر ونشر بها مؤلفه "أفريقيا دليلي" (دليل إفريقيا) ويمكن تقسيمه إلى:

١- وصف الأوضاع الطبيعية لقارة إفريقيا. من ص ٨ إلى ص ٢٧.

٢- التقسيمات السياسية لها، وتناول فيها البلاد الآتية:

أ- مراكش: من ص ٣٢ إلى ص ٣٦.

ب- الجزائر: من ص ٣٧ إلى ص ٤٣.

ج- تونس: من ص ٤٤ إلى ص ٥٧.

د- طرابلس الغرب: من ص ٥٨ إلى ص ٦٩.

و- مصر.

وقد خصص محمد محسن جزءاً كبيراً من كتابه للحديث عن مصر جاوز فيه خمسمئة صفحة، وهو يهتم بالجغرافيا أولاً باعتبارها المدخل الطبيعي لوصف

(١) ورد في فهرس المطبوعات التركية مؤلفان له، هما:

١- هيروغليف حروف بربرانية ترجمة سي لمحمد محسن.

٢- إفريقيا دليلي: لمحمد محسن بترجمته لى زاده: القاهرة مطبعة جريدة الفلاح سنة ١٣١٢.

البيئة المصرية التى تقع فيها أحداث التاريخ، فالصبغة الأساسية للكتاب هى الصبغة الجغرافية تليها الصبغة التاريخية ويعنى محمد محسن بوصف الأقاليم المصرية من النواحي الجغرافية والاقتصادية لمديريات الوجه القبلى والبحرى، من الناحية الزراعية والصناعية والتجارية.

٢- أما القسم الثانى من الرحلات التركية فى مصر، فهو تلك المؤلفات التى تتناول انطباعات أصحابها عن مصر، فيسجل الرحالة مشاهداته بدرجة من الصدق والدقة وجمال الأسلوب، وأول ما يطاتلنا من كتب أدب الرحلة إلى مصر فى تلك الفترة هو كتاب "يمن يوننده" للرحالة عبد الغنى سنى بك، الذى روى لنا فى مقدمة كتابه، وهى بعنوان "الظلمات السابقة، وحياة بلا هدف"، كيف كانت حياته خلال عصر الاستبداد، حيث عم الظلام واليأس، وفقد إحساسه بالحياة إلى حد أنه اعتبر نفسه شيئاً جامداً لا روح فيه، فلم تكن هناك أى مشروعات براقة فى عهد شبابه سوى أنه كانت تراوده فكرة كتابة سيرة حياته، ولكنه لم يستطع تحقيق هذا الأمل، فماذا عساه أن يكتب؟! وما الذى يمكن أن يقدمه للقراء من إفادة عن قراءتهم لسيرة حياته؟! حتى لو قدمت على شكل رواية أو قصة، بل إن حديثه عن حياته الوظيفية فى أثناء توليته وظيفة قائم مقام ثم انفصاله عنها، ودخوله فى عالم السياسة، كل ذلك غير مُجدٍ، فهو لم يكن يشغل أحد المراكز المرموقة حتى يمكن أن يقرأ ما سوف تكون عليه حياته مستقبلاً، فهو بالطبع مجهول، وقد محا عهد الظلم والاستبداد كل أمل للمستقبل.

هكذا.. يصور لنا عبد الغنى سنى بك أن فترة شبابه قد استولى عليها اليأس والفقر... ثم أتى عهد إعلان الحرية، فتجددت آماله، وغمرته السعادة والتفاؤل، حينذاك بحث لنفسه - وهو فى إستانبول - عن وسيلة لإثبات ذاته، فالتحق بجريدة

"الصباح" محرراً بها إلا أنه انفصل عنها بعد رابع شهر، ثم ذهب إلى سلاطيك وأراد إصدار جريدة هناك خاصة بنحو اللغة التركية، وأعد لها اسم "أجيق سوز" (الكلمة الواضحة)، إلا أنه لم يستطع تحقيق هذا الأمل، حيث لم يسعفه الحظ فقد كانت الطباعة باهظة التكاليف، مما جعله يفكر في أمره مرة أخرى^(١).

وبعد محاولات فاشلة للالتحاق بوظيفة حكومية في سلاطيك جاءه أخيراً تلغراف يفيد بأنه قد كُلف من قِبَل حسين حلمي باشا وزير الداخلية، بإدارة الشؤون التحريرية في ولاية اليم، وكان ذلك في ٦ ديسمبر كانون الأول سنة ١٣٢٤. وبعد تردد، قَبِلَ عبد الغنى سنى بك الوظيفة، بعد أن رآها فرصة لتحقيق أمله الذى تشعب إلى فرعين: فهو أولاً سوف يقوم برحلة تبدأ من سلاطيك حتى صنعاء باليمن، وثانياً: سوف تدوم مدة إقامته باليمن أكثر من سنتين وبهذا يمكن الاستفادة من هذه الرحلة بوضع مؤلف فى أدب الرحلات، يصف فيه كل ما صادفه خلال طريق ذهابه إلى اليمن^(٢). ثم يقدم انطباعاته عن فترة إقامته باليمن.

تحرك الرحالة عبد الغنى سنى بك من سلاطيك يوم الجمعة الموافق ٣٠ يناير/ كانون الثانى سنة ١٣٢٤، حيث استقل القطار المتجه إلى بيرة وأثينا، ومنها إلى الإسكندرية صباح يوم الثلاثاء ٣ فبراير/ شباط، حيث نزل بفندق فرنسا ومكث بالمدينة حتى يوم ٩ فبراير/ شباط، وصف خلالها كل ما رآته عيناه وبعد ذلك لحق بالقطار المتجه إلى القاهرة، واصفاً المحطات التى مر عليها، وفى القاهرة حل بفندق مرسدس، وحرص على أن لا يضيع وقته هباء، فهو لن يستطيع أن يمكث

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولده - إستانبول سنة ١٣٢٥ المقدمة.

(٢) ورد بفهارس المطبوعات التركية أربعة مؤلفات لعبد الغنى سنى بك:

١- يمن يولده: عبد الغنى سنى بك - إستانبول سنة ١٣٢٥، ص ١٩٨.

٢- يمنن عودت: عبد الغنى سنى بك بيروت سنة ١٣٣٠، ص ١٣٦.

٣- تاريخ مدنيت (قرون وسطى) عبد الغنى سنى بك سلاطيك سنة ١٣٣٠، ص ٢٤٧.

٤- تاريخ مدنيت (قرون أخيره) عبد الغنى سنى بك سلاطيك سنة ١٣٣٠، ص ٣١٢.

بالقاهرة أكثر من أربعة أيام، ولهذا تجول في شوارعها ووصف مقاهيها والقلعة وأصر على زيارة مسجد محمد علي، والعتبة الخضراء، وهليوبوليس (مصر الجديدة) واصفاً مبانيها وشوارعها، ثم زار المتحف، ووصف طابقه العلوى والسفلى، وزار الأهرام، ثم تطرق قليلاً إلى أحوال مصر السياسية والاجتماعية، وفي النهاية تحرك من القاهرة إلى السويس ثم إلى البحر الأحمر ثم واصل رحلته إلى اليمن^(١).

ويندرج كتاب "مصور مصر خاطراتي" لخالد ضيا^(٢) ضمن مؤلفات أدب الرحلة أيضاً، حيث يشير في مقدمة كتابه إلى أنه قصد مصر مكلفاً بمأمورية لم يشر إليها، واستغرقت فترة بقائه بها مدة لا تتجاوز أربعة أيام، وعلى الرغم من قصر هذه المدة فقد استطاع أن يقدم لنا معلومات دقيقة عن كل ما شاهده في مصر

(١) عبد الغنى سنن بك: المصدر السابق، المقدمة.

(٢) ولد خالد ضيا سنة ١٨٦٧، كان أبوه يحترف التجارة ويهوى الأدب، بعد أن أفلس تجارته فى إستانبول عاد إلى أزمير موطنه الأصلي فى سنة ١٨٧٩. وكان خالد قد بدأ تحصيله الأول فى إستانبول. بدأ اهتمامه بالرواية فى سن مبكرة. هجر خالد ضيا المدرسة دون أن يتم دراسته بها حتى يتسنى له مساعدة أبيه فى تجارته. ثم التحق بوظيفة فى البنك العثمانى، ثم عمل مدرسا للغة الفرنسية فى إعدادية أزمير. بدأ فى ترجمة الروايات الفرنسية، وفى سنة ١٨٨٤ أصدر عدة جرائد غير منتظمة الصدور: "توروز" و"خدمتى" و"هناك".

ومن خلالها نشر رواياته "سفيله" و "براولونك دفتري" وغيرها من الروايات. وفى سنة ١٨٨٩ ذهب لمشاهدة معرض باريس، وفى سنة ١٨٩٣ عمل رئيس المكتبة فى إدارة التنسيق فى إستانبول التى استقر مقامه فيها، ثم انضم إلى مجلة "ثروت فنون". وحقق شهرة كبيرة بعد أن نشرت رواياته "ماني وسياه" و"عشق ممنوع" ثم خاض خالد ضيا تجربة الكتابة المسرحية، وعين رئيسا لما بين السلطان محمد رشاد الخامس، ثم أستاذا لتاريخ الأدب الغربى وعلم الجمال فى جامعة إستانبول. ظل خالد ضيا يكتب بعض المقالات والأقاصيص حتى سنة ١٩٣٦، وتوفى فى ٢٧ مارس ١٩٤٥.

انظر: معالم الأدب التركى الحديث، كنعان آقيوز، ترجمة محمد هريدى وعزة الصاوى، القاهرة سنة ١٩٨٧، ص ١٣٢، ١٣٣.

وقسم موضوعات كتابه إلى ٣٥ بحثاً تعكس مدى حرصه على تنوع المادة التي جمعها، فشملت الموضوعات بعض النواحي الاجتماعية في مصر وآثارها، وشوارعها، ومناخها، وحدائقها، وميادينها، واحتفالاتها الدينية.

تحرك خالد ضيا من إستانبول يوم الثلاثاء الموافق ٦ يناير/ كانون الثاني سنة ١٣٢٤، ووصل إلى الإسكندرية يوم الجمعة من نفس الشهر عن طريق أزمير وبيرد، حيث استقل في نفس اليوم القطار الذي وصل إلى القاهرة بعد ثلاث ساعات وربع.

ويعد كتاب "حج يولنده" في طريق الحج لجناب شهاب الدين^(*) ضمن مؤلفات أدب الرحلة أيضاً. وكان جناب شهاب الدين قد دَوَّن في كتابه "حج يولنده" مشاهداته وملاحظاته وهو في طريقه إلى جدة، وهو مكتوب على شكل رسائل حيث سرد في كل رسالة الأحداث اليومية وانطباعاته، وقد قسمها إلى ست عشرة رسالة.

وسبب هذه الرحلة إرساله سنة ١٨٩٦ إلى جدة بعد أن رُقِّي إلى درجة مفتش صحي، وذلك في نفس الوقت الذي انضم فيه إلى مجلة "ثروت فنون"،

(*) ولد جناب شهاب الدين سنة ١٨٧٠، بعد أن أنهى دراسته الأولية والإعدادية في المدارس العسكرية في إستانبول التحق بكلية الطب حيث تخرج فيها سنة ١٨٨٩ برتبة نقيب. وفي سنة ١٩٩٠ سافر إلى باريس ليواصل دراسته العليا وأظهر ميلاً إلى الأدب في هذه الفترة وتعرّف الاتجاهات الأدبية الحديثة في باريس، وعند عودته انضم إلى مجلة "ثروت فنون" سنة ١٨٩٦ ومع ذلك لم يترك وظيفته كطبيب عسكري، بل ظل في وظيفته هذه طوال عشرين عاماً حتى استقال من عمله سنة ١٩١٤. وبعد هذا العام عمل مدرساً للترجمة الفرنسية في جامعة إستانبول. واصل جناب أبحاثه الأدبية ونشر أعماله الأدبية القديمة من حين إلى آخر حتى توفي في إستانبول في ١٣ فبراير سنة ١٩٣٤.

انظر: كنعان آقيوز: المرجع السابق ص ١٠٨، ١٠٩.

ولمزيد من التفصيل راجع "جناب شهاب الدين شاعراً بين التقليد والتجديد": سامية محمد جلال، رسالة ماجستير. جامعة القاهرة، سنة ١٩٩٧.

فنشر بها فى البداية هذه السىاحة الطويلة، على شكل رسائل متفرقة، كما أنها نشرت مسلسلة فى "تصوير أفكار" ثم جمعها فى كتاب "حجم يولنده" سنة ١٩٠٩، وطبع للمرة الثانية فى سنة ١٩٢٥م وتتلخص أحداث الرحلة فى ما يلى:

الرسالة الأولى: تبدأ الرحلة يوم الأربعاء، حيث ركب جناب شهاب الدين باخرة "القاهرة" من إسطنبول حيث سارت عبر بحر مرمره من حى اسكدار حتى عبرت آياستفانوس. حيث توقفت نصف ساعة أمام "جناق قلعة" واستمرت حتى وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط. سقط فى اليوم الأول من الرحلة.

الرسالة الثانية: جيت الباخرة فى اليوم الثانى إلى الجنوب الغربى من أجل . . . إلى جزر اليونان عبر البحر الأبيض.

الرسالة الثالثة: وصلت الباخرة إلى بيره، حيث توقفت فى أثينا لمدة ثلاث ساعات قرر فيها جناب شهاب الدين التجول خلالها.

الرسالة الرابعة: استقل جناب شهاب الدين القطار إلى أثينا، وشاهد جميع مبانيها المشهورة، وتجول فى شوارعها الكبيرة ثم عاد بالقطار إلى الباخرة مرة أخرى، حيث واصلت مسيرتها فى يومها الثالث (يوم الجمعة).

الرسالة الخامسة: وصلت السفينة إلى الإسكندرية فى اليوم الرابع، واستقل جناب عربة أوصلته إلى فندق بونار حيث استقر فى المدينة ثلاثة أيام قرر التجول خلالها.

الرسالة السادسة: طاف جناب فى اليوم الأول من إقامته فى الإسكندرية فى شوارعها، واتجه ناحية قناة المحمودية، وركب عربة تتبعت يمين ساحل القناة، وشاهد بحيرة مارة بؤتيس والميناء القديم ومعبد سيرابيس ثم عاد إلى الفندق.

الرسالة السابعة: قرر جناب فى اليوم الثانى إجراء جولة بسيطة للتنزه، فسار فى شارع بربارس، ثم ركب العربة ليتجول بين مصايف الرمله ورأى حدائق

المصايف، وبعدها توجه إلى سان استيفانو ثم عاد في المساء، وقضى ليلته مع رفيق طريقه حسين بك لمشاهدة راقصات مصر.

الرسالة الثامنة: استراح جناب في اليوم الثالث من إقامته بالمدينة، ثم ركب القطار متوجهاً إلى القاهرة.

الرسالة التاسعة: تجول في شوارع القاهرة وأسواقها ووصف المقاهي، وفي المساء زار حديقة الأزبكية وأقام في فندق شبرد، وقد كانت مدة إقامته بالقاهرة خمسة أيام.

الرسالة العاشرة: زار جامع محمد علي، ومتحف بولاق ثم أنهى التجول في حديقة شبرا ثم عاد إلى الفندق.

الرسالة الحادية عشرة: سار إلى الأهرامات وحاول تسلقها.

الرسالة الثانية عشرة: خصص جناب اليوم الثالث هذا منذ وصوله إلى القاهرة لزيارة مراقد الملوك والجوامع الشريفة واكتفى برؤية أربعة منها هي جامع عمرو وجامع أحمد بن طولون وجامع حسن وجامع الأزهر.

الرسالة الثالثة عشرة: قرر جناب قضاء اليوم الأخير من إقامته في القاهرة في مشاهدة القاهرة القديمة والمطرية.

الرسالة الرابعة عشرة: تجول جناب في نفس اليوم في شوارع القاهرة القديمة، ثم سار تجاه ميدان الأوبرا، وجلس في قهوة أمام فندق شبرد وبعد ذلك تجول جولة أخيرة في حديقة الأزبكية وعاد قبل الغروب لتجهيز حقيبة السفر.

الرسالة الخامسة عشرة: استقل القطار متوجهاً إلى السويس من محطة القاهرة فوصلها بعد غروب الشمس واستقر بفندق يسمى بلير.

الرسالة السادسة عشرة: قام بتجول بسيط داخل المدينة ثم عاد إلى الفندق وخرج بعدها ووصل إلى البحر.

الرسالة السابعة عشرة: عند حلول المساء ركب الباخرة، وفي اليوم التالي استيقظ مع وقفة الباخرة حيث صادفت السفينة كتلة حمراء تسببت في وقوفها، ثم انتهت إلى جبل الطور.

ويعد كتاب "السياحات كبرى" لسليمان شكرى^(*) من مؤلفات أدب الرحلة وهو نتاج عدة رحلات قام بها مؤلفها من الأناضول إلى أزمير وطرطوس وأطنة، ثم انتقل إلى بيروت ومنها إلى اليونان، وواصل رحلته إلى طهران وبلاد روسيا، وبعد ذلك اتجه إلى قارة إفريقيا، حيث زار تونس والمغرب والجزائر وليبيا ثم مصر.

وقد أفاض المؤلف في حديثه عن مصر، فتحدث عن الإسكندرية ووصف شوارعها، وكذلك مصر، ثم تناول بالتفصيل التقسيمات الإدارية لمصر، حيث تناول كل مديرية على حدة ووصفها من النواحي الزراعية والتجارية.

وكذلك يندرج كتاب "سودان سياحتنا" لمحمد ميري^(**) ضمن مؤلفات أدب الرحلة، حيث قام المؤلف برحلته في السادس من محرم سنة ١٣٢٧ (٢٨ يناير سنة ١٩٠٩) في معية البرنس يوسف كمال. حيث تحرك من محطة مصر متوجهاً إلى السودان، وخلال هذه الرحلة كتب عن مباني مصر القديمة وآثارها العتيقة وموقع مصر وجبالها وأنهارها ومناخها وأحوالها الزراعية، حيث أفاض في الحديث عن النواحي الاقتصادية.

(*) لم يستطع الباحث الحصول على أي معلومات عن سليمان شكرى سوى أنه كان ملحقاً لدى الباب العالي.

(**) محمد ميري هو من مترجمي قلم الترجمة الخارجية للباب العالي.

وبعد ذلك اتجه إلى الشلال الأول في النيل ومنه إلى وادى حلفا. وبعد زيارته للسودان عاد إلى مصر عن طريق السويس، فقدم لنا معلومات تاريخية وواصل طريقه إلى الإسكندرية شارحاً بعض الجوانب التاريخية لهذه المدينة، وتحدث عن قناة المحمودية وتاريخ فتحها وكذلك منارة الإسكندرية، ثم توجه إلى القاهرة، حيث زار المطرية، وقدم شرحاً لبعض أحوالها التاريخية.

منهج كتابات الرحالة الأتراك (موضع الدراسة):

بعد أن استعرضنا كتابات الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يتضح مدى ثراء مادة الرحلة التركية من حيث الشكل والمضمون.

ويتحكم فى شكل الرحلة طريقة التدوين، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الرحالة الأتراك إلى قسمين:

١- منهم من اعتمد على المادة المدونة فى أثناء الرحلة، بالإضافة إلى الذاكرة والقراءات السابقة؛ ويمثله معظم رحالتنا (محمد محسن، ومحمد عزت، ومحمد مهرى، وجناب شهاب الدين، وخالد ضيا).

٢- ومنهم من أراد أن ينتظر حتى تنتظم رحلاته جزءاً كبيراً منها ثم يشرع بعدها فى تدوين نتائج هذه الرحلات، ويمثل هذا الاتجاه سليمان شكرى.

ونلاحظ أيضاً اختلاف المناهج التى اتبعوها فى تدوين رحلاتهم:

(١) فمنهم من اتخذ شكل الرسائل مثلاً فعل جناب شهاب الدين فى رسائله التى حرص على أن يصدرها بتحديد المكان الذى يكتب عنه.

(٢) ومنهم من تتبع رحلته على أرض الواقع فى تسلسل يضمن ليا تماسك البناء وسلاسته، وهم قسمان:

أ- أحدهما يهتم بوصف المكان وصفاً خارجياً باحثاً ومستقصياً ومدعماً بالأرقام والإحصاء، كما فعل محمد محسن ومحمد عزت.

ب- والآخر وصف المكان وصفاً ذاتياً من خلال تفاعله معه. ويمثل هذا الاتجاه سليمان شكرى وجناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك.

(٣) ومنهم من قام باختيار موضوعات بعينها واصفاً من خلالها المكان مثل خالد ضيا الذى اتخذ منهجاً علمياً فى تتبعه لهذه الموضوعات التى جاءت متسقة مع هدفه الرئيسى من الرحلة.

البنية:

تكاد كتب الرحالة الأتراك تتشابه فى اتخاذ البنية النمطية فى كتاباتهم، وهى تلك البنية التى تتبع نمطاً معتاداً من صورة الرحلة الواقعية، وهى تتكون من أربع وحدات:

أ- المقدمة أو التمهيد.

ب- رحلة الذهاب.

ج- وصف هدف الرحلة.

د- رحلة العودة.

وقد اتخذ هذه البنية كلٌّ من عبد الغنى سنى بك وجناب شهاب الدين ومحمد مهرى وسليمان شكرى.

أما باقى رحالتنا الأتراك، فقد استندوا فى رحلاتهم إلى البنية المحورية، أى تلك البنية التى تهتم بتحديد محاور بعينها يهتم بها الرحال، وهى أشبه بالبحث العلمى، وتتنطبق على محمد محسن ومحمد عزت وخالد ضيا، وقد عرضها كل من محمد محسن ومحمد عزت فى شكل مباشر، أما الأخير فقد قدمها من خلال إطار ذاتى واضح.

الأسلوب:

وينقسم الرحالة عادة من حيث الأسلوب إلى صنفين:

١ - صنف حرفته الفن أو الأدب أو له صلة به.

٢ - صنف لا يمت إلى الأدب بصلة، ولكن الرحلة تحفزه على الكتابة.

ولكن لا بد لنا أن نعرف أن القيمة الأدبية لكتب الرحلات - كما يذكر أحد الباحثين - تتجلى في ما تُعَرِّض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني^(١).

وقد تنوعت أساليب كتابات الرحالة الأتراك من أسلوب الوصف والتسجيل (مثل محمد محسن ومحمد عزت وخالد ضيا وسليمان شكرى) إلى السرد القصصى (مثل جناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك ومحمد مهرى).

ومن ناحية المضمون، فإن من المعروف أن أدب الرحلة وعاء لكل مضمون. ومضمون الرحلة بالتأكيد هو مضمون الحياة. غير أن هناك من يقسم طوابع المضمون هذه إلى العديد منها: الطابع الموسوعى والمعرفى والوثائقى والكشفى والفردى والإنسانى والشعبى والجمالى والنقدى والفكاهى^(٢).

وإذا كان كل واحد من رحالتنا الأتراك قد قدم لنا معلومات فى فرع بعينه، مركزاً على فروع علمية بعينها، فإن ذلك ينتج عن تخصص كل منهم وخبراته السابقة.

وعلى هذا الأساس، فإن كتابات الرحالة الأتراك قد تنوعت الطوابع المضمونية فيها فشملت تقريباً كل الأنواع السابقة.

(١) حسنى محمود حسن: أدب الرحلات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٦، ص ١٠.

(٢) انظر نامر عبد الرازق موافى: الرحلة فى الأدب العربى، القاهرة ١٩٩٥ ص ٤٨.

الباب الأول

علاقة مصر بالدولة العثمانية

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

- الفصل الأول: إطلالة على علاقة مصر بالدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.
 - الفصل الثانى: الحالة السياسية فى مصر كما صورها الرحالة الأتراك.
 - الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية للمصريين كما رآها الرحالة الأتراك.
- أ- الزراعة.
- ب- الصناعة.
- ج- التجارة.

الفصل الأول

إطلالة على علاقة مصر بالدولة العثمانية
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

(أ) علاقة مصر بالدولة العثمانية منذ تولية محمد علي حكم مصر سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م:

ارتبطت مصر بالدولة العثمانية أربعة قرون، فمنذ أن فتحها السلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧ م وحتى سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٣ م، ومصر ولاية عثمانية، وإن اختلف وضعها القانوني^(١).

يجدر بنا أن نتحدث عن علاقة مصر بتركيا، منذ بداية القرن التاسع عشر، حيث شهدت مصر قدوم الحملة الفرنسية بما نجم عنها من آثار تتلخص في هز دعائم الحكم العثماني، وإتاحة الفرصة لإبراز الكيان المصري من خلال المقاومة الشعبية، التي قادتها زعامات مصرية، لعبت دوراً بارزاً في توجيه الأحداث التي جرت في السنوات الخمس التي أعقبت خروج الحملة، واستطاعت أن تفرض على الدولة والياً اختارته، ونصّبته بإرادة الشعب.

بقيت على المسرح السياسي بعد رحيل الفرنسيين عن مصر ثلاث قوى مختلفة: العثمانيون أصحاب حق السيادة على البلاد، والمماليك الذين كانوا يتطلعون إلى استعادة ما كان لهم من نفوذ قبل الحملة ولكنهم كانوا أضعف من أن تقوم لهم قائمة، وإنجلترا التي بدأت أطماعها تستيقظ نحو مصر منذ خروج الفرنسيين عن مصر، فأرسلت حملتها المعروفة باسم "فريزر" بعد ست سنوات من خروج الحملة الفرنسية^(٢) أي في عام ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦م، وقد لقيت خاتمها القاسية على يد المصريين في رشيد بينما كان محمد علي يحارب المماليك ويطاردتهم.

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف، مصر سنة ١٩٦٩، ص ٦٥.

(٢) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، رسالة ماجستير، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٠.

تولى محمد على باشوية مصر فى عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥م كوال عثمانى شأنه فى ذلك شأن الولاة الذين كان يرسلهم السلطان إلى مصر لينوبوا عنه فى حكمها. ولم يكن يستطيع وهو فى هذا المركز أن يكون لنفسه سياسة خارجية خاصة، كان محروماً من حق الاتصال، فلم يكن له من يمثله فى العواصم الأوربية^(١). وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع محمد على أن يرسم لنفسه سياسة خاصة مستغلاً الأحداث الجسام التى ألمت بالدولة العثمانية، كإلغاء الإنكشارية، وثورة كريت، والمورة، والحرب مع روسيا، لتحقيق أغراضه التوسعية، فلم يكن ليسارع إلى نجدة الدولة العثمانية كلما أعزتها القوة الحربية، إلا بعد أن يحصل على الوعود الكافية التى ترضيه، فاستطاع الحصول على ولايتى كريت والمورة، وأكثر من ذلك، فقد أغراه هذا الضعف بالاستيلاء على عكا سنة ١٢٤٧ هـ، وعلى هذا بدأت الحرب بينهما، فاستطاع خلالها جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا الاستيلاء على حلب وأدنة وهزم الجيش العثمانى بجوار قونيه، فى رجب سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٠م، ووصل إلى كوتاهية فى طريقه إلى إستابول، وهناك عقدت معاهدة بينه وبين الدولة العثمانية مباشرة تركت لمصر بموجبها سوريا وأدنة. ولمواجهة هذه الظروف عقدت الدولة العثمانية مع روسيا فى صفر سنة ١٢٤٩ هـ / يوليو سنة ١٨٣١ م اتفاقية "هناك أسكله سى" وقد وضعت روسيا والدول الأوربية الكبرى صورة مشروع تسوية للمسألة المصرية، يقضى بأن يلى محمد على سورية وحلب وأدنة بالإضافة إلى مصر، وبأن يلى إبراهيم باشا كريت، وجدة ولكن محمد على لم يفتح بهذا الكسب، وطالب بأكثر من ذلك^(٢). والواقع أنه كان يحاول ابتلاع تركيا كلها، إلا أنه لم يقدر له ذلك، فقد انهزم الجيش المصرى فى سوريا، وأرغمته الدول الكبرى على الدخول فى طاعة الدولة، وصدر فرمان عالٍ (أطلق عليه اسم فرمان الوراثة) فى ثانى ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ هـ / سنة

(١) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ٢١.

(٢) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٦٥.

١٨٤١م بتعيينه واليا على مصر بشروط، منها أن ينسحب من كل البلاد التي دخلها، وأن يدفع الجزية، ونص أيضا على أن تكون الولاية وراثية في أكبر أولاده، وفي مقابل هذا الامتياز زيدت جزية مصر^(١)، ويعد هذا فرمان من الناحية القانونية "ميثاقا دوليا" لا يصح أن يعدل السلطان في أجزائه بمحض إرادته، وإنما يجب استشارة الدول التي أسهمت في التسوية، والحصول على موافقتها قبل ذلك.

ولقد أصبحت مصر في ظل التسوية ولاية عثمانية ممتازة^(٢)، إلا أن هذا الامتياز لم يمنح لمصر، وإنما منحه لشخص محمد على وأسرته، وعلى ذلك فإن الوضع القانوني لمصر بعد التسوية ظل كما كان من قبلها تحت السيادة العثمانية، لقد استطاع محمد على آخر الأمر أن يحتفظ بمصر لأسرته، ولكن السلطان استطاع أن يحتفظ بحقوق سيادته على مصر. وعلى ذلك لم يتوفر لمصر مظهر الاستقلال الخارجي، بل إنها فقدت استقلالها الداخلي أيضا، والأدهى أنها أصبحت خاضعة للالتزامات الدولة العثمانية وعليها أن تجاريها في علاقاتها الخارجية، وهكذا كانت من هذه الناحية تابعا لها.

طبيعة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية بعد التسوية في أواخر عهد محمد علي وحكم إبراهيم:

وقد تلت التسوية محاولات من الجانبين لتحسين العلاقات، خصوصا بعد أن استطاع محمد علي أن يكتسب أنصارا له في الحكومة التركية، وأصبح السلطان

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٦٥.

(٢) لم تكن مصر هي الولاية العثمانية الممتازة الوحيدة، فثمة ولايات عثمانية ممتازة أخرى في تركيا وأوربا، كاليونان، والأفلاق، والبيدنان، وبلغاريا، إلا أن هذه الولايات كانت تتمتع باستقلال داخلي تام. انظر: محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ٢٩، ٣٠.

عبد المجيد^(*) يستشير في ما يعود على الدولة بالنفع، إلا أنه على الرغم من هذا فقد كان ظاهر العلاقات الود والصفاء، وباطنها الشك والرياء، فكانت الدولة تتشكك في نيته، وتتوقع من حين إلى آخر أن يثور ثورة أخرى، فعملت على تقليص أظافره، وتضييق القيود التي قيدته بها، وظل والى مصر على هذا الوضع بين شكوك العثمانيين، وأطماع الدول الأوروبية التي استطاعت أن تضيء الشرعية على تدخلها في شؤون مصر باعتبارها الحامية لأوضاعها باسم التسوية، وحاول محمد على اصطناع الحذر، والحزم في التعامل معها، وعدم الاصطدام معها. حتى لا يتهم بخرق شرط من شروط التسوية^(١).

وحينما مرض محمد على التمس إبراهيم نفسه من السلطان أن يعزل أباه ويعهد إليه بالولاية، لأنه أصبح غير صالح للحكم، وتعد هذه سابقة في مصلحة السلطان لأنها اعتراف صريح بحقه في عزل والى مصر إذا كان غير صالح للحكم، وبحقه في تعيين وال آخر في حياة الباشا المعزول. ولم يستطع إبراهيم في مدة حكمه القصيرة (شهر ونصف الشهر) أن يزيل الشكوك التي كانت تعكر صفو العلاقات بين مصر والباب العالي.

(*) السلطان عبد المجيد: ولد سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م وجلس عام ١٢٥٥ هـ / ١٨٤٠م، وعقيب جلوسه أقام خسرو باشا صدرًا أعظم، فلم يستطع أن يستميل إليه كبار رجال الدولة فوقع النفور بينه وبينهم، وحينئذ أقال السلطان من منصب الصدارة خسرو باشا وعين مكانه رشيد باشا الذي بدأ في إجراء التنظيمات، ثم أصدر منشورًا تضمن إجراء العدالة ورفع المظالم، تلاه في الكليخة بحضرة السلطان وشيخ الإسلام والوزراء العظام وسائر العلماء، وبعد ذلك سعى في حسم مسألة مصر. فأنهاها كما يوافق مصالح الدولة. وفي عهده أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية عام ١٣٧٠ هـ / ١٨٥٥م، إلا أن إنجلترا اتحدت مع فرنسا وساردينيا مع الدولة العلية، ووقفوا الروس عند حدودهم. توفي السلطان عبد المجيد في عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٢م، انظر تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف أضاف، الجزء الثاني، دمشق سنة ١٩٨٥، ص ١٥٩.

(١) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ٥٦.

عباس الأول وأزمة التنظيمات ١٢٦٥-١٢٧١ هـ/ ١٨٤٨م-١٨٥٤م

تولى عباس حكم مصر سنة ١٢٦٥ هـ، وحرص فى البداية أن يوثق علاقته بالدولة العثمانية، ودل على حسن نياته بتخفيض عدد الجيش المصرى إلى الحد الذى يطمئن إليه السلطان، كما وعد بوقف العمل فى التجهيزات الحربية التى بدأها جده، وعمه من قبل وكذلك انتهج سياسة داخلية تقوم على تأليف قلوب الناس حول السلطنة السنية.

ولهذا كان عباس فى الأسئانة موضع تكريم السلطان والوزراء العثمانيين، وكان أيضا موضع رعاية السفراء الأجانب، واهتمامهم، وبخاصة سفير فرنسا وإنجلترا^(١).

ورغم هذا فإن عباس كان متحفظا فى حديثه مع السفراء الأجانب، وبنى سياسته منذ البداية على تخليص مصر من النفوذ الأجنبى، والفرنسى بنوع خاص. وفى نفس الوقت يقوم على رعاية مصالحهم حتى يقطع عليهم سبيل التدخل. ويحول دون الاصطدام معهم.

على أن السلطان العثمانى قد استمرأ خضوع عباس فطلب المزيد، وحاول أن يفرض سلطانه الفعلى على الشؤون المصرية، إلا أنه قد اتضح له أنه كان مخدوعا فى اعتقاده بوجود سلطان له على الإطلاق، ففى عام ١٢٦٧ هـ/ ١٨٥٠م طالب الباب العالى عباس أن يطبق فى مصر نظام "التنظيمات" التى أعلن عنها السلطان فى "خط شريف كلخانة" خط التنظيمات، وقد أدى هذا الطلب إلى حدوث نزاع بين عباس وتركيا. وقد تركزت مطالب الباب العالى فى سحب حق الإعدام

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)، دار المعارف سنة ١٩٦٧م، ص ١٠.

من الوالى ورفض عباس تنفيذ هذا الأمر، إلا إذا عدلت التنظيمات بما يلائم مركز مصر^(١)، وعادات أهلها، وما جرى به حكم الولاة فيها. وأخذ - من جانب - فى تحصين الإسكندرية وتدعيم حاميتها تأهباً لمقابلة القوة بمثلها فيما لو فكر الباب العالى فى إرسال حملة إلى مصر. والواقع أن سر تمسك الباب العالى بتطبيق نظام التنظيمات فى مصر يرجع إلى رغبة السلطان فى استعادة الحقوق التى كان قد فوضها إلى الوالى المصرى فأضعفت من هيئته ونفوذه حيث كانت التنظيمات تهدف إلى تأكيد الروابط بين الدولة وولاياتها. ودعم سلطة الحكومة المركزية، وذلك عن طريق إخضاع السلطات الإدارية، والمالية، والقضائية، والحربية، فى كل أيلة لإشراف نظيراتها فى الآستانة التى يتركز فى يدها السلطة الحقيقية، ولا يبقى فى يد الولاة سوى سلطة محدودة^(٢). والجدير بالذكر أنه قد مضى عهد محمد على ومن بعده إبراهيم دون أن يطلب الباب العالى تنفيذ أحكام التنظيمات، ورغم أن فرمان الوراثة^(٣) نص على أن ينفذ فى مصر هذه التنظيمات، فإن محمد على اعترض على ذلك، وقابل بين الإصلاح الذى تم فى مصر، والإصلاح المرجو من تطبيق مبادئ خط الكلخانة، فنفس مبادئه قد روعيت فى مصر، فعلاً منذ أربعين عاماً. ولذا التمس إعفاءه من تطبيق التنظيمات.

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ١٥٠.

(٣) فرمان الوراثة: سبق أن أوضحنا فى هذا الفصل كيف أصبحت مصر فى ظل فرمان الوراثة سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م الذى أصدره الباب العالى، ولاية عثمانية ممتازة، وبمقتضاه احتفظ محمد على بمصر فقط ولاية وراثية فى ذريته، ولكن من ناحية أخرى احتفظ السلطان العثمانى بحقوق سيادته على مصر التى أصبحت خاضعة لالتزامات الدولة العثمانية، ومن ثم كان يتحتم على مصر أن تخضع لأحكام التنظيمات التى صدرت فى عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١)، وهى مجموعة القوانين والأنظمة التى صدرت مستندة إلى القواعد التى تقررت فى "منشور الكلخانة" و"منشور خطى همايونى" الصادر فى سنة ١٨٥٦. ويرجع الفضل فى إصدار هذه التنظيمات إلى ثلاثة من رجال الإصلاح فى الدولة العثمانية هم رشيد باشا وعالى باشا. وفؤاد باشا انظر: عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة سنة ١٩٥١، ص ٢١٥ - ٣٢٦.

لجأ عباس في تلك الأزمة إلى إنجلترا، وراح يرسل الباب العالي لإقناعه بوقوع الضرر الجسيم في حالة تطبيق التنظيمات في مصر، وفي النهاية تم تسوية الأمر بتصريح الباب العالي أنه على استعداد للنظر في تعديل أحكام التنظيمات بما يتفق مع طبيعة البلاد المصرية، وقد قبضت إنجلترا ثمن مساعدتها لعباس في أزمة التنظيمات فكان الثمن هو خط السكك الحديدية^(١).

بعد ذلك تحسنت العلاقات بين عباس والباب العالي، ولقد أتاحت حرب القرم فرصة مواتية لتقوية أواصر هذه العلاقات ومحت ما بصحيفة عباس من شوائب وذلك بعدما أبدى استعداده لأن يضع تحت تصرف السلطان قوة بحرية وبرية.

غير أن حرصه على انتصار السلطان لم يكن يعد له سوى غيرته على التمتع بحقوقه وسلطانه، فقد طلب من الباب العالي أن يمنحه لقب "العزيز" واتسعت آماله في تعديل نظام الوراثة لمصلحة ابنه إلهامي الذي خطب له ابنة لابنة السلطان^(٢).

سعيد وتركيا (١٢٧٠-١٢٧٩هـ) (١٨٥٤-١٨٦٣م):

حين توفي عباس فجأة سنة ١٨٥٤م، تولى سعيد الحكم ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م^(٣)، وفي عهده أخذت مصر تتفصل شيئاً فشيئاً عن الدولة العثمانية، وتقترب شيئاً فشيئاً من دائرة السياسة الأوروبية. فقد وقع سعيد تحت طائلة النفوذ الفرنسي.

(١) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ١٦٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: علاقات مصر بتركيا في عهد الخديو إسماعيل، ص ١١.

(٣) سعيد باشا: خديو مصر من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٦٣م، وهو أصغر أبناء محمد علي باشا، وكان أبوه يعتد بابنه الرباع هذا اعتداداً كبيراً، فأرسله أبوه في التاسعة عشرة من عمره إلى الأستانة لمباشرة المفاوضات الخاصة بالجزية التي كانت تؤديها مصر. وكان سعيد ميالاً إلى الفرنسيين، فاتخذ منهم مستشارين له، بل إنه منح صديقه فرديناند ديليسين عام ١٨٥٦ امتياز حفر قناة السويس، وبدأ العمل في هذا المشروع سنة ١٨٥٩ رغم محاولات الإنجليز منعه، وقد سخر الفلاحين للعمل فيه، وقد تم في عهده أيضاً إنشاء سكة حديدية بين القاهرة والسويس، كما منح امتياز المراسلات البرقية شركة التلغراف الشرقية. وكان قد بدأ الدّين المصري في عهد سعيد، فقد أدى الضيق المالي الذي نجم عن المساعدة الحربية التي قدمتها مصر لتركيا وعن الأعمال الإنشائية العامة إلى أن تستدين مصر أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات من أحد المصارف الإنجليزية. وكان هذا الفعل أول خطوة في ذلك الطريق المشؤوم الذي سار فيه إسماعيل باشا من بعدما توفي سعيد بالإسكندرية سنة ١٨٦٣ ودفن فيها. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٨، سنة ١٩٩٨، القادسية - قزوين.

ولهذا منح فرديناند ديليبس^(١) في نفس عام توليته الامتياز الأول لقناة السويس، ورغم التسهّل في مواد الامتياز كان سعيد كان يرى أن القناة ستؤدي إلى رخاء مصر، ومن ثم تحرر واليها من السيطرة العثمانية.

ولكن على الرغم من ذلك كان سعيد مخلصاً للدولة العثمانية، فقد هب لنجدتها في حرب القرم، وأبدى استعداداً لمساعدتها حينما طلب الباب العالي منه ذلك وقت وقوع بعض الاضطرابات في طرابلس الغرب، ولعل أكبر دليل على مراعاته لتلك العلاقة موقفه من الاقتراح الذي عرضه عليه المستر دي ليون فنصل عامّ الولايات المتحدة في مصر، بعقد معاهدة حياد بينهما دون اشتراك الباب العالي، غير أن سعيد رفض هذا الاقتراح موضحاً أنه لا يستطيع أن يدخل في معاهدة من هذا النوع مستقلاً عن الحكومة العثمانية^(٢).

(١) فرديناند ديليبس: جاء المسيو فرديناند ديليبس إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١، في عهد محمد علي باشا متولياً منصب مساعد للقنصل الفرنسي، فأبدى الباشا نحوه عطفاً كبيراً لما كان بينه وبين أبيه الكونت ماتيو ديليبس من صلات الصداقة القديمة منذ كان قنصلاً لفرنسا في مصر سنة ١٨٠٣. وعهد إلى فرديناند بتربية الأمير محمد سعيد من الناحية الرياضية، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما، واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا. وقد وقع في يد المسيو ديليبس وهو في الإسكندرية بحث المسيو لوبيير عن وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر. فلم يلبث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية. فلما تولى سعيد الحكم اغتم المسيو ديليبس هذه الفرصة ليفتح سعيد باشا في أمر المشروع، واستطاع اقتناعه والحصول على عقد امتياز حفر القناة المؤرخ في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤. انظر: عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، الجزء الأول - مصر سنة ١٩٤٨، ص ٥٨، ٥٩.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١١.

الدولة العثمانية ومسألة قناة السويس:

كان وقع الامتيازات التى حصلت عليها الشركة الفرنسية المسؤولة عن مشروع قناة السويس، لا يقل عن وقع حملة بونابرت على مصر، حيث تنازلت الحكومة المصرية فى عهد سعيد لهذه الشركة عن جميع الأراضى المطلوبة لإنشاء القناة، وترعة المياه العذبة، وتوابعها، وهى مساحات شاسعة أخذت بلا مقابل، كما اشترت الشركة تفتيشاً فى مديرية الشرقية بثمن بخس فى ١٢٧٧هـ/ سنة ١٨٦١م وسمح لها بوضع العدد الكافى من الفلاحين تحت تصرفها لتشغلهم بمعرفتها، وتحت إدارتها، فى أى نوع تريده من الأعمال، والأشغال العامة.

وقد عارضت إنجلترا هذا المشروع، وأوغرت للحكومة العثمانية خطورة إنشاء تلك القناة بما ينجم عنه من توقف اتصالها بمصر، ومن ثم يستطيع الوالى إعلان استقلاله^(١)، كما وجه كاننج سفير إنجلترا فى الأستانة نظر الساسة الأتراك إلى أن سعيداً قد أرفق بعقد الامتياز الأول خطاباً يقر فيه بضرورة موافقة الباب العالى، ولا يمكن البدء فى العمل إلا بعد الحصول عليها.

وفى الحقيقة لم يكن للباب العالى أى سياسة معينة تجاه هذه المسألة المهمة بل انتهج خطة - إن كانت له خطة - تدل على أنه العربدة فى أيدي فرنسا وإنجلترا، فظهرت كئلتان، إحداهما ترى ترك المسألة فى يد الباب العالى واحترام اتجاه إنجلترا حليفة الدولة العثمانية، أما الفريق الآخر فقد وجد نفسه فى مركز حرج بين الدولتين المتنافستين، وأشار بترك الأمر للدول، ولكنه لم يجد من مسلك الدول الأوروبية ما يشجعه على الركون إلى إحدى الدولتين، ولكى يتخلص الجميع

(١) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، الجزء الأول، ص ٢٠.

من هذا المأزق أصدر الصدر الأعظم عالي باشا^(*) مذكرة (٤ يناير ١٨٦٠) إلى سفير تركيا في باريس ولندن مفادها أن القرار النهائي في مسألة القناة، يتوقف على ضمان حقوق الدولة، ذات السيادة على مصر، وسلامة الملاحة في القناة، وذلك بأن يكون وضعها شبيها بوضع البوغازين، ومن ثم يكون متفقاً مع مصالح أوروبا بعامة، وتركيا بخاصة^(١).

مصر والتسلط الأجنبي:

على الرغم من نفور عباس من النفوذ الأجنبي، فإن إنجلترا استطاعت أن تعالج تلك الشخصية القاسية، وأن تظفر في النهاية بالحصول على مشروع السكة الحديدية بين الإسكندرية والسويس، وتقوز بالقرب منه. وإذا كان عباس قد مال إلى السياسة الإنجليزية، واستعان بها في تحقيق أغراضه، فإنه كان حريصاً على أن لا تقع مصر فريسة للتدخل الأجنبي، وإذا كان قد أقر لشركة إنجليزية بإنشاء الخط

(*) عالي باشا: هو محمد أمين عالي باشا، ولد عام ١٢٣٠ هـ/١٨١٥م في إستانبول، وهو أول وزير عثماني عُرف بالسياسة الإصلاحية ذات الطابع الغربي، وهو أحد ثلاثة اكتسبوا شهرة واسعة في عهد التنظيمات (عالي باشا، ومصطفى رشيد باشا، وفؤاد باشا). كان أبوه حائوياً صغيراً ولم يتمكن من تعليم ابنه رسمياً وأدخله سلك الخدمة المدنية في وظائف دبلوماسية إلى فيينا عام ١٢٥١ هـ الموافق ١٨٣٦م ترقى إثرها وأصبح سفيراً للدولة العثمانية في لندن عام ١٢٥٦ هـ، فوزيراً للخارجية بعد عودته، وذلك في وزارة السيد مصطفى رشيد باشا، ثم أصبح صدراً أعظم خمس مرات. قاوم جهود السلطان في تحديد سلطات الصدر الأعظم وأخمد المشكلات في صربيا ومولدافيا وهذا ثورة كريست، تعاضف مع فرنسا وبريطانيا خلال حكم السلطانين عبد المجيد وعبد العزيز. توفي في إستانبول عام ١٢٩٩ هـ الموافق ١٨٨٤م، انظر: الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية: على حسون، بيروت سنة ١٩٨١، ص ١٥٩.

(١) عبد الرحمن الرفاعي: المرجع السابق، ص ٢٥.

الحديدى، فإن الحكومة المصرية لم تمنحها أرضاً، أو امتيازاً احتكاريّاً^(١) ولم تعقد للمشروع قرضاً، وكانت تتولى بنفسها استغلال الخط، وإدارته باعتباره ملكاً لمصر، بالإضافة إلى أنه كان أنفع للبلاد، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة.

ولقد كان من أهداف إنجلترا تعبيد طرق المواصلات بين إنجلترا، والهند فى مصر بواسطة إنشاء سكة حديدية تصل الإسكندرية بالقاهرة، ومنها إلى السويس، ومع سعيد انقلب الميزان لصالح الوجود الفرنسى بخاصة، والأوربى بعامه، وبدأت على عهده ثغرات التدخل الأجنبى فى شؤون مصر بإقراره إنشاء قناة السويس على يد شركة أوربية. وافتتاحه عهد القروض الأجنبية التى جرّت الكوارث على البلاد.

ولقد حاولت الدولة العثمانية إبعاد سعيد عن تأثير فرنسا، وإغراء ديليسبس تجنباً لحدوث أضرار جسيمة، وتقيد مصر بالتزامات كانت أثقل من أن تتحملها الموارد المصرية، كما كانت تخشى زحف الرأسمالية الأوربية على مصر، حيث توسع الرأسماليون الأجانب فى تصدير الأموال للسوق المصرية، على شكل قروض لتنفيذ المشروعات، واقتضى الأمر إقامة أول بنك على أرض مصر عام ١٨٥٦ واستتبع ذلك إنشاء الشركات، ومنح امتيازاتها للأجانب، وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية، وتربعت على عرش الاقتصاد المصرى، ووفد على مصر الأجانب على اختلاف جنسياتهم، وتجمع أغلبهم صفات المغامرة، والاحتيال، وفتحت مصر أبوابها على مصاريعها أمام سيلهم المتدفق، ونشأ ما يسمى بالمصالح الأجنبية^(٢)، وألقى على مصر حماية هذه المصالح فى إطار نظام الامتيازات الأجنبية، الذى عانت منه الأمريين، ونجم عنه وجود سلطات متعددة، لعدد كبير من القناصل قدر بسبعة عشر قنصلاً، كل منهم الحاكم الفعلى لجاليته. طبقوا قوانين

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) محمد رفعت: المرجع السابق، ص ٥٠.

مختلفة، تنصر دائماً رعاياهم، وترى مصالحهم، وبذلك أصبحت الامتيازات سلاحاً قوياً في أيدي هؤلاء، يستخدمونه لإذلال المصريين، والسيطرة عليهم، حتى هدموا أركان السلطة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل سمح سعيد لهم بشراء ما يريدونه من الأراضي، ورخص لهم بإنشاء وإبورات ومحالٍ ومصانع لحليج ونسج في تلك الأراضي، وهكذا امتلك الأجانب كل شيء، وتمتعوا بتلك الأوضاع التي أعطتهم المزيد من السيطرة التي قللت القروض، والتي رحب بها حكام مصر بل وسعوا إليها^(١).

إسماعيل والأتراك:

كان إسماعيل يعاصر السلطان عبد العزيز ١٢٧٧-١٢٩٢ هـ/ ١٨٦١ - ١٨٧٦م الذي لم يكن متمتعاً بكامل حرية التصرف في شؤون الدولة، إذ سيطر على سياسة تركيا في عهده حتى عام ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧٢م رجلان بارزان هما محمد فؤاد باشا^(*) ومحمد أمين عالي باشا، وقد اقترن اسمهما بميدان الإصلاح، وكان عالي باشا الذي شغل منصب الصدارة العظمى في عام ١٢٦٨ هـ/ ١٨٥٢م حريصاً على تأكيد سلطة الباب العالي في ولايات الإمبراطورية، حتى تستطيع الدولة العثمانية أن تواجه الضغط الأوربي المتزايد، ولذلك فإنه كان يعتبر مصر

(١) محمد رفعت: المرجع السابق، ص ٥٢.

(*) محمد فؤاد باشا: ١٢٣٤ هـ/ ١٨١٩م تخرج محمد فؤاد باشا في مدرسة الطب واشترك جراحاً في حملة سنة ١٨٣٠ التي وجهت ضد العرب المتمردين في طرابلس الغرب، ثم ترك الجراحة والتحق بمكتب الترجمة بالباب العالي، وما لبث أن شغل عدة مناصب، ونجح في تهدئة ثورة الموارنة سنة ١٨٦٠ التي كادت تثير المسألة الشرقية برمتها بسبب تدخل نابليون بونابرت وظل يترقى حتى شغل أعلى المناصب خصوصاً وقد استحوذ على نفوذ كبير لدى السلطان عبد العزيز حيث عين صدراً أعظم سنة ١٢٧٨ هـ، وتقلب على ذلك المنصب عدة مرات. وأصلح المالية.

ولاية عثمانية لا تختلف عن سائر الولايات الأخرى إلا بوراثة الحكم فيها، ومن ثم كان تصديه للمحاولات التي بذلها إسماعيل لتخطي حدود تسوية ١٢٤٥-١٢٤٦هـ / ١٨٤٠ - ١٨٤١م^(١).

وكان إسماعيل يريد أن يتخلص من قيود اتفاقية لندن^(٢)، بل إنه كان طموحاً لدرجة أنه أراد إنشاء ملكية مماثلة لتلك التي كان قد أعجب بها في الغرب.

وقد وضع إسماعيل خطته على أساس إنقاذ مصر من المصير الذي يعرضها له، ارتباطاً بالإمبراطورية العثمانية، التي كانت تسير في طريق الانهيار، والسعى إلى تحقيق وضع جديد إن لم يحقق الاستقلال التام فلا أقل من توسيع امتيازات مصر بحيث تزول القيود المفروضة على الإدارة المصرية، وتوسيع أملاك مصر في إفريقيا، والقضاء على مساوئ القضاء القنصلي والحد من نفوذ القناصل.

(١) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل الجزء الثاني، ص ٥٥.

(٢) اتفاقية لندن: كان من الممكن أن تغني اتفاقية لندن (٣٠ يناير سنة ١٨٤٠) عن فرمان الوراثة الذي يكاد يكون في بعض أجزائه نسخة حرفية منها، لولا أنه كان ينبغي أن تكسب هذه الاتفاقية الصيغة القانونية بأن يدعمها فرمان يصدره السلطان وهو الذي وقعه في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ثم الخط الشريف الذي وقعه في أول يونيو سنة ١٨٤١، ومن ثم اعتبرت اتفاقية لندن وثيقة مصر الأساسية واعتبر فرمان السلطان وثقتها الشرعية (انظر نص فرمان ص ٢ و ٦) التي سبق أن ذكرنا منها وضع مصر الخاضع للالتزامات الدولة العثمانية ومعاهداتها التي يجب سريانها على مصر كما ينص فرمان الأول والثاني. ومن ثم جعلت هذه التسوية من تدخل الدول الأوروبية أمراً مشروعاً، ومن ثم اتخذ منها وسيلة للضغط على الباب العالي ومن ثم على مصر. ولذلك أراد إسماعيل أن يتحرر من هذه القيود وبذل في سبيل الحصول على الامتيازات تضحيات مالية جسيمة وسعى إسماعيل في تغيير نظام توارث العرش حيث كان يقضى فرمان الوراثة بأن يؤول عرش مصر إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً، ونجح في مساعاه في أن يؤول العرش إلى أكبر أنجاله سنة ١٨٦٦. انظر: محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية ص ٣٤؛ وعبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل ص ٨٠.

كما وضع إسماعيل خطته كذلك على أساس توثيق علاقته بالدولة العثمانية والتوسع في الإنفاق في العاصمة التركية لكسب الأنصار، والقضاء على المناوئين. فقد كان على علم بما كانت عليه الدولة من ضيق مالى، وبجشع السواد الأعظم من كبار موجهيها، فرأى من الحكمة الاعتماد على المال، يَغْدَقَه على ذوى النفوذ والسلطان سواء في عاصمة الدولة أو في العواصم الغربية، وينفقه عن سعة على الصحافة التى كانت تدعو له فى الشرق، والغرب. وبمد يد العون إلى المؤسسات الدينية، والجمعيات الخيرية فى مصر والآستانة، والعواصم الأوربية الكبرى^(١).

موقف إسماعيل من مشروع قناة السويس:

لم يعترض إسماعيل على إقامة مشروع قناة السويس، ولكنه أراد أن ينتقص من أخطار الامتيازات الممنوحة للشركة، التى تهدد سيادة الحكومة المصرية، ومستقبل البلاد، ولقد رأت إنجلترا فى تولية إسماعيل فرصة سانحة للقضاء على المشروع، وعندما لم تجد منه أذناً صاغية، اتفقت مع تركيا فى مسألة القناة، بشكل يحد من سلطته، ولكن إسماعيل أبرم مع شركة القناة اتفاقين هامّين ١٢٧٩ هـ / ١٨ و ٢٠ مارس سنة ١٨٦٣م قبل أن تصدر مذكرة الباب العالى طبقاً لنصائح إنجلترا، وكانت لهذين الاتفاقين صفة تجارية، لا سياسية، تنازلت بموجبها الشركة للحكومة عن حقوقها فى ملكية الأراضى الواقعة على طول ترعة المياه العذبة الممتدة من القاهرة إلى وادى الطمبلات^(٢).

(١) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٠١.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٢.

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر (شوال سنة ١٢٧٩هـ/ابريل سنة ١٨٦٢م):

فى تلك الأثناء قرر السلطان عبد العزيز أن يزور مصر. وكان هذا القرار مثارا للتساؤل، لأن أحد السلاطين لم يقم بزيارة البلاد منذ أن فتحها السلطان سليم الأول فى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، والحق أن مصر كان لها وضع خاص فى نطاق الإمبراطورية العثمانية، وبعد استقرار أسرة محمد على فى حكم مصر، لم يعد المصريون ينظرون إلى آل عثمان نفس نظرتهم الماضية. "فولى النعم" الذى يحسون به باستمرار هو الوالى من أسرة محمد على، لهذا رأى ساسة الآستانة أن يعيدوا إلى أذهان المصريين فكرة الولاء للسلطان. ومن ناحية أخرى، أراد أن يؤكد سلطة الدولة العثمانية فى مصر برغبته فى تنفيذ بعض الإصلاحات، والخطط التى أراد قبل تطبيقها أن يتعرف بنفسه بعض ما يجرى فى البقاع التى يحكمها. وكانت مصر هى القطر الشرقى الذى يفوق غيره استعدادا لقبول الأفكار والمؤثرات الغربية، فقد أقيمت فيها منشآت زراعية وصناعية وتوفرت لدى حكامها وسائل مواصلات لا توجد فى تركيا ذاتها: من سكك حديدية، وطرق معبّدة، وقنوات عذبة، إلى حركة تجارية نشطة، ولهذا كان الكثير مما كان السلطان يبغي التعرف عليه، وإدخاله فى ولاياته المختلفة، يوجد فى مصر^(١).

ويرى البعض، أن وراء هذه الرحلة إشراك والى مصر فى تذليل مصاعب تركيا الحالية. وقد عارضت إنجلترا بشدة قيام السلطان بهذه الرحلة، خشية أن يستدرجه ديليسبس إلى تحبيذ وجهة نظره الخاصة بمشروع القناة، وحاول البعض أن يثبته عن عزمه ملوّا له باحتمال نشوب الثورة فى الآستانة، أو بلغاريا فى أثناء غيابه، أو بالمساءلة المالية، وانشغال الباب العالى بعقد قرض جديد لتغطية فوائد الديون.

(١) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص ١٠٥.

وكان فى تركيا حزب يعارض أيضاً قيام السلطان بهذه الرحلة التى ليس من ورائها طائل، لكن السلطان كان مصرّاً على القيام بها.

مسار رحلة السلطان عبد العزيز^(*):

غادر السلطان عبد العزيز الآستانة يوم الجمعة ١٣ شوال سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م وكان بمعيته ولداً أخيه المرحوم السلطان عبد الحميد: عبد الحميد أفندى ومراد أفندى، وابنه يوسف عز الدين، ووزير الحربية، وزير البحرية، وغيرهما من كبار موظفى الدولة العلية، ووصلت السفن التى تقلهم إلى ميناء الإسكندرية حيث استقبله إسماعيل الاستقبال اللائق به. وبعد ذلك قام السلطان بجولة فى عربة مكشوفة فى شوارع رأس التين، وميدان المنشية، ورأى الزينات، والأعلام والألعاب النارية المتنوعة^(١).

وفى اليوم التالى شاهد القسم الغربى للمدينة، وترعة المحمودية، وبعد أن استراح فى بستان صاحب الدولة الأمير عبد الحليم عاد إلى قصر رأس التين وقضى ليلته فيه. ثم سافر إلى مصر بالقطار، وكانت أول مرة يشاهد فيها قطار السكة الحديدية حيث نزل بالقرب من قصر النيل، وتوجه بعد ذلك إلى سراى القلعة. وقد زار السلطان مقبرة محمد على الذى ذكر السلطان عنه أنه رجل عظيم، ولن تموت ذكراه أبداً. ولما رجع إلى السراى استقبله أعيان القاهرة، وكبار الدولة،

(*) ألف الفرنسى Gardey كتاباً عن هذه الرحلة اسمه "Vogage du sultan Abdul Aziz" وكان ضمن الوفد المرافق للسلطان عبد العزيز، وذكر جاردى أنه أصدر هذا المؤلف متحملاً مسؤوليته بنفسه، حيث رغب فى سرد ما شاهده فقط دون أن يكون لديه النية للكتابة حسب قواعد الفن، وفى نفس الوقت لم يمنع قلمه من سرد الأساطير القديمة الخاصة بتاريخ مصر فهو يقول إنه يكتب عن الشرق، وللشرق.

(1) Gardey: Voyage du Sultan Abdul Aziz de Stanboul au Caire 1865. p. 28.

حيث خطب فيهم السلطان. وبعدها أقيمت حفلة في القلعة، أقيمت فيها الألعاب النارية التي أعجب بها السلطان أيما إعجاب، حيث طلب أن يأخذ معه إلى تركيا مجموعة من صانعي هذه الألعاب.

وقد عبر السلطان عن مدى فرحته بهذه الزيارة، وأنه سوف يبقى في مصر عدة أيام. ثم قام السلطان برحلة في شمال المدينة، وزار قصر النزهة في طريق شبرا، ثم غادره إلى قصر شبرا الذي أعجب به لجماله، وقد تصادف أن اليوم التالي هو يوم تشييع المحمل المصري إلى البلاد الحجازية، فرأس السلطان بنفسه الحفلة السنوية المعتادة، ثم توجه إلى زيارة مساجد آل البيت الكرام وختم طوافه بتشريف قصر الجزيرة ثم عاد إلى القلعة⁽¹⁾.

وفي يوم الإثنين من شوال قصد السلطان المتحف المصري، ومصانع القطن والحرير ببولاق، حيث أبدى اهتماما برؤية الآلات، والورش مبدئياً رأيه بأهمية أن تدعم الصناعة في القسطنطينية، ثم نزل إلى القناطر، وسعد كثيراً برؤية مشهدها البديع الإنشاء، فم عاد إلى قصر النيل.

ويؤكد الفرنسي جاردى أن الهدف الأساسى لزيارة السلطان عبد العزيز ليس فقط تدعيم أوضاع تركيا المالية، وإنما أراد الانتفاع بما شاهده في القاهرة ليتم تطبيقه في تركيا.

وفي ٢٤ من شوال ذهب لزيارة الأهرام التي أثارت إعجابه، وذكر مقولته: "العظيم لا يلد إلا عظيماً مثله".

وبعد ذلك سافر السلطان إلى الإسكندرية يوم ٢٦ شوال، وقام الخديو إسماعيل بتوديعه هناك حيث قدم السلطان شكره له على ضيافته له ولأهل بيته وكان من أثر هذه الزيارة إطلاق اسم عبد العزيز على أحد شوارع القاهرة.

(1) Gardey: Voyage du Sultan Abdul Aziz. p.p. 63 - 70.

وكان من آثار زيارة السلطان عبد العزيز إلى مصر أن أكدت مركز الوالى الأدبى، فقد منحه خلالها وسام المجيدية، وهو أرفع وسام فى الدولة العثمانية، كما حصل كثير من رجال الحكومة المصرية على الأوسمة والألقاب الرسمية. ومن جانبه حاول إسماعيل أن يبتز هذه الفرصة، وبالف فى تقديم الهدايا، والتحف الباهرة حتى ملأ بها سفينة بأكملها للسلطان وأمرأه بيته وكبار دولته^(١).

بعد رحيل السلطان عبد العزيز من مصر، تفرغ الخديو إسماعيل لحل مسألة قناة السويس والعمل على مرضاة السلطان دون أن يغضب فرنسا، وكان الباب العالى قد أرسل بموافقته على القناة بشرط أن يتفق الوالى مع الشركة على استرجاع الأراضى الممنوحة للشركة وأن يلغى السخرة، وقد احتكم الطرفان إلى الإمبراطور نابليون الثالث الذى وافق على هذين المطلبين السابقين نظير تعويض مالى تدفعه الحكومة المصرية (وهو ٣٨ مليون فرنك نتيجة إلغاء السخرة و٨٤ مليوناً من الفرنكات تدفع فى بحر ١٦ سنة نتيجة إعادة الأراضى الممنوحة للشركة). وفى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر فرمان السلطانى معلناً شرعية المشروع^(٢).

وقد سعى إسماعيل بعد ذلك إلى تعديل نظام الوراثة، واستطاع فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ أن يحصل على فرمان الوراثة الصليبية وهو ذلك فرمان الذى غير قانون الوراثة من أكبر الأبناء فى الأسرة إلى أكبر أبناء الحاكم، وفى مقابل هذا وافق إسماعيل على زيادة الجزية إلى الدولة العثمانية من ٣٢٠,٠٠٠ جنيه إلى ٦٦٥,٠٠٠ جنيه سنوياً. وفى الثامن من يونيو سنة ١٨٦٧ صدر فرمان آخر، وفيه منح إسماعيل لقب "خديو" وهو لقب موروث ووسع حقوق الخديوية فى إدارة الشؤون الداخلية، فقد منح هذا فرمان حكومة مصر الحق فى سنن القوانين والقواعد الخاصة بالإدارة الداخلية^(٣).

(1) Gardey: Voyage du Sultan Abdul Aziz. p.p. 106 - 150.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٤٢.

(٣) على إبراهيم عبد اللطيف: علاقة مصر بتركيا ١٨٨٢ - ١٩١٤، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، سنة ١٩٨٠، ص ٩.

تصدُّع العلاقات المصرية العثمانية في عهد الخديو إسماعيل:

بناء على الفرمانين السابقين أخذ الخديو إسماعيل يتصرف تصرف الحاكم المستقل تمامًا مما فجر أزمة بينه وبين السلطان، والسبب المباشر في هذا الأمر دعوة الخديو إسماعيل ساسة أوروبا لحضور حفل افتتاح القناة، متعمداً تجاهله للسفراء العثمانيين الذين كانت لهم الأسبقية عليهم طبقاً لقواعد البروتوكول، الأمر الذي أدى إلى تصدُّع العلاقات بينه وبين السلطان، واضطراً الأخير إلى إصدار فرمان ١٨٦٩ الذي يقضى بإشراف الباب العالي على شؤون مصر المالية، ونص على أن لا يعقد الخديو قرضاً دون الحصول على استئذان السلطان كما يقضى بتأكيد حقوق السيادة العثمانية على خديوية مصر، إلا أن هذا النزاع انتهى بتدخل الدول الأوروبية، وفي ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ صدر فرمان أجاز لخديو مصر أن يعقد القروض باسم الحكومة المصرية ودون الحصول على إذن مسبق من الباب العالي. ثم حصل إسماعيل على فرمان شامل يقوم مقام الفرمانات السابقة، جعل ارتباطه بالدولة العثمانية كأنه غير موجود، وتوج مسعى إسماعيل إلى نيل الاستقلال الذاتي تنويحاً نهائياً^(١).

عزل الخديو إسماعيل وتولية الخديو توفيق:

ترتب على تصدُّع العلاقات بين الخديو إسماعيل والسلطان العثماني تغلغل النفوذ الأجنبي في البلاد، واستمر الخديو يعقد القروض الخارجية مما أدى في نهاية الأمر إلى إرهاق الميزانية، وبانت مصر في أزمة مالية اضطرت بسببها إلى بيع نصيبها من أسهم قناة السويس سنة ١٨٧٥، وقد أسفرت هذه الأزمة عن فرض

(١) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٠ و ١٢ و ١٣.

الرقابة الثنائية التى من شأنها بسط إشراف إنجلترا وفرنسا على الأمور المالية ومن ثم الداخلية.

وقد استاء الخديو إسماعيل، كما استاء معظم طبقات الشعب المصرى من هذا الاستبداد الأجنبى واستعباد مصر المالى، فألف وزارة وطنية فى الثامن من أبريل عام ١٨٧٩ برئاسة شريف باشا. استقر عزم كل من إنجلترا وفرنسا على الخلاص من إسماعيل، وذلك بإبعاده عن مصر، وطلبنا من الباب العالى استصدار القرار بخلع إسماعيل. رحب السلطان بتلك الفرصة لإظهار سيادته على مصر ولإذلال طموح الخديو، ومحاولة إلغاء الامتيازات التى نالتها مصر فى فرمانات ١٨٤١ - ١٨٧٣، وفى يونيو سنة ١٨٧٩ أبرقت إلى الخديو إسماعيل تخبره بقرار الخلع وتولية ابنه توفيق على مصر. ولم يستطع السلطان - بتدخل من إنجلترا وفرنسا - إحكام قبضته على مصر عندما أراد أن يسحب فرمان ٩ يونيو ١٨٧٣. وبناء على ذلك كان الاتفاق على فرمان الجديد فى ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ الذى كان أساسا للفرمان السابق فى ما عدا تعديلين اثنين هما نقص الجيش إلى ١٨,٠٠٠ جندى، وأن لا يعقد الخديو قروضا جديدة إلا فى ما يتعلق بمواجهة احتياجات البلاد^(١).

موقف الدولة العثمانية من الثورة العربية:

لم تكن سياسة الدولة العثمانية تجاه مصر سياسة واضحة، بل كانت ترمى دائما إلى انتهاز الفرص لانتقاص الامتيازات التى نالتها مصر، واسترداد سيادتها عليها، والتدخل فى شؤونها الداخلية، ولذا وجدت فى الثورة العربية فرصتها السانحة للتدخل، فأرسلت وفدا برئاسة على نظامى باشا إلى مصر لبحث شؤونها

(١) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٣ - ١٥.

عقب مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ التى اكتفت بتأييد الخديو على الطريقة التى نجح بها فى تسوية مشكلات مصر.

وقد أثار قدوم الوفد العثمانى لمصر غضب كل من فرنسا وإنجلترا، واتفقتا على إرسال كل واحدة منهما بارجة إلى مياه الإسكندرية لإظهار قوتهما أمام المصريين والعثمانيين على السواء. وعلى الرغم من احتجاج الباب العالى على هذه المظاهرة البحرية، فقد عمل على ترحيل بعثته فى الوقت الذى تكون فيه سفن فرنسا وإنجلترا مستعدة لأن تغادر الإسكندرية. وعلى الرغم من أن السلطان العثمانى قد أعلن عدم رضاه عن الثورة العربية من حيث المبدأ، فإنه لم يتردد فى إقامة صلات سرية مع عرابى وزملائه عن طريق إفاد المبعوثين السريين إلى مصر، وفى نفس الوقت كانت له علاقات مع شتى أطراف النزاع مما أدى إلى تعقيد الموقف الداخلى فى مصر.

أما عن عرابى، فعلى الرغم من أنه لم يكن يميل إلى الأتراك الذين أسأوا حكم مصر عدة قرون، فإنه كان يرى أن من واجبه طاعة السلطان باعتباره خليفة للمسلمين.

اتصل عرابى بالآستانة فى أول الأمر عن طريق أحمد راتب باشا الذى قابله فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨١، حيث أكد عرابى تبعيته للسلطان الشرعى وأنه لم يشق عصا الطاعة بل طلب الإصلاح باسم الذات الشاهانية، وقد تعددت المراسلات بينهما بعد هذا اللقاء، وحينما تدخلت فرنسا وإنجلترا فى شؤون مصر الداخلية وقت وضع اللائحة الأساسية للنظام الدستورى، استشاط السلطان غضباً لهذا التدخل السافر واعتبر ذلك مساساً بسيادته على مصر. ولهذا لم يسعه إلا أن يشكو الدولتين إلى كل من إيطاليا والنمسا وروسيا وألمانيا، التى قامت بدعم سلطة الدولة العثمانية

في مصر، ولم يفت الباب العالي فرصة استغلال المؤامرة الجركسية^(١) للتدخل في شؤون مصر، فاحتج الصدر الأعظم على الحكم الذي أصدرته محكمة الثورة وأمر بإرسال ملف القضية إلى الآستانة، ولكن الخديو - تحت ضغط إنجلترا وفرنسا - قرر تعديل الحكم إلى النفي خارج القطر وعدم حرمان المحكوم عليهم من الرتب والنياشين^(٢). والغريب أن الخديو توفيق عندما استنجد بالدولة العثمانية لتتخذ موقفا تجاه إرسال كل من إنجلترا وفرنسا أسطولها إلى مياه الإسكندرية بعد تفاقم الخلاف بين الخديو ووزارة البارودي، لم تقم بأى إجراء فعلى، بل لم تر فى وجود السفن الإنجليزية والفرنسية ما يهدد حقوقها فى مصر وإنما نظرت إليها على أنها نوع من أنواع إظهار القوة فقط. طالب العرابيون بخلع الخديو الذى أرسل برقية إلى السلطان يطلب منه التدخل.. إلا أنه اكتفى بإيفاد مندوب سامٍ هو مصطفى درويش باشا متوهمة أنها قد أعادت بذلك الأمور إلى نصابها، وتوهمت أيضا أن عدم اشتراكها فى مؤتمر الآستانة يمنع الدول من أن تتدخل أو تبرم أمرا فى المسألة المصرية وكان الغرض من إرسال البعثة مجرد التظاهر بتثبيت مسند الخديوية وتقدير سلطة الباب العالي^(٣).

الدولة العثمانية والاحتلال الإنجليزي لمصر:

اضطربت الأحوال فى مصر، خصوصا بعد أن حدثت مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢، والتف السكان حول عرابى، الأمر الذى جعل السلطان

(١) ملخص هذه المؤامرة أنه فى شهر أبريل سنة ١٨٨٢ علم عرابى أن بعض الضباط الجراكسة ياتَمرون به ويدبرون الأمر لقتله وقتل رؤساء الضباط الوطنيين. وعرض الأمر على الوزراء ثم على الخديو، فتقرر التحقيق فى هذه المؤامرة فى مجلس حربى أصدر حكمه على الأربعين ضابطاً المتهمين بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان مع تجريدهم من الرتب العسكرية.

(٢) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٨ - ٤٣.

(٣) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٦.

يصدر أوامره لدرويش باشا بمحاولة التوفيق بين الخديو وعرابي، وبالفعل تم تأليف وزارة إسماعيل باشا راغب في ٢٠ يونيو سنة ١٨٨٢ التي احتفظ فيها عرابي بوزارة الحربية، ولكن هذه الوزارة لم تكن قادرة على حسم الأمور وإعادتها إلى نصابها. وعقب أحداث ١١ يونيو، وافقت الدول الأوروبية على عقد مؤتمر لمناقشة المسألة المصرية على أن يعقد في الآستانة، إلا أن الباب العالي رفض أن يشارك في هذا المؤتمر، رغم اجتماع سفراء الدول الأوروبية في هذا المؤتمر، الذي قرر أن يعهد إلى الدولة العثمانية إعادة الأمن في مصر، ولكن الحكومة العثمانية رفضت ذلك العرض، لاعتقادها أنه يمس حقوقها كدولة هي صاحبة السيادة الشرعية على مصر، ولها الحق في إرسال جنودها إليها بغير تكليف من أوروبا.

وظلت الدولة العثمانية مصرة على موقفها الراض حتى ضرب الأسطول الإنجليزي الإسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ واضطرت الإسكندرية إلى التسليم. وفي أثناء تقدم القوات الإنجليزية داخل البلاد، دخلت إنجلترا في مفاوضات مع الباب العالي، رفضت فيها الدولة العثمانية شروط إنجلترا باشتراكها مع الجيش الإنجليزي في إخماد الثورة ومن ناحية أخرى أعلن السلطان - تحت ضغط من إنجلترا - عصيان عرابي، في ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢. في تلك الأثناء أسرع القوات الإنجليزية إلى دخول القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بعد أن استسلم عرابي إثر هزيمته في النل الكبير في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بدخول القاهرة على رأس قوات الاحتلال، بل إنه أخذ يرسل البرقيات إلى الحكومة الإنجليزية يعبر فيها عن مدى سعادته وشكره على هذا التدخل^(١).

ولم تكن الدولة العثمانية في الفترة التي وقعت فيها مصر في يد الاحتلال البريطاني قادرة على مواجهة إنجلترا عسكرياً، ولذلك دخلت في طريق

(١) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٦.

المفاوضات كبديل للقوة العسكرية للتخلص من الاحتلال الإنجليزي، إلا أن هذه المفاوضات باءت بالفشل.

والخلاصة أن الضعف الذي كانت تعانيه الدولة العثمانية نفسها سواء كان داخلياً أو خارجياً قد انعكس على موقفها بالنسبة إلى المسألة المصرية والاحتلال الإنجليزي لمصر فقد كان موقف الدولة من هذا الاحتلال يتسم بالضعف والتردد. حتى كانت محاولاتها الدبلوماسية مع إنجلترا من أجل تحديد زمن الجلاء فائترة للغاية، الأمر الذي أدى إلى تثبيت أقدام إنجلترا في مصر، ومن ثم العمل على النيل من هيبة الدولة في أعين المصريين، وفي نفس الوقت تحطيم السيادة العثمانية على مصر، وكان ذلك عن طريقين هما مس السيادة العثمانية بذكر مساوئ السلطان وحكومته المستبدّة من خلال جريدة "المقطم"، وعن طريق التطاول على الخلافة الإسلامية.

وعلى الرغم من أن حقوق الدولة العثمانية في مصر تقلصت بفعل السيطرة البريطانية، ولم يبقَ منها سوى حق أداء الجزية، وحق تعيين قاضى القضاة، وكذلك تعيين القوميسر العثماني، فإن سيادة الدولة العثمانية الاسمية هي التي حالت دون إعلان إنجلترا حمايتها على مصر في الفترة ١٨٨٢ - ١٩١٤، ولذلك لم تعلن إنجلترا هذه الحماية إلا في ديسمبر عام ١٩١٤ بعد دخول الدولة العثمانية الحرب بجانب ألمانيا^(١).

(١) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق. ص ٣٨ - ٤٢.

الفصل الثانى

الحياة السياسية كما صورها الرحالة الأتراك فى
النصف الثانى من القرن التاسع عشر

جاء معظم كتب الرحالة الأتراك خلواً من ذكر أى تفاصيل عن الحياة السياسية فى مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فلم يهتموا بتقديم صورة واضحة لهذا الجانب، وإنما اكتفوا بإشارات موجزة عن أصول الحكم والإدارة، أو تلميحات عن كثرة أعداد الإنجليز فى مصر وديوانها، ولعلمهم أرادوا بذلك أن ينادوا بأنفسهم عن التعرض للحديث عن أحوال مصر السياسية.

ففى إشارة موجزة من محمد عزت ومحمد مهري^(١) عن أصول الحكم فى مصر، يذكر أن مصر تعتبر ولاية ممتازة للدولة العلية العثمانية، وقد نالت أسرة محمد على لقب "الخدو" بالفرمان الهمايونى الصادر عنها، ويكون الحكم فيها بواسطة "مجلس نواب" (وهم مديرو المجلس الذى أطلق عليه اسم هيئة النظار) بسبب أنه قد أحييت إدارته إلى رئاسة الوزراء.

ويسجل عبد الغنى سنى بك^(٢) ملاحظاته العابرة عن كثرة وجود الإنجليز فى مصر، وذلك فى أكثر من موضع من كتابه، فقد رأى جندياً إنجليزياً أمام جامع محمد على، وكذلك الحال عند زيارته للمتحف^(٣)، كما أنه أبدى استياءه من عدم وجود نسخة مترجمة لدليل المتحف المكتوب بلغة أوربية، ويستتبط عبد الغنى سنى بك فى النهاية أن الوجود الإنجليزى يزداد فى القاهرة عنه فى الإسكندرية، وذلك من خلال الثكنات العسكرية التى تم بناؤها فى أكثر من مكان وبخاصة فى هليوبوليس والمقام فيها أيضاً مستشفيات عسكرية، وحول هذه المسألة، يناقش

(١) محمد عزت: بكى أفريقيا، ص ٦٠.

محمد مهري: سودان سياحته سي. ص ٢٤.

(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٦٥، ٧٤.

(٣) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٦٥، ٧٤.

قضية تحمل خزينة مصر إنشاء هذه التكنات العسكرية، والمستشفيات، وكذلك، إنشاء سرايات للخيديو رغم كثرة أعدادها ثم بعد ذلك يدعون القيام بإصلاح الديون العامة لمصر، وتحسين أحوالها الاقتصادية، ومن ناحية أخرى يخصص مبلغاً لا أهمية له نحو ٣٠٠ ألف ليرة لكى تتفق منها مصر ذات عشرة الملايين أو الاثنى عشر مليون نسمة على هيئة المعرفة والثقافة .. ثم يتم الإجبار على التدريس فى المدارس الرسمية باللغة الإنجليزية^(١) .

ويشير عبد الغنى سنى بك أيضاً قضية مهمة أدركها خلال وجوده فى مصر هى تمتع الأجانب جميعهم، وبخاصة اليونانيون والعثمانيون والأرمن والرومان والإيطاليون، بخيرات مصر، حيث يستولون عليها ويستفيدون من نيلها المبارك ومن أرضها الخصبة المباركة التى تعطى ثلاثة محاصيل فى السنة، فالأجنبى يأكل، ثم تدير مصر العامرة الغنية والمثمرة جميع مصانعهم وتجارتهم الرائجة... بينما المصريون يجاهدون من أجل الاعتراف بحقوقهم التى أحسوا بها اليوم وأدركوها.

فوضع المصريين آنذاك كان مهيناً، فالوظائف الدونية كانت من نصيبهم، فهم العمال وأصحاب عربات الخيول والحمالون وأصحاب المراكب النيلية والشحاذون والعراة. وهؤلاء - كما يؤكد عبد الغنى سنى بك - هم معظم شعب مصر وأغلبهم، ويستثنى منهم أصحاب المزارع والأراضى العظيمة والعقارات^(٢).

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "إنجليز موجوديتى كنديسنى قاهره ده دها زياده حس اينتيريور ... بوراده خاطرهم برنقطه كلى: مثلاً حال حاضر ده كافى درجه ده قيشله واركن اونى ييقمق، باشقه يرده عظيم قشله لى، خسته خانه لرياقمق، اليوم كافى سرايى واركن خديوه سراى انشا ايتمك، بونلرك، هبسى مصر خزينه سنه سيوكله تمك ... صوكره ده مصر ك ديوكن عموميه سنى اصلاح، احوال اقتصاديه سنى تحسين ادعا سنده بولنمق! ... ديكر طرفدن اون، اون ايكي مليون نفوسلو مصر خطه سنك معارف احتياجاته (٣٠٠) بيك ليرا راده سنده اهميتيز برپاره تخصيص ايتمك! ... صوكره مكاتب رسميه تدريساتنى مجبورى اوله رقى إنجليز جه اجرا اينتيرمك! ... (يمن يولنده، ص ٩٧).

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٩٨.

ويشير محمد مهري^(١) فى إحصائه عن الديون العامة لمصر إلى أن مجموعها بلغ فى ١٣٢٤هـ / ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٧ م ٩٥,٨٣٤,٠٠٠ ليرة مصرية. وقد محى من فائض هذا الدين ٣٥,٩٦٠,٠٠٠ ليرة مصرية، وفى سنة ١٩٠٨ تم عمل تسوية من رأس المال ٣٢٠,٠٠٠ ليرة. وطبقاً لهذا الحساب أصبح باقى الديون ٩٥,٥١٤,٠٠٠ ليرة. وفى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ بلغت الديون مع فائض الاستهلاك السنوى ٣٥,٨٦٠,٠٠٠ ليرة مصرية.

وقد بلغت الديون الخارجية ١٠٤ ملايين ليرة إنجليزية وكسوراً، وتوجد أيضاً قروض داخلية بلغت ١٥٠,٠٠٠ ليرة^(٢).

أما سليمان شوك^(٣) فقد انتهز فرصة حديثه عن القلعة (التي وصفها حين زيارته للإسكندرية) كموقع دفاعى ومناسب جداً لردع أى اعتداءات تقع بحراً على المحافظة ذات السواحل الجميلة، انتهز هذه الفرصة ليدلى بأرائه عن محمد على باشا وأحفاده، فلم ينسَ سليمان شكرى واقعة عقوق الأول (يقصد تمرذه)، فهو يصف محمد على بأنه مكار، اصطاد السمك فى الماء العكر، فقد انتهز فرصة تسليم الأسطول الملكى للخائن (مثله) عارفى باشا، وانضمام بقية سيوف الأوجاق الإنكشاريين^(٤)، بينما لم توجد عسكرية منتظمة بعد فى يديه، وكان قد باشر فى ترتيب عساكر جديدة المرحوم السلطان محمود العادل الذى اضطر إلى التكتيل

(١) محمد مهري: سودان سياحته سي، ص ٣٤.

(٢) محمد مهري: سودان سياحته سي، ص ٣٥.

(٣) سليمان شكرى: السياحات الكبرى ص ٢٨٧.

(٤) الإنكشارية: من الكلمتين يگى جرى (سلاح المشاة الجديد)، قوات خاصة مميزة فى الإمبراطورية العثمانية، تم تأسيسها فى النصف الأول من القرن الرابع عشر على يد السلطان أورخان، وفى عام ١٨٢٦ قام السلطان محمود الثانى بالقضاء عليها.

بفرق الإنشكارية الفاسدة وذلك عندما ظهر عصيان الزيديين في اليمن^(١) والوهابيين في الجزيرة العربية^(٢) وتمرد الأكراد في خربوط^(٣) وفساد محمد باشا كور الرواندازلى في ديار الكركوك، وثورة المورة والجبل الأسود والصرب من ناحية وحروب الروس من ناحية أخرى^(٤).

- (١) الزيديون في اليمن: الزيدية: شعبة تنسب إلى زيد بن علي بن الحسن، وتقابل الإمامية، وهما أكبر فرق الشيعة. ولا تزالان باقيتين حتى اليوم.
- وبقدر ما عرف في الإمامية من تطرف كانت الزيدية معتدلة وأقرب إلى أهل السنة ولعل ذلك راجع إلى إمامها زيد بن علي الذي تتلمذ على واصل بن عطاء، فتأثر به في عمله وقوة حجته وسلامة حكمه، وظل الأتباع يعملون بعدهما حتى نجحوا في بعض البقاع، كطبرستان واليمن، ولا يزال معظم اليمنيين من الزيدية، وبخاصة في المناطق الجبلية.
- (٢) الوهابيون: الوهابية: فرقة إسلامية ظهرت في نجد وما حواليتها، وتنسب إلى محمد بن عبد الوهاب، تقوم على الأخذ بصريح الكتاب والسنة واعتباره الأصل له منها: أوجبت منع زيارة أضرحة الصالحين للتبرك، وهدمت القائم من القبور، ومنعت بعض العادات كالتدخين والقهوة. وقد أخذت مظهرًا حربيًا، فقاد الجيوش لحمل الناس عليها محمد بن سعود رأس الأسرة السعودية الحاكمة، وقتلوا الدولة العثمانية، حتى أخضعهم والى مصر محمد علي سنة ١٢٢٦ هـ - ١٨١١م، ثم استولوا على الحجاز والصحراء كلها في سنة ١٩٢٤، بقيادة عبد العزيز آل سعود والد الملك سعود والملك فيصل، وأتوا على كل قبور الصحابة بالهدم ولم يبقوا إلا معالم لبعضها.
- (٣) تمرد الأكراد في خربوط: من المعروف أن الأكراد، ومعظمهم مسلمون سنيون، يسكنون قرب الحدود التركية الإيرانية في المنطقة المحيطة ببحيرة قان، إلى جانب المنطقة المحيطة بديار بكر وأرضروم، وهم شعب محارب لم يقبل الحكم الأجنبي طويلاً خلال كل تاريخه. وظلوا قروناً يكافحون في سبيل الحصول على الاستقلال الذاتي عن الحكم العثماني.
- (٤) ثورة الصرب والمورة والجبل الأسود وحروب الروس: جرت في عهد السلطان سليم الثالث ١١٧٥ - ١٢٢٢هـ / ١٧٥٠ - ١٨٠٧م بعض الاضطرابات والفتن في بلاد الصرب التي أرادت الانفصال عن الدولة العثمانية. وعلى الرغم من إخماد تلك الثورة في عهد السلطان سليم الثالث، فإنها لم تهدأ واستمرت حتى أواخر سنة ١٢٢١هـ، ومع ازدياد تدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية تحت شعار حماية النصارى ثارت المقاطعات البلقانية ذات الأغلبية النصرانية، فقام الأروام في المورة بثورة على الإسلام سنة ١٢٣٧هـ / سنة ١٨٢١م وتمكن اليونانيون - بتحريض من الروس - من حرق الأسطول العثماني في ميناء جزيرة ساقر في عهد السلطان محمود ١١٩٩ - ١٢٥٥ هـ / ١٧٧٤ - ١٨٤٠م، الذي كلف محمد علي باشا لمناهضتهم، فأرسل إليهم عمارة بحرية تحت قيادة ولده إبراهيم باشا ولما وصلت إلى المورة انضمت عساكرها إلى عساكر الدولة وقتلوا اليونان وفتكوا بهم، ثم عقد مؤتمر لندن في ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤م وتم الاتفاق على استقلال المورة، وعلى أثر مؤتمر لندن أعلن الروس الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٢٤٥هـ وزحفت على بلاد الدولة، فاستولت على أكثرها حتى وصلت إلى أدرنة، وعندئذ عقدت معاهدة أدرنة التي من مقتضاها أن لا يقيم الإسلام في بلاد الأقالق والبيرغان وأن يحق لسفن الروس المرور بالبحر الأسود والبيقن، وبناء على هذا تمكنت المقاطعات البلقانية من الانفصال عن الدولة واندمج بعضها الآخر في الدول الأوروبية التي كانت تدعها.

ولم يسلم أحفاد محمد على باشا من انتقادات سليمان شوكت، وبخاصة توفيق باشا الذى يلقبه بالمغرض، حيث تمكن الإنجليز فى عهده من الدخول بسهولة بسببه، وذلك بسبب أنه لم يطور المدافع ذات الطراز العتيق، التى كان قد وضعها على سبيل الاحتياط سعيد "الأعمى" وإسماعيل "السفيه" وهما من أحفاد محمد على باشا "المكار"، فى القلعة.

ولم يكتفِ سليمان شكرى بهذا، بل إنه يفخر بأن الإنجليز فى ما مضى لم يكن بمقدرتهم مواجهة الدولة العثمانية، بسبب أنهم يعلمون أن الشوكة العثمانية كانت قد بلغت حد الكمال آنذاك^(١).

ولا شك أن توفيق باشا هو الذى مهد السبيل للإنجليز لى يربط الأسطول الإنجليزى والفرنسى فى الإسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢م، وذلك بإصداره منشورا خديوياً^(٢) إلى المديريات يحذر فيه من مشاعر المصريين تجاه الاحتلال الأجنبى، ويبلغى قرار التعبئة الذى كان قد أصدره وزير الجهادية فى مواجهة حالة الطوارئ التى نتجت عن وصول الأسطولين الفرنسى والإنجليزى إلى ميناء الإسكندرية^(٣).

(١) يقول سليمان شكرى: "محمد على باشا مكارينك احفادنن كور سعيد وسفيه إسماعيل باشانر، اورفتار ناهمواره يلتند كلرى فقط زمان أو زمان اولمديغنى شوكتى عثمانيه نك غايه كماله يتشدىكى بيلدكرندن جسارتنه مدكلرى صره ده، موقع مذکور ده كه قنعه يه احتياطاً قويدقلى طرز عتيق طولبرى دها شنيع بر فكره ذاهب توفيق باشا بد خواهى دكشنيرمديكى جهته اشارتيله گلان إنجلترا قولايجه غيرمشردر" السياحات الكبرى، ص ٢٨٧.

(٢) ينص هذا المنشور على: "كما أنه من حيث أن المراكب الحربية الأجنبية التى حضرت إلى الإسكندرية لم يكن حضورها إلا بوجه سلمى فقط، ولم يكن هناك شيء آخر خلاف ذلك، فليس هناك لزوم لإرسال أحد من عساكر الإمدادية الذين صار طلبهم أخيراً بمعرفة الجهادية، بل إن الموجود منهم تحت الحضور لهذا الطرف يصير إعادته لبلده، والذى تحت الحضور من البلاد يتنبه بصرف النظر عن حضوره".

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ١٣١، ١٣٢.

هذه هي الحقيقة، ولكن أين الدولة العثمانية؟! أين دولة الخلافة، تلك التى يفخر بها سليمان شكرى...؟! نعم كانت لها فى ما مضى شوكة عظيمة ولكنها آنذاك قد برحت بها الشيخوخة، ورغم أنها أرسلت لجنة إلى القاهرة لتقصى الحقائق، وصلت إلى الإسكندرية برئاسة مصطفى درويش فى ٧ يونيو سنة ١٨٨٢م، فإن السلطان عبد الحميد قد أرسل إلى القيادة المصرية بمنع ترميم حصونها منعاً للإشكالات التى تثيرها بريطانيا، وكانت رسالة السلطان عبد الحميد فى غير موضعها، فقد كان لا بد أن يقرن إرسال اللجنة العثمانية بإعلان التعبئة العامة، وتجهيز القوات للتصدى للعدوان الإنجليزى والفرنسى.

وإذا كان سليمان شكرى قد حمل توفيق باشا مسؤولية عدم تطوير المدافع فإنه لا بد أن يذكر أيضاً دور الأوربيين عبر أسرة محمد على فى تدمير القوة الجهادية للشعب المصرى أى الجيش بعد أن قُصّوا عدده وعدته وأغلقوا المصانع التى كانت تنتج السلاح وقطع الأسطول.

كما يتحدث سليمان شكرى عن القروض التى استدانها الخديو إسماعيل المطرود والتى بلغت عشرة أضعاف ما تم إجبار المصريين المساكين فى عهد توفيق باشا على تسويته ويبلغ أربعمئة مليون ليرة. فلم تكن الثروة الإسلامية التى صرفتها هذه العائلة الدنيئة التى نشأت من قهاوى قوالة الفاسدة، على رغباتها الشيوانية كيفما شاءت، لم تكن لها حد ولا حساب.

ويستشهد الكاتب ببيت فارسى يؤكد فيه أن أصل هذه العائلة يرجع إلى محمد على باشا الذئب المكار، حيث ينص هذا البيت على ما يلى:

إن الذئب يصير ذئباً فى النهاية ولو تربى مع الإنسان

ويصل السفه إلى الحد الذى يذكر فيه سليمان شكرى أن المبلغ الذى كان يدخل بيت المال المسلم، وقد أسس للحفاظ على الدين، قدر بسبعمئة وخمسين ألف ليرة، من المبلغ الكلى لمصر الذى يصل إلى اثنى عشر مليون ليرة، والباقي منه

يقتسمه عشاق لحم الخنزير الذين يتجولون متشردين في بلاد الإفرنج بدعوى النسب إلى الأسرة الحاكمة! لقد جرد الخديو الخزينة، منتقلاً في أوروبا للهو خلال معظم فترات السنة، تاركاً عمله وأمور وظيفته، بالإضافة إلى أنه كان يأخذ راتباً يبلغ اثنتى عشرة ليرة، وكذلك ابنه الذى لم يقطع بعد يبلغ راتبه خمسة عشر ليرة، ووالدته وحموه سبع عشرة ليرة، أما أقاربه فلا يعلم ما تم صرفه لهم^(١).

ويطيل سليمان شكرى فى نقده اللاذع لمحمد على وأبنائه وأحفاده، فيذكر أن محمد على باشا بن جمال إبراهيم قد قبض على زمام الحكم مثل فرعون فى حين أنه كان فقيراً، فقد كانت براعته الأساسية تظهر كنافخ للمزمار حتى يحين المساء فى مقامى قوالة، وذلك من أجل الحصول على قرشين بقشيشاً، قدمت عائلته إلى مصر ببندقية صدئة.

ومما يصفه به الخديوى عباس حليم باشا أنه ساذج اعتاد الذهاب إلى فيينا فى الربيع من كل سنة من أجل زيارة حرمه التى تزوجها فى الكنيسة الكاثوليكية^(٢).

ويشير عبد الغنى سنى بك إلى تشكيل الحزب الوطنى فى مصر وقت زيارته لها، وهدفه يتحدد فى الرقى والتطور، وشعاره "مصر للمصريين" ويجاهد

(١) يقول سليمان شكرى: "بدرجه سى اون ايكى مليون ليرايه بالغ قوجه مصر دن حفاظت دين ايجون متشكل بيت المال مسلمينه غيران سنوى يدى يوز اللى بيك ليرا دن عبارتكر. متباقيسى اوتوره دى عانله يه نسبت داعيه سيله فرنكستانده سرسرياته طولاشان لحم خنزير عاشقى لا يفلحونه لقمه اولمقده در. وظيفه سنى براقه رق سنه نك قسم أعظمى أوروبا ده اطفال فريبانه اكلنجه لرايله كچوران خديو اون ايكى بيك، ممه دن هنوز كسيلان اوغلى اون اونيشريك والده سى ايله حرص اون يديشر بيك ليرا ماهيه ألمقده صايقم ايله توكنكم بيلمز تعلقاى ايسه خزينه يى بشقه جه صويمقده در" السياحات الكبرى، ص ٢٨٨.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ٢٨٧.

من أجل المحافظة على حقوق المصريين ومصالحهم والرقى بهم ثقافياً وحضارياً^(١).

وطبقاً لما أورده عبد الغنى سنى بك من حديث دار بين صديقين مصريين فى القطار الذى استقله من القاهرة إلى السويس، نستشف منه رد الفعل المصرى المتحمس إزاء تطبيق قانون المشروطة، حيث يقول أحدهما:

- ينبغي على الحكام أن يطبقوا المشروطة ويقدروا أهميتها وقيمتها وأن يمنحوا الشعب عموماً حقوقهم كافة.

بينما يقول الآخر:

- لقد ألف الحكام حب الاستبداد، فهم لن يمنحوا الشعب هذا الحق مطلقاً ولن يضحوا باستبدادهم أبداً. وفى رأى أنه يجب على طبقات العامة أن يستتبروا بالمعرفة، وعندها سوف يحصلون على حقوقهم.

ورغم تأييد عبد الغنى سنى بك رأى هذين الرجلين، فقد أوضح لهما أن الحقوق لا تُمنح ولكنها تُكتسب، وذكر مثلاً لما حدث فى تركيا إبان إعلان القانون الأساسى الأول. فقد ضاعت الحقوق سريعاً بمجرد منحها، وهربت من قبل أن تتذوقها الأمة. إن الأمة لم تدرك قيمتها بعد، ولن يتأتى ذلك إلا بنشر المعرفة بين الشعب، وأن يستيقظوا من سباتهم العميق. ثم أتى بخير مثال على كلامه من هذا بثورة فرنسا العظمى^(٢).

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "تيمدى مصر ده بر "الحزب الوطنى = ناسيوناليسٲ = وطنبروران" فرقه سى تشكل ايتمش، خيلى ترقى وتوسع ده ايدىيور. بونارك املنى هب بونقطه تشكيل ايدىيور: مصر، مصر ليلركر! ... بو فرقه مصر ليلركر حقوق ومنافعى محافظه ايدىه جك، معارفى، مدنىتى، ترقيسى ايجون چاليشه جق" يمن يولنده، ص ٩٨.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق. ص ١٠٠.

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية للمصريين كما صورها الرحالة الأتراك
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

اهتم معظم الرحالة الأتراك الذين قدموا إلى مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتقديم صورة عن الحياة الاقتصادية لها، سواء من الناحية الزراعية أو الصناعية أو التجارية.

أولاً: من الناحية الزراعية:

نجد حرص هؤلاء الرحالة على أن يبدووا حديثهم بذكر فضل النيل على مصر - وهو ما سوف نفرّد له فصلاً خاصاً به - ومدى خصوبة أراضي مصر، حيث يعدها سليمان شكرى من أخصب أراضي قارة إفريقيا، وهي أحد أسباب الثروة الزراعية في مصر بالإضافة إلى اعتدال مناخها واشتغال معظم أهلها بالفلاحة^(١).

ويهتم محمد محسن بتسجيل قيمة العوائد التي كانت تحصل عليها الحكومة منذ فتح العرب لمصر، وحتى عهد محمد على في القرن التاسع عشر حين يرجع إلى إثبات العائد الزراعي من أيام الفتح الإسلامي فيقول: "يبلغ العائد النقدي الحكومي وحسب من حاصلات البلاد اثني عشر مليون دينار خلال فتح العرب لمصر، حيث تم تخصيص ثلثيه لأعمال الحرث وإنشاء القنوات والسدود، ووصل في ولاية سعد بن أبي سرح إلى أربعة عشر مليوناً، ويروى أنه قد تم حصر وتخصيص ثلثيه كذلك لمثل تلك الأعمال النافعة"^(٢).

(١) سليمان شكرى: سياحات الكبرى، ص ٣٣٧.

(٢) يقول محمد محسن: "اثناي فتحه مملكته حاصلاتي اون ايكي مليون ديناره يالكز مقبوض ميرى بالغ اولوپ بونك ثلثى حرث وقنال وسدرا نشا سنه تخصيص اولنمش اوليني وسعد ابن ابى سرح ولايتده اون درت مليون ديناره چيقوب كذلك ثلثى بومثلو اعمال نافع به حصر وتخصيص قلنمش ايدوگى مرويدر". (أفريقيا دليلى، ص ٢٧٢).

ثم يتعرض محمد محسن للأسباب التي أدت إلى انخفاض ثروة مصر الزراعية بعد ذلك، فيقول موجزاً إياها:

"وتدرجياً كان ظهور جملة من الاضطرابات الداخلية، ودخول كتائب الجيش الصليبي^(١) البلاد من السواحل، ومع وقوع العديد من الحروب الداخلية والخارجية، تناقصت الثروة الوطنية وهي تمثل الزراعة ومرادفاتها التي هي بمثابة روح المملكة، وانخفضت إلى درجة كبيرة جداً حتى إنها بلغت مليوناً حين استيلاء نابليون بونابرت عليها. وذلك لأسباب داخلية تتمثل في إعدام شيوخ البلد الذين وقّعوا تحت أيدي المنتصرين المالكين زمام إدارة البلد، ثم الأحداث السيئة التي مرت بها مصر نتيجة وقوعها تحت الاحتلال الإنجليزي بعد ذلك"^(٢).

وحينما ينتقل بنا الرحالة الأتراك إلى عهد محمد علي، نراهم يحرصون على تقديم صورة لهذا الحاكم الذي تخطت إنجازاته وأعماله حدود مصر ومحاولاته لإنماء ثروة مصر الزراعية، فيشير كل من محمد محسن ومحمد مهري إلى أن زراعة القطن كانت مجهولة قبل عهده، فهو الذي استحضر بذرته من الحبشة حين كان هناك سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٠م وغرسها وقت عودته إلى مصر، واستطاع أن يستفيد من زراعته، استفادة عظيمة وأمر بتعميمها بصورة جبرية على الأهالي لما له من إفادة جمة. ويزرع القطن في مصر السفلى^(٣).

ثم تحول بعد ذلك إلى زراعة قصب السكر، وقام بتطوير زراعته، ونظراً إلى رغبة الأهالي وميلهم إلى زراعته، فقد كثرت زراعته في مصر العليا^(٣).

(١) ويقصد الغزو الفرنسي لمصر بقيادة نابليون بونابرت في عام ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨م.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٣) محمد مهري: سودان سياحتي سي، ص ٢١.

ويؤكد كل من محمد محسن ومحمد مهري المكانة الهامة التي احتلتها زراعة القطن وقصب السكر بين المحاصيل الأخرى، فهما ثروة مصر وذخيرتها، أما مجهودات محمد علي في إدخال أنواع جديدة من الغلات في مصر، فتتمثل - كما يقول محمد مهري - في زرع أشجار الزيتون والبرتقال والليمون، إلا أنها كانت تزرع بكميات قليلة، وانحصرت زراعة الزيتون في الفيوم. وعلى الرغم من أنه غرس أشجار التوت بكثرة، فإنه لم يستطع أن يطور إنتاج الحرير في مصر. أما زراعة نخيل البلح فهي من أكثر المزروعات المثمرة الوفيرة، حيث ازدادت أعداد نخيل البلح في مصر على خمسة ملايين في عهده، وتزداد أعدادها سنة بعد أخرى، وتوجد بكثرة في صعيد مصر. وهناك أيضًا أشجار الموز والمانجو وغيرها من الأشجار المثمرة، وتزرع كذلك أشجار العنب بكميات ليست كثيرة، حيث يكفي إنتاجها للاستهلاك المحلي فقط^(١).

وتتم أعمال الري في مصر - كما يوضح محمد مهري - بطريقتين: أولاهما إغراق الأراضي بالمياه (بما يسمى ري الحياض بعد فيضان ماء النيل)، وهي أكثرهما أهمية. والثانية تتم باستخراج المياه من الترع ومن المجاري المائية بالآلات الصناعية. وعلى هذا النحو يتم الحصاد مرتين سنوياً وأحياناً ثلاث مرات. وفي الخريف يتساوى الليل والنهار في مصر مع بداية السنة. واعتباراً من تلك

(١) ويقول محمد مهري: "خطه مصرية نك الك بيوك ثروتى پاموق، شكر قامشى، برنج وذخيرہ دندر. پاموگك زرعى محمد على باشا مرحوم زمانندن اول مجهول اولوب، مشار اليه طرفندن ادخال اولنمش، واو وقتدن برى حاصلاتى سنه دن سنه يه ارتمقده بولنمشدر. مجدد مشار اليه پورتقال وليمون ايله زيتون دخى گوزل يتيشه بيليركن، بونلر مثمرة سى خرما اغاچلريد. بونندن اوتوز سنه اقدم بتون خطه مصرية ده بش مليوند زياده خرما اغاچى بولنوب، سنه يه مقدارلرى تزييد اولنمقده در. اك زياده صعيد مصر ده بولنان بو مبارك اغاچك ميوه سى واردر. موز، نار، وسائر اشجار مثمره سى دخى واردر. اوزوم بك ابى يتشديكى حاله، باغلرى چوق اولمبوب، انجق ينه جك قدر اوزوم يتشيرلر" (سودان سياحتنامه سى، ص ٢٣).

الأيام لا يمكن أن ينشغل أهلها على الإطلاق بعمل خاص بالزراعة طوال ثلاثة شهور هي فصل الخريف وينتظرون انحسار المياه وتملئ الحقول خلال هذه الشهور الثلاثة بالمياه وتغيض بالمياه داخلها مثل الإسفنج، وما تكاد المياه تتحسر في تشرين الثاني (نوفمبر) حتى يبدؤوا في نثر البذور، بينما تكون الأراضي لا تزال موحلة فلا تحتاج البذور إلى الفأس والمقلاع، فتدفن بداخل الطين اللزج. ثم يبدأ حصاد هذا الموسم في شباط (فبراير) وينتهي في نيسان (أبريل). وأهم محصولاته البرسيم والبازلاء والحمص والفول والكتان والقمح. ويطلق على هذا المحصول الشتوى اسم المحصول النيلي.

وما يكاد يتم حصاد هذا المحصول حتى تبدأ زراعة محصول آخر، يطلق عليه اسم "المحصول الصيفي". ويتم استخراج المياه ببعض الآلات من النيل والقنوات، وتتم هذه العملية بطريقتين: الأولى بمعاونة الدواليب ذات القواديس التي يطلق عليها كذلك اسم ساقية. والثانية بمساعدة "الدلو" أو "الشادوف"، وهو عبارة عن جردلين عميقين متدليين من طرفيهما بحبل مثل الأرجوحة، ويحركهما رجل، وحينما يمتلئان بالماء يرفعان إلى أعلى، حيث يصب ما بهما داخل علب من صفيح، ومنها إلى الحقول^(١).

وبالإضافة إلى هاتين الآلتين الموروثتين من زمن الفراعنة، إذ يظهر رسمهما في الآثار منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة، يشير محمد مهري إلى أن أهالي مصر بدؤوا يستعملون المضخات والماكينات، التي استحدثتها التقنية الحديثة^(٢) إذ ذاك، وتسقى بواسطتها أراضٍ شاسعة بسهولة كبيرة.

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) جلب محمد على باشا من أوروبا كل الآلات الزراعية والأدوات الحديثة اللازمة لخدمة الحقول والتي كان يعلن عنها في الصحف الأجنبية ويوصي العلماء بفائدتها الجسيمة، إلى جانب الآلات والوسائل التي يستخدمها الفلاحون في الزراعة والرى منذ القدم.

وأهم محاصيل النوع الثانى، التى تزرع فى الربيع بهذه الوسائل الحديثة، القطن والأرز وقصب السكر والذرة والتيلة، وبعض الأصناف التى تستخدم علفاً للحيوانات، وأحياناً يتم حصاد المحصول الثالث حيث يمكن رى الأراضى بالطرق الصناعية^(١).

ونتيجة حصاد هذه المواسم الثلاثة (الشتوى والصيفى والنيلى) خلال السنة الواحدة، ازدادت مساحة الأراضى الزراعية فى ذلك العهد - كما يؤكد معظم الرحالة الأتراك - فقد قدرها محمد محسن^(٢) بأربعة ملايين وتسعمئة وستين ألفاً وأربعمئة واثنين وستين فداناً سنة ١٨٨٧م، بينما يقدرها محمد مهرى بسبعة ملايين وخمسمئة وسبعة وتسعين ألفاً وثمانمئة وتسعة وخمسين فداناً عام ١٩٠٦م منها ٧٢٨٩٧١ فداناً جهة الشمال و٢٨٦٨٨٨٨ فداناً جهة الجنوب. وهذا يدل على أن مساحة الأراضى المنزرعة قد ازدادت خلال تسعة عشرة عاماً ثلاثة ملايين من الأفدنة، ويرجع محمد مهرى هذه الزيادة إلى جهود الحكومة المصرية فى تعمير البلاد، وإنشاء السدود والقنوات^(٣).

كذلك يؤكد سليمان شكرى بناء على استدلاله بالإحصاءات الرسمية أن عدد الآلات الرافعة البخارية التى تستعمل فى رى الأراضى المرتفعة بلغ ألفين وسبعمئة آلة، منها ألفان ومئتان وخمسون رافعة متحركة، ومئتان وخمسون رافعة ثابتة. أما عدد السواقي التى تدور بالحيوانات فقط لا بالأيدي فعددها تسعة وثلاثون ألفاً ساقية، ويبلغ عدد أنواع المحاصيل الزراعية الخاصة بالفواكه والحبوب ألفاً وثلاثمئة نوع^(٤).

(١) محمد مهرى: المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق ص ٢٧٢.

(٣) محمد مهرى: المصدر السابق ص ٢٤.

(٤) يقول سليمان شكرى: "بوقطعه نك ارضى مرتفعه سى مصر السفلى مزرعه لرى كجى نيك دوره ناقصنده استعمال ايدملك اوزره بالمجبوريه تهيئه قلنان رافعه بخاريه ايكى بيك يديويوز عدددا اولوپ بونك ايكى بيك ايكى يوز الليسى متحرك ودرتيوز الليسى ثابت ايدوكى رسمى استاتسيقارده گوسترلمكده در . حيوانات ايله دونر سواقي ايله اوتوز طقوز بيك اولوپ ال ايله چوريلانلر حسابى يوقدر . حبوبات وفواكه متعلق حاصلات ارضيه سى بيك اوچيوز نوعه بالغ اوليبيور". (سياحات كبرى ص ٣٤٧).

ولا يكتفى هؤلاء الرحالة بذكر أسباب هذه الثروة الزراعية لمصر، بل إنهم يصرون على تقديم إحصائيات متنوعة، خصوصاً محمد محسن^(١) الذى أفرد العديد من الصفحات بيّن فيها مساحة الأراضى المزروعة فى كل موسم، ووزع المحاصيل الزراعية المختلفة على المديرىات فى جداول مختلفة تبين مقدار زراعة كل محصول على حدة خلال حصاد موسم واحد، أو موسمين أو ثلاثة مواسم، وليس المحاصيل فحسب، بل إنه وزع أيضاً الأشجار المثمرة والنخيل وأعدادها فى مختلف المديرىات، وكذلك أفرد جدولاً خاصاً بعدد الحيوانات ووسائل النقل التى تستخدم فى الزراعة.

أما سليمان شكرى^(٢)، فيذكر مدى استفادة الفلاح من هذه الثورة الزراعية، فيتحدث عن قيمة كل محصول بالليرة الإنجليزية، فالقطن الذى تزرعه مصر بما لا يقل عن خمسة ملايين قنطار، تبلغ قيمته عشرة ملايين ليرة إنجليزية. ومحصول الذرة الذى يصل إلى ثمانية ملايين أردب يقدر بستة ملايين وثلاثمئة ألف ليرة إنجليزية. وزراعة قصب السكر التى تنتج مليون قنطار تصل قيمتها إلى خمسة عشرة مليون ليرة إنجليزية. والبرسيم، وهو غذاء الحيوان، يقدر بأربعة ملايين وسبعمئة ألف ليرة إنجليزية. ويحرص سليمان شوكت على أن يختتم هذه الفقرة بدعائه لله تعالى أن يبارك فى رزق المصريين الأقوياء.

ويحرص خالد ضيا^(٣) على إبراز جهود محمد على فى مجال الزراعة، وبخاصة فى ما يتعلق بإنشائه القناطر الخيرية، فقد أفرد لها صفحات طوالاً وصفها فى بداية حديثه عنها بأنها المتحكمة فى مجرى النيل وعمار مصر وحياتها. وكان يطلق عليها اسم القناطر المجيدية، ثم تحول إلى "القناطر الخيرية"، ويذلل بحثه هذا

(١) محمد محسن: المصدر السابق من ص ٢٧٣ إلى ص ٢٨٧.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق ص ٣٣٨.

(٣) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٠.

بهامش يذكر فيه صورة من الرسالة التى بعث بها محمد على إلى الباب العالى فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م، بخصوص وضع الأساس لهذا المشروع الذى شيده مهندس فرنسى اسمه موجل، وأنفق عليه مليونى ليرة تقريباً.

ويشيد خالد ضيا بهذا المشروع، الذى يعد من أسباب التطور والعمران فى مصر.

وتعد زيارته للقناطر الخيرية من الأشياء الميمة التى لا تفوت خالد ضيا، فهو حريص على تقديم المعلومات كافة المتعلقة بها واستعان لذلك بسكرتير مصالح الرى هناك، وبتعريف بسيط لهذا البناء الضخم يوضح خالد ضيا أنها عبارة عن كوبرى ذى طابقين قوى للغاية، يبلغ طوله كيلومترين، أقيم من أجل العبور من الساحل إلى الدلتا وبالعكس. وقد أقيمت دعاماته وقناطره بعناية فائقة، وتتغلق عيونه بسدود حديدية مُحكَّمة ومنظمة تتحرك عمودياً، وتوجد فوق الكوبرى ماكينات كهربائية مجهزة، لتسيير المياه بالدرجة المطلوبة وما يلفت النظر دقة ملاحظة خالد ضيا، وحرصه الشديد على الاستفادة من كل شئ يشاهده، وما تقع عليه عيناه فى ذلك المكان الذى يعتبره من الآثار العظيمة، حتى إنه أورد خلال بحثه هذا ثمانى صور لها التقطها من زوايا مختلفة^(١).

ثانياً: التجارة:

أ- التجارة الخارجية:

تتبع محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى" حال التجارة الخارجية منذ عهد القدماء المصريين، حيث "كانت توجد علاقات تجارية بين مصر وآسيا الصغرى وسواحل الشام وإيطاليا والهند وإيران وجزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر.

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.

وكانت هذه العلاقة تتزايد أحياناً إلى أن أصابها التدهور في ظل هجوم الصليبيين على العالم الإسلامي، واضطراب أحوال مصر الداخلية في أواخر حكم الأيوبيين. ثم ينتقل محمد محسن إلى حال التجارة في عهد دخول مصر تحت الحكم العثماني، حيث لم تشهد أى تطوير يُذكر خلال تلك الفترة، على الرغم من استمرار المعاملات التجارية بين مصر وباقي البلاد الأخرى، فقد أثرت الحيل والمكايد التي كان يدبرها الأمراء الجراكسة الذين اقتحموا البلاد بعد تاريخ سنة ١٠٠١، بعضهم ضد بعض، وضد موظفي السلطنة الكبار. ومروراً بالأحداث السيئة التي مرت بالبلاد منذ استيلاء نابليون بونابرت، ثم الاحتلال الإنجليزي، تدهور حال التجارة تدهوراً كبيراً. وفي ظل الجهود المستمرة التي بذلها محمد على لنهضة البلاد، توسعت دائرة التجارة توسعاً فوق العادة^(١)، وصارت لمصر علاقات تجارية مع السودان وإفريقيا الوسطى من ناحية، ومن ناحية أخرى مع أوروبا والهند وباقي البلاد، فقد تم تصدير المحاصيل الزراعية والمشغولات الصناعية إلى السودان، والأقمشة الأوربية. واستيراد سن الفيل والنظرون والتبر والتمر الهندي وفرس

(١) يقول محمد محسن: "خطه مصريه نكّ قدام مصريون عصرنده دخى بحر احمر جهتندن هند ويران وجزيره العرب وبر الشام وايتاليا سواحلى وآسيائ صغرى ايله مناسبات تجاريه سى وارايدى. بومناسب ادوار مختلفه ده كاه تزايد وكاه ترقى ايدر ايدى. اهل صليبيك عالم اسلاميته تهاجمى ودولت ايوبيه نكّ اواخر سلطنتده احوال داخلية مصريه نكّ اغتشاش وتذبذبى مناسبتريله تجارت اسكى رونقنى ضايغ ايتمش وخطه مصريه دولت عليه عثمانيه نكّ حوزة اداره سنه گجو پده گيرديگى دور تجدد ايجنده دخى جزيرة العرب وممالك محروسه نكّ اقسام سائره سيله وكذا اوروبانك بعض قبييليله ابيجه معاملات تجارية ده ده دوام ايتمش اولد يغي حالده بيك يوز تاريخلرندن صكره خطه داخلنده فرجه لنان امرای جراكسه نكّ يكد يكرى ومركز سلطنت عظمائك هاورلرى عليهنده ايلد كلرى انتريقه لرى احوال مملكته بالطبع تأثيريله وسيمه بونابارطك استيلاسى وبحراً إنجليز طرفندن ابلوقه اولنمش محمد على باشانك اعمار مملكت امرنده وقوعيلان مساعى واقدامى سايه سنده دائره تجارت فوق العادة توسع ايتمش." (أفريقيا دليلي ص ٢٤٨ - ٢٤٩).

النهر والجمال والنمور والصمغ وفرو الحيوان وأحجار الشب ووبر النعام وغيرها. وتتم عملية التصدير إما بواسطة القوافل التجارية، وإما بواسطة النيل.

وتشمل أهم صادرات مصر إلى أوروبا القطن والسكر والبقول والبصل وغيرها، وكذلك المواد السابق ذكرها التي تُستورد من السودان^(١).

وقد سمحت الظروف التي مرت بها أمريكا طوال مدة الحروب الداخلية، بالتوسع في الثروة المحلية من القطن بسبب انحسار بيع القطن الذي تحتاج إليه مصانع أوروبا على مصر وحدها^(٢). وعلى الرغم من ذلك لم توفِ صادرات مصر من القطن بالاحتياجات الضرورية بسبب المادة الليلية الموجودة به.

ويحرص معظم الرحالة الأتراك على تقديم بعض الإحصاءات عن قيمة الصادرات والواردات الخاصة بتلك الفترة، وبخاصة محمد محسن الذي قدم في النهاية العديد من الجداول الإحصائية لأهم الصادرات والواردات في سنتي ١٨٩٠ و١٨٩١، موضحاً حجم كل صادر ووارد وقيّمته بالليرة المصرية^(٣).

وكذلك بقدر محمد مهري قيمة صادرات مصر من المحصولات إلى أوروبا وإلى الممالك العثمانية بنحو ١٤ مليون ليرة مصرية، منها تسعة ملايين ونصف من القطن، ومليون وثلاثمائة ألف من بذرة القطن، ونحو مليونين من البقول، ومئة وخمسون ألفاً من البصل. ونتيجة لرواج التجارة الخارجية وازدهارها تزداد أيضاً الثروة الوطنية ورفاهية الشعب. وخلال رحلة عبد الغنى سنى بك من أثينا إلى الإسكندرية، يشير إلى تبادل تجارى بين البلدين، حيث قدر إجمالي استيراد الأولى

(١) محمد مهري: المصدر السابق ص ٢٦.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق ص ٢٤٩.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، من ص ٢٥١ إلى ص ٢٥٦.

من مصر بخمسة عشر ألف درخمة، في مقابل تصدير أثينا إلى مصر بما قيمته ثلاثة ملايين درخمة^(١).

ويقدر سليمان شكرى قيمة الصادرات في سنة واحدة بخمسة عشر مليوناً وسبعمئة وثلاثين ألفاً وثمان وثمانين، في مقابل استيراد بقدر بخمسة عشر مليوناً ومائتان وأربعة وأربعين ألفاً وتسعمئة وثمان وثلاثين ليرة إنجليزية.

وأهم الواردات الدخان والسجاد الإيراني والفواكه الأناضولية والقهوة وغيرها. وعلى الرغم من ذلك يشير سليمان شكرى إلى ازدياد ثروة مصر الداخلية، بما يتجاوز أربعمئة وخمسة وثمانين ألفاً ومئة وخمس ليرات بالعملة الإنجليزية سنوياً^(٢).

ويهتم محمد مهري بإلقاء الضوء على أهم الموانئ التجارية الموجودة في مصر حسب ترتيبها من حيث الأهمية، وهي الإسكندرية ثم دمياط ورشيد وبورسعيد، وكذلك توجد خطوط سكك حديدية تصل هذه الموانئ بالقاهرة، بالإضافة إلى فروع أخرى للسكك الحديدية في مصر السفلى تتجه إلى كل مكان بها على هيئة شبكة، وهناك خط كبير يتتبع مجرى النيل من القاهرة، وفي عهد الخديو سعيد تم مد الخطوط من مدينة أسوان حتى الخرطوم^(٣).

ولا ينسى محمد عزت^(٤) أن يذكر أهم مشروع تم تنفيذه في مصر، وأدى خدمة جلية للتجارة الخارجية، وهو مشروع قناة السويس الذي بدأ العمل فيه سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، وانتهى سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م. كما يهتم محمد عزت بتقديم معلومات عن فكرته منذ العصور القديمة في عهد القدماء المصريين، فتحدث عن

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ١٧، ١٨.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٨.

(٣) محمد مهري: المصدر السابق ص ١٢٤.

(٤) محمد عزت: المصدر السابق ص ٦٢.

محاولات نحاو الثاني، وهو من الأسرة الثامنة والعشرين، فى وصل البحر الأحمر بالنيل، ثم فى عهد كليوباترا، وحتى الفتح الإسلامى لمصر. وبعد ذلك استعرض فكرة المشروع منذ القرن السابع عشر، وحتى زمن تنفيذه فى عهد سعيد.

ويبلغ طول قناة السويس مئة وستين كيلومتراً وعرضها مئة كيلومتر، وعمقها ثمانية أمتار. وقد أنفق على إتمامها خمسمئة مليون فرانك، وبلغ عدد العمال الذين قاموا بحفرها خمسة عشر ألف عامل^(١).

ويوجز محمد مهرى فى كتابه الفوائد التى عادت على مصر من هذا المشروع، فقد صار ممراً تجارياً كبيراً يصل بين أوروبا وآسيا وأستراليا^(٢).

ب- التجارة الداخلية:

تتخصص التجارة الداخلية فى المحاصيل الزراعية مثل القطن والحنطة والشعير والفول والعدس وغيرها، وفى المواد الصناعية مثل السكر والصابون والكبريت والأقمشة الحريرية والقطنية والصوفية والجلدية وغيرها^(٣).

وقد سهلت إقامة الخطوط الحديدية تنظيم التجارة الداخلية، وتنشيطها، ويذكر محمد محسن أنها قد دخلت الديار المصرية فى عهد عباس باشا سنة ١٢٦٥هـ. وتم الإنفاق عليها من الخزينة المصرية العثمانية، وقد افتتح أول خط بين القاهرة والإسكندرية. واعتباراً من ذلك التاريخ امتدت الخطوط إلى كل مكان بمصر، أقيم معظمها فى عهد الخديو الراحل إسماعيل باشا، بل إنها امتدت من وادى حلفا حتى الساحل الشرقى، ومنه إلى الساحل الغربى، وقد اعترض هذا المشروع العديد من

(١) يقول محمد عزت: "مذكور قتال سويس طولى ١٦٠ كيلومتر وعرضى سطح مائه وعمقى دعى ٨ متر اولوپ ١٥٠٠٠ عمله قوتيله ٥٠٠ مليون فرانقه مال اولمشدر. (يگى أفريقيا ص ٦٧).

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٨.

المواقف، فعندما تم الاتفاق مع شركة أجنبية لمد الخطوط من دنقلة القديمة، وحتى الخرطوم بأربعة ملايين ليرة، لم ينفذ نتيجة ظهور المشكلات المادية، ومع إعطاء هذه الشركة ستة وثلاثين ألف ليرة مصرية تم مد الخطوط من القاهرة حتى جرجا وبعد ذلك حتى أسوان ومن أسوان حتى الشلال الأول، ومن وادى حلفا حتى سراس^(١)، وأعطى كل خط من الخطوط التي تصل من القاهرة إلى حلوان، ومن الإسكندرية إلى المنزه وأبى قير، لإحدى الشركات الأجنبية، ثم امتدت الخطوط من جرجا إلى فنا ثم إلى أسوان، وإزاء هذا تعطى لهذه الشركات امتيازات خاصة، بالإضافة إلى إخضاع إيراداتها نتيجة الديون الأجنبية تحت إدارة مختلطة من موظفى الدول الست مع مصر فى أثناء أزمته المالية. ويبين محمد محسن فى نهاية حديثه أن طول هذه الخطوط الحديدية داخل البلاد يبلغ ١٧٥٠ كيلومتراً، طبقاً للتحقيقات الرسمية، ثم يوضحها محمد محسن فى جداول تفصيلية، مع ذكر الخطوط المتقرعة منها^(٢).

ويكتفى محمد عزت بذكر الخطوط التي تصل بين القاهرة والإسكندرية، وبين الإسماعيلية والسويس^(٣)، أما عبد الغنى سنى بك، فقد أشاد بسرعة القطارات فى مصر خلال سفره من الإسكندرية إلى القاهرة، ويذكر أنه كان يسمع من قبل عن تلك السرعة التى لمسها خلال سفره هذا، فالقطار يقطع ٢٠٩ كيلومترات من الإسكندرية إلى القاهرة خلال ثلاث ساعات أى بمعدل سبعين كيلومتراً فى الساعة^(٤).

ويقدر محمد مهري^(٥) طول الخطوط الحديدية فى مصر، وقت زيارته لها، بألفين وأربعين كيلومتراً، أما سليمان شوكت فيقسم القطارات فى مصر إلى قسمين:

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) محمد عزت: يكى أفريقيا، ص ٦٦.

(٤) يقول عبد الغنى سنى بك: "مصر شمنوفرينك سرعته اوتة دن برى ايشيديردم. بودفعه مسموعات مشهوداته تحول ايتدى. حقيقة ترن، بوخطده بر سرعت عظيمه ايله كيديور. اسكندريه دن قاهره يه قدر (٢٠٩) كيلو مترولق مسافة پى اوچ مساعدته قطع ايتيگنه كوره مساعدته يتمش كيلو متر وقدر أليور ديمكدر. (يمن يولنده، ص ٦١).

(٥) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٢٧.

(١) الخطوط الحكومية:

أغلب القطارات في مصر تابعة للحكومة. وتتكون الوزارة التابعة لها من ثلاثة أعضاء: إنجليزي وفرنسي ومصري، وتبلغ ثروة الحكومة من السكك الحديدية ألفين ومئتين وستة وعشرين كيلومتراً. أما القطارات المنسوبة إلى الشركات الأجنبية فهي عبارة عن مجموعة خطوط منيعة يطلق عليها اسم "الخطوط الزراعية".

ويبين سليمان شكرى الخطوط الحكومية وطولها بالكيلومتر، وهي:

١- خط بين الإسكندرية والقاهرة، وطوله ٢٠٨ كيلومتراً، ومحطاته المشهورة قليوب وبنا وقويسنا وبركة السبع وطنطا وكفر الزيات وإيتاي البارود ودمنهو وأبوحمص وكفر الدوار.

٢- خط من قليوب إلى المنصورة، وطوله ١٣٠ كيلومتراً، ومحطاته المشهورة نوى وشبين القناطر وبلبيس والزقازيق وهيا وأبو كبير وكفر صقر والسنبلاوين.

٣- خط من قليوب إلى القناطر الخيرية، وطوله عشرة كيلومترات.

٤- خط من بنا إلى السويس، وطوله ١٩٩ كيلومتراً ومحطاته المشهورة منيا القمح والزقازيق، والتل الكبير والإسماعيلية ونفيسة وحنيفة^(١).

٥- خط من بنا إلى ميت برة، وطوله عشرة كيلومترات.

٦- خط بين طنطا ودمياط، وطوله ١٢١ كيلومتراً، وأشهر محطاته محلة الروح والمحلة الكبرى وسمنود وطلخا وشربين وفارسكور.

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٢.

ولهذا الخط خط فرعى طوله ثمانون كيلومتراً يتجه من شربين إلى مناطق بلقاس وبيلة وكفر الشيخ.

٧- خط من طنطا إلى أشمون طوله ٣١ كيلومتراً، وأشهر محطاته تلا وشبين الكوم ومنوف.

٨- خط من محلة الر : إلى زفتى طوله ٣١ كيلومتراً، ومحطاته المعروفة القرشية وسنطة.

٩- خط من محلة الروح إلى دمنهور، طوله ٧٣ كيلومتراً، ومحطاته المشهورة قلين ودسوق والرحمانية.

١٠- خط من سيدى جابر إلى رشيد، طوله ٦٦ كيلومتراً، ومحطاته المشهورة الرمل وأبو قير وإدكو.

١١- خط بين الإسكندرية والمكس، طوله ١٨ كيلومتراً، ومحطاته المشهورة الخضرة والنزهة^(١).

١٢- خط من البصيلي إلى إدفينا، طوله ١١٩ كيلومتراً، وأشهر محطاته بولاق الدكرور والمناشي، والوردان، وكفر داود وكوم حمادة.

١٣- خط من القاهرة إلى شلال أسوان، طوله ٨٩٣ كيلومتراً، وهو خط كبير، وأشهر محطاته إمبابة والجيزة والبدرشين والعياط والواسطي وبنى سويف وبيبا الكبرى والفسن ومغاغة وبنى مزار وسمالوط والمنيا وأبو قرقاص والروضة وملوى وديروط ومنفلوط وأسيوط وأبو تيج وصدفا وطما وطهطا وسوهاج والمنشأة وجرجا والبلينا وفرشوط ونجع حمادى ودشنا وقنا وقوص والأقصر وأرمنت والمطاعة وإدفو ودراو وأسوان.

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٣.

١٤- خط من الواسطى إلى الموقع المسمى أبواكساه، طوله ٦٣ كيلومتراً. وأشهر محطاته الفيوم، وله فروع من الفيوم إلى الموقع المسمى سنورس وطوله اثنا عشر كيلومتراً.

١٦- خط من قنطرة الليمون بالقاهرة إلى المرج، طوله ١٤ كيلومتراً. وهو خط صغير، وأشهر محطاته الدمرداش وسراى القبة والزيتون والمطرية^(١).

وغير هذا يوجد فى الوجه القبلى خطوط ضيقة من أجل نقل قصب السكر إلى معامل العصر الموجودة فى الأملاك الخديوية، وطولها خمسمئة كيلومتر.

(٢) الخطوط التابعة للشركات الأجنبية:

١- الخط المتجه من باب اللوق بمصر إلى حلوان، طوله ثلاثون كيلومتراً ويتبع الشركة المسماة "سوارس"^(٢).

٢- الخط المتجه من الإسماعيلية إلى بورسعيد، طوله خمسون كيلومتراً، وهو تابع لشركة خط القنال.

٣- خط من الإسكندرية إلى الرملة، طوله عشرة كيلومترات.

وهناك خطوط السكة الزراعية الضيقة، بعضها تابع للشركة الوطنية ويمتد من المنصورة إلى المطرية، وهى تمر من أراضي الجيزة والغربية، والدقهلية والشرقية، أما الباقي فيتبع الشركات الأجنبية.

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٣.

(٢) شركة سوارس هى شركة بلجيكية.

ويوضح سليمان شكرى الخطوط التابعة للشركة البلجيكية فى مديرية البحيرة وطولها أيضًا فى ما يلى:

- ١- من دمنهور إلى حوش عيسى وكفر الدوار، وطوله ٧٢ كيلومترًا.
- ٢- من دمنهور إلى العطف، وطوله ٢٠ كيلومترًا.
- ٣- من دمنهور إلى الدلنجات وإيتاى البارود، وطوله ٤٨ كيلومترًا.
- ٤- من دمنهور إلى شبراخيت، وطوله ٣٠ كيلومترًا.
- ٥- من الدلنجات إلى ببيان والطرد، وطوله ٣٢ كيلومترًا.
- ٦- من إيتاى البارود إلى شبراخيت، وطوله ١٩ كيلومترًا.
- ٧- من شبرى حينث إلى منية سلامة، وطوله ٧ كيلومترات.
- ٨- من شنديد إلى كفر عوان، وطوله ٧ كيلومترات^(١).

وفى مديرية الغربية:

- ١- من طنطا إلى مناطق كفر الزيات مارًا بمحلة مرحوم وأبيار وبرما والدلجمون، وطوله ١٥ كيلومترًا.
- ٢- من طنطا وقطور مارًا بقحافة وميت السودان وبرنج ودمساط، وطوله ٣٥ كيلومترًا.
- ٣- من طنطا وشبين، مارًا بأبيار وبرما والحداد وبسيون وتجريت، وطوله ٣٥ كيلومترًا.

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق. ص ٣٤٤.

٤- من طنطا إلى المحلة الكبرى إلى سخا ماراً بالمعتمدية والمسير، طوله ٣٨ كيلومتراً.

٥- من المحلة الكبرى وقطور ماراً ببلتاج، وطوله ٢٦ كيلومتراً.

٦- من المحلة الكبرى إلى الشين ماراً بالمعتمدية وسخا، طوله ٣٨ كيلومتراً.

٧- من طنطا بالمحلة الكبرى ماراً بنبروه وتيرة، وطوله ٣٣ كيلومتراً.

٨- من زفتى إلى بركة السبع ماراً بهورين، طوله ١٤ كيلومتراً.

٩- من زفتى إلى سنباط، وطوله ١١ كيلومتراً.

وفي مديريات الدقهلية والشرقية والقليوبية خطوط هي:

١- من المنصورة إلى دكرنس والمطرية، وطوله ٦٨ كيلومتراً.

٢- من سلامون حتى الطناج والمحلة، وطوله ٣٦ كيلومتراً.

٣- من ميت غمر إلى المنصور، وطوله ٤٥ كيلومتراً.

٤- من منية سمند إلى السنبلاوين، وطوله ٢٣ كيلومتراً.

٥- من ميت غمر إلى السنبلاوين، وطوله ٢٣^(١) كيلومتراً.

٦- من السنبلاوين إلى الزقازيق، وطوله ٣٤ كيلومتراً.

٧- من ميت غمر إلى بنها، وطوله ٣٢ كيلومتراً.

٨- من بنها إلى القناطر الخيرية، وطوله ٣٢ كيلومتراً.

٩- من ديرب نجم إلى الإبراهيمية وههيا، وطوله ١٧ كيلومتراً.

١٠- من الإبراهيمية إلى أبو كبير، وطوله ١٢ كيلومتراً.

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٥.

- ١١- من أبو كبير إلى أبو حماد، وطوله ٢٣ كيلومتراً.
 - ١٢- من أبو حماد إلى بلبس، وطوله ٢٠ كيلومتراً.
 - ١٣- من بلبس إلى منيا القمح، وطوله ٢٥ كيلومتراً.
 - ١٤- من أبو مسلم إلى بردين، وطوله ١٢ كيلومتراً.
 - ١٥- من برشوم إلى ترعة الإسماعيلية، وطوله ٣٢ كيلومتراً.
- والخطوط الموجودة في مديرية الفيوم هي:
- ١- من الفيوم إلى غرق السلطاني، وطوله ٢٩ كيلومتراً.
 - ٢- من الفيوم إلى نزلة، وطوله ٢٥ كيلومتراً.
 - ٣- من الفيوم إلى اللاهون، وطوله ٢٠ كيلومتراً.
 - ٤- من الفيوم إلى كلمشاه، وطوله ١٨ كيلومتراً.
 - ٥- من العدو إلى طامية، وطوله ١٩ كيلومتراً.
 - ٦- من المعصرة إلى سنورس وترسا، وطوله ٥ كيلومترات.
 - ٧- من مطرطاس إلى الروبيات والروضة^(١)، وطوله ١٤ كيلومتراً.
- هذا عدا الخطوط التي بدأ إنشاؤها وهي:
- ١- من الصالحية إلى القنطرة.
 - ٢- من أشمون إلى القناطر الخيرية.
 - ٣- من قنا إلى القصير.
 - ٤- من شلال أسوان إلى حلفا والخرطوم^(١).

(١) شمين شكري: المصدر السابق، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) شمين شكري: المصدر السابق ص ٣٤٦.

أما الخطوط التلغرافية، التي بدأ إنشاؤها في عهد سعيد باشا، وتألّفت منها شبكة ممتدة الفروع بين مختلف البلدان، فقد ذكر محمد محسن أنها كانت تمتد من مصر حتى الخرطوم وشرقي السودان، إلا أنها أُلّفت بسبب الأحداث الأخيرة، ويوجد كذلك خط تلغرافي في أماكن عديدة بمحطات القطارات في الشمال والجنوب، وهناك أيضاً خطان للاتصال بالدول الأخرى من مصر، أحدهما خط لشركة إنجليزية، وهو يبتلع معظم الاتصالات بين مصر وأوروبا، وقد أقيم تحت البحر، والآخر خط الاتصال الذي يستغرق ساعتين ونصفاً بدار سعادت وبلاد العجم (إيران)، متصلاً بقسم من خطوط الممالك العثمانية من العريش في الشرق. بالإضافة إلى تلك الخطوط الممتدة من أسوان ووادي حلفا، وسراية جنوباً، والمرهونة إيراداتها مثل القطارات، بسبب الديون، وتجرى اتصالات لسواكن والبحر الأحمر والجزيرة العربية والهند من خلال أسلاك تلغرافية^(١)، ويقدر محمد محسن مجموع مسافات تلك الخطوط بتسعة آلاف وخمسمئة وستة وعشرين كيلومتراً، غير أن سليمان شكرى يقدرها بثلاثة آلاف وثلاثمئة وتسعين كيلومتراً^(٢).

بالإضافة إلى خمسة خطوط ظلت تحت إدارة شركة القطارات:

١- خط أسوان ووادي حلفا.

٢- خط قنا والقصير.

٣- خط دمنهور ورشيد.

٤- خط السويس وطور.

٥- خط الصالحية والعريش.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق ص ٣٤٦.

وبلاصق الخط الخامس خطوط أوروبا ومنها إلى الآستانة من أجل الاتصال بخطوط سوريا وغزة وبافا. ولهذه الخطوط التي تبلغ ثلاثمئة وعشرة مركز ثابت، ولها أيضا مراكز في جميع محطات القطارات تبلغ ثلاثمئة واثنين وسبعين مركزا. أما مكاتب البريد التي تقبل التلغرافات والنقود فبلغ عددها جميعا ستمئة مكتب^(١).

وفي بحثه المستقل عن "مكاتب البريد في مصر" يشيد خالد ضيا^(٢) بهذا النظام الذي عرفته مصر وصار نموذجا ممتازا نظرا إلى حسن إدارته، ودقة معاملاته، لذا فهو يعد من الأشياء الجديرة بالذكر كما يقول خالد ضيا، ومن ثم فهو يقدم لنا وصفا دقيقا عن مكتب البريد الوحيد الكائن في الشارع المؤدى إلى العتبة الخضراء بميدان الأوبرا، فهو يتكون من ثلاث إدارات منفصل بعضها عن بعض: الأولى هي الإدارة المركزية التي تحتوي على شبابيك دائرية في الدور الأرضي، وهي خاصة بتوزيع المكاتب والأمانات.

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٦.

(٢) يقول خالد ضيا: "مصر پوسته لرى تشكىلاتنده كى اصابت ومعاملاتنده كى انتظام واستقامت جيتيله نمونه انتظام ومكملت اولمق اوزره طانتمش، امنيت وحسن ظن عمومى بى قزانتش. شهرده اوپرا ميدانندن عتبه الخضرايه گیدن جاده ده كائن يگانه بر پوست خانه شهرت معروفه سيله متناسب اماكن جسيمه دن معدود دكل ايسرده تفرعات اعتباريله آيرى آيرى اوچ دائره دن مركيدر. بونلردن برنجيسى قسما زمين قاتنده دائره ما داركيشه لرى محتوى بولنان دائره مركيزه قسيمدركه مكاتيب وامانتك توزيع محلديز. ايكنجى دائره: ايكى جسيم اوپه دن عبارت اولوب جوانبى نومرولو پوسته قوطورليه تجهيز اولنمشدر اونجيسى: بوراده مكاتيب عاديه قبول اولنور. اوچ بصامق نردبان ايله چيقلور زمينى مرمر دوشه لى ويالگر اوچ كيشه بى حاوى اوكى اچيق بر محلدر. كيشه لرده كى مأمورلرك وظيفه سى. مكتوب وزن ايتكم بول صاتمقن عبارتدر." (مصر خاطراتى ص ١١٧، ص ١١٨).

أما الإدارة الثانية فهي عبارة عن غرفتين كبيرتين، وقد زودت جوانبها بصناديق البريد المرقمة.

وتقبل في الإدارة الثالثة المكاتب العادية، ويُسند إليها بثلاث درجات من السلم، وتحتوى على ثلاثة شبابيك، وأرضيتها من المرمر. وتتحدد وظيفة الموظفين الموجودين خلف الشبابيك في بيع الطوابع ووزن الرسائل.

ويشير كل من محمد محسن^(١) وخالد ضيا إلى وجود فروع للبريد في كل فندق ضخم في مصر وهي تقوم بجميع التعاملات المتعلقة بالبريد، كما توجد صناديق البريد الضخمة في كل جهة من المدينة، وفي كل ميدان، وكل إدارة رسمية وتجارية، وفي كل أماكن الطرق المناسبة، ويتم أخذ الرسائل الموجودة بهذه الصناديق بمعرفة الموظفين المختصين ست مرات كل أربع وعشرين ساعة. ويتم توصيلها إلى المركز^(٢)، وكان هذا الاهتمام محل تقدير من خالد ضيا الذي يستطرد في وصف عملية توزيع السعاة للمراسلات، وهم يركبون الدراجات، ثم يحدد لنا قيمة بريد الرسائل العادية التي ترسل من مصر إلى كل مكان من الكرة الأرضية بعشرين بارة (قرشاً). تفتح مكاتب البريد من الثامنة صباحاً حتى التاسعة والنصف مساءً. ولا ينسى خالد ضيا وصف ملابس موظفي هيئة البريد، فهم يلبسون زيًا موحدًا، ويخضعون باستمرار للتفتيش، لذلك يسعون دائمًا للدقة والنظام في عملهم.

وفي نهاية حديثه يشير خالد ضيا إلى وجود نظام "صندوق التوفير" في مكاتب البريد من أجل تأمين مصالح المواطنين، وبخاصة العجزة منهم، ويقدر

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٣، وخالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٨، ١١٩.

رأسمال هذا الصندوق بأربعمئة ألف ليرة مصرية، وذلك فى السنة السابقة لزيارة خالد ضيا، وهو تابع للحكومة المصرية.

ويقوم نظام الإيداع فى هذا الصندوق على أساس قبول ما لا يقل عن خمسة قروش وبأرباح تقدر بمئة بارة فى مئة قرش، وتحسب اعتباراً من تاريخ الإيداع^(١).

ويستطيع أصحابها استرداد نقودهم بالأرباح، إلا أنه عندما تبلغ الإيداعات خمسين ليرة لشخص واحد، حينئذ تعود إلى صاحبها، ويفهم من ذلك أنه لم تكن تقبل الإيداعات التى تتجاوز الخمسين ليرة.

ويبرز خالد ضيا قضية تحريم المصريين المسلمين لهذه الأرباح، ولذا أصدر مفتى مصر الأسبق المرحوم محمد عبده فتوى بتحليلها، وطبعت فى الصفحة الأولى لدفاتر التوفير. وتقوم إدارة مكتب البريد بنشر قيمة الإيداعات سواء للمودعين الأتراك أو العرب أو البربر فى إحصاءات تصدر سنوياً. كما أنه توجد أيضاً للإنجليز مكاتب بريد يقدر رأسمالها - طبقاً للإحصاءات المنشورة فى ذلك الوقت - بنحو أربعة عشر مليون ليرة^(٢).

ثالثاً: الصناعة:

يُجمع معظم الرحالة الأتراك على أن مصر بلد زراعى منذ قديم الأزل، لذا لم يُبدِ أهلها اهتماماً كبيراً بالصناعة، فيسجل محمد محسن فى كتابه قلة عدد

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٩.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٢٠.

أصحاب المهارات العالية، حتى إنه لم يكن من بين الصناعات العادية التى كُثرت وتنوعت حسب احتياجات الأهالى، ما يستحق الذكر^(١).

أما الصناعات التى تستحق التقدير فمنها صناعة الأثاث، ثم بدأت مصر تعرف الصناعات الكبرى فى القرن التاسع عشر. ويشير محمد عزت إلى قلة عدد مصانع الحرير والكتان فى مقابل كثرة معامل تصفية السكر فى القاهرة^(٢).

يُعَدُّ السكر من أهم المحاصيل الصناعية، وتم إنشاء مصانع للسكر تابعة للإدارة الخديوية فى المطاعنة وأرمنت والضفة وأبى قرقاص والمنيا ومطاي ومغاغة وببا الكبرى. ويقدر إنتاج السكر فى هذه المعامل بثمانمئة ألف ليرة إنجليزية، وفى نجع حمادى معمل لأشهر شركة معامل فرنسية، وهو لا يتبع الإدارة الخديوية^(٣). ويقدر سليمان شكرى عدد معامل تكرير السكر باثنين: أولهما معمل الحوامدية التابع لمديرية الجيزة، والثانى فى قرية الشيخ الملحقة بمديرية المنيا^(٤).

أما محمد مهرى^(٥) فيقدر عدد مصانع السكر بأكثر من عشرين مصنعاً.

ويسجل سليمان شكرى ازدياد عدد مصانع تنقية القطن من البذور تدريجياً، وتقدر بمئة مصنع تم إنشاؤها فى مواقع زراعة القطن، مثل الوجه البحرى والفيوم والإسكندرية، وبخاصة بنى سويف ودمنهور وكفر الزيات وطنطا والمحلة وزفتى وسمنود وطلخا وشبين الكوم وبركة السبع والمنصورة وميت غمر والزقازيق ومنيا القمح وبنا وشبين القناطر.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٢) يقول محمد عزت: "إبليك وكتان فايريقة لرى اودرجه رواج بوله مامش ايه ده الحاله هذه قاهره ده متعدد شكر تصفيه خانه لرى موجود بولنمقده در" (يكى أفريقاً ص ٦٥).

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٤) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٥) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٥.

ويشير سليمان شكرى أيضًا إلى زيادة عدد معامل تبييض الأرز وماكينات درس الحنطة، ومعظمها فى رشيد ودمياط.

وتوجد بمصر أيضًا صناعات أخرى، مثل استخراج الروائح العطرية والزيوت ونسج القطن ونسج الكتان والصوف والحريير وصباغة الجلود، وصناعة الكبريت والصابون والتلج وغيرها، والأواني الفخارية والزجاجية^(١)، وصناعة الحصر الجميلة، التى تصنع جميعها من قصب بركة قارون وبحيرة النطرون، وهى من النوع الرقيق والمقبول. ويوجد مصنع أو مصنعان للزجاج ومصنع للمدافع خاص بالحكومة، ومصنع حديد وعدد من مصانع سباكة الحديد، واستخراج الخمر من العنب للمسيحيين، ويشغل كثير من الأهالى بصناعة تجفيف السمك المستخرج من بحيرات الفيوم والمنزلة، وتمليحه أيضًا.

وتعد صناعة الجواهر من الصناعات الرائجة محليًا أيضًا^(٢).

أما المعادن فيذكر محمد محسن أن بمصر معادن كثيرة منها النحاس فى جبل أم تناسلى، وجبل أزهل وجبل حواشية قرب السويس، وجبلى دار أوبرامات قرب أسوان ووادى حلفا، ويوجد الحديد بكثرة فى جبل دار المذكور وجبل زيت قرب البحر الأحمر، ويوجد معدن الكبريت فى جبلى الرمش وزيت ويوجد الذهب فى جبل الزيت المذكور ووادى السد^(٣).

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٧.

(٢) يقول محمد مهري: "بركة قارون ونطرون كوللرى سازلرندن كلينلى حصير يابيلوب، بونلرك برنجيسى اينجه ومقبولدر. برقاج دوكمخانه، دميرخانه، حكومته عائد برطوپخانه وبرايكى جام فابريقه سى واردر. اوزومدن شراب اخراجى خرستيانلرينه مخصوصدر. فيوم ومنزله كوللرندن اخراج اولنان بالقلرك قور دولمس وصالا موره يابيلمس دخى برخيلى اهالى بى اشغال ايدر برصنعتدر. قومجىلق دخى رواجلى صنايع محليه دندر". (سودان سياحتنامه سى ص ٢٥، ٢٦ ص).

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

ويرى محمد عزت^(١) أن مصر لا توجد بها معادن ثقيلة، ولكن بها الفحم الأسود في البحيرات الصغيرة بوادي النظرون وفي صحراء ليبيا.

ويوضح سليمان شكرى أن الشركات الأجنبية حاولت الحصول على امتياز استخراج المعادن، التي تم الكشف عنها مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والزمرد والعقيق، كما يوجد معادن مثل المرمر في جبل المقطم بجوار القاهرة، وحجر السن في قنا والحجر الأحمر في مناطق العباسية وقايتباى، وحجر البلاط في جهات جبال طرة وحلوان والمعصرة والحجر الرملى، الذى استعمله القدماء المصريون فى بناء تماثيلهم والأهرام، ومواقد الرخام السماكى فى جبل الدخان.

ويعد الحجر الرملى أشد أنواع الأحجار المذكورة صلابة ومقاومة لتأثير الهواء والأمطار، والدليل على هذا تلك التماثيل والأهرام التى أقيمت قبل الطوفان^(٢).

(١) محمد عزت: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

الباب الثانى

الحياة الاجتماعية فى مصر كما وردت عند الرحالة الأتراك

- الفصل الأول: السكان وطبقات المجتمع المصرى
- الفصل الثانى: الأعراف والعادات المصرية
- الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية العامة
- الفصل الرابع: معالم الشخصية المصرية: الإيجابيات والسلبيات الاجتماعية التى لفتت نظر الرحالة الأتراك

الفصل الأول

السكان وطبقات المجتمع المصرى

أولاً: السكان:

من المعروف أن التقاليد الإسلامية كانت تمنع الوصول إلى الحريم داخل البيوت العربية لمعرفة عددهن وعدد الأطفال، ولم تمسك في مصر سجلات لقيود حالات الزواج أو الولادة أو الوفيات.

وخلال القرن التاسع عشر، حاول محمد علي باشا بعد سنوات قليلة من بداية حكمه معرفة عدد سكان القاهرة على وجه التحديد، ولكن باءت محاولته بالفشل، فقد تضامنت جميع طوائف السكان في محاربة هذا الإجراء، وكان من بينهم عدد من كبار المسؤولين بالحكومة، وبذلك لم يستطع الوصول إلى نتيجة مطمئنة، فكف عن الاستمرار في متابعة إجراء هذا التعداد، ومن ناحية أخرى يمكن أن نعتبر الكتاب الفرنسيين^(*) أول من قام بكتابة العديد من الدراسات حول تعداد السكان في مصر الحديثة.

وعلى الرغم من أن تقديرهم كان أقرب إلى الحقيقة، فإن محمد علي لم يكن راضياً عن نتائج محاولاتهم.

ومهما يكن من أمر فإن الإحصاءات التي اعتمد عليها الرحالة الأتراك، محل دراستنا، كانت تصدر من قبل الأجانب المقيمين في مصر، الذين كانوا يصدرون إحصاءاتهم في الجرائد الرسمية سنوياً.

(*) كتب كثير من الكتاب الفرنسيين في أثناء الحملة الفرنسية العديد من الدراسات حول تعداد السكان في مصر الحديثة، من أمثال جومار Jomard، والمسيو دي جينيت Des ginetter، وخلصوا إلى أن عدد سكان مصر هو ٢.٥ مليون. وقد اعتمدوا في ذلك على معرفة عدد الموتى ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب والثابت في وثائق سجلات الضرائب العقارية وبعد مراجعة الوفيات. انظر: وصف مصر: موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الأول: ب. س. جبرار ترجمة زهير الشايب سنة ١٩٧٨ ص ١٨، ص ١٩.

وبوجه عام تُعتبر مصر في نظر الرحالة الأتراك بلداً أهلاً بالسكان، أو بلداً معموماً بالسكان على حد قولهم، ويقدر محمد عزت في كتابه "يكى أفريقيا"^(١) سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩١م عدد سكان مصر بـ ٦٨١٧٢٦٥ يوجد معظمهم في مصر السفلى.

أما محمد محسن فيقدم لنا في كتابه "أفريقا دليلي" سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٥م^(٢) دراسة إثنوجرافية حول عدد سكان كل مديرية من مديريات مصر السفلى والعليا، وكذلك المحافظات والواحات، ثم يقدر مجموع السكان بنحو ٦٨١٧٢٢٧، والملاحظ من الإحصاءين السابقين أن عدد سكان مصر لم يزد كثيراً خلال الفترة من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٨٩٥، حيث يقدر فرق الزيادة بـ ٤٤٦٢ فقط خلال السنوات الأربع.

ويمكن عرض الإحصاء الذى قدمه محمد محسن على النحو التالى:

مديريات مصر السفلى	مديريات مصر العليا
القليوبية	الجيزة
٢٧١٣٩١	٣٨٣٠٨٣
الشرقية	الفيوم
٤٦٤٦٥٥	٢٢٨٧٠٩
الدقهلية	بنى سويف
٥٨٦٠٣٣	٢١٩٥٧٣
الغربية	المنيا
٩٢٩٤٨٨	٣١٤٨١٨
المنوفية	أسيوط
٦٤٦٠١٣	٥٦٢١٣٧
البحيرة	جرجا
٣٩٨٨٥	٥٢١٤١٣
	قنا ووادى حلفا
	٦٤٧٢٤٩

(١) محمد عزت: يكى أفريقيا، إستانبول سنة ١٣٠٨، ص ٥٧.

(٢) محمد محسن: أفريقا دليلي، مصر - القاهرة سنة ١٣١٢، ص ٢٧١.

ويوجد إحصاء آخر لسكان المحافظات والوحدات:

المحافظات	الوحدات
مصر	٣٧٤٨٣٨
الإسكندرية	٢٣١٣٩٦
دمياط	٤٣٦١٦
رشيد	١٩٣٧٨
بورسعيد والقنال	٢١٢٩٦
السويس	١١٢٧٥
العريش	٣٩٢٣
سواكن	١٢٠٠٠

والواقع أنه لا يمكن الاعتماد على هذا الإحصاء، فهو لا يعبر عن الحقيقة

للسببين:

السبب الأول أن صاحب الإحصاء الأخير اختلفت إحصاءاته المذكورة في الكتاب من موضع إلى آخر، والسبب الثاني أنه بعيد عن الواقع، حيث نجد في كتاب جناب شهاب الدين "حج يولنده"^(١) أن عدد سكان الإسكندرية قد بلغ ٣٠٠,٠٠٠ وذلك سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م، أي أن الزيادة التي طرأت على هذه المدينة وحدها في سنة واحدة بلغت ٦٨٦٠٤، في حين أن عدد سكان مصر بأكمله لم يصل إلى هذا الفرق في سنوات أربع.

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٨٩.

أما السباح سليمان شكرى^(١) فيذكر لنا في كتابه "السياحات الكبرى" سنة ١٩٠٧ أن عدد سكان مصر بلغ ٩,٧٣٤,٤٠٥ منهم ٤,٩٤٧,٨٥٠ من الذكور، و٤,٧٨٦,٥٥٥ من الإناث. ويوجد منهم خمسة ملايين وستمئة وتسعون في الوجه البحرى، وفي الوجه القبلى يوجد أربعة ملايين وثمانية وخمسون ألفاً ومائتان وستة وتسعون.

ويقترّب هذا الإحصاء مما ذكره محمد مهري^(٢) فى كتابه "سودان سياحتنامه سى" حيث يقول:

"يتّضح من الإحصاءات التى يصدرها كل سنة بانتظام وترتيب، جناب الجنرال الدوق غورست قنصل دولة إنجلترا فى مصر ووكيل الإدارة السياسية، أن تعداد سكان أهل مصر فى سنة ١٩٠٧ بلغ ٩,٦٥٤,٣٢٣. ولا يدخل فيه تعداد أهل السودان والأعراب الذين يسكنون البادية. وبلغ عددهم فى سنة ١٩٠٩ ١١١٨٩٩٧٨، منها ٥٦٦٧٠٧٤ من الذكور و٥٦٢٠٢٨٦ من الإناث. وطبقاً لهذا الحساب يزداد الشعب إلى ما يقرب من ثلاثة ملايين خلال ثلاث سنوات.

ويتأرجح عبد الغنى سنى بك فى كتابه "يمن يولنده" سنة ١٩٠٨ فى تقديره لعدد سكان مصر بين ١٠ ملايين و١٢ مليوناً^(٣).

طبقات السكان:

المصريون قوم أذكىاء، وقد اختلطوا بالأتراك والجراكسة والأقباط وأجناس أخرى، وهم من بقايا الأقوام المصرية القديمة، التى كانت تسكن البلاد عندما فتحها

(١) سليمان شكرى: السياحات الكبرى، بترسبورغ سنة ١٣٢٥، ص ٣٠٤.

(٢) محمد مهري: سودان سياحتنامه سى، استنبول سنة ١٣٢٦، ص ٣٧.

(٣) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، استنبول سنة ١٣٢٤، ص ٣٥.

الخلفاء الراشدون، أى فى عهد عمرو بن العاص، وطرد الرومانيين منها، وعندما فتحها محير العقول السلطان سليم الأول فى زمن ملوك المماليك الجراكسة هكذا يقول السياح سليمان شكرى^(١) فى معرض حديثه عن المصريين.

وفى تعريف آخر يشير محمد محسن فى كتابه "أفريقيا دليلي"^(٢) إلى أن سكان مصر ينتمون بسبب اشتغالهم على أقوام متعددة منقسمة أيضا، إلى أربع جنسيات: الأتراك والعرب والأقباط واليهود، ويدين معظم السكان بالدين الإسلامى... لقد أصبح شعب مصر، بعد امتزاجه بهذه الأجناس المختلفة التى تعاقبت على مصر وانصهاره بهم، شعبا متجانسا، لأن مصر كانت دائما تفتح أبوابها أمام الأجانب الذين توافدوا عليها. ويشير جناب شهاب الدين إلى حسن وفادة مصر للجميع فيقول:

"وبسبب أن القاهرة تتعهد بحسن وفادتها
للأجناس العديدة فى كل العالم فهي يمكن أن تبهج الحبين
للعصاب أملاً فى رؤية أشياء جديدة"^(٣).

وبينما يرى سليمان شكرى تعدد الأجناس فى المجتمع المصرى، نجد بعض الرحالة الأتراك يرى أن المجتمع المصرى ينقسم إلى طبقتين أساسيتين هما الفلاحون والعرب، حيث يقول محمد مهرى^(٤):

(١) سليمان شكرى: السياحات الكبرى، ص ٣٣٩.

(٢) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ٣٧.

(٣) يقول جناب شهاب الدين: القاهرة بتون دنياده كى اجناس عنيده يه قابولرينى أجيق طوت ينجون يكى شيلار كورمك آرز وسنده الك مشكبنسد اولا نلرى ممنون ايده بيلير (حج يولنده ص ١١٨).

(٤) محمد مهرى: سودان سياحتهامه سى، ص ٣٧.

"والبلد في حالته الآن بلد عربي وإسلامي تمامًا،
فكل شعبه غالبًا مسلمون وهم يتحدثون اللغة العربية،
ومع هذا فإن كل أهله ليسوا عربيًا صرفًا إلى حد ما، فهم
ينقسمون إلى قسمين كبيرين: العرب والفلاحين".

عناصر سكان مصر وتعدادهم كما أحصاه الرحالة الأتراك، وقد عرضه
السياح سليمان شكرى^(١) على النحو التالي:

٨,٩٨٠,٢٧٨ المصريون الوطنيون

١٦٠,١٤٢٧ الأعراب من سكان البادية

٤٠,١٢٦ من الأجناس المختلفة التي جاءت من البلاد

الأخرى واستوطنت مصر المحروسة

ولعناصر السكان هناك إحصاء آخر:

٨,٩٧١,٧٦١ المصريون المسلمون

١٦٠٦,٢٧٦ الأرثوذكس

١٨٠,٣٦ الكاثوليك

١٣٠,٤٥ البروتستانت

١٢٦٩٣ اليهود

٢٤٨ من أديان مختلفة

(١) سليمان شكرى: السياحات الكبرى، ص ٣٣٩.

أما السياح محمد مهري^(١) فيقدم لنا إحصاء آخر اقتبسه من الإحصاءات المنشورة سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٨ م، حيث يظهر تزايد أعداد السكان الوطنيين بعناصرهم المختلفة فيقول:

المسلمون ١٠٢٦٩٤٤٥

الأقباط ٧٦٩٥٣

الأرثوذكس ٤٧٤٤٦

البروتستانت ٤٧٤٤٦

اليهود ٣٨٦٣٥

الكاثوليك ٧٢٣٢٠

أما الأجانب الذين يأتون دائماً إلى مصر لأسباب تجارية أو لأى أسباب أخرى فهم على النحو التالي:

يوناني	٣٨,٢٠٨	إنجليزى	١٩٥٦٣
إيطالى	٢٤٤٥٤	فرنسى	١٤١٧٢
ألمانى	١٢٨١	إيرانى	١٣٠٤٠
نمساوى	٤٧٢	أمريكى	٢٩٣
هولندى	٢٤٧	برتغالى	١٥٥
دنماركى	٧٢	من أمم أخرى	٩٢
أسترالى	٧١١٥	روسى	٣١٩٢
بلجيكى	٢٥٦	إسباني	٧٦٥
		سويدي	١٥٥

(١) محمد مهري: سودان سياحته، ص ٣٨.

وفى سنة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٨م، زادت أعداد الأجانب المنتمين إلى أقوام مختلفة، ويوضحها محمد مهري^(١) فى الجدول الآتى:

بدو	٩٧٣٨١	بدوى	فرنسيون	١٤٥٩١	فرنسى
ترك	٢٧٥٩١	تركى	إنجليز	٢٥٦٦٢	إنجليزى
شوام	٧٧٤٧	شامى	روم	٦٢٩٧٣	من الأروام
أرمن	٧٧٤٧	أرمنى	إيطاليون	٣٤٩٢٦	إيطالى
سودانيون	٦٥١٦٢	سودانى	نمساويون	٧٦٠٤	نمساوى
عجم	١٣٨٥	إيرانى	ألمان	١٨٤٧	ألمانى
			روس	٢٤١٠	روسى

وسوف نتناول فى ما يلى طبقات المجتمع المصرى كما وصفها الرحالة الأتراك:

١- طبقة الفلاحين:

من المعروف أن الفلاحين يمثلون حضارة مصر الأصيلة، التى استمرت ٥٠٠٠ عام. والواقع أن الفلاح يعتبر أكثر أهمية من غيره، ويستحق تعرف أحواله من خلال كتابات هؤلاء الرحالة الأتراك لأنه يعمل دائماً فى الزراعة، ويكد من أجل الآخرين الذين يعيشون من خيريه. وكما أن مصر - كما يقول محمد محسن^(٢) - هى عبارة عن النيل، فكل العمران وكل ثروتها من النيل، وكل الأماكن المسكونة والمعمورة فيها هى الأماكن التى يروىها، فإن الفلاح مع النيل يكونان جزءاً واحداً لا يتجزأ، ويكمل كل منهما الآخر، كما كانت ثروة مصر تعتمد عليهما إلى حد

(١) محمد مهري: السودان سياحته سى، ص ٣٨.

(٢) محمد محسن: أفريقيا دليلى، ص ٢٨.

كبير، بالإضافة إلى أنهم يكونون السواد الأعظم من سكان مصر^(١). ويقدر الرحالة محمد مهري عددهم بـ ٢٣١٥١٤٩ ويقول عنهم: "يشكل الفلاحون ثلاثة أرباع شعبها، فالفلاحون هم القسم الغالب للأهالي الذين يشتغلون بالزراعة في القرى والمدن الصغيرة، ومع أن اسم الفلاح يعنى المزارع في اللغة العربية، فإنه يستعمل في مصر بمعنى طبقى أو جنسى بصفة خاصة. ومع أن الفلاحين يتحدثون باللغة العربية، فإنهم يختلفون كثيرا عن العرب من النواحي الشكلية والأخلاقية. فهم يشبهون كثيرا الأقباط، بناء على ذلك فهم نتاج امتزاج أبناء الفاتحين الذين جاؤوا من جزيرة العرب وقت الفتح العربى لمصر، مع أحفاد المصريين القدماء، وعلى الرغم من غلبة الدم القبطى فى عروقهم، فقد تغلب عليهم اللسان العربى بنفوذ الحكم والدين. وفى فترة قصيرة صاروا عربا، ونسوا أو تركوا لغتهم^(٢).

والفلاح المصرى - كما يراه الرحالة محمد مهري - إنسان قوى البنية، متأسق الأعضاء، وبخاصة النساء القرويات، فهن على قدر من الجمال إلى حد ما، والفلاحون لا يختلفون عن الأقباط من ناحية السيماء، والأخلاق، فهم يشبهون تماما الرسوم والبياكل المنحوتة فى آثار المصريين القدماء^(٣).

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٩.

(٢) يقول محمد مهري: "فلاحر اهالى عموميه نك اقلى اوج ربعنى تشكيل ايدوب، كويلرده وكوچك قصبه لرده زراعتله اوغراشان اهالينك قسم كليسنى فلاحدر. هرنه قدر فلاح اسمى لسان عربيدنه (چفتجى) ديمك ايسه ده، مصر ده بواسم برجنسيت مخصوصه معنا سيله قوللانيلير. حقيقه فلاحر لسان عربى ايله متكلم ايسه لرده، سيماجه واخلاجه عربلردن چوق فرقلى اولوب، قبط قومنه دهامشابه درلر. بناء عليه بونلراسكى مصريلك احفاديله مملكتك فتحنده دين اسلامك دخولنده جزيره العربدن گلن فاتحدر اولادينك اختلاط وامتزاجندن متولد اولوب، طمارلرنده قبط قانى زياده ايسه ده حاكميت ومذهب نفوذيله لسان عربى عليه اولوب، آزمدت ظرفنده كندى لسانلرينى ترك وفراموشله عربلشميلردر. (سودان سياحتنامه سى، ص ٣٧).

(٣) محمد مهري: سودان سياحتنامه سى، ص ٣٧.

وعلى الرغم من أهمية الدور الذى تضطلع به هذه الطبقة الهامة، فإنها لم تتبوأ المكانة اللائقة بها. ليس هذا فحسب، بل كان ينظر إليها منذ الفتح العربى لمصر بنظرة استحقار، سواء من قبل القبائل العربية المهاجرة، أو من قبل الشعوب الأخرى التى حكمت مصر منذ آلاف السنين.

لقد قدر لهذه الطبقة أن تعيش دائماً فى حالة من الذل والمهانة، حتى إنها من كثرة ما لاقته من الاستحقار والمهانة، فقدت عزة النفس، وهذا ما يؤكدته الرحالة محمد مهري فى كتابه حيث يقول:

"وبسبب أن القبائل التى جاءت من جزيرة العرب مهاجرة من هناك، كانت تنظر إلى الفلاحين بنظرة استحقار، فهم لم يتدنوا للاختلاط بهم، فقد تجولوا فترة طويلة مع خيامهم بسبب عاداتهم القديمة، وفى النهاية اتحدوا جماعات".

ثم يقول فى موضع آخر:

"وكانت الشعوب الأخرى التى حكمت مصر منذ آلاف السنين، تنظر إلى الفلاحين المساكين بنظرة كأهم أنواع من الحيوانات تقوم بأعمال الفلاحة، ومختصة بإعاشة الآخرين، وبسبب أنهم تعودوا دائماً نظرة الاستحقار، فقد فقدوا الإحساس بعزة النفس تماماً"^(١).

(١) يقول محمد مهري: "زو الليلار بيگلرجه سنه لردن برى مصره حاكم اولان اقوام سائره طرفندن طوبراغى ايشليه رك يشقه لرى بسلّمه مخصوص برنوع حيوان نظريله باقيله رك، دائماً حقارت گورمگه اليشد قلرندن. عزت نفس حىنى بسبتون غائب ايذوپ ... (سودان سياحتنامه سى. ص ٣٨).

ولم يقتصر الأمر على ما يلاقيه الفلاح من نظرات الاستحقار، بل ساءت أحواله في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وظل يرزخ تحت نير الذل والفقر من ناحية، والسخرة التي كانت سائدة في تلك الفترة من ناحية أخرى، حيث كان الضرب بالسوط من الأشياء المألوفة.

وفي توضيح للأحوال السيئة التي ظل يعانيها الفلاح، يظهر الرحالة محمد مهري^(١) تعاطفه معه قائلاً:

"وعلى الرغم من جريان الدماء العربية في عروقهم، فقد ابتلوا بالذل إلى أقصى درجة، وكانوا يعملون بنظام السخرة والضرب بالسوط إلى وقت قريب، وقد تعودوا الحياة وهم محرومون من كل أنواع الراحة والسعادة البشرية، بينما هم مساكين يستحقون معاملة طيبة، بسبب أنهم أناس أذكىء ومجتهدون ومؤدبون جداً".

ويعيش الفلاح في أكواخ طينية أو في قباب من الوحل يعاني الفقر والمرض، فأولاده عرايا ونساؤه مصابات بأمراض الأعين. هكذا يصف لنا جناب شهاب الدين في لوحة أسماها "لوحة الفقر" هذه المساكن متعجباً كيف يمكن التعايش فيها في ظل الحرارة الشديدة الملتهبة، فيقول:

"انظروا إلى الساحل الآخر للناحية المقابلة (شمال قناة الحمودية): إنها البداية الحقيقية لمصر، الخراب والفقر، فقرى العرب الفقيرة في تلك الناحية عبارة عن أكواخ طينية اصطف بعضها بجانب بعض، وعن أعشاب

(١) محمد مهري: المرجع السابق، ص ٤٠.

جافة متراكمة فوق مكعب طيني، فلهه كيف يمكن
العيش في هذه المساكن البدائية، بينما يغلي هذا الإقليم
تحت ألسنة لهب الطقس الحار في شهري يوليو
وأغسطس؟! أمام هذه المساكن الحقيرة تزل النساء،
أحياناً إلى شاطئ الترعة (العمودية)، وهن مصابات
الأعين وقد ارتدين جلابيب زرقاء وطويلة، ويملأن
جرارهن الخرفية بماء النيل، وبين هؤلاء النساء يتسابق
الأطفال العراة السمر معاً^(١).

وقد تعددت أوصاف جناب في أكثر من موضع عن مساكن الفلاحين الفقيرة
الحقيرة، حتى إنه وصفها على لسان أحد المسافرين معه في القطار بأنها مثل قرى
الحمام، وذلك لأنها كانت عبارة عن عشش مشيدة بعضها بجانب بعض، فقد كانت
كثيرة جداً إلى درجة أنها كانت تشبه القرية، فكانت الأبنية المركبة من هذه العشش
أكبر من خلايا النحل، وأصغر من الكوخ العادي^(٢).

٢- قبائل العرب والبدو:

على الرغم من حدوث اندماج بين الفلاحين والقبائل العربية المهاجرة - كما سبق
القول - واشتغال الطبقة الأخيرة بالزراعة، فإنهم لم يتخلوا تماماً عن أحوالهم القديمة

(١) يقول جناب شهاب الدين: "بفتكز، اوتة كى ساحله بوساحل قطعه مصريه مبدأ حقيقي، - خراب وحقير ...
اوطرفه فقير عرب قريه لرى كه برير نيزلمش طوپراق كلبه لردن، برمكعب نوابى اوسته بينغلان قورو
اوتلردن عبارت ... امان يا ربى تموز، أغسطس أيلرنده بوقليم حارك بتون عناصر موجوده سى قاينسا
دينى صره ده بوابتدائى مساكنندن فصل پاشانير؟ بومساكن حقيره اوگنده ماوى، اوزون گوملكلى، معلول
العيون قادينلر گاه قتالك كنارينه قدر انيه رك نيل صوبى ايله تستيلرينى املا ايديبور لر. بو قادينلرك اره
سنده جبلاق، سياه چوجوقلر قوشوشمقده.. حج يولنده، ص ٨٠.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١١١.

أيضاً، وكما يوضح محمد مهري^(١) فإنهم قد نصبوا خيامهم بجانب حقولهم، وبخاصة عندما يتسمون رائحة الحرب، فإنهم في الحال يضعون مشالحم على ظهورهم، ويلحفون رؤوسهم بالأغطية، ويتقلدون سيوفهم ورماحهم، ويثبون على ظهور خيولهم متأهبين، ويوجد معظمهم في الجانب الأيمن من وادي النيل في صعيد مصر.

وإلى جانب جماعة الفلاحين العرب هؤلاء توجد طبقة ثانية من نفس العنصر والأصل، مع اختلاف في شخصياتهم وتكوينهم، وهؤلاء هم عرب البدو وهم إما يتجولون في وديان البراري وإما يوجدون في الواحات.

أما البدو الذين يتجولون في البراري الواقعة بين وادي النيل والبحر الأحمر فجميعهم من العرب، ويقدر عددهم سليمان شكرى^(٢) بنحو ٦٠١,٤٢٧ وهم الأعراب من سكان البادية.

أما محمد مهري^(٣) فيقدر عدد البدو بنحو ٩٧٣٨١، وقد أحصى عدد هذه القبائل في كل مديريات الوجه القبلي والبحري، ومن أمثلة ما سجله من هذا الإحصاء:

مديرية الفيوم: يسكنها سبع قبائل من العربان.

مديرية أسيوط: يوجد بداخلها اثنتا عشرة قبيلة من العربان.

مديرية جرجا: بها ثمانى قبائل من العربان.

مديرية الغربية: فيها اثنتان وعشرون قبيلة من العربان.

مديرية الشرقية: فيها عشرون قبيلة من العربان.

مديرية الجيزة: يقيم بها أربع عشرة قبيلة من العربان.

كذلك أحصاهم محمد محسن في كتابه "أفريقا دليلى" وإحصاؤه شبيه بالإحصاء السابق^(٤).

(١) محمد مهري: سودان سياحته، ص ٤١.

(٢) سليمان شكرى: السباحات الكبرى، ص ٣٤١.

(٣) محمد مهري: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٤) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٣٤.

٢. طبقة الأقباط:

ظل عدد قليل من شعب مصر على ديانتَه المسيحية حين فتح العرب مصر، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتحدثون اللغة العربية بسبب معيشتهم وسط المسلمين، فقد كانوا يحافظون على اللغة القبطية في كنائسهم ومدارسهم، وهم يدينون بمذهب خاص معروف باسم اليعقوبية.

وتؤمن الطائفة اليعقوبية بوجود طبيعتين للمسيح ولا يعترفون ببابا روما، وإنما يتجمعون تحت قيادة البطريرك.

وكما ذكرنا في ما سبق فقد شبه الرحالة محمد مهري^(١) هذه الطائفة بالفلاحين من ناحية السيماء والأخلاق، وأن فيهم الشكل المصرى القديم.

ويقدر محمد مهري عددهم بأنه لا يمكن أن يصل إلى نصف مليون، ويوجد معظمهم في بعض جيات من نواحي المدن والصعيد والفيوم.

ومن خلال تجول جناب شهاب الدين في مناطق مصر القديمة والمطرية لاحظ أن معظم سكانها من العائلات القبطية القديمة، حيث يعيشون في أحياء هذه المناطق الضيقة الشوارع، ويقطنون دياراً عفنة رطبة.

يقول جناب وهو يصف هذه المناطق:

"كانت القاهرة القديمة محاطة بحوائط عالية غليظة
كأننا في بلاد القرون الوسطى المنيعه. وكانت الشوارع

(١) محمد مهري: المرجع السابق، ص ٤٢.

أضيق من شوارع القاهرة الخالية، والمباني أكثر علوًا،
وضواحيها أكثر ظلمة وأكثر رطوبة. وحينما يتجول
الإنسان في هذه الشوارع، يظن نفسه بداخل مدينة
ضيقة وطويلة.

ويتشابك الطريق في بعض المنعطفات إلى حد أن
أطناف أسقف المباني التي على جانبيها تتلامس مشربياتها
معًا. تبرز رائحة عفنة كريهة من كل ناحية، ويصادف في
كل خطوة كومة من القمامة اللينة بسبب التعفن، ونادرًا
ما يمد لكم جسد بشري مغطى بخرقة بالية ذراعه، وهي
عبارة عن عظمة صفراء على جلد أسمر قائلاً لك بصوت
ضعيف وخائف: بقشيش.

كان الأقباط هم معظم من يعيشون داخل هذه
الديار العفنة والرطبة"^(١).

(١) يقول جناب شهاب الدين: "اسكى قاهره قرون و سطانك مستحكم بلده لرى گبى يوكسك، قالين ديوارلرله محاطدر. سوقاقلر شمد يكى قاهره نك سوقاقلرنندن دها طار، بنالر دها يوكسك، أطراف دها ضياسز، دها رطوبتليدر. بو سوقاقلرده طولاً شد يغى مدتجه إنسان كنديسنى بر معموره نك و دراز ايچنده ظن ايدييور، بعض طولاً تياجار ده او قدر طولاً شيوركه ايكى طرفنده كى بنالرك صاچاقلرى، مشربيه لرى يكديكرينه طوقونيور. هر طرفندن آغير بر كوف قوقوسى گليور. هر خطوه ده چورومك اوزره يوموشايان برسوپرونتو كومه سنه تصانف اولونيور. نادرًا پاچا و رالره بورونمش بر جسد بشري هست و خانفانه برسله: "باقشيش..." ديهه رك سياه بر جلده صار يلى بر كميكندن عبارت قولنى سزه طوغرو اوزا دييور ... بور طوبتلى دارالتعفن ايچنده ياشايانلرك قسم كليسى قبطيلر در" (حج يولنده، ص ١٧٩، ١٨٠).

ويوضح جناب أن مقابر المسيحيين موجودة أيضاً في هذه المنطقة فيقول:

"وتوجد مقبرة قبطية بين المباني المسكونة في ناحية
هذه المدينة القديمة، وجميع مقابر المسيحيين محصورة
داخل هذه الجبانة حتى إن جنائز الكاثوليك يتم دفنها في
مكان مؤجر بزاوية الجبانة القبطية، بسبب عدم وجود
قطعة أرض خاصة بهم"^(١).

أما عن ملابس الأقباط، فقد ذكر لنا جناب كيفية تعرف الفتيات القبطيات
فيقول: "أنتم تتعرفون الفتيات القبطيات اللاتي يمررن أحياناً، من أساورهن الغليظة
والثقيلة التي يتزين بها في معاصمين وسيقانين، ومن برقعهن السوداء المتدايلة
فوق أنوفهن ببكرة صفراء، ومن ثيابهن الزرقاء الخارجية"^(٢).

وعن الوظائف التي كان يقوم بها الأقباط، يذكر محمد مهري أن الأقباط
كانوا يقومون ببعض الأعمال المهنية والحرفية، والكتابة والصرافة. ويؤكد أيضاً
أن الأقباط يتولون اليوم أكبر المناصب، بل لهم وجود في الوزارات^(٣)، وهذه
المقولة إن دلت على شيء، فهي تدل على أنهم كانوا يتمتعون في ذلك الوقت بقدر
كبير من الحرية والتسامح الديني.

٤. طبقة الأتراك:

من المعروف أنه منذ الفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول،
وحتى عهد محمد علي باشا، كان الحكم في مصر بيد الأتراك، ولكنهم كانوا يشغلون

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٥.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣) يقول محمد مهري: "... بعض صنايعله ويازيجيلقه وصرافلق گبی ایشلرله كجنيرنر ایدی، اليوم بيوك
وظايف ونظارترده بولنورلر". (سودان سياحتنامه سی، ص ٣٩).

البلاد بأعداد قليلة ثم تزايدوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد أن كان عددهم لا يتجاوز ٨٠٠٠ في بداية هذا القرن. ونجد محمد مهري^(١) يقدّر عددهم المتزايد بـ ٢٧٥٩١ فردًا وتعتلى هذه الطبقة ومعها الأرنبوط والجراكسة قمة الهرم الاجتماعي في تلك الفترة فهم - كما يقول محمد مهري - يتقلدون الوظائف الرئيسية المهمة، أو هم أصحاب عقارات أى أعيان. وهم يوجدون في المدن، كما لاحظ ذلك عبد الغنى سنى بك^(٢) في كتابه حيث يقول: هنا (أى في الإسكندرية) تظهر في الحال الاختلافات بين الوطنيين والأجانب بصورة كبيرة جدًا لدرجة أنه ليس من الضروري التدقيق في النظر إلى أزيائهم وألوانهم وسيماهم، فيوجد العرب الوطنيون والأقباط والأجانب الأوروبيون والأتراك والسوريون العرب.

ولم تلق هذه الطبقة اهتمامًا يُذكر من جانب الرحالة الأتراك محل الدراسة فأغفلوا الحديث عنها.

٥. طبقات الأجانب

يوجد الأجانب في المدن الكبرى بصفة خاصة مثل القاهرة والإسكندرية فيقدر محمد محسن في "أفريقيا دليلي"^(٣) عدد الأجانب في مدينة القاهرة بنحو ٤١٠٨٤ فردًا.

وفي مدينة الإسكندرية يذكر عبد الغنى سنى بك^(٤) أن عدد الأجانب في هذه المدينة بلغ عام ١٩٠٦ سبعين ألف أجنبي، و ٣٠ ألف رومى، بينما كانت جملة سكانها في ذلك الوقت ٤٠٠ ألف نسمة.

(١) محمد مهري: المرجع السابق، ص ٣٩.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المرجع السابق، ص ٩٨.

(٣) محمد محسن: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٤) عبد الغنى سنى بك: المرجع السابق، ص ٣٦.

وقد تعجب جناب شهاب الدين من تزايد أعداد الأجانب في الإسكندرية الذين كان لهم نفوذ قوى في الحركة التجارية لميدان المنشية، وبالتحديد في شارع بربراس حيث يقول منتقداً ذلك الوضع:

"إلا أن هناك نقطة سيئة: جميع أصحاب هذه التجارة من الأجانب بنحو ٩٩%، فجميع المحلات التي تجذب الأبصار كانت قد ملأها الأجانب القادمون من أوروبا وآسيا وأمريكا"^(١).

ويفضل الأجانب الإقامة في ميدان الأوبرا بمدينة القاهرة، حيث يعتبر قلب حياة القاهرة الحديثة، فعلى مقربة من هذا الميدان يوجد جميع المحلات الكبيرة والفنادق الفخمة ومعظم الإدارات الرسمية. ويوجد أيضاً بها محلات البيرة والمقاهى وبيوت القمار^(٢).

وعن ازدحام الأوزبكية وعلاقة الأجانب السياح بالمصريين الباعة يقول جناب: "وحيثما يتجول الإنسان هنا مدة في هذه الطرق المرصوفة المنتظمة والواسعة النظيفة يستطيع أن يأمل رؤية نموذج من كل أهالي القارات الخمس وشعوبها، ففي شوارع حي الأوزبكية هذا المزدحم يتعقب رجل ألماني رجلاً إسبانياً، ويتقابل إنجليزي مع حبشي، كأن ميدان الأوبرا هذا عبارة عن ملل وعروق مشهورة، حيث يمكن أن يشكل مسرحاً لاستقصاء دقيق يساعد في دراسة علم الإنسان. ويكفى قضاء بضع ساعات في مدخل المقاهى الموجودة أمام فندق شبرد لملاحظة علاقات الأجانب السياح بالأهالي المصريين. يتجول الباعة

(١) يقول جناب شهاب الدين: "يا لكز ابي اولمايان برنقطه وار: بتون بوارباب تجارئك يوز ده طقسان طقوزى اجنبى، بتون جالب نظر مغازه لرى أورپادن، أسيدن، آمريقادن گلن يابانجلير طولد يرمش". (حج يولنده، ص ٨٩).

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٨٥.

المصريون دائماً بين المناضد التى تملأ المدخل: مناظر مصر الجميلة، بانوراما التاريخ، صور المباني القديمة، المراوح الريشية، الأرجوحات، أحزمة السيدات المطرزة، المنقوشات الشامية، المصنوعات الصدفية، الأواني المصنوعة من شجرة زيتون يافا، الأشياء التقليدية اليابانية، السجاجيد الإيرانية، الفيروز المقلد، الآثار القديمة المقلدة... الخلاصة أن كل شيء يتم عرضه والتجول به بين المناضد. ومهارة هؤلاء الباعة المتجولين مدهشة فى تحديد الجنسية، وهم يفهمون الإنسان الذى يؤلف بابتسامة لطيفة من أى ملة فى الحال، وفى ما عدا هذا فإنهم يهمسون بالكلام بلهجة السائح بسبب معرفتهم اسم الشيء الذى يبيعهونه باثنتين وسبعين لغة.

الفصل الثانى

الأعراف والعادات المصرية

١- الزواج:

يذكر أنه كان لحفلات الأفراح في ذلك العصر بهجة بالغة، فقد كان السراة والأعيان يتقنون في تخميمها وتعظيمها، ويتنافسون في مظاهر البذخ والإسراف فيها، وبلغ بعض هذه الأفراح من البهاء والروعة ما جعلها أحاديث الناس، يتناقلونها جيلاً بعد جيل، أما أفراح الخيدو إسماعيل، فحدث عنها ولا حرج، وبخاصة الأفراح التي أقامها احتفالاً بزواج أنجاله الأمراء^(١).

تلك صورة عامة، يفصلها لنا خالد ضيا في الموضوع الخاص بالعرس ومراسم الاحتفال بالزواج. ويبين فيها العادات المتبعة عند إيصال العروس المسلمة سواء كانت غنية أو فقيرة إلى منزل زوجها حيث يقول:

"يتم إيصال العروس المسلمة الغنية والفقيرة
بعربات، كأنها في دار السعادة من منزلها إلى منزل
زوجها. إلا أنه من مقتضيات العادات القديمة إحضار
فرق موسيقية من الفرق العسكرية الموسيقية المحلية أو
الإنجليزية، وفقاً لدرجة غناها، أمام عربات العروس".

وبالنسبة إلى من كان في سعة حالة من الدرجة الثانية أو الثالثة، يتم إحضار فرقة محلية، تجهز بشكل أخف، وإن لم يكن فيتم إحضار عازفي المزامير وقارعي الطبول، ومن مقتضيات العادات المحلية اليوم القيام بالمراسم الخاصة وهم يترنمون في الطرق مارين بالشوارع المختلفة في المدينة^(٢).

(١) انظر عبد الرحمن الرفاعي، عصر إسماعيل، ٢٧.

(٢) يقول خالد ضيا: "غنى وفقير اسلام غلينلري كندى خانه سندن زوجنك خانه سنه در سعادتده اولد يغى گبى عربي ايله ايصال اولنور. أنجق گلين عربي لرينك اوكنده درجه ثروتلرينه نظرًا إنجليز ويا يرلى عسكرى موسيقه لرننن برياند وموسيقه بولنديرمق تعامل قديم مقتضياتندن وسعه حالى ايكنجى اوچنجى درجه ده اولاتلر ايجون دها اهون برصورتله تدارك اولنان يرلى بانسولر وهنج اولمزسه داول زورنا بولنديرمق، بوللارده ترنم ايديله رك، شيرك مختلف جاده وسوقلارندن كجيله رك مراسم مخصوصه ايفا اولنمق اليوم عادات محليه ايجابا تندندر" (مصر خاطراتى، ص ١٧٤).

ويرسم خالد ضيا مظاهر البذخ والإسراف الذى يصر عليه أرباب اليسار وأيضاً من هم دونهم وهو يذكر أن هذا يشبه ما يحدث لدى الأتراك أيضاً حيث يقول:

"وأرباب اليسار الذين يغترون بشرواقتهم، فضلاً
عن أنهم يشبهوننا، يخصصون للعروس، مستأجرين عربية
المراسم الخاصة بذات الخديو، ذات الأربعة الخيول
والمزينة سُنَّاسها بالألبسة الفضية. تتعاقب العربات على
شكل قافلة طبقاً لدرجة يسارهم وعربة العروس المربوطة
بالعرجية والحيوانات. ويستأجر من هم فى الدرجة الثانية
عربة ذهبية تجرها أربعة خيول بسُنَّاس مزينة ألبستهم
بنفس الشكل السابق، ويغطون كل أطراف عربية
العروس بالشيلان وبالأقمشة المطرزة بأنواع من الخيوط،
وبالستائر البنية المطرزة بالخيوط الفضية"^(١).

هذا، وتشكل زيادة عدد العربات التى تنقل جهاز العروس مظهراً من
مظاهر التفاخر، حتى إنهم من أجل ازدياد عدد العربات، يضعون مقعداً واحداً
وكرسياً واحداً فقط من الكراسى والمقاعد التى تشكل متاع حجرة واحدة، ويوضع
فى العربات الأخرى كرسيان أو الكراسى الأخرى.

ولا بد من أن نتجول الفرقة الموسيقية أو مجموعة من عازفى المزممار أمام
عربات الحمولة، وهى فى طريقها إلى إيصالها، بل وتوجد فرقة موسيقية أمام
العربات الفارغة التى تذهب لإحضار الجهاز.

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٧٤.

أما حفلة العرس ذاتها، فلها وضع خاص مكلف جدًا - كما يصفها خالد ضيا - ومبتلى بأنها عادة سيئة في مصر، فبسبب أن هذه الصورة هي مدعاة فخر أصحاب اليسار، فإنها مكلفه جدًا بدرجة تقتضى سحق طبقة الفقراء وأصحاب الحال المتوسطة، حيث تقام وليمة السمр والطرب بالأسابيع فى خيام الولايم المنقوشة بالفسيفساء، وقد تم تعليق الثريات والرايات والفوانيس فى نظام شبيه بنظام الأسطول، وعلقت المصابيح المنتظمة فى صفوف أربعة أو خمسة، مركزة على الأعمدة المنتظمة فى كل مكان فى الشوارع الممتدة من منازل الولىمة حتى الشوارع^(١).

٢- أزياء السكان:

انفرد الرحالة الأديب جناب شهاب الدين بالحديث عن أزياء سكان مصر والإسكندرية، وتدل الأوصاف المختلفة لهذه الأزياء على أنها كانت تتميز بالتنوع الشديد فى أشكالها وألوانها، وذلك كانعكاس طبيعى لكثرة الفئات القومية والدينية وتعدد الطبقات الاجتماعية فى المجتمع المصرى آنذاك.

ويؤكد جناب شهاب الدين فى العديد من المواضع فى كتابه هذا التنوع، الذى يصفه بأنه فيضان متدفق من الألوان والأصوات، حيث يقول واصفًا إياه فى ميدان المنشية بالإسكندرية:

"فى ميدان المنشية توجد القهوة والحديقة والمعبد
والمباني الضخمة والمخلات الكبيرة. هناك فى شوارع
فرنسا كل شىء مرئى، إلا أن الأمر الذى يفرق هنا عن
أوروبا هو الخلق، فهم مختلفو الألوان، كثيرو الضوضاء

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٧٥.

جدًا. اشغلوا أحد الكراسي التي على أرصفة المشاة
لقهبي من المقاهي: فيضان متدفق من الألوان
والأصوات" (١).

ويشرح بالتفصيل مفردات هذا الفيضان قائلاً:

"الآن تصادفون امرأة ذات رداء أسود، وقد
أمسكت بذراعيها السمرابين ذواتي الإطار الفضي إناءً
خزفيًا كبيرًا للماء تحمله فوق رأسها، ثم بعد ذلك تلتقون
بدوين يسيران بخطى سريعة كانت أرديتهما عبارة عن
قميص أزرق فضفاض، وتوجد سيدات أورييات
متبرجات بزينة بين هؤلاء، وتوجد أيضًا الطرابيش
العثمانية، والعمامات والجاككات والسترات الطويلة
والقبعات على كل شكل" (٢).

ثم يقول: وإزاء هذا الوضع المتناقض يصدر جناب حكمه على هذا الكرنفال
المتنوع:

"وسوف يتحير الأوربي الذي يظن أنه يصادف
كرنفالاً بينما يعبر كوبري قرّة كوي إلى حد أنه لن يبقى

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) يقول جناب شهاب الدين: "موقاقلده شيمدى سياه چارشافلى برقاديته تصادف ايديورسئز كه بيوك
برصو دستيسنى گوموش بيله زيكللى سياه قوللريله طومتش، باشى اوستده طاشيور، دها صوگره
سرعتلى خطوه لرله گيدن ايكي بدوى يه راست گليورسئز كه بندلرينك اورتوسى ماوى برانتاريندن
عبارت .. بونلرك آره سنده سولمنش اوريا قادينلرى، فسار، صاريقار، جاكلتر، ره دينغونلر،
هرشكلده شابقه لرده وار ... " (حج يولنده، ص ٧٢، ٧٣).

مجال لأى تخمين على الإطلاق. لقد أطلقت هذا الحكم لأول وهلة: هنا لا هو غربى ولا شرقى ولا أوربى جميعه ولا إفريقى، فهو مختلط، شىء وسط حيث يسترعى النظر إنسان يرتدى قبعة أسطوانية فوق قميص فضفاض متسخ مقدمته، أو شخص يثبت طاقة النوم البيضاء على بدلة رسمية سوداء. هناك عدم تناسق مضحك، ولكنها ألوان وأشكال تستحق المشاهدة، ولا يمل النظر من هذه المشاهدات على الإطلاق، لأنها تتغير باستمرار. يظن الإنسان بينما يتجول هنا أنه يراقص أمام صيين، لأنه يجد حالاً أخرى فى كل خطوة وحياة أخرى وعالمًا آخر. يشكل الأشخاص ذوو القمصان الطويلة والبيضاء أو السترة الطويلة الزرقاء خاصية مميزة لهذا الشارع الكبير"^(١).

ويتعرض جناب لوصف زى كل طائفة أو طبقة، ويشير إليها كل على حدة قائلاً:

"الآن أحاول أن أتذكر كل مشاهداتى وأسود كل هذه المذكرات السياحية فى غرفة تطل على البحر الأبيض: ذلك الخلق ذو الألوان المنة الذى يغلى تحت أشعة شمس الصباح القوية... أصوات ذلك العالم وألوانه. تمر بذاكرتى رؤى جديدة كل على حدة: أطفال العرب الذين على هيئة مضحكة، بجانبهم العربجيون ذوو

(١) جناب شهاب الدين، المرجع السابق، ص ٦٦.

الألبسة الطويلة الفضفاضة والطرايش العجيبة، التى
تشبه فى كبرها نصف جوزة الهند"^(١).

وعن زى الفلاحات اللاتى يعشن على الساحل المقابل لقناة المحمودية، هن
وأولادهن العراة، يقول جناب:

"وأمام هذه المساكن الحفيرة، تزل النساء أحياناً
وهن مصابات الأعين، وقد ارتدين جلابيب زرقاء
طويلة... وحول هؤلاء النساء يتسابق الأطفال العراة
السمر معاً"^(٢).

ولم يترك جناب المرشد والنوتى دون أن يصف زيهما، فيقول عن المرشد:

"هو مصرى أسمر، طويل القامة، متدثر ببرنس من
أوله إلى آخره" أما زى النوتى فيذكر جناب أنه بستره
زرقاء فضفاضة وعمامة بيضاء وصدريه صفراء وحذاء
أصفر"^(٣).

بل إنه عندما دخل أحد مقاهى الغناء فى الإسكندرية، تعرض لوصف زى
المطربين السمر، ذوى العمامات الحريرية الرقيقة، وقد ارتدوا جلابيب من القماش
اللامع"^(٤).

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٣٤.

(٤) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٧٢.

ولاحظ أيضًا في أثناء وقوفه أمام فندق "شبرد" بالقاهرة ما يرتديه المترجمون، فهم يلبسون الطرابيش الحمراء والجاكيتات القصيرة البنطلونات الواسعة^(١).

ولفت نظره في أثناء تجوله في شوارع القاهرة ملابس السياس الذين كانوا يركضون مثل رجال المطافئ كما يقول جناب:

"شق شخصان فجأة هذا الزحام، كان في أيديهما
عصى طويلة سمتها فضي، كانا يركضان مثل رجال
المطافئ، وبصرخان رجلك ظهرك يمينك شمالك، ويطلق
عليهم هنا «السائس» وهم الذين يفسحون الطريق
راكضين أمام عربات الحرم الكبيرة".

معظم السياس أحباش أرديتهم مثل زى أوبرالى هزلية، فهي جميلة جدًا حقيقة فهي عبارة عن صدرية من القطيفة المزينة بخيوط فضية وجلباب من الكتان وثياب فضفاضة بيضاء، وطرابيش حمراء وهدية زرقاء حريرية متدلّية حتى الخصر: السيقان عارية حالكة السواد تلمع ببريق يشبه بريق الحديد، الأعين على شكل اللوز، القد طويل، الهندام لطيف جدًا^(٢).

وحينما زار الأهرام وصف زى القبيلة الخاصة الحارسة هناك بأنهم يلبسون الجلابيب الزرقاء^(٣).

وفي أثناء سفره من الإسكندرية إلى القاهرة استرعى انتباهه منظر بدوية شابة وقد حجبت وجهها ببرقع أسود^(٤).

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٣) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١١٥.

(٤) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٨٤.

وقد اكتفى خالد ضيا بذكر إشارة مختصرة حول هذا الموضوع إلى أنه يمكن التفرقة بين الوطنيين والأجانب عن طريق ألوانهم وسيماتهم وزيههم دون الحاجة إلى إمعان النظر، بالإضافة إلى أنه قام بالنقاط عدة صور فوتوغرافية يبرز فيها زى القرويين والقرويات في مصر وغيرهم من سكان مصر^(١).

ويمكن القول إنه على الرغم من هذا التنوع الشديد في أزياء السكان يمكن الاستدلال مما أشار إليه جناب شهاب الدين على أن المجتمع المصرى فى تلك الفترة قد شيد محاكاة بعض طبقاته الزئ الأوربى، فهجر الملابس الشرقية فى الجبة والعباءة والعمامة، وارتدى البدلات الإفرنجية.

٣- مراسم الجنائز:

يتفرد خالد ضيا بوصف المراسم الخاصة بالجنائزات، وكعادته ينقد وضعا ورثه المصريون منذ عهد القدماء المصريين حيث يقول:

"تنتقل الجنائزات بالذكر والتهليل، وأحيانا بقراءة مراث مطبوعة. وتطبق بحرية بدعة غريبة تخلفت منذ عهد القدماء المصريين فى كل جنازة ألا وهى اتباع نساء الماتم الملقبات باسم الندابة اللاتى يحصلن على أجرهن طبقا لسعة حال كل جنازة ونساء جيران الحى عموما يظهرن الحزن والكدر المصطنعين ويطلقن صرخاتهن بنغمات مؤثرة وموجعة جدا. وتنطلق الجملة المرتبة بصراخ وعويل ونغمات صياح مؤثرة فاجعة حول فضائل الميت وعدم استمتاعه بالحياة والعمر إن كان شابا

(١) انظر خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٠٤.

رجلاً، وعن محاسنها وحسن أخلاقها إن كانت امرأة،
وعن فضيلة الميت ومهارته ورحمته وسخائه وتركه
لجماعته وأولاده أياماً بلا عائل"^(١).

ويتناول خالد ضياء أوضاعاً أخرى غير لائقة إنسانياً ولا توافق الآداب الإسلامية
أيضاً حيث يقول:

"وأجراءات أعمال الجنازة لا تعد من الأشياء
اللائقة من الناحية الإسلامية كما أنها لا تتفق مطلقاً مع
الآداب الإسلامية، فأحياناً يدهن أقرب أقرباء الميت
وجوههم بالسواد ويتظاهرون وكأنهم يحسبون أعينهم
بالمناذيل التي في أيديهم وتهيجون ويمزقون ملابسهم
الخارجية، غير أنه من المعروف أن نساء المآتم (الندابة)
يتم استنجاذهن ويركبن عربات الحمولة التي يطلق عليها
اسم الكارو، وهن يُنَحْن، وينظر إليهن بعين الكراهة في
عودتهن ورجوعهن بهذه العربات مرة أخرى"^(٢).

وعن مراسم العزاء والتعزية يقول خالد ضياء:

"ويقرأ القرآن الكريم خلال ثلاث ليال في المنزل
المصاب بالمآتم، الذي يقام ويجرى به مراسم العزاء، ويأتي

(١) خالد ضياء: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) يقول خالد ضياء: "أجرائ ما تم اينيشلري اداپ اسلاميه يه قطعياً توافق ايتديكي انسانيه ده مناسب برشئ دگلدر، هله بعضاً ميتك الك يقين اقرباسي يوزلريني سياهه بويابه رق، اللرنده كي منديلرله گويا گوزلريني سيله رك، جبرينه رق، اوستلريني باشلريني يوتارلر ايمش. "تدابہ" دنيلان ماتمجي قادينلرک اجرته طونديغي معلوم اولدقدينشقہ اغلاشه رق گيدن بوقادينلري ألمق اوزره قارو" تعبير اولنان يولک عربه لرى تقيب ايتمکده وعوتلرنده ينه بو عربه لرله دونشلري نظر کراهنله گورلمکده در" (مصر خاطراتی، ص ١٧٦).

الأحباء الذين لم يستطيعوا إدراك الجنازة والذين لم
يتمكنوا من معرفتها في يوم وقوعها، فهم يأتون للتعزية.
ويلبس أفراد العائلة في المنزل المصاب لبس الحداد سنة
واحدة هي سنة الحداد، ويتمثل حزن الرجال وحدادهم
في عدم الذهاب إلى المسرح لمدة سنة واحدة، واستعمال
ظرف مكتوب (بطاقة زيارة له إشارة حداد سوداء على
الحافة)»^(١).

كما يشير خالد ضيا إلى عادة يحرص عليها المصريون وهي موجودة حتى
الآن وهي زيارة القبور في الأعياد وأداء مراسم خاصة سنوياً. وتحرص عليها
النساء بصفة خاصة.

٤. الأمراض والأوبئة:

لم ينل هذا الجانب اهتمام معظم رحالنا الأتراك، فلم يلتفت إليه أحد منهم
سوى الأديب الطبيب جناب شهاب الدين، الذي استرعى انتباهه كثرة انتشار
أمراض الأعين بين المصريين، وذلك حينما كان يتجول في شوارع مدينة
الإسكندرية حيث يقول:

"يتجول الأشخاص في آلاف الألوان والأشكال
في الأسواق التي تعج بطين الآلاف من الهوام الطائرة.
وهم يتواجهون، ويسبب أن ثلاثة أرباعهم مصابون
بأمراض الأعين فهم يتصادمون ويتصارخون"»^(٢).

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٧٦.

وفى موضع آخر يذكر جناب أيضًا إصابة الفلاحات بأمراض الأعين، ولا يقتصر الأمر على الإصابة بهذا المرض فحسب، وإنما نجده أيضًا يذكر أمراضًا أخرى حينما تجول فى قرى قناة المحمودية حيث يقول:

"سوف ترون بعد ذلك العرى والفقر والجوع
والمرض والعمى وداء الفيل والجذام، سوف ترون جميع
أسباب هذه الكوارث والنكبات"^(١).

أما الرحالة عبد الغنى سنّى بك فيشير بإيجاز إلى مدى الاهتمام الفائق الذى تبديه الإسكندرية بالصحة العامة، ومدى اهتمام شركة المياه بتنقية المياه وتصفيتها، فكان من نتاج هذا أن هبط متوسط الوفيات فى سنوات ١٣١٨ - ١٣٢٢ هـ / ١٩٠١ - ١٩٠٥م إلى ٣٢,٣ فى الألف بالنسبة إلى المحليين و ١٦ فى الألف بالنسبة إلى الأجانب^(٢).

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٨١.

(٢) عبد الغنى سنّى بك: يمن يولنده، ص ٣٦.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية العامة

١. الاحتفالات:

حرص بعض الرحالة الأتراك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على تسجيل أهم الاحتفالات والأعياد في مصر، ومن أهم الاحتفالات الدينية التي سجلتها لنا نصوص هؤلاء الرحالة الاحتفال بسفر المحمل إلى الأراضي المقدسة.

ويشير محمد مهري^(١) في كتابه في أثناء حديثه عن سلطنة شجرة الدر، إلى أنها تعد أول من أرسل المحمل من مصر إلى مكة، ولا يزال ذلك جاريا إلى الآن. وقد أفاض خالد ضيا في وصف المحمل وكسوة الكعبة، وقدم صورة دقيقة عن صور الاحتفال ومراسم خروج المحمل من مصر.

وعن أهمية يوم سفر المحمل وعودته لدى مصر والشام يذكر خالد ضيا:

"يقام في يوم سفر المحمل ورجوعه احتفال خاص،

ويمثل أهمية كبيرة في مصر كأنه يمثل عيدًا قوميًا مثلما

كان الحال في الشام"^(٢).

ومع أن مراسم الكسوة والمحمل التي تقام في الشام تتمثل في تشييع المحمل واستقباله عند السفر والعودة، فإنها تبقى في مصر عبارة عن أداء مراسم التشريف المعتادة في صورة تسليم وتسلم فقط.

(١) محمد مهري: سودان سياحته، ص ١٣١.

(٢) يقول خالد ضيا: "صره نك يوم عزيمت وعودتي شامده اولك يغى غبى مصرده ده عيد ملئ تشكيل ايده جله قدر اهميت ومراسم مخصوصه ايله ايغا اولنيور، شامده اجرا اولنان صره ومحمل مراسمي عزيمت وعودته تشييع واستقبال صورتيه اجرا اولوند يغى حالده مصرده يالكز تسليم وتسلم طرزنده مراسم معتاده تشريفاتييه ايغا سندن عبارت قالور". (مصر خاطراتي، ص ١٧٠).

وكان هناك نوعان من مراسم المحمل التى تجرى فى مصر - كما يقول خالد ضيا - أحدهما موكب الكسوة، والآخر نقل الكسوة المباركة للكعبة المعظمة التى تنسج فى مصر، وكان موكب الكسوة عبارة عن مراسم تسليم أو تسلم أمير الحج المحمل للخدّيو، والتجول والدوران بالمحمل فى ميدان القلعة، وهذا الموقع واسع ومرصوف بالحصباء المطلية أرضيته بالقطران^(١).

وعن الاستعدادات التى تهئ لسهولة القيام بتلك المراسم يقول خالد ضيا:

"ومن أجل ضمان سهولة القيام بالمراسم التشريفية للمحمل يحاط الموكب بأشكال مختلفة من الفرق العسكرية وتدور حوله.

ولكى يتمكن كل إنسان من رؤية هذه المراسم بيسر وسهولة كانت تحضر الأسرة التى تؤجر للأفراد، وتنظم أماكن مخصوصة من قبل الحكومة للأجانب والأشخاص المدعوين. ويقدم الأهالى إلى الموكب مبكرين جداً مسرعين أفواجا.

وبعد أن يتخذ الأهالى مواقعهم بين العسكر بشكل يرضى الحكومة، وبعد أن يتم استقرار الزوار الذين يأتون للفرجة بالعربات، فى مكان معين معد للعربات، وبعد أن يأخذ الموظفون الملكيون والعسكريون وهيئة الوزراء مواقعهم بالسير بعرباتهم إلى الأماكن المخصصة كل على حدة، يُنتظر تشريف الخديو، فى اللحظة التى يؤدى فيها العسكر التحية له حينذاك^(٢) (إلقاء التحية).

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٠.

ويواصل خالد ضيا وصفه لهذا المشهد وخروج الخديو وأمامه طوائف
العسكر فيقول:

"وعند وصول حضرة الخديو إلى موقع الموكب
فمن المعتاد أن يحاط بقوات عسكرية ذوات صفوف سبعة
أو ثمانية، وقد ركب عربة يقودها أربعة جياد مطهّمة بزينة
خاصة بالمراسم التشريعية، ويكون ذلك في الساعة التاسعة
والربع حسب التوقيت الإفرنجى ويحاط أمامه وخلفه
بقوات عسكرية ذات صفوف سبعة أو ثمانية وقد تقلد
صف منها بالسيوف وآخر بالرماح، وعند انطلاق قذائف
المدافع الحادى والعشرين من القلعة، في تلك اللحظة يعلن
الخديو التحرك وتنتهى مراسم الاحترام... وكانت المراسم
التي تؤدى في الشام عبارة عن رفقة الوجهاء والعلماء
والموظفين وهم يرتدون بدلاتهم الملكية والعسكرية
الفخمة، للمحمل الشريف وقد امتطوا خيولهم حتى موقع
القدم الشريف، وهى محطة طريق السكك الحديدية
للحجاز في المدينة خارج الإدارة المركزية، ثم قيامهم بتنفيذ
مراسم التسليم والتسلم المعتادة في الموقع المعين المعد
لوصوله إلى الموقع المذكور"^(١).

ثم يواصل خالد ضيا وصفه للطوائف العسكرية والفرق الموسيقية وطلبة
المدارس والأهالى كافة الذين حرصوا على مشاهدة هذا الموكب الجليل فى هذا
اليوم الذى عطلت من أجله الإدارات الحكومية، يقول خالد ضيا:

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٠.

"كانت طوائف الفرق العسكرية وطلبة المدارس العامة والفرق الموسيقية وقوات الدرك والبوليس، يؤدون المراسم التعظيمية مصطفين باحترام ووقار، وكان الأهالي الوطنيون يزورون الموكب ويشاهدونه تبركاً مجتمعين على الطريق أيضاً، وكانوا يستأجرون المنازل والمحلات التي يمر منها المحمل، مسجلين أسماءهم قبلها ببضعة أيام، وتضرب المدافع خلال سفر المحمل وتحركه، وتعطل الإدارات الحكومية في اليوم المذكور"^(١).

وأخيراً ينتقل خالد ضيا إلى وصف المحمل نفسه فيقول:

"بعد نصف ساعة من تحرك الخديو، وكذلك بعد القيام باستعراض عسكري لسرية مدفعية مكونة من المشاة والخيالة مع طابور من مشاة يرتدون ملابس من الكتان بينما تترنم فرقة موسيقية في المقدمة، وفي حضور الخديو بالورود حتى الميدان يدخل الميدان الأمير الحاج الذي يرتدى بدلة عسكرية رسمية فخمة عقب فرقة موسيقية أخرى".

وبعد أن يأخذوا مجالسهم وسط الميدان تجاه قصر الخديو يدخل المحمل الشريف محمولاً على جمل عظيم الهيئة، عليه كسوة موشاة بالذهب الثمين، وخلفه اللواء الشريف على جمل آخر، ويتعقبهم الحداة وعازفو المزامير والطبالون طبقاً للعادات القديمة المحلية على جمال أخرى، وهم يعزفون ويتموجون بنغمات لا انسجام فيها.

(١) يقول خالد ضيا: "بمناسبتة محمل الاينك كترگاهنده مكاتب عموميه طلبه سبله صنوف مختلفه عسكريه موسيقه باندولري، ژاندرامه، وبوليس قطعائى صفتيه احترام اوله رق مراسم تعظيميه ايفاء اهالى محليه دخى كتر كاهه طوپلانه رق الالى زيارت وتمشا ايندرل كترگاهه تصادف اين خاتمه لر، دكانلر بيرقاج گون اول بيلنه رك استيجار اولنور، محملا حركت ومواصلتلك طوبلر اتيلور. يوم مذكورده دوائر حكومت تعطيل اولنور" (مصر خاطراتي، ص ١٧١).

ثم يواصل خالد ضيا وصفه لهذا المشهد حتى عودة الأهالي إلى منازلهم والعساكر إلى ثكناتهم فيقول:

"وعند الوقوف أمام قصر الخديو بعد أداء الاستعراض، يلقي السلام بإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفع من القلعة مرة أخرى، وبعد إتمام عملية تسليم المراسم التشريفية يعود الموكب إلى القلعة بنفس المراسم من الطريق الذي جاء منه، ويقوم بالدوران مرة أو مرتين، ويعقب المحمل انضمام المشاة وجنود المدفعية إلى عربات المدافع، ويعودون بعد ذلك وقد انقسموا في استعراضهم إلى فريقين إلى ثكناتهم بانتظام تام وهم يؤدون هذا الاستعراض بينما تعزف الموسيقى أمامهم، وقد عادوا من طريق آخر بنفس المراسم التشريفية، وقد أقيمت التحية من قبل الخديو والعساكر الموجودة والأهالي المجتمعة التي تفرقت بعد ذلك"^(١).

ويشيد خالد ضيا^(٢) بحسن أداء قوات البوليس والخيالة لمهامهم من أجل الحفاظ على النظام خلال الموكب، وكذلك امتثال الأهالي لتعليماتهم وتنفيذها بلا اعتراض فيقول:

"والجدير بالذكر ما يبديه قواد الشرطة وشرطة المشاة والخيالة من فائق الاهتمام من أجل المحافظة على النظام خلال أداء المراسم التشريفية وقيامهم بواجبهم

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٠٤ و ١٠٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٠٥.

بجدية ووقار خاص ولا يقطبون للأهالى، وجدير بالذكر
أيضًا استئناس الأهالى للطاعة بخصوص قبول التعليمات
وتنفيذها بلا اعتراض^(١).

ولم يكتفِ خالد ضيا بانتهاء المراسم التشريفية فى مصر، وإنما يتبع المحمل
حتى وصوله إلى مكة المكرمة، وحتى إتمام إجراءات التسليم والتسليم وانتهائها
حيث يقول:

"وعند وصول المحمل الشريف المذكور إلى مكة
المكرمة، تُنصَّب الخيام بجوار مكان يدعى «جرول» خارج
المدينة المباركة، وينتظر مراسم المحمل الشامى. وفى اليوم
التالى من نصب الخيام على بعد مسافة كيلومترين تقريبًا
من المكان المذكور، يقصد أمير مكة المكرمة وجميع أركان
حاشيته خيمة أمين الكسوة فى شكل رسمى وهم يرتدون
زيهم الرسمى الكامل، وبعد إلقاء رسم التحية بإعلان
المدافع، وإجراء الاستقبال من قِبَل الموظفين مثل وكيل
وأمين الكسوة، وموظف القفطان، يتم إجراء تسليم الأمر
السلطانى لجناب الخليفة، وإعطاء كاتب الديوان التركى
الفرمان السلطانى بعد أن يلثمه أمير مكة. ويتحرك
الموصى إليه بوقار تام مُتَطَيًّا فرسه وأمامه قافلة أيضًا

(١) يقول خالد ضيا: "بو وبوكا مماثل مراسم تشريفاتيه نك ايفاسنده پوليس مفتشليله سوارى وپياده
پوليسرك محافظه انتظام ايچون گوريلان حسن اهتمام وخدمتلى، وافراد اهالى يه جين جبين
گوسترميه رك بروقار مخصصله، جديتله ايفاي وظيفة اينديشلى شايان دقت اولديغى گيى اينديلان
تبليغاتك بلا اعتراض قبول وانفاذى خصوصلرند اهالينك الفت اطاعتى دى شايان قيد وتذكار در".
(مصر خاطراتى، ص ١٧٣).

وعقب القيام بالإجراءات التشيعية بنفس المراسم،
يوصل المسيرة إلى موقع المحمل المصرى مصحوباً
بالترنيمات القومية للبدو الفرسان الهجّانة، وهم يقرعون
الطبول ويعزفون المزامير التى تشبه ما هو معتاد فى مصر،
وبعد أن يجرى واجب السلام والاحترام بانطلاق المدافع
هناك، يؤدّى واجب الاستقبال من قِبل محافظ اِخمل، ومع
أداء فرقة مصر العسكرية المرافقة للمحمل للسلام الهوائى
مرة أو مرتين، يتم التأكد أنه قد أصبح مسك الختام فى
هذه الاحتفالية"^(١).

ولا ينسى خالد ضيا أن يؤكد فى نهاية حديثه المراحل الثلاث التى تمر بها
كسوة الكعبة فى مصر وهى: نقلها من المصنع الذى يصنعها إلى المحمل الخاص فى
القلعة، ثم وصولها إلى جامع الحسين، ثم نقلها إلى الحجاز، فيقول:

"وفى مصر يطلق اسم موكب اِخمل على المراسم
الخاصة بكسوة الكعبة المعظمة، وبعد أن تنقل الكسوة
المباركة من المصنع الذى ينسجها إلى موضع خاص
بالقلعة، يتم ربط حلقاتها الفضية هناك وتصل إلى جامع
سيدنا الحسين، ثم توضع فى صناديق أخرى بالجامع
الشرىف المذكور ويتم تسليمها إلى أمين الكسوة وترسل
إلى ناحية الحجاز، ومن أجل أن تبرز فى الموكب، تقام
مراسم خاصة معتادة"^(٢).

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٠٦.

ومن بين الاحتفالات والأعياد الأخرى التي ذكرها الرحالة الأتراك في تلك الفترة، عادة الاحتفال بعروس النيل، فقد ذكر جناب شهاب الدين تلك العادة القديمة التي ارتبطت عند المصريين بإلقاء عروس جميلة إلى النيل لكي يفيض، وروى كيف منعت هذه العادة منذ شروق شمس هدى الإسلام على هذا البلد الغالي والنفيس. ولكن بعد مرور سنة من دخول مصر الإسلام لم يرتفع النيل ولم يرو المحاصيل الزراعية، عندئذ رجع عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكتب الأخير رسالة كانت قحواها:

"إذا كان تدفقك يصدر باختيارك أنت حتى الآن،
فقف هذا الجريان، وإن اتبعت الأوامر العليا للخالق
الأعظم، فنحن نتضرع ونتوسل إلى الحامي الأكبر أن
يكون فيضانك فيضاناً كاملاً تاماً".

وفي اليوم التالي من إلقاء هذه الرسالة في النيل بدأ النهر يزداد حيث ارتفع الفيضان بمقدار ١٦ ذراعاً وهو أعلى درجة للفيضان.

ومنذ ذلك الحين تغيرت عادة إلقاء البكر، وتقرر إلقاء شيء مقطوع من الخشب على هيئة امرأة إلى الماء.

ويذكر جناب أن هذه العادة تنفذ حتى الآن باستمرار فلا يزال يحل كل سنة موسم الإلقاء، كأنه يمثل عيداً خاصاً. حينذاك يجتمع كل شخص على شاطئية وهو مفعم بالشوق والفرحة ويغنى، وكذلك يزج السيدات بأطفالهن أملاً في القوة والشفاء، فقد كان أصحاب الأمراض المزمنة والقادمون من أماكن مختلفة، يغتسلون بماء النيل^(١).

(١) يقول جناب شهاب الدين: "توقرار حالاً بردوام جرياندر: حالاً هرسنه برعيد مخصوص گبی موسم القا حلول ایندر. اوزمان هرکس برشوق ونشاط، کنار نیله طویلانیئر، ترنم وتقره ایندرمش. اوزمان قادیئلر قوت وشفا امیدیه چو حقلرینی صویه صوقارلر، نقاط مختلفه دن گلن مزمن خسته لقلیلر آب نیل ایله ییقانیئرلر... (حج یولنده، ص ١٧٤).

ويذكر هذا الاحتفال أيضًا محمد محسن^(١) الذي يوضح أن العروس تلقى في النيل وهي في أبهى لباسها وحليها، وذلك في يوم مراسم افتتاح خليج بجوار مصر العتيقة... وحتى زمن الرحالة كان يفتتح هذا الخليج رسميًا مجموعة معينة من الموظفين وذلك في يوم فتح الخليج، وفي الليل يتم إيقاد القناديل واللمبات وتنفذ المراسم، ويعد هذا اليوم عيدًا رسميًا يقوم فيها أهالي البلدة بالنتزه.

٢- وسائل اللهو في مصر:

(أ) الموسيقى والغناء:

جذب انتباه رحالنا الأتراك هذا الموضوع، وأضافوا إليه أبعادًا أخرى خصوصًا خالد ضيا الذي تعرض بالنقد للأوضاع الموسيقية في مصر حال زيارته لها وحسب مشاهداته السطحية كما أقر بذلك في معرض حديثه.

ويمكن تلخيص تلك النظرة النقدية في النقاط التالية مع استنتاجاتها:

١- أن الموسيقى الموجودة في مصر في تلك الفترة كانت مختلفة لانقسامها إلى موسيقى عسكرية وموسيقى مدنية.

٢- أن فرق الموسيقى العسكرية - وبخاصة الإنجليزية^(٢) التي شاهدها خالد ضيا بعد سفره إلى القاهرة - كانت تتلقى تدريبات إجبارية في الثكنة

(١) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ١٢٥.

(٢) يصف خالد ضيا هذه الفرقة قائلاً: "موسيقى الفرقة الإنجليزية التي رأيتها كانت عبارة عن أربعة وعشرين جنديًا تقريبًا، وكانوا يتمنطقون بالطبول في وسطهم تمامًا. ويتخذ أصحاب الطبول الصغيرة أماكنهم في الصف على شمال الطبالين وأيمانهم. وكان عازفو الفلوت والأبواق يشكلون عدة صفوف منتظمة أمامهم وخلفهم. كانوا في حالة منتظمة إلى حد كبير. حيث يقفون ويسرون بإشارة واحدة إلى حد أنه يخيل للناظر إليهم أنهم جسد واحد متحرك بماكينة هيئة فرقة متكاملة. وبسبب أنهم يهزون أذرعهم لكي يرسموا بأيديهم في كل ضربة دوائر في الهواء بالمقرعة التي بأيديهم، فإن مثل هذه الحركات والأوضاع الشكلية في أوقات تحركهم خصوصًا تثير الانتباه. (انظر خالد ضيا: مصدر مصر، ص ١١٣ - ١١٦).

العسكرية الملحقة بكوبرى قصر النيل آنذاك. كانت هذه الفرق مجهزة بالآلات الموسيقية على شكل فرقة نحاسية^(١).

٣- ثم يذكر خالد ضيا أن الفرق العسكرية الموسيقية المصرية كانت تعزف موسيقاها فى حديقة الأوزبكية يومياً خلال الصيف، ويومى الأحد والجمعة شتاء. ومعنى هذا انتقال النظام الإنجليزى الخاص بالفرق العسكرية إلى الفرق العسكرية المصرية.

٤- بدأ الباب يفتح على مصراعيه أمام من يرغب فى استدعاء هذه الفرق الموسيقية خلال الاحتفالات والولائم الخاصة والعامة، وذلك بالاتفاق على دفع أجر معين قانوناً إلى القلم الخاص بنظارة الحربية.

٥- ثم بدأ أرباب الفن يلتحقون بهذه الفرق العسكرية الموسيقية، وحلوا مكان الجنود العساكر، ثم شكلوا فرقاً موسيقية خاصة كانت تلبى أى دعوة بأجر زهيد.

٦- ثم اتخذ شارع القلعة المعروف بشارع محمد على مقراً لهذا النوع من الفرق حيث انتشرت به محلات مجهزة بالآلات الموسيقية وأجهزتها، ويصور خالد ضيا حال أولئك الموسيقيين الواقفين أمام البنك الخشبي لمحلاتهم وهم يترقبون ظهور الزبائن، وكانوا يقضون أوقاتهم أحياناً فى التدريب، وأحياناً بصحبة النارجيلة، وتتشكل الفرق الموسيقية على درجات ثلاث من الآلات المعدلة والمطورة للطبلة والمزمار والدمبلك (الطبلة الصغيرة)^(٢).

(١) انظر خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٣.

(٢) انظر خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٣ - ١١٦.

وخلال زيارته لحديقة الأوزبكية، يوضح جناب شهاب الدين^(١) عدم إقبال المصريين على سماع موسيقى الفرق العسكرية الموسيقية، فهم لا يحبون سماع الموسيقى الغربية حيث يقول:

"لا أعرف لماذا يرغب القليل جداً من القاهريين على هذه الحديقة اللطيفة، حتى إن الفرق العسكرية الموسيقية لا تستطيع أن تجذب الأهالي. وهى تملأ الحديقة بعزف ألحان حزينة وهادئة لأوبرا عايدة، وأحياناً بعزف أدوار غنائية رتيبة راقصة.

وليس هناك من يصغى إلى تلك النغمات سوى حاضنات الأطفال مع الطيور البرية التى طارت إلى قاع السماء، وسوى الكراسى الخالية، فالمصريون لا يستطيعون أن يحبوا الموسيقى الغربية"^(٢).

أما الغناء فينضح من كتابات الرحالة الأتراك أن من بينهم من هو مغرم بالاستماع إلى أغاني مشاهير مطربي مصر، حيث يذكر عبد الغنى سنى بك فى أكثر من موضع فى كتابه، أنه كان يأمل الذهاب إلى مصر ولو مرة واحدة فى عمره، والاستماع إلى مشاهير مطربي مصر، بل أنه يرى تحقيق ذلك ضرباً من الخيال وأمرًا أبعد من المستحيل، ويفسر لنا سبب افتتانه بهم قائلاً:

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٢٦.

(٢) يقول جناب شهاب الدين: "بيلم نيجون، قاهره ليلر بوحديقه لطيفه يه بك آز رغبث ايدبيورلر: أيدا اوپراسنك بست وحزين الحانى فقراتى ايله باغچه يى طولدوران مصر عسكرى پاندوسى بيله جلب اهالى يه كفايت ايده ميور، اونغماتى قعر سماده اوچان طيور وحشيه ايله چوجوق داديلرندن، بوش اسكملة لردن باشقه ديگلين يوق ... مصريلر موسيقى غربى يى سوه ميورلر". (حج يولنده، ص ١٢٦، ١٢٧).

"كنت قد قضيت سن صباى فى ديار العرب، فى
سورية، وبسبب أن أذىً قد ألفتا أكثر موسيقى العرب،
فكنت قد خصصت خمسين أو ستين أسطوانة من
أسطواناتي الفونوغرافية لنغمات العرب. فهل أستطيع يا
ترى أن أذهب إلى مصر ولو مرة واحدة فى عمرى على
أمل الاستماع إليهم جميعاً؟ كنت أقول: آه، هيهات؛
كيف يمكننى الذهاب إلى تلك الديار؟ وبأى سبب أو
دافع، خصوصاً أنه ليس من الجائز حتى مرور شيء كهذا
فى الخيال؟" (١).

أما خالد ضيا، فقد تناول موضوع الغناء فى مصر بنظريته النقدية التى
نستشف من خلالها، أن الغناء فى مصر قد مر بمرحلتين:

فى المرحلة الأولى كانت مصر تمثل مركزاً لكمال الموسيقى العربية - كما
يقول خالد ضيا - فلا يمكن أن يظهر أمثال المطربين والمغنين الذين ينشؤون بها،
فى أى مكان آخر فى بلاد العرب. وبمجرد ظهور أغنية ما، أو غزلية أو استيلاية
موسيقية، تنتشر من ثم إلى سائر الأقطار العربية (٢).

ومن المؤكد أنهم كانوا أصحاب مسلك خاص فى الحقيقة، ولهم أسلوب للغناء
والموسيقى، وهو ما يتم قبوله وتقييمه. وكان يفتد إلى مصر الطلبة من أجل دراسة
الموسيقى وأصول قراءتها. ومن يجز كان يشار إليه بالبنان بل إنه كان يوجد أرباب
الكمال وأصحاب الدهاء والذكاء الخارق وقد نضجوا فنياً بصورة أفضل من مطربي
المصريين. وكانت المغنيات المصريات، وبخاصة النساء المسلمات الملقبات باسم

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ١٠٤.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٤.

العوالم يغنين من خلف الستائر فى كازينوهات الطرب العامة. وكانت بعض نادراتهن ينفردن بمنهج وصوت حتى على المغنين الرجال.

أما المرحلة الثانية فقد تم فيها زوال تلك المكانة السابقة لمصر فى مجال الموسيقى والغناء، أو هى فى طريقها للزوال، فقد بين خالد ضيا فى حديثه النقدى أنها ترجع إلى سببين مهمين:

أولهما: عدم جود مطرب أو مغنٍ عربى يمكن الاستماع إليه باحترام فى القطر المصرى باستثناء الشيخ سلامة حجازى والشيخ يوسف، ويشرح خالد ضيا أحوال هذين المطربين وهما فى سبيلهما إلى ضياع مكانتهما أيضا قائلا:

"كان الشيخ سلامة الذى يعد من الفنانين بحق،
والذى ابتلى بضياى صوته الجميل بسبب تقدمه فى السن
اليوم، ولهذا هبطت مكانته إلى الدرجة الثانية، كان
الشيخ سلامة حجازى يطبق جزئيا ما يراه مناسبا من
المنهج القديم".

أما الشخص المعروف باسم الشيخ يوسف، وهو المغنى الوحيد المعروف بحسن صوته وأسلوب غنائه، والموجود فى مصر حاليًا، فكان يجيب باستعلاء على دعوات الولائم والحفلات الفخمة جدًا، وقد حدد أجرته هو فقط بخمسين ليرة إنجليزية من أجل غناء فاصل غنائى واحد. ولا يدخل فيها أجرة الآلاتية. كان هذا الشخص قد دعتة حضرة والدة الخديو خاتم أفندى فى مهرجان عام فى ليلة مزينة قبل أربع أو خمس سنوات^(١).

(١) يقول خالد ضيا: "بحق صنعتكار اندن معدود اولان واليوم اختيار اولديغى جهتله صدائى لطيفى ضياىعه او غرايان وبومناسيتله قيمت ومزيتجه ايكنجى درجة اينن شيخ سلامه نام ذات (شيخ سلامة الحجازى) نامنده عربجه برتيايترو تشكيل ايلمش، مسلك قديمى تياترو ده مناسبت دوشدجه قسما تطبيق ايتمكده بولنمشدر. حسن صوت وطرز تغنييله معروف ويكانه خواننده اوله رق اليوم مصر ده موجود بولنان شيخ يوسف نام ذات ايسه سازاجرتى داخل اولميه رق بر كيجه لك فصل ايچون يالگز كنديسنه اللى إنجليز ليراسى اجرت تعيين ايدرك بك كبار ضيافت ودوگونلره مستغنيانه اجانب ايتمكده ايمش! بوذات درت بش سنه اول برشير ايبن كيجه سى بيكده والده خديو خانم افندى حضر تترى طرفندن تغنى ايتديرلمك اوزره در سعادتته جلب ايدلمش ايندى" (مصر خاطراتى، ص ١١٥).

أما السبب الآخر الذى يذكره خالد ضيا، فهو ظهور فرق غناء تتكون من رجلين وامرأتين مسلمتين مع آلاتهم المكونة من العود والقانون والدف. وكانت تغنى فاصلات من الغناء فى المقاهى الخاصة والعامة على طراز حلقات الرقص فى إستانبول، غير أنه قد تم التعود على الغناء بإضافة الدبكة إلى مجموعة الآلات خلال غنائهم. وترقص النساء العارى جزء من صدورهن وجميع بطونهن وسررهن، والداعرات بدرجة شائنة تورث العار لعالم البشر ويرقصن رقصات عبارة عن هز الوسط ولّى الخصر فقط، وهو الذى يطلقون عليه الرقص الشرقى، وهن قد علقن أذيالهن بأيديهن. ومن المعروف أن المذكورات يتم دعوتهن للقاء خلال رقصاتهن من قبل زبائن المقهى والمترددن عليه باستمرار، الثمالي بشرب الحشيش، ومعروف أنهن منغمسات فى الملذات بصفاقة والمعاشرة الوالهة الوقحة فى حقيقة الأمر.

وعندئذ يطلق خالد ضيا حكمه بأنه لن تقوم قائمة للموسيقى العربية فى مصر، ولن يشار إليها بالبنان فى القريب العاجل، حيث إنها قد انحدرت إلى هذا المستوى.

وبخصوص المسألة الثانية، لا بد أن نفرق بين الطرب الأصيل الذى يمثل أولئك المشاهير من المطربين أمثال الشيخ محمد سليم وعبد الحى حلمى وعلى عبد البارى وغيرهم، وبين ما تقدم أولئك الراقصات من أغاني فى تلك الأماكن التى يسميها الأتراك "قافة شنتان" أى مقاهى الغناء.

فهذا ليس بطرب على الإطلاق، وقد أدرك عبد الغنى سنى بك^(١) هذا الاختلاف بعدما تكبد مشقة البحث عن مشاهير مطربي مصر فى جميع مقاهى الغناء، فلم يعثر لهم على أثر، وعند سؤاله أدرك أنهم لا يأتون مثل هذه الأماكن التى يوجد فيها فقط راقصات مغنيات لا يطربن، وأنهم يأتون بدعوات وحفلات خاصة.

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ١٠٥.

أما جناب شهاب الدين^(١) فقد كان يرغب حين ذهابه إلى مقاهي الغناء فى مصر فى رؤية راقصة مصر، حورية الشوق والاهتزاز - كما يصفها جناب - تلك التى كانت تحيط الفراغة القدماء بدوام السعادة، خصوصاً بعد ما قرأه عن براعتها وجمالها الأخاذ فى جميع الكتب القديمة، ولكنه حين دخل هذه الأماكن الخاصة بمنازل الرقص، التى توجد فى حى يسمى "جنين" بالإسكندرية، أصيب بخيبة أمل، فلم تكن هناك حورية كما توهم، ولم ينل سوى الاشمزاز من منظر الراقصة القذر، فهى سمينّة وقبيحة، حركتها بطيئة ودلالها يثير الغثيان، والطريف أن جناب - بصفته طبيباً وأديباً - كان يصفها بصفات مرضيّة فيقول:

"أف، يا لها من إنسانة قدرة! إنما تسحق جميع عضلاتها بتقلصات إجبارية، وتزلزل بطنها أحياناً برعشات جلدية، وأحياناً بالتواء غير طبيعى، وأحياناً رعشة غليان، تتلوى وتبدو وكأنها مريضة مصابة بألم فى بطنها، وإن كنتم تريدون إكمال اللوحة، أسندوا إلى هذه المرأة المشتمرة - وهى تحاول التمارض - أداء دور صرعة الشهوة. فى يديها صناجتان، ترتعش قدمها برقصة كريهة. تصوروا: امرأة بلا حجاب تترك جلد بطنها الكبير الأسمر عارياً للهواء، صدرها كله مثل سحارة القرون الوسطى مغطى بتعليقات مكونة من أشياء غير متناسقة ومصنوعة من معادن الأرض الصفراء الموشاة بالذهب"^(٢).

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٦٣.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٦٣.

بالإضافة إلى اشمئزازه من المكان ذاته، فهو قذر يضح بالثمالي وروائح الدخان والكحول والتبغ وغيرها. وفوق هذا، حينما بدأ جميع المطربين فى الصباح بصوتهم الأجنس مع تداخل كل آلاتهم الموسيقية الدف والعود، ويذكر جناب^(١) أن ما شاهده فى الإسكندرية فى تلك الأماكن، رآه أيضا فى القاهرة فى مقاهى الغناء عند حديقة الأوزبكية.

(ب) الأوبرا:

من المعروف أن دار الأوبرا قد بناها الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٩ بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس. وتم بناؤها فى خمسة أشهر وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه. وقد مثلت فيها أول أوبرا واسمها "ريجولتية" فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩. وعهد إسماعيل إلى الموسيقى الإيطالى الشهير فيردى أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا. فقام مارييت باشا الفرنسى بوضع رواية عابدة ومثلت لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١^(٢).

ويشيد الرحالة خالد ضيا^(٣) بوجود مثل هذه الدار الممتازة جداً كما وصفها إلا أنه يشير إلى مسألة مهمة، ألا وهى عدم مقدرة أى شخص على الذهاب إليها ومشاهدتها، بسبب عدم تخصيص أماكن للعمامة.

ويشيد بها الرحالة محمد مهري^(٤) أيضا، ويذكر أنها تعد من "المراسح" التى لا مثيل لها إلا فى عواصم أوروبا العظمى.

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٠٤.

(٢) انظر عبد الرحمن الرفاعي: عصر إسماعيل، ص ٢٠٥.

(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٦.

(٤) محمد مهري: سودان سياحتنا، ص ٢٠٦.

(ج) مسارح الغناء بالفنادق:

يذكر خالد ضيا أن مجموعة الأوركسترا الممتازة التي تشدو بألحانها وقت الطعام في الفنادق الفخمة ومسارح الغناء التي يقدم فيها الفن كل ليلة، تعد أيضا من أماكن اللهو التي يمكن فيها قضاء وقت لطيف بسبب أنه كان يتم الغناء في أماكن معينة بعد الطعام.

ويشير خالد ضيا إلى أن الموسيقى الإفرنجية بدأت تقوم مقام الموسيقى العربية والمحلية التي في طريقها إلى زوال تدريجيا. وليس هذا التهاوت والرغبة العامة في الموسيقى الغربية تقديرا وحبا لها، وإنما هو نتيجة فقدان الموسيقى العربية واندثارها^(١).

(د) المسرح:

أنشأ الخديو إسماعيل مسرح "الكوميدي" بالأوزبكية، وكان الشروع في بنائه في ١٢٨٥هـ/ نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه في ١٢٨٦ هـ/ ٤ يناير سنة ١٨٦٨.

ثم أنشئ في الإسكندرية مسرح "زيزينيا" ومسرح آخر اسمه "الفيري" بشارع أنسطاسي^(٢).

(١) يقول خالد ضيا: "هركيجه اجراى صنعت ايدن واريه ته تياتروسيله جسيم اوتلرثيمك زمانلرنده اجراى أفنك ايدن مكمل اوركسترو طاقملرى، يكلرن صكره معين محللرده اجراى ترنم ايلديگندن اديبانه وقت گجيرييله جك اگلنجه محللرى بونلرن عبارتدر". (مصر خاطراتي، ص ١١٦).

(٢) عبد الرحمن الرفاعي: المصدر السابق، ص ٢٠٥.

وفى أثناء تجول عبد الغنى سننى بك^(١) فى شوارع الإسكندرية قرأ إعلانا عن قيام الشيخ سلامة حجازى وفرقته بتمثيل مسرحية مكونة من خمسة فصول باسم "عواطف البنين" مترجمة إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية لأول مرة على مسرح "زيزينيا" وهو أفخم مسارح الإسكندرية. وبسبب شغف عبد الغنى سننى بك بسماع مطربى الغناء فى مصر وبخاصة الشيخ سلامة حجازى، أول فنان مسرحى فى القطر المصرى وأول موسيقى، كما يصفه عبد الغنى.

فقد انتبهز الفرصة وقرر مشاهدة هذه المسرحية على أمل الاستمتاع بالأنغام اللطيفة للشيخ أكثر من مشاهدته للمسرحية نفسها.

وأول شيء يذكره لنا عبد الغنى سننى بك أسعار تذاكر المسرح المقسمة إلى:

بينوار ٢٠٠ قرش

مقصورة فى الصف الأول ١٥٠ قرشاً

مقصورة فى الصف الثانى ١٠٠ قرش

كرسى بذراعين ٢٠ قرشاً

كرسى عالٍ ١٢ قرشاً

فوق المقصورة ٨ قروش^(٢)

وعند دخوله المسرح يشهد بنظامه وتألّقه بأنوار الكهرباء، وكذلك عدم توفر الأصالة فى ما يقدم بين جنباته مثلما الحال فى تركيا أيضاً، فهو يقول:

(١) عبد الغنى سننى بك: المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٢) عبد الغنى سننى بك: المصدر السابق، ص ٥٥.

"وبسبب أن المسرح كان منظماً وبه مقاعد ذات أرقام، فإنه لا يمر أحد على مكان شخص آخر، فالأرقام مرقمة فوق التذاكر في الحقيقة، فيدخل صاحبها بعد أن يجد مكانه بسهولة. وأنا أيضاً وجدت مقعدى المرقم المحرر فوق التذكرة وجلست. إن المسرح - مثلما الحال عندنا - لا هو نوع من الطرب الشرقى ولا الغربى، فليس هناك شيء يستحق المشاهدة بين جناته. كان المسرح مضيئاً بالكامل بنور الكهرباء تماماً"^(١).

وقبل بدء العرض، يبدي عبد الغنى ملحوظتين: أولاًهما أن المسرح قد امتلأ عن آخره تماماً بالمشاهدين، وترجع هذه الرغبة الجامحة - كما يصف - إلى شغف العرب بالمسرح، وكذلك بسبب شهرة الشيخ سلامة حجازى الذى كانت له مكانة مرموقة على الرغم من اشتغاله بالفن منذ خمس وعشرين أو ثلاثين سنة. إلا أن أسطواناته كانت تقدر بأربعة مسكوكات مجيدة، بينما الأسطوانات الفونوغرافية للمطربين الآخرين كانت تقدر بخمسة عشر قرشاً، ولا ينافسه فى هذا المجال سوى الشيخ يوسف المغنى الذى تباع أسطواناته بالليرة الفرنسية.

أما الملحوظة الثانية فهى اشتراك سيدات مسلمات فى التمثيل بالمسرحية وهن خلف الستائر فى المقصورة الخاصة بهن. وهذا يعنى أن المسرح لا يرى ضرورة تحديد هوية النساء فى المسرح^(٢).

ومنذ اللحظة التى رفع فيها الستار إلى لحظة انتهاء المسرحية يبدي عبد الغنى عدم إعجابه واستيائه سواء من ناحية تمثيل الشيخ سلامة حجازى الذى

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٥٦.

وصفه بأنه بارد وجامد، أو غنائه أيضاً، وكذلك الضجيج الذى يصدره المشاهدون بسبب عدم فهمهم ما يدور من محادثات بين الممثلين باللغة العربية الفصحى، فالفاهمون يشرحون ويترجمون بلغة العامة لمن لم يفهم بجوارهم وقد وصل هذا الضجيج مداه إلى حد أنه لم يستطع فهم محاورات الممثلين كما يجب، وقد استنتج عبد الغنى من هذا أن معظم من جاء إلى المسرح كان متشوقاً إلى سماع نغمات الشيخ سلامة أكثر من مشاهدة المسرحية.

وحينما قام الشيخ سلامة بالغناء فى الاستراحة بين الفصلين الثالث والرابع، غنى بلحن لطيف - كما يقول عبد الغنى^(١) - قصيدة قصيرة عبارة عن ثمانية أو عشرة أبيات. واستغرب آهات الاستحسان التى كان يطلقها المشاهدون، فهو يراها شيئاً مبالغاً فيه. بل إنه كان يسمع صوت الشيخ سلامة عكس ما كان يسمعه فى أسطواناته الفونوغرافية، فكان يغنى بصوت يختلف عنه فى الأسطوانة. فهو أقل بكثير ربما بسبب تعب أنفاسه التى استهلكها فى أثناء المسرحية، وسوف ينبج عن مدحه المبالغ فيه، استعلاء الشيخ سلامة على الحاضرين وهذا يرجع إلى أن الشيخ سلامة كان يعلم جيداً جداً أن الناس قد تراحموا على المسرح رغبة فى الاستماع إليه فقط أكثر من مشاهدة المسرحية.

ويؤكد عبد الغنى أيضاً استعلاء الشيخ سلامة حتى بعد انتهاء العرض، وعدم تلبية لرغبة الجمهور فى أن يراه ويحييه، ويتوالى التصفيق والنداءات:

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "أوجنى ودرنجى برده آره سنده (شيخ سلامه) صحنه اوكنه چيقدى وسكيز اون بيتدن عبارت قيصة برقصيده لى برلحن لطيف ايله ترنم ايتدى، مستمعين بررر آه ... مديد ايله هرفاصله سنى ترخيم ايديبورلردى ... لكن غريبدر! بوراده برحقيقت دها نظرمدده تمشل ايتدى. غراموفون بلاقلارى مياننده برى بو (شيخ سلامه) نك برقصيده اولك يغنى يوقاريده سويله مئدم. شيمدى عكس صوتى، صوت اصليسييه بوراده بالذات تطبيق ايديبوردم. سبحان آه! ... اولسه اولسه بلكه بوراده اويون اثناسنده صرف ايتديكى نفس يور غونلغندن" (يمن يولنده، ص ٥٦).

"سلامة، سلامة"، ولكنه قدم تمنياته بوقاحة، وأمام إصرار الجمهور لم يكن من تفريقه إجبارياً مفر^(١).

ويذكر عبد الغنى سنّى بك أنه قد ذهب إلى السينما بعدما تجول فى شوارع القاهرة، وشاهد فيها نماذج جيدة، وحينما سافر إلى الإسكندرية وجد أن بها حلبات للسباق، ومحالاً للرقص والمسارح والجوق الموسيقية وبها أيضا فنادق ممتازة، وذلك لتهيئة الأسباب المختلفة لنزحة الزائرين والوافدين عليها^(٢).

٣- المتنزهات فى مصر:

(١) حديقة شبرا:

يُعَدُّ إقبال الناس على أماكن التنزه من مظاهر التطور الاجتماعى فى تلك الفترة، فقد أخذوا يرتادون المتنزهات والضواحي، وبخاصة بعد انتشار العربات التى سهلت المواصلات بين العاصمة وضواحيها. فأخذ سيل العربات والمركبات لا ينقطع عصر كل يوم فى طريق شبرا، ثم فى طريق الجزيرة والجيزة والأهرام^(٣).

وهذا ما يؤكد معظم الرحالة الأتراك خلال زيارتهم العديد من الحدائق، وبخاصة تلك الحدائق الخلابة فى شبرا، حيث أبدى معظمهم إعجابهم الشديد بها، وبالشوارع الممتازة المرصوفة بالقطران، وقد اصطفت الأشجار على جانبيها، بالإضافة إلى القصر الذى شيده محمد على باشا فى نهاية شبرا، ولهذا فهى تعد متنزهاً يأتى إليه أغنياء البلد وكبرأؤها بعرباتهم، كما يقول جناب شهادب الدين:

(١) عبد الغنى سنّى بك: المصدر السابق، ص ٥٧ و ٥٨.

(٢) عبد الغنى سنّى بك: المصدر السابق، ص ٩٤.

(٣) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، ص ٢٠٥.

"هذه الحديقة هي متّزّه يشاهده كل كبار
القاهرة، ومعظمهم من السيدات يومى الجمعة والأحد ...
اليوم الجمعة، طريق شبرا مملوء بالعربات واللاونديات
وفيتونات وأنواع الفرس وبالمركبات المخيبة..."

تسير العربات كل واحدة منها بسرعة مثل السهام. والسيدات العفيفات فى
اللاونديات الواسعة ذات الجوانب الزجاجية، والسيدات المتبرجات الطائشات فى
الشراعات ذات الصاريين وفى الفيتونات. والضباط غالبا على الخيل، والسياح
الإنجليز غالبا على الحمير، وبينهم عدد من الشبان البيض. يتدفق كل هذا الخلق
بسرعة^(١).

والواقع أن شبرا كانت متّزّها لسكان القاهرة، فهى حديقة غناء بالأشجار
والنباتات النادرة فىمى تحوى - كما يقول جناب - الأشجار الهندوصينية النادرة،
وأشجار البراهمة المقدسة ذات الأوراق الحادة، والكواسيه ذات الزهور الصفراء
والأغصان المنحنية كل غصن منها تحت فواكه ذهبية اللون مثل الليمون والبرتقال
والیوسفى أفندى.

وكذلك أشجار الورد المفتوح والنباتات الخلابة ذات الأوراق الياقوتية اللون،
التى غالبا ما يطلق عليها اسم بو وانزتيا.

(١) يقول جناب شهاب الدين: "بوياغچه برمسیره دركه جمعه وپازار گونلری قادین، اركك بتون قاهره
كبارلری على الأكثر اوراده تفرج ایدرلر. بوگون جمعه. شوبرا یولی عربه لر، لاندولر، فایطونلر،
جنس آنلر، طیریس گیدن مرکبلرله مملو، عربه لربرر اوق گبی سرعتله گیدیور. اطرافی جاملی،
گنیش لاندولرده مخدرات اسلامیه، بریقلرده، فایطونلرده خفیف تووالتلی ماداملر، آنلرده على الأكثر
ضابطلر، مرکبلرده على الأكثر إنجلیز سیاحلری .. آرہ ده برقاج ده وه لوسیدلی دلیقانلی. بتون
بوخلق برشتاب مخصوص ایله آقیور"، حج یولنده، ص ۱۳۸ و ۱۳۹.

وعلى الرغم من ذلك فالحديقة لم تلقَ العناية والاهتمام اللازمين لها حيث يقول جناب: "وما يلفت النظر فى هذه الحديقة التى هى ذكرى للخيديو المتوفى محمد على باشا، هو إهمالها وتركها بحال يؤسف له، فحوض المرمر الكبير الذى كان يتوسطها (وهو حوض مملوء دائماً بالماء المتدفق من أفواه التماسيح الحجرية المفتوحة) كل ما حوله وكل ناحية تتأكل تدريجياً وتصير خراباً تلك الأشياء الجميلة التى شيدت بثروة وتكلفة باهظة سوف تختفى بغبار الزمان تدريجياً. لقد تراكم فوق كل ركن سواد يمزق القلب، إلا أن الأزهار وأشجار الأقاليم الحارة دائماً جميلة، والماء فقط هو العذب^(١)."

ويوضح محمد محسن أنه كان يوجد فى القاهرة أماكن جميلة جداً غنية بالأشجار مثل شبرا والعباسية والجزيرة والجيزة، ولكن ليس لتتزه جميع أفراد الشعب، وإنما لطبقة الأغنياء فقط حيث يتزهون بعرباتهم فى الأيام العادية ويوم الأحد^(٢).

(٢) حديقة الأزرىكية:

تعدُّ الأزرىكية من الأحياء التى كانت موضع اهتمام الرحالة الأتراك، فلم تخلُ كتاباتهم من الكتابة عنها.

وضح محمد محسن أنه قد أقيم فى الأزرىكية حديقة للشعب جميلة جداً وغناء ومزينة بالأشجار والنباتات النادرة الخاصة بأستراليا وأمريكا والهند واليابان. ومما يجدر ذكره أن الأزرىكية كانت من قبل على شكل بحيرة كثيرة الأدغال، وذلك بسبب ركود المياه الناتج من فيضان النيل، وخلال فترة الحملة

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٢) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ١٢٥.

الفرنسية على مصر، قام الجنرال كليبر بترميم مقر إقامته فى الأوزبكية وتنظيم الحديقة أيضا، ومما يذكر أنه قُتل فيها أيضا على يد سليمان الحلبي.

وفى حلوان كان يوجد حديقتان للأهالى صغيرتان وكان يوجد بها أيضا قصر شتوى لأسرة الخديو. وفى شمال القاهرة كان يوجد منتزه فى المطرية وبه شجرة تنسب إلى السيدة مريم رضى الله عنها بالإضافة إلى عمود ذى قطعة واحدة مصنوع من الرخام الأحمر السماقى مكتوب عليه بالهيروغليفية، وقد أحضر هذا العمود لفخم إلى إستانبول فى زمان الرومانيين وهو الآن مستقر فى ميدان يسمى "مهنتر خانه"^(١).

أما خالد ضيا فقد أسهب فى حديثه عن حديقة الأوزبكية ضمن بحثه المعنون بـ "حدائق البلدية" (المحافظة). وبعد أن يضمن المعلومات التى أوردها محمد محسن، بصفها خالد ضيا قائلا:

"تعد حديقة الأوزبكية من أقدم الحدائق وأضخمها التى تأسست داخل المدينة وخارجها، فهى على شكل مثنى ويبلغ حجمها أربعة وعشرين فدانا، وتبعاً لأن الفدان الواحد يبلغ خمسة دونمات، فإنها تبلغ مئة وعشرين دونماً، وتحتوى بداخلها مسرحاً ومطعمين وأربعة فنادق، وموضعا للموسيقى مضيئاً بالكهرباء يخص موسيقى الفرقة العسكرية، وميادين واسعة، وتنظيمات ضخمة، وأشجاراً قيمة نادرة، وقمریات متعددة وكراستى عامة مصنوعة من خيوط القنب، مخصوصة لجلوس العامة، وقصرًا مُقامًا من أشجار النخيل التى

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٢٦.

تظهر في الطرق المكونة من الصخور، وتغشاً ضخماً
تندفق منه المياه من كل ناحية، وأحواضاً متعددة
وقناطر^(١).

ويواصل خالد ضيا حديثه عن ثمن تذكرة الدخول ومحاولة شراء الشركات
لهذه الحديقة فيقول:

"وتقدر تذكرة الدخول بعشرين قرشاً دائماً،
وهي تُعدُّ مجمَعاً لأرباب الزهة بسبب وجود الفرقة
الموسيقية وبخاصة في يومي الجمعة والأحد في هذا الموسم،
وكانت شركة ما قد اقترحت على الحكومة المصرية
شراء حديقة الأوزبكية بمليون ليرة وطالبت أخرى
بشريط طولي بعمق خمسة أمتار من أجل إقامة مكان
دائري مع بقاء الحديقة على حالها الأصلي، وعلى الرغم
من أنها عرضت مئة ليرة إنجليزية على كل متر فقد رُفض
الاقتراحان"^(٢).

(١) يقول خالد ضيا: شهرك داخل وخارجته بالخاصة بغجه اولمق اوزره تأسيس ايديلان محللردن الك
قديم وجسمي اوزبكيه بغجه سيدر. اومثمن برشكده ويگرمي درت فدان جسامتده در، برفدان تقرينا
بش دونم اولنيغنه نظراً مذکور بغجه ده ١٢٠ دونم وسعتده در، دورنده برتباترو، ايكي غازينو،
درت لوقانطه وعسکري پاندوسنک ترتيمه مخصوص الکتریکله منور بر موسيقه محلی، گنیش ميدانلری
واسع طرحلری، نادر وقيمتدار اغاجلری، هرکسک لوتورمنه مخصوص عمومی قنابه وصنداليه
لری ومتعدد قمریه لری، صنعی وهرطرفندن صولار آقار جسيم برقاسقاد ايله بونک نوقتنده صنعی
وقبالقلردن متشکل يوللردن چيقييلور خرما اغاجندن ناتورال اوله رق ياپلمش برکوشکی، مناره
نردبانلری طرزندن برنرديان ايله کوشگک ده بالاسنه چيقييلور وايچابنده مغاره يه قدر اير مختلف
يوللری، متعدد حوض وکوپريلری محتويدير". مصور مصر خاطراتي، ص ٥٢.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٥٣.

أما جناب شهاب الدين، فقد قدم لنا وصفًا لحديقة الأوزبكية مشيرًا إلى بعض التغيرات التي طرأت عليها قائلًا:

"وتعد هذه الحديقة مركزًا للمحلات الخاصة
بالأوروبيين المقيمين في القاهرة حتى إنه عندما جاء نابليون
إلى القاهرة أقام فيها فترة. وقد تغير شكل هذه الحديقة
عشرين مرة حتى الآن. كانت في الماضي عبارة عن
حوض كبير، ثم أخذت شكلها الحالي في النهاية، تظلل
الأشجار العجيبة القادمة من إفريقيا الوسطى باستثناء
الأشجار المحلية في كل ناحية على الرمال، وهي تنشر
رائحة عطر رقيق غامض كأنها عطر حقيقي" (١).

ويذكر جناب أن قليلًا جدًا من القاهريين يرغب في رؤية هذه الحديقة حتى
إن الألمان الهادئة والحزينة لأوبرا عايدة بل وفرقة مصر العسكرية الموسيقية، لم
تستطع جذب الأهالي، فلم يكن هناك سوى حاضنات الأطفال، ونادرًا ما يكون
هناك شاب قاهرى ذو سترة وسراويل وقميص إفرنجى، إلا أنه عندما يحل الظلام
تمتلئ مقاهى الغناء ذات الطراز العربى التى تبدو على شكل أكواخ فى حديقة
الأوزبكية. وقد لاحظ فى هذه المقاهى نفس ما رآه فى مقاهى الإسكندرية، ففيها
المغنى الذى يصرخ بكل ما أوتى من قوة مستندًا بيديه على صدغه، وراقصة،
وضجيج الطبول التى تهتك الأذان (٢).

(٣) حديقة الحيوانات:

أما حديقة الحيوانات فقد زارها عبد الغنى سنى بك، وقبل أن يتحدث عنها
يذكر لنا قيمة تذكرة الدخول وهى "خمسة قروش لكل فرد"، ثم يصفها قائلًا:

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٠.

"يوجد هنا أقسام وتصنيفات مقسمة، وفصائل وأقفاص كبيرة وواسعة، وحواجز (درايزين)، وأحواض، ومياه جارية، ويوجد هنا لوحات فوق أقفاص جميع الحيوانات ومجموعاتها (فصائلها) وهي تحكى أسماءها وأجناسها ومواطنها. لقد رأينا هنا جميع أنواع الحيوانات سواء ذوات الأربع منها أو من لديه أجنحة. منها قط متوحش أظهر مشهداً لطيفاً جداً مع زرافتين ذواتي ألوان مرقشة وعنقاهما وأرجلهما الطويلتان جداً تثير دقة النظر، وأنواع كثيرة من القروود سريعة التهيج لا تتوقف مطلقاً وتتحرك بدلال، وثلاثة أسود مرعبة، ونمر ذو عينين غدارتين، وبضعة أنواع من الضباع وفرس النهر، وفيل وحمار وحشي، وأنواع أخرى من الحُمُر الوحشية ذات خطوط بيضاء وسوداء، ونوعان من النعام، والنسور، وطيور منفردة ومتنوعة صغيرة، وغيرها".

ويلاحظ عبد الغنى سنّي بك خلوّ الحديقة من زائريها بسبب أن زيارته إياها كان في يوم الأربعاء، بينما يغلب عليها الازدحام بشدة أيام الأحد، وبخاصة العائلات الأجنبية^(١).

(١) يقول عبد الغنى سنّي بك: "أوبك، أوبك بولمه لر، دائره، بويوك، كنيش قفسلر، پارمقلر، باغجه جكلر، حوضلر، أقار صولر، بوراده كي حيواناتك جملته سنك قفسلري دائره لسرى اوزرنده اسملريني، جنسلريني وطنلريني حاكى لوحه لر بولنيور. بوراده دورت أياقلى، قنادلى نوعندن مختلف الأنواع حيوانلر گوردك. بونلرك ايچنده نظرمزه الك جوق جاربان بويوني، اوك أياقلى غاييت اوزون، رنكى ألأجه برجيفت زرافه ايله غاييت سويلملى برمنظره عرض اينن يياني كدى. فيقىر فيقىر حركت ايدوب هيچ دورمايان بر جوق نوع خيرجين مايونلر، مهيپ اوج ارسلان. ايكي غدار نظر لر قابلان، برقاج نوع صيرتلان، بردگيز آيغيري، يرفيل، ياپان اشكى، جلدى بياص وسياه يوللر ديكر نوع ياپان اشكلري، ايكي نوع دود قوشى، آق بابلر، ايريلى، اوافاقلى متنوع قوشلر وساندره وساندره.. (يمن يولنده، ص ٨٤ و ٨٥).

(٤) الحديقة العامة فى القناطر الخيرية:

خصص خالد ضيا بضع صفحات^(١) من كتابه "مصر خاطراتى" للحديث عن حديقة القناطر الخيرية، التى يصفها بالجنة فى حسنها ومناظرها الخلابة.

ويذكر خالد ضيا أنها كانت متنزهًا خاصًا للخديو فى بداية إنشائها، فقد كان يأتى إليها بالباخرة من القاهرة، ثم أصبحت مفتوحة للأهالى بلا تذاكر تتجول بها العائلات الفقيرة والغنية المسلمة وغير المسلمة، إلا أنه لا بد من اتباع التعليمات الموضوعية والمعلقة فى كل مكان بالحديقة. ويصفها خالد ضيا بأنها تعليمات معتدلة، فهى عبارة عن عدم قطف الأزهار وأوراق الأشجار، وعدم إلقاء القمامة على الطرق والعشب، وعدم التجول فوق عشب المرج وعدم تناول الطعام فى غير المكان المخصص له، ومن يخالف ذلك يتعرض لدفع غرامة معينة من قبل الموظفين المختصين.

ويوجد أيضًا فى هذه الحديقة قسم خاص لا يدخله أى شخص، وهو منفصل عن الحديقة بباب خشبى، ويحيطه سور خشبى كذلك وبه كثير من الأزهار النادرة والأشجار المثمرة الخلابة، ويشيد خالد ضيا بمدى نظافة هذه الحديقة الخاصة، ونظامها والاعتناء الفائق بها^(٢).

وكثرت أماكن التنزه فى الإسكندرية، فكان يوجد بها العديد من الحدائق والنباتين، منها الحديقة المسماة بحديقة النزهة وغيرها فى الرملة، وتعد الأولى - كما يقول محمد محسن - حديقة قومية جميلة، وتبعد عن رأس التين بمقدار ثلث ساعة بالقطار. وتقع فى شرقها حديقة الرملة على مسافة نصف ساعة، وقد أقام

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٥٢ - ١٥٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٥٤.

عليها الخديو إسماعيل عدة قصور وبيوت صيفية^(١) من أجل الإقامة بها صيفاً، وبذل هذا على أن اختيار مدينة الإسكندرية كمصيف كان يرجع إلى ذلك العهد، ويقدم لنا جناب وصفاً دقيقاً لهذه الحديقة حيث يقول:

"توجد ركامات من الأشجار المنتصبة والمغروسة بدقة هندسية، وهى متناظرة ومتقابلة وأحياناً متوازنة وأحياناً دائرية، وبين هذه الركامات الأزهار الجميلة النادرة الوردية والصفراء والزرقاء والحمراء المنتشرة بحساب فنى معتمد على معرفة الدراسة الضوئية، وتوجد التعريشات المعطرة والمظلة من أغصان الورد الأصفر والأحمر... والطرق المادئة المحددة بنخيل البلح والباوباب والأقاسيا والأحواض من المرمية والنافورات المبهجة تترق مع نفسها والأغصان الخضراء والمزهرة... ثم الطيور المتألقة الملونة الساحرة، وطيور الأقاليم الحارة. أشياء لطيفة جداً، هناك أشجار لطيفة جداً جداً"^(٢).

وعلى الرغم من كل هذا الجمال والزينة فإن جناب لم يُبدِ إعجابه به بسبب المبالغة فى الزخرفة والتكلف فيها، حيث يقول:

"لقد قطعوا هناك الأشجار لتسويتها، كسروها، صغروها وشذبوها وأظهروا ألوانها كما شاؤوا، وأضافوا شكلاً هندسياً للأغصان، زرعوا الطبيعة وجدلوها

(١) محمد محسن: المصدر السابق ص ١٢٣.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٩٢.

ووضعوها بشكل جرى.. كانت الرائحة هي الشيء
الطبيعى هنا فقط»^(١).

ويوجد فى منطقة سان استيفانو كازينو وبلاچ جميل مع حمامات البحر الصغيرة، وفى ملحوظة مهمة للرحالة عبد الغنى سنى بك عن الخدمات الممتازة التى تقدم فى خط سير القطارات المتجهة إلى مصايف الرملة وانتظامها يشير إلى أن السبب فى ذلك هو أن جميع الموجودين فى تلك الناحية هم كبار وشرفاء الناس^(٢).

وعلى النقيض من الزخرفة المصطنعة لحدائق مصايف الرملة، يتسم جناب عطر هواء ساحل سان استيفانو، حيث الطبيعة الخلابة والأمواج التى تزيد على الشاطئ فتزيل ما علق بروح كاتبنا من مبالغة الزينة بين حدائق الرملة، ويوجد فى سان استيفانو كازينو وبلاچ جميل وحمامات البحر الصغيرة^(٣).

أما سليمان شكرى^(٤) فيصف منطقة الرملة الواقعة على شاطئ البحر والتى تبعد عن شاطئ الإسكندرية بمقدار نصف ساعة^(٥) بالقطار، يصفها كالجنة، فعلى جانبها تزدحم المباني العالية والبيوت الصيفية البديعة المنظر التى أقام الأغنياء

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٩٣.

(٢) يقول عبد الغنى سنى بك: «ديكرى شرق جهنمه (رملة) يه كيدن اوزون خطرلر، بويوك خدمتلى ايفسا ايدييور. بورمله خطى دها منتظم، واغونلر دها مكل. چونكه كبار خلق هب بوجهته بولونييور. بوتون صيفية لر بوجهته دوغرو امتداد ايدييور.» (يمن يولنده، ص ٦٠).

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٩٤.

(٤) سليمان شكرى: سياحات الكبرى، ص ٢٩٢.

(٥) يرى محمد مبرى أنها تقع على مسافة ساعتين من ناحية غرب الإسكندرية، وهو يصف الرملة بنفس الأوصاف التى ذكرها سليمان شوكت، ص ٣٥٦، وأورد كذلك ما وصفه محمد محسن عن هذه المنطقة فى موضع آخر ص ٣٦٠.

والكبراء فى وسطها الحدائق الخاصة لروعة هوائها ونقاؤه، فهى فى موقع بارد تهب دائماً عليه رياح الشمال الصافية.

ويصدر سليمان شوكت حكمه فى النهاية بأن مدينة الإسكندرية هى كبرى المدن المصرية وأجملها بعد القاهرة.

وخلال زيارة جناب لقناة المحمودية، أبدى إعجاباً بالناحية الشرقية من ساحل القناة، الذى يعتبره من أجمل متزهات الإسكندر رانين، حيث تمر العربة وهى تسير داخل ظلال أشجار السنط المعطرة اللطيفة على طول الساحل بأكمله، وتمر أمام أشجار لا مثيل لها ومصايف منقطعة النظير، فالحدائق مليئة بالأشجار التى تسلب الأعين والتى قلما نراها مثل أشجار البلح والموز والبرتقال والليمون والتين الشوكى (الصبار)، وهناك أيضاً الأشجار التى تتدلى أغصانها إلى الأرض وتظمر فى الأرض على شكل الصفصاف المستحى، وتتجذر وتتخذ شكل شجرة من جديد، وفى بعض الحدائق تتكاثر الأشجار إلى حد أنه لا تستطيع العين أن تنفذ إلى الجوانب الأخرى لها. هذا المكان هو عالم من الظل والخيال^(١).

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٩.

الفصل الرابع

معالم الشخصية المصرية:

الإيجابيات والسلبيات الاجتماعية التي نفتت نظر الرحالة الأتراك

لا بد أن نشير في البداية إلى أن معظم كتابات رحالتنا الأتراك لم تكن تهدف إلى تصوير الشخصية المصرية، خصوصاً أنها في معظمها، كانت أقرب ما تكون إلى خزانة للحقائق، فلا نكاد نلمس في أغلبها انفعالات أصحابها وتأثرهم بالحياة من حولهم، كما أنهم لم يلتفتوا إلى الوجود الإنساني ووصف مظاهرهم وعاداتهم وأخلاقهم. فهم معنيون بإعطاء معلومات عن مصر بصفة عامة. ويُستثنى من هؤلاء ثلاثة من رحالتنا: جناب شهاب الدين، وعبد الغنى سنى بك، وسليمان شكرى. ويفصل الأخير القول في أخلاق المصريين وطبائعهم، حيث يذهب إلى أن المصريين لا يحبون الغربة على الإطلاق فهم يعيشون فرحين في أوطانهم المعمورة والمنتجة. وهم مسلمون غيورون للغاية، وكرماء ومضيفون، ومهرة في الزراعة والفلاحة، مجتهدون إلى أقصى حد، قانعون بالقليل، شاكرون على ما هم عليه، يتمتعون بالحلم والصبر، ويتحملون المحن، ويتمتعون بقوة الحفظ والقراءة، جميعهم حماة لدينهم ومحافظون على صلاتهم، وهم يجتنبون التعصب والرياء، لديهم صلابة دينية ودمائة خلق. وهم بشوشون للغاية، ويميلون أكثر إلى المرح والمزاح، مصاحبين متعة، أخلاقهم ممتازة. كرماء إلى أقصى حد، متواضعون وفطنون، يتصفون بالبسالة والشجاعة أيضاً، وهم ممتازون ويفوقون الأجناس الأخرى من جميع الوجوه"^(١).

(١) يقول سليمان شكرى: "مصر ليلاً غربته أصلاً هوس إيتيمورلر. معمر ومنبت وطنلرنده. مسعوداته يشا مقده درلر. مسلمين غايت غيور، كريم، مسافر برور، زراعت وفلاحتده ماهر، وصوكدرجه جاليشقان، أزده قانع، حالنه شاكرك، حليم وصبو، محنته محتمل، حفاظى قوه حافظه وقرأتده نادر الأمثال، جمله سى ديانتلرينه صاحب وصللى، تعصب رياكارانه دن مجتنب وصلابت دينيه يه بحق مالك. لطيف الخلق، وغايت بشوش. ذوق وصفايه حد معروفندن زياده ميال، صحتلرى خوش. تربيه لرى مكل، فوق المطلوب ملتفت، متواضع وفطين، بسالت وشجاعت ايله ده متصف، واجناس سائره يه وجهًا من الوجوه فائق ومتازر در". (سياحات كبرى، ص ٣٤٠، ٣١٤).

وهو فى نهاية حديثه يرى أنه ليس من الإنصاف الموافقة على ما ذهب إليه الأشخاص الذين يقيمون بمصر خلال رحلاتهم التى تستغرق يوماً أو بعض يوم فى آرائهم حول فكر المصريين وأخلاقهم بصفة عامة، وتشبههم بغدر سماسرة جشعين، ومجموعة من العنّالين المحتالين الذين يتجولون فى الموانى، مثل الإسكندرية ورشيد ودمياط وبورسعيد والسويس، ويتوقف فهم أطوار هذا الشعب المسكين والصدىق والسخى، وكذلك فهم أحواله، على مدة الإقامة فى بلاده والاختلاط بالفضلاء وأهل التقوى^(١).

ولعل ما أنهى به سليمان شكرى حديثه السابق، هو خير رد على ما تَلَفَّظَ به كل من جناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك فى حق المصريين وأخلاقهم، فإذا ما نظرنا إلى أولهما نجده منذ لحظة وصوله بالباخرة إلى ميناء الإسكندرية، وقبل أن تطأ قدماه أرضها، يذكر بالتفصيل - فى ما يقرب من ثلاث صفحات من كتابه - هجوم مئات الزوارق وهى مترعة بالمصريين الجياع والحمّالين والمترجمين والمرشدين وأصحاب الخان والفنادق والمجدفين، وهم يتجهون ويتنافسون فى ما بينهم على الوصول تجاه الباخرة، ويصور جناب منظر هؤلاء الجياع المبرقشين ذوى الرائحة العفنة بقوله:

"شاهد منظر هؤلاء الجياع المبرقشين، إذ إنهم كانوا يشكلون ملابسهم من كل الألوان التى تبدو حادة جداً للبصر، وهم يبدلون كل مجهوداتهم العضلية، ويصرخون ويجرون من أجل اختطاف أحدهم قبل غيره لقمة خبز رآها فى جانب السفينة. شاهد هذا المنظر بدلالة حزينة. جاءت الزوارق فى ظرف دقيقة أو دقيقتين

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٤.

إلى جانب السفينة، هجم جميع من فيها على الباخرة،
الأمان يا ربى! يا له من هجوم! يا ترى هل كانوا من
نوع آخر غير القراصنة المتوحشين الذين تعرضوا
لفاسكو داجاما؟! الآن تتسلق الباخرة من كل جانب
كثرة من البشر، رشيقة الحركة، ومهرة مثل القطط،
كانوا يثبون بعضهم فوق بعض، ويصرخون ويتساقط
بعضهم فوق بعض.

يتشبث كل واحد منهم بالشئ الذى تدركه
يداه، وكانوا يتعانقون بالسلام وجوانب السفينة،
والحبال الضخمة"^(١).

ومهما يكن من أمر، فإن جناب قد بالغ إلى حد ما فى تصويره منظر
هؤلاء، وهم يتسابقون ويتسارعون، فلننظر إلى تصويره لهم قائلاً:

"وحيثما دخل هؤلاء الأشخاص وهم فى ألوان
الزعفران والبرونز وبلون القهوة واللبن والشيكولاتة
والكستناء، وحتى بلون المداد الأسود إلى الباخرة، كانت
جباههم مبللة، وأنفاسهم متقطعة، وكانوا مرهقين
وهزالي، ولكن ليس لديهم متسع من الوقت ليستريحوا
فيه ويلتقطوا أنفاسهم، فهم يدخلون حجرات السفينة
ويخرجون، ويجذبون المسافرين من ملابسهم، ويدفعونهم
ويضربونهم، أحدهم يمسك بشمسية سائح، والثاني

(١) جناب شهاب الدين: المصنر السابق، ص ٥١.

بالعصا، وآخر بعلبة القبعة، يلوكون شفاههم باللغات
الإيطالية والرومانية والفرنسية والإنجليزية والتركية
والعربية.

يمدح أحدهم فنادقه، والآخر زوارقه، وثالث
مطعمه، ورابع ترجمته، وكان أحدهم يقول إنه يعرف
أكثر من أى شخص المناطق المصرية، ذلك أن أجداده
مصريون ويتصل نسبه إلى الفراعنة القدماء.

وآخر، يشرح أنه يعرف جميع آثار مصر العتيقة،
مثل جيب معطفه بداية من اطلاعه على التاريخ القديم
لها. وهم يتجولون بيننا ناشرين رائحة عرقهم العفنة^(١).

وحيثما بدأ جناب يتجول فى شوارع الإسكندرية، نرى أولى ملاحظاته
مفعمة بالسخط والسخرية من كل شيء يقابله، من الشوارع، والهوام الطائفة، ومن
المبانى، ومن البشر، والذى يهيم فى هذا المقام هو الجانب الأخير، فهو يصور

(١) يقول جناب: "زعران، تونج، سودلو قهوة، جيولاته، كستانه وحتى مداد سياه رنكنده اولان بو آدملىر
واپوره گيردكلرى زمان جيبه لرى تراچنده نفسلىر گلمش ايدى. يورغون، ناتوان ايندلىر، فقط ديكلنه
جك، نفس آله جق وقتلىر يوقدى. قماره لره گيريورلر، چيقيورلر، يولجيلرى اتكلرنندن چكيورلر،
ايتييورلر، قاقيورلر، برسياحك شمسبه سنه، اوتـه كينك باسـتوننه، برديكرينك شابقه قوطوسنه
صاريليورلر، دوداقلرى آره سنده ايتاليانجه يى، رومجه يى، فرانسزجه يى، إنجليز جه يى، تركجه
يى، عربجه يى چيكنه رك برى اوتلى صندالنى، برى لوقظه سنى، برى ترجمانلمغنى ثنا ايدييور،
برى قطعات مصرية يى هر كسـن آيى بيلدگنى وچونكه بتون اجدادى مصرلى اولوپ حـتى سلسـلة
سـنك فراـعنه قـديمه يـه رسـيده اولديغنى سويليور، اوتـه كى تاريخه وقوفندن باشلايه رق مصرك بتون
آثار عتيقه سنى كندى پالطوسنك جيبى گبى طانديغنى اكلاتيوردى. بونلر آغير برترقوقوسى نشر
ايدـه رك" (حج يولنده، ص ٦٩ و ٧٠).

معظم البشر الذين يقابلهم بأنهم أناس شحاذون متسولون. يقول في وصفه لأحد المتسولين في شوارع الإسكندرية:

"تشاهدون الآن متسولاً عارياً، تطلبون الشفقة له، وهو يُظهر لكم وقاراً في أوضاعه وحركاته إلى حد أنكم ترغبون في ارتداء زيه من أجل التألق فقط"^(١).

ولعل هذا السخط والسخرية التي تبدو واضحة على جناب، يرجعان إلى رؤيته العديد من المتناقضات في هذه المدينة: يجتمع فيها الفقر والقطيع مع الثروة والغنى، بجانب ما يراه من تناقض في أشياء أخرى بها، تلك المدينة التي كانت في ما مضى موضع حسد الآخرين لما كانت تتمتع به من مكانة، حيث يقول جناب متحسراً على هذا الوضع، بما يشاهده من تلك المتناقضات:

"ها هم أصحاب الكيف وهم يقرقرون النارجيلة، وقد وضعوا رجلاً على الأخرى أمام مقهى... كل هذه الأشياء تثير الغبار الذي يرتفع من أرض شارع ضيق غير مرصوف. تقترب الأحذية الصفراء إلى البيضاء، والعمامات البيضاء إلى السوداء... ثم تتداخل الذكريات التاريخية نتيجة انطلاقة الفكر الاضطرابية لهذه المشاهدات...

ألم تكن هذه البلدة المتغيرة الحقائق، التي تشكل اليوم مجمعاً متسعاً للمتناقضات أمام عيني، هي أجمل مدينة في الزمن الغابر؟!

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٦.

ألم تكن جميع الأمصار الموجودة في ذلك الزمن،
تنظر إليها بغبطة منافسة؟! فهي لم تكن تستطيع أن تقاوم
أرواح أعظم أصحاب الفن والأدب في العصور المنسية.
كانت الإسكندرية دار قرار للفحول (العظماء).
أحضروا ذلك الماضي أمام أعينكم، ستجدون في هذه
المدينة فيضاً من المعارف. علاوة على ذلك، تأملوا
كليوباترا، سوف ترون كل تلك الميادين قد انغمرت في
ظلال عذبة تحت أجنحة خيالية لامرأة جميلة، واستغرقت
في ذوق مكتوم وخفي، وسوف تجدونها تتميز بوقار فتان
يشي بجسدها وجاذبيتها"^(١).

ولم يتعرض جناب للفقر والتسول فقط، بل تعرض أيضاً لمظهر من مظاهر
الانحلال الخلقي والأدبي بين أهل وشعب الإسكندرية، ولنترك جناب يشرح هذا
المظهر، الذي صادفه في الشارع الذي يوجد فيه الفندق حيث يقيم فيقول:

"فندق بونار جدير بالتزكية من كل الوجوه، إلا
أن به محدوراً، ألا وهو الشارع الذي به الفندق، فهناك
على جانبي هذا الطريق الواسع تماماً حارة تقوم السيدات
الشابات اللاتي يخدمن فيها ياغراء العابر والقادم، كل
بلغته هو، وليس بقليل من يستجيب لمن من الرجال
السذج، ولم تقتنع هؤلاء السيدات الوقحات بدعوتكن
شفاهة فقط، وإنما يسكنكم من أذرعكم في وقاحة

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٨.

ويجذبكم إلى الداخل ويوصلكم إلى الداخل ويوصلكم
إلى زواياهن.

وإن ذهبت إلى الإسكندرية ونزلت في فندق
بونار، فإنني أنصحك بأن لا تميل إلى الخروج من باب
الفندق سواء إلى اليمين أو إلى الشمال، وإنما تخرج من
وسط الطريق، وإن وصلت إلى ميدان المشية فسوف
تسمع من كل لسان جملة: تعال هنا^(١).

وكانت البداية الحقيقة لمصر من وجهة نظر جناب، هي الخراب والفقر،
وأطلق جناب هذا الحكم حينما رأى القرى المصرية الخربة على الجهة المقابلة
لترعة المحمودية وهي عكس ما رآه من يسر وثروة وبهاء على الجهة الأخرى.

وحينما يتجول جناب في شوارع القاهرة، متفحصاً الخرابات والآثار
المعمارية القديمة والمباني الحديثة، التي صادفها في تلك المدينة القديمة جداً،
ومستتباً من خلالها النواحي الفكرية لأهل مصر، يقول:

"ويمكن القول إنه إن كان ضرورياً الاستدلال من
هذه الآثار المعمارية على النواحي الفكرية للشعب،

(١) يقول جناب شهاب الدين: "أوتل بونار هروجهله شايان توصيه، يالكز بر محذوري وار: موضوع
اولديغي سوراق!... بوگنیش طریقڈبر باشدن برباشه ایکی طرفی بیراخانه، اورالرده خدمت ایدن تازہ
قادیلر - هربری کندی لسانيله - گلتی گچنی دعوت ایدیور، بوگا اجابت ایده جک سادہ دل ارکلرده
نادر دگل ... بوحياسز قادیلر يالكز دعوت شفاهيه ايله ده قناعت ايتيميه رك گستاخلقده قسولكزدن
طوتوپ سزی ایجری چكمك درجه لرینك واریبورلر ... اكر إسكندريتيه يه گيدوب ده اوتل بوناره
اينرسه كز اوتلك قبوسندن چيقار. چيقماز صاغه صوله ميل ايتكمزين يولگ اورته سندن گبتمكزي
توصيه ايدرم. منشيہ ميداننه وارنجه يه قدر هرلسماندن: "بورايه گلگز ... جمله منی ايشيده
جكمكز ... (حج يولنده، ص ٨٨).

فالحياة والموت هنا يعتبران كنوع من النوم واليقظة
يتكرر يومياً^(١).

ثم يفصل جناب هذه المقولة السابقة بقوله:

"وينظر إلى كل شؤون الحياة برؤية ساذجة، فتبدو
أيام الحياة مفعمة بمجموعة من الأحداث غير المتوقعة،
وتمضى، وينبغي أن تراقب باستغراب دائم على مسرح
الحياة. ومن هم أشد فقراً الذين يعيشون في هذا الإقليم
الحار، يتخيلون وجود باقة من الزهور في أيديهم، وفي
الغالب يستمر نوع من مسيرة الحياة المبهوسة داخل
الحوائط المصنوعة من هذه الزينة. والذين يعيشون هنا
يتخيلون أنفسهم صباحاً لكي يتجمعوا حتى المساء،
داخل خيمة وردية اللون ومنصوبة على شاطئ واد
فياض. فالعيش داخل سد صيني قوى ومستحکم
والقبض على مرآة الإسكندر للكتائب القادمة، ليس
عمل أبناء المصريين، فطبيعتهم ومزاجهم تكمنان في أنهم
عندما يعيشون أمام رياح الأمانى والرغبات فإنهم
يركضون، ثم إنهم يريدون غرس حياة الكسل داخل
خيمة بسيطة ولطيفة. لكن أليس هذا الاتجاه والاستعداد
لقوم يعيشون داخل عالم نادر مشيد من النور والحرارة
شيئاً طبعياً جداً؟ إنما مصادفة غريبة! حتى وسيلة بناء
هذه المدينة خيمة"^(٢).

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٥.

(*) يقصد جناب بالخيمة هنا تلك الخيمة التي أقامها عمرو بن العاص حينما فتح مصر.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٦ و ١١٧.

ويتعرض جناب أيضاً للمقاهى، وانتشارها فى شوارع القاهرة بدرجة لا يمكن معها تمييز بعضها عن بعض، ويبدأ بوصف مظهرها الخارجى وهى عبارة عن دكتين خشبيتين مستندتين إلى الحائط فى شارع واسع. وأمامهما عدة مناضد، وبجانب المناضد خمسة أو عشرة كراسى من الحصير بلا مساند.

كما يتعرض جناب لوصف حياة هذه المقاهى فيقول:

"فوق المصاطب الممتدة لهذه المقاهى المنتشرة، خلق مقرفصون فى حالة تعب لا حد له، فى أعينهم لا مبالاة عميقة، وعلى الرغم من أن شكلهم يدل على انعدام الاحترام تجاه جميع الأنظار الخارجية، فإنهم كانوا يشربون القهوة ويدخنون السجارة والتارجيلة ويشربون القازوز كما فقد بعضهم إحساساً بهم داخل خيالات مريحة.

وانشغل بعضهم بورق اللعب والطاولة والدومينو والشطرنج".

والطريف أن جناب يحاول أن يسند العادة السيئة التى ابتلى بها المصريون - وهى "إدمان القمار" - إلى أصول فرعونية، حيث يقول:

"بعد إدمان القمار أكثر أنواع المساوئ المنتشرة من أهالى مصر، حتى إن السنة القبطية يمكن أن يصل عدد أيامها فى ظل الميسر إلى ٣٦٥^(١)، نعم، فطبقاً لرواية أسطورية: بينما كانت السنة الميلادية فى بداية الأمر

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٣.

عبارة عن ٣٦٠ يومًا، فإذا بها تصل إلى ٣٦٥ من أجل
الفوز بلعبة الداما التي كان يلعبها «طوط»، وهو من
آلهة مصر، مع القمر. يقول المصريون وهم يحكون هذه
الخرافة: هو ميراث بقى لنا من الزمان القديم جدًا^(١).

ويحاول جناب أن يصور مدى ابتلاء الشعب المصرى بأفة الميسر صغارًا
كانوا أو كبارًا، ومن لم يلعب القمار يقضى الساعات بمشاهدة من حوله. يقول
جناب:

"هنا كل شخص، الكبير والصغير والغنى والفقر،
مبتلى تقريبًا بأفة الميسر: يحاول الأطفال المتسولون أن
يضاعفوا رؤوس أعقاب السجائر التي جمعوها من
الشوارع، وهم يقذفون النرد فوق أرصفة المشاة.

وتوجد مناطق علنية مكشوفة في بعض الشوارع،
حيث يترقب جميع الناس طالعهم وحظهم حول منضدة
الروليت، والذين لا يلعبون القمار في المقاهي يقضون
الساعات بمشاهدة سيل من الأشكال التي تمر أمامهم،
فالأطفال القذرون، ذوو الشعور المجعدة والأسنان
البيضاء والأعين السوداء، يطلبون عملة مصرية من أى
مارٍ بنداء شكوى غريب. والسيدات الموشومة أذقانهن
بثلاثة خطوط خضراء، والحمرة أظافرهن من الخناء،
والمسودة أعينهن من التويناء...

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٤.

وشاب مفتوح العين يقرض قصب السكر،
ومريض يشق الازدحام حزناً متوكلاً بخطوات بطيئة
ومتكناً على عصا كبيرة ... والعربجيون وبائعو الخروب
والمسبحون وماسحو الأحذية. وجميع العاطلين الذين
يدفع بعضهم بعضاً ويصيحون ويجرون ويضحكون، وقد
أحاطت بهم زويدة من الذباب تقوم بتسليّة الجالس على
مصاطب ذلك المقهى^(١).

ومثلما صادف جناب الانحلال الأخلاقى فى الإسكندرية، فقد تعرض له فى
مصر حينما كان يتجول فى حديقة الأوزبكية، وهى من الأماكن التى كانت
مشهورة بالدعارة والفساد. ويصور جناب ما رآه فيها قائلاً:

"وفى هذه الحديقة يظهر شيء شائن فى ساعات الليل، ولكنه شنيع جداً
فالسيدات ذوات المعاطف يقايضن بلا خوف الرجال الأجانب والمواطنين وكنَّ
يردن تخفيف هذه القذارة، معلّات أنهن بنات أولئك السيدات القبطيات القاهريات،
وإن كان أولئك السيدات الفاسقات فى حقيقة أمرهن بنات مسيحيات (قبطيات)،
فلماذا يُسمح لهن أن ينتزهن فى زى المسلمات وإن كن قد نلن أدباً وظرفاً بدرجة
كافية، وكان لا يمكن أن يسمح لهن بذلك، لكن لا، هناك شيء آخر من رذائلهن
الممقوتة فيهن، فقد رأيت بعضهن يطلبن سيجارة من الرجال ذوى القبعات،
وبعضهن يشربن البيرة علناً، ولا أستطيع أن أقول أكثر، ألف نوع من قلة الحياء.

يا للأسف! فقد جمع هناك هؤلاء السيدات اللانى يعين عضلات أجسامهن،
فى الليل، البشر التى لم تستطع موسيقى النهار أن تجذبهم. يا لها من شهوة حيوانية
تكون ضعيفة ومنجذبة إلى هذا الحد بيزة عصبية"^(٢).

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٨٨.

كما صادف جناب أيضًا فى هذه الحديقة مقاهى الغناء العربية، التى تنتشر بكثرة فيها، وتقام على شكل سقيفة، وهذه المقامى هى نفسها الموجودة فى الإسكندرية، ففيها المغنى الذى يصرخ بما أوتى من قوة، مستندًا بيديه على صدغية، وراقصة قنرة، وضجيج ودبكة تهتك الأذن. فالجديد الذى سنراه هنا ليس شيئًا خاصًا^(١).

أما الرحالة عبد الغنى سنى بكل، فقد أغلق دائرة معلوماته حول تصوير طبيعة المصريين وأخلاقهم، فى جانب واحد لا يتعداه، وقد دفعه للاهتمام بذكر هذا الجانب ما تعرض له من مواقف قليلة خلال وجوده فى الإسكندرية والقاهرة. وتتحصر هذه المواقف فى النواحي المادية التى لا تستحق الذكر، ففى أحد هذه المواقف نراه يختلف على أجرة الجمل الذى يصر صاحبه أن يعطيه عبد الغنى سنى بك عشرة قروش بدلًا من خمسة قروش خلال زيارته للأهرامات. حينذاك أظهر عبد الغنى انفعالاً زائداً وهدده بتسليمه للبوليس ووصف هذه الواقعة بأنها لا أخلاقية وبأن هذا شيء قذر جدًا ولا بد للإدارة المصرية من الاهتمام الفائق لمنع حدوث مثل هذه المواقف.

وفى الموقف الثانى نجد عبد الغنى سنى بك وهو يناقش صاحب الفندق الذى يقيم به، حول الحساب ...

أما الموقف الثالث والأخير، فقد تعرض له عبد الغنى خلال زيارته لجامع محمد على... وفى نفس الوقت كان قد دخل معه الجامع بضعة أفراد من السياح الإنجليز. وفى بداية حديثه عن هذا الموقف يطلق حكماً عاماً على طبيعة المصريين فيقول:

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٨.

"ولكن توجد لدى عامة المصريين طبيعة جشعة
وسيئة... ألا وهي إقحام الشخص نفسه بالقوة ومن غير
أن ينادى له، إلى جانب إنسان دون أن يكون مرغوباً
فيه، كأنه سيكون مرشداً. والمهدف حصر المال! وفي
الواقع لن يقال هذا الكلام في الأماكن التي تحتاج إلى
الإرشاد. ولكن لا يتأتى نفع مطلقاً من الأشخاص
الجهلاء، وهذا الأمل، لإنسان مسلم، ولا سيما أنه
يرتدى الطربوش خلال زيارتنا للجامع. ما أغرب هذا!
فهو لا يفارقنا على الرغم من أننا أخبرناه باللغة العربية
بأننا لسنا أغراباً وأنه ليس لوجوده داع".

وهو يحكى هراءات من نوع: هذه هي منارة الجامع! ... وفي ذلك الجانب
الآخر... مظهرًا المنارة الكبيرة التي في ميدان من أجل أن ينال بضعة قروش
حسب تفكيره.

ويرد عبد الغنى بالشدة في مثل هذه المواقف فيقول:

"ومثل هذه الهراءات يسبب الضيق، ولذلك

لا بد من دفعها بلهجة حادة".

وهذه الهراءات قد صادفته في تحركه إلى المحطة، حيث هجم عليه سرب
من الأشخاص في الباب الداخلي للمحطة من أجل حمل الشنط التي فوق كتفه وفي
يده بالقوة، وقد حاول أن يشرح لهم أنه سوف يذهب بالعربة إلى الفندق، وأنه
لا لزوم للعناتين، ولكن من يسمع؟!!

"واستمر هجومهم على الدوام، وأنا أيضاً صرخت في وجوههم قائلاً: يا... أنا لا أريدكم، فهل يكون الإحسان بالقوة؟ ابتعدوا إلى أشغالكم".

ولكن كأن الأمر بلغ الحلقوم، إلى درجة الإجبار والقوة، وسوف تتسحق حقائبنا وتتكرر في أيدينا، وأخيراً أنهى البوليس الحال الصعب^(١).

ولا يكتفى عبد الغنى سنى برد فعله العنيف الذى ينتهى دائماً بإبلاغ البوليس، وإنما يشير إلى أن موظف البوليس من أكثر الأشخاص المهملين فى مصر...^(٢).

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولتده، ص ١٢٣ و ١٢٤.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ١٢٤.

الباب الثالث

وصف مصر كما ورد في كتابات الرحالة الأتراك

• الفصل الأول: التقسيمات الجغرافية والمناخية للخديوية المصرية:

أ- موقع مصر.

ب- نهر النيل في كتابات الرحالة الأتراك.

ج- المناخ.

• الفصل الثاني: القاهرة والإسكندرية في كتابات الرحالة الأتراك وما بهما من آثار:

أ- القاهرة.

ب- الإسكندرية

• الفصل الثالث: وصف مدن الوجه البحرى وما بها من آثار.

• الفصل الرابع: وصف مدن الوجه القبلى وما بها من آثار.

• الفصل الخامس: دراسة مقارنة بين الرحالة الأتراك والرحالة الغربيين.

الفصل الأول

التقسيمات الجغرافية والمناخية
للخديوية المصرية

بحث محمد مهري في بداية حديثه عن مصر عن أصل تسميتها بهذا الاسم، فنذكر أن مصر كان اسمها باللغة اليونانية القديمة "أكوبتوس". ويبدو أن هذا الاسم قد تشابه مع اسم القبط، وهم أهالي البلد القدماء، أما اسم مصر الذي استعمل بعد الإسلام، فلا يمكن فهم سبب تسميتها به، وهو مأخوذ من الاسم الذي أطلقه العبرانيون (مصريين)، أما عند المصريين القدماء، فكان اسم مصر "حام" أو "حمي".

حيث أطلق بنو إسرائيل في الكتب المقدسة، هذا الاسم على أحد أولاد نوح "عم" ويفيد هذا الاسم معنى الأسود في اللغة القبطية، وقد كان من المفترض أن يكون سبب تسميتها بهذا الاسم هو أن تراب مصر كان بهذا اللون أكثر من لون وجه حام بن نوح^(١).

التقسيمات الجغرافية:

أ- موقع مصر:

استهل معظم الرحالة الأتراك حديثهم عن التقسيمات الجغرافية للإقليم المصري، بمقدمة عن موقع مصر الجغرافي.

(١) يقول محمد مهري: "بوخطه نك اسكى يونا نيلرجه اسى (اكوبتوس) اولوپ، بواسمك اهالى قديمه سى اولان (قبط) اسميله مشابيهت ومناسبتى ظاهر در. بين الإسلام مستعمل اولان (مصر) اسمى ايسه عبرانيلىرك (مصريين) اسمندن مأخوذ اولوپ بنى اسرائيلك بوخطه يى بواسمه وجه تسميه سى اكلاشيله هامشدر. اسكى مصريلىر عنننده ايسه مصريك اسمى (حمى) ياخوذ (حام) ايدى، كه بنى اسرائيل كتب مقدسه لرنده بواسمى اولاد نوح (عم) دن برينه ويرمشلدر. بواسم لسان قبطيده (سياه) معناسنى افاده ايدوپ، حام بن نوحك چهره سننن زياته مصر طوپراغك بورنكده اولمى سبب تسميه سى اوله گركدز. (سودان سياحتنامه سى، ص ١٥).

ويشير محمد محسن إلى أن مصر تعد إحدى إيلات الدولة العلية العثمانية الممتازة، وأكثر حكومات إفريقيا عمراناً، فهي ولاية عظيمة وممتازة بسبب أن متن الفرمان الهمايوني قد وضع بعض الامتيازات المحدودة، والشروط المخولة للإدارة المصرية من ناحية الأمور الداخلية^(١).

ويحدد محمد عزت موقع مصر الجغرافي قائلاً: "يشمل الإقليم المصري واحة سيوة وجزءاً من الصحراء الليبية، ووادي النيل والدلتا الذي يمتد حتى وادي حلفا، والمساحة الصحراوية الواقعة بين النيل المبارك وسواحل البحر الأحمر، وكذلك يشمل السواحل الممتدة حتى مدينة سواكين والبحر المذكور. ويدخل ضمن الإقليم المصري أرض مدين التي تمتد حتى مدينة العريش، وشبه جزيرة طور سيناء، الواقعة بين البحر الأبيض وخليجي السويس والعقبة. ولهذا تقع مصر في شرقها بطول ٢٧° و ٣١°، وفي الشمال بعرض ٣٢° و ٤٠° و ٢٤°٥٢^(٢).

وهي ممتدة ومحاطة بالبحر الأبيض شمالاً، والبحر الأحمر وبلاد العرب شرقاً والصحراء الكبرى وولاية طرابلس الغرب غرباً، وبلاد النوبة جنوباً، ولا توجد جزيرة في البحر الأبيض تشكل حدود مصر الطبيعية، إلا أن جزيرتي هواكيل وشدوان تشكلان نقطتي اتجاه في البحر الأحمر^(٣).

وفي مستهل حديثه عن موقع مصر، يصف محمد مهري مصر وطبيعة أرضها بأنها في الأصل صحراء جافة، ويعتبر نهر النيل، الذي يجري داخل حياتها الجرداء سبب عمرانها. والمعلوم أن النهر المبارك يجري داخل واد ضيق حتى مدينة القاهرة، أي يقدر ٣٠° عرض شمالاً. وينقسم إلى عدة أفرع جنوباً، وبانضمام الجداول التي لا حصر لها، والتي أقامها الإنسان منذ القدم إلى هذا

(١) محمد محسن: أفريقيا ذليلي، ص ١٠١.

(٢) محمد عزت: يكي أفريقيا، ص ٦٢.

(٣) محمد عزت: يكي أفريقيا، ص ٦٢.

الانقسام الطبيعي يتشكل مكانه مثلث يعرف باسم الدلتا أو "الدالّة"، من القاهرة حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وهى التى تمنح اسم صندوق الدنيا وصفته، وبناءً على هذا يعتبر بعض الجغرافيين بلدة مصر عبارة عن دلتا ذلك النيل والوادي الذى يمتد من القاهرة حتى شلال أسوان^(١).

وقد أفرد معظم الرحالة الأتراك عدة صفحات مطولة فى الحديث عن نهر النيل، ووصف فيضانه ومصادره وسرعته واتساعه.

ب- نهر النيل فى كتابات الرحالة الأتراك:

اشتغل بأمر نهر النيل ومنابعه ومقاييسه، معظم رحالتنا الأتراك، حتى كان له نصيب وافر من البحث عنه.

ومن الطبيعي أن تختلف كتاباتهم عن نهر النيل طبقاً لتوجياتهم ونزعاتهم، فمنهم من سجلها بأسلوب أدبى، ومنهم من ركن إلى تقديم معلومات جغرافية عنه، ويمثل الاتجاه الأول أدبينا جناب شهاب الدين، ففى أحد أوصافه عن نهر النيل وفيضانه نراه يقول:

"يتدفق النهر العظيم بخير سحرى خفيف بين
نخيل البلح، يهز شاطئيه رهيناً بحياة ثملة. وكان ظلام
الليل فى المياه يبدو كأنه لم ينسحب من فوق الأمواج
الصغيرة. وفى تلك الهيئة المتفجرة والمتدفقة لهذا النهر
المبارك، الذى يدحرج أمواجه الدائمة الصفراء فوق
مساحة ألف وخمسة فرسخ حتى شاطئ البحر الأبيض
من بحيرات إفريقيا الكبيرة. كان هناك تأثير عظيم

(١) محمد مبرى: سودان سياحته امه سى. ص ١٥.

مرجف خيال البشرية، على الرغم من أن هذا النهر الذى أطلق عليه اسم «أبوالياه» ينبثق من الأراضى المجهولة، على شكل فيضان معمارى جسيم، فهو يشكل خطأ منحنياً مريحاً ليؤسدة الصحراء اللانهائية الكنبية.

ويفيض كل سنة فى موسم معين، ويقوم بإنتاج الطين والصلصال الذى يأتى من الغابات المجاورة لمنبع إفريقيا، وتوزيع حدائق زراعية طبيعية فى وسط الصحراء^(١).

وعندما يتحدث جناب عن فيضان النيل يبدى عدم معرفته بأسبابه قائلاً:

"لماذا يحدث هذا الفيضان كل سنة، الذى يستمر أربعة أشهر؟ وكيف يحدث؟ لماذا تزداد هذه المادة المائية التى تصب على الرمال واثبة من شلال إلى آخر، من السودان إلى القطر المصرى بصورة منتظمة فى أربعة أشهر حارة من كل سنة؟ لماذا؟ لا أعلم.. مجهول! ومن المعروف والمؤكد أن هذا النهر لا يستطيع أن يعيش مطلقاً، إن لم يجد هذا الفيضان، وسوف تصبح كل ناحية عارية جرداء بلا حياة، ويصعب الإقامة فيها"^(٢).

(١) يقول جناب شهاب الدين: قوجه نهر خرما أغالجرى أره سنده خفيف برزمره سحره ايله أقيسور، اظرافى برحيات مخموراته ايله رهين اختراز اينديوردى، گيجه نك مائى گولكه سى دها نهرك كوچك موجه لرى اوزرنندن چكيلمه مش گبى ايندى. إفريقياك بويوك كوللرندن بحر سفت ساحلنه قدر بيك بش يوز فرسخلق برمساقه اوزرنده صارى طالغه لرينى لا ينقطع يوارلايان بونهر مياركك شوقيافت فجرينسند خيال بشرينى رعه دار ايده جك بر تأثير عظمت واردى: ابوالياه ديدكلرى بوجوى جسيم بر معمارى سيلاب حالنده اراضى مجهوله دن قوپارق هرمانعه يه رغما فيقاي بى حدودك دلخراش يبوسته برخط منحنى تسليت وضع اينديور، هرسنه برموسم معينده فيضان اينده رك، سا إفريقياك اباق طوقونماش اورمانلرندن كتيرديكى صلصال محصو لدار ايله چول اورته سنده حديقته زراعت طرح طبيعيسيله مشغول اوليور. (حج يولنده، ص ١٧٢).

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٧٢.

وفى موضع آخر يتحدث جناب عن عظمة النيل، واحتفاظه بقوته منذ القدم: "ينقل النيل الصامت هؤلاء النوبيين اللا مباليين، هؤلاء المسافرين المتوكلين إلى الأماكن التى يقصدونها، بقوة انصياح الأمر، يا له من وقار وعظمة وهو ينقل هؤلاء المسافرين! ويا لها من أبهة وجلال! كمن يعلم أنه هو نفسه كان الموجود حين ولادة النوروز للحضارة البدائية، وكان المدن الضخمة الموجودة على شاطئيه قد سوّيت بالثرى، وكل الجبال مصنوعة من الورق ويبقى هو فقط^(١) ويتعقب فوهة مجرى العصور والقرون بتأثير خطير كمن يعلم أنه لا يزال يعيش هو فقط بنفس القوة والحياة التى كان عليها فى القرن الأول. بينما تختلط الأفكار والذكريات والخيالات على شاطئيه بغبار النسيان تحت أنقاض الماضى باستمرار، فقد تغير كل شيء بالقرب منه إلا هو، فكان النيل المبارك يستطيع أن يحافظ على حاله من أول يوم تدفقه، وباستثناء هذه الأرض، وهى مرقد للخراب منذ الآلاف، فإن هذا النهر الوقور قد أحس فى صدرها بخفقان أبدى، كأنه يجيب بتهكم دائم عن خيالات عالم البشر المغرور"^(٢).

وإذا كان جناب شهاب الدين قد أقر بجهله، حتى عن مصادر فيضان النيل وأسبابه، فإن العديد من الرحالة الأتراك أفردوا صفحات مطوّلة لا عن الفيضان فحسب، بل عن كل ما يخص النيل، وهؤلاء الرحالة يمثلون الاتجاه الثانى وهم خالد ضيا ومحمد مهرى وسليمان شوكت ومحمد محسن.

ونبدأ بمحمد مهرى الذى تحدث عنه باستفاضة، ففى بحثه عن مصادر النيل، نراه يسرد التفاصيل الخاصة بالمحاولات التى قام بها ملوك مصر لاكتشافها

(١) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٧٩.

ومعرفة أسباب فيضانه، ثم يتتبعها عند العلماء الإفرنج والعرب القدامى، إلى أن فاز الرحالة الإنجليز بالغرض المقصود، ولم ينسَ محمد مهري في حديثه هذا أن يبرز الإسهام الفعال الذي قدمه خديو مصر للإنجليز في هذا المجال، فيقول:

"وعلى ذلك، فالفضل الأعظم في اكتشاف منابع النيل للإنجليز، وقد شاركهم فيه الفضل خديو مصر العظام، الذين فتحوا البلاد ومهدوا للسير صموئيل باركر وغيره سبل الاكتشاف"^(١).

ثم يطيل بنا محمد مهري في حديثه عن مصدرى نهر النيل: النيل الأبيض والنيل الأزرق... وما يهمنا من هذا الحديث هو أنه تتبع نهر النيل من الوادى فى الجنوب إلى الشمال، فهو يقول:

"عندما يدخل نهر النيل من النوبة إلى مصر، فإنه يجرى بين الجبال والتلال في اتساع يبلغ ثلاثة أو أربعة كيلومترات فقط، ويقع الوادى بين هاتين السلسلتين. ويستمر هذا الوادى الضيق حتى مسافة تقدر بـ ١٦٠ كليومتراً حتى قصبة إسنا. ومن هنا يتسع حتى قنا إلى نحو ١٠ كيلومترات أما القسم الثالث الذى يقدر من قنا إلى القاهرة فيتراوح اتساعه بين ٢٠ و ٣٥ كيلومتراً. ومن أجل ضمان ملء ماء النيل وقت الفيضان هذا الوادى جميعه والمعمورة، فقد أقيم منذ القدم في كل جانب من

(١) محمد مهري: رحلة مصر والسودان، ص ٢٩٤.

الوادی طرق مزلطة ومرتفعة بطول ٨ أو ١٠ أقدام^(١).
والأراضي المعمورة والمسكونة في صعيد مصر أي مصر
العلیاء، هی عبارة عن هذا الوادی فقط. وعلى الرغم من
أن الجبال التي تقع إلى یمن النهر أي في الجانب الشرقي،
عبارة عن جرانیت في أعلاها وكلس في أسفلها، فإنها
وعرة عالية وعارية، وتزل حتى حافة النهر. أما الجبال
التي تقع في الشمال، أي جهة الغرب، فهي قصيرة وأبعد
عن مجرى النيل^(٢).

وتمتد الصحارى المنبئة لوادی النيل على حافته، وتمتد السلسلة الشرقية
حتى أعلى القاهرة. وبينما تشكّل هناك من مكان وعر وعمودی عال يطلق علیه
جبل المقطم، فإن السلسلة الغربية تهبط تدريجیًا، وتنتهی فی النهاية الأراضي
الزراعية. وینفصل من أسفل قنا فرع من ناحية شمال النيل، وینساب داخل وادی
النیل مرة أخرى متوازيًا مع المجرى الكبير، وبعد أن يتحد مع النيل فی أسیوط،
ینفصل من جدید فی الجنوب. ویصب فی بحيرة قارون مارًا من مدينة الفيوم
وعابرًا من بוגاز صرتك الذي يقع فی الشمال جنوب بنی سويف وقبل أن یصب
فی هذه البحيرة ینقسم إلى عدة أفرع، فتمر أيضًا حولها، بعد أن يمر من مدينة

(١) يقول محمد مهري: النيل نيزى نوبه دن مصره داخل اولديغنده. ايكي صيره طاغر ويا تبه لرك
آره سنه جريان ايدوب، بوايكي سلسله آره سنه كي وادی أنجق اوج درت كيلو متره وسعته در
١٠ سنا قصبه سنه قدر ١٦٠ كيلو متره لك مسافة ده بوطارلق دوام ايدوب، اورانن قنايه قدر وسعتى
١٠ كيلو متره آره سنه در، قنادن قاهره يه قدر اولان اوچنچى قسى ايسه ٢٠ ايله ٣٥ كيلو متره
ارالرنده بر وسعته. فيضائنده نيلك صولرى بتون بو وادی يى طولدير مغله، معموره لرك آره سنه
اختلاطى تامين ايجون، ولينك هر طرفنده اسكين برى سكر اون قدم ارتقاعنده بوكك بول وشوسه ار
يايمشدر (سودان سياحتنامه سى. ص ١٦ و ١٧).

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٠٢.

القاهرة إلى فرعين كبيرين وعدة أفرع صغيرة كأنه يشكل دلتا على هيئة مروحة. أحد الفرعين الكبيرين في دمياط والآخر في رشيد. ويصبان في البحر الأبيض، أما الأفرع الصغيرة فهي تشكل بحيرات قليلة العمق واسعة منفصلة عن البحر بلهات رقيقة. وتعد بحيرة المنزلة كبرى هذه البحيرات وأكثرها ميلاً الشرق ويبلغ اتساعها ١٨٠٠٠٠ دونم في وقت الجفاف و ٢٥٠٠٠٠ دونم في مياه الفيضان. وثانيتهما بحيرة البرلس ويبلغ اتساعها ٧٠٠٠ في وقت الجفاف وفي الفيضان ١١٠٠٠٠ دونم، وثالثتها بحيرة مريوط ٢٥٠٠٠ دونم، و ٧٥٠٠٠ دونم^(١).

وفي حديثه عن الدلتا والأراضي الواقعة إلى يمين مجرى النيل وشماله، يستخلص محمد مهري النتيجة المعروفة وهي أن مصر هي النيل فهو سبب عمرانها وثروتها، فيقول:

"وبداية، فإنه يستفاد كثيراً من ملوحة مياه الصيد في بحيرة البرلس، بسبب وجود الملح والسّمك فيها. وعلى الرغم من أن هذه الدلتا تكونت أساساً من التراب الذي كان يترل منذ آلاف السنين في زمن فيضان النيل، ونبت تراجا، فهذه الدلتا التي يطلق عليها مصر السفلى هي أكثر أماكن العالم إنباتاً وأكثرها غنى وهي على شكل حقول فريد"^(٢).

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٠٢.

(٢) يقول محمد مهري: إليك (بحيرة برلس) ده بالق وطوز بولك بغى جيتله صيد ماهيسنن ومملحه لرنسن جوق استفاده اولنور. بو داليه ذاتا نيلك فيضان زماننده بيلكرجه سفه دن برى ايندرديكى طوبراقرندن متشكل وضوپراغى منبت اولنديغى حالده، مصر سفلى ديفيلن بوداليه بيترده رك تارلا حالنده اوله رق دنيبتك الك منبت والک زنگين بريذر. (سودان سياحتنامه سى، ص ١٨).

"وتعد الأراضي التي تقع إلى يمين مجرى النيل أى بين وادى النيل والبحر الأحمر أراضي قفر، وهى عبارة عن مجموعة جبال وتلال يابسة حجرية.

كما أن الأراضي التي تقع إلى يسار هذا الوادى المذكور تدخل ضمن جزء كبير من الصحراء الكبرى، وأيضًا هى صحراء رملية بلا ماء، إلا أنها فى بعض الأماكن منها تكون معمورة، ويوجد بها بعض الواحات التى يكون بها بعض الماء، وجزء منها به نباتات ومزروعات وأراضي بها نخيل ومن أهمها واحات الخارجة والداخلية والبحيرة وسيوة، وهناك أيضًا صحراء رملية ممتدة بين مصر السفلى وحدود آسيا التى أظهرت طريقًا لسير السفن بين البحر الأحمر فاتحة قناة السويس المشهورة من ناحية الغرب منها، وعلى الرغم من أنه كان لبعض الموانئ الموجودة على ساحل البحر الأحمر أهمية تجارية إلى حد ما قبل افتتاح قناة السويس، فإنها فقدت هذه الأهمية جميعها الآن.

الخلاصة أن مصر هى النيل، فكل العمران وكل ثروتها منه، وكل الأماكن المسكونة والمعمورة فيها هى الأماكن التى يروىها النيل، أما الأراضي التى لم يصل إليها النيل، فهى القفار الخالية من المحاصيل، وكل الأراضي المعمورة هى فى دلتا النيل وواديها"^(١).

(١) محمد ميمرى: المصدر السابق، ص ١٨.

وعن فيضان النيل يتحدث هؤلاء الرحالة عن أسبابه، وبخاصة الرحالة محمد مهري الذي يتتبعه من مصادره حيث يقول:

"وفيض النيل ثم يهبط ثم يعود إلى الفيض كل سنة في أوقات معلومة وسبب فيضه نزول الأمطار الغزيرة على الجبال المجاورة لمصادره".

ويطيل محمد مهري^(١) الحديث عن هذا الفيضان الذي يبدأ في النيل الأبيض ثم النيل الأزرق. أما محمد عزت^(٢) فهو يتحدث عن الأشهر الأربعة التي يفيض فيها النهر بانتظام كل عام ثم أثر هذا الفيضان على المحاصيل الزراعية في مصر.

ويعد كتاب محمد محسن "أفريقا دليلي"^(٣) هو المصدر الذي استقى منه معظم الرحالة الأتراك الآخرين وبخاصة محمد مهري وسليمان شكرى، ولذلك نلاحظ تشابه المعلومات الواردة في كتبهم وعدم اختلافها.

ويرى محمد مهري أفراد فيضان النيل عن الفيضانات الأخرى فيقول:

"ولا يشبه فيضان النيل فيضانات الأنهار الكبرى الأخرى، ولا يفيض على جانبيه في أى وقت على الإطلاق، بل على العكس تبدأ مياهه في الارتفاع تدريجياً ومهدوءة تاماً وسكون. وتشرب الأراضي مياهه المندفعة خارج منبعه في الحال مثل الإسفنج، وتفتتح في الحال أبواب السدود المقامة كالساعة، ومنها تنتشر إلى

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٠٨.

(٢) محمد عزت: يكي أفريقيا، ص ٦٨.

(٣) محمد محسن: أفريقا دليلي، ص ١٥١.

القنوات والجداول الكبيرة ثم الصغيرة. وعلى هذا النحو
تروى المياه جميع الأراضي وتسقى كأنها مياه مندفعة نحو
حديقة. ويتجه ما تبقى منها ويصب في البحر" (١).

وعن مقاييس النيل يتحدث محسن بك عن "مقياس الروضة" بإيجاز فيقول:

"يروى أن سيدنا يوسف عليه السلام هو الذى
وضع بداية المقياس للنيل وهو الذى أوجد أيضاً هذا
المقياس أمام مدينة ممفيس وجزيرة أسوان ومدينتي أخميم
وحلوان في عهد المصريين القدماء" (٢).

والمعلومة السابقة قد أوردتها خالد ضيا في كتابه "مصر خاطراتي" (٣) بنفس
الفاظها. وفي موضع آخر يتحدث محمد محسن عن هذا المقياس أيضاً قائلاً:

"كان أسامة بن زيد التنوخي قد أنشأ هذا المقياس
سنة ٩٧ هـ، وكان أسامة والياً على مصر في عهد
حكومة سليمان الابن الثاني لعبد الملك وهو من الأمويين.

وكان قد جدد في سنة ١٩٩ من قبل المأمون
العباسي. وقد عُمر البناء الموجود حتى الآن من قبل
المستنصر بالله وهو من الفاطميين. وأخيراً تم ترميمه من
قبل محمد علي باشا والى مصر" (٤).

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣١٠.

(٢) محمد محسن: أفريقيا دنيلي، ص ١٥٢.

(٣) خالد ضيا: مصر خاطراتي، ص ٦٢.

(٤) يقول محمد محسن: "بومقياسك امويلردن عبد الملك ثانيك اوغلى سليمانك دور حكومتده والى مصر
اولان اسمه بن زيد تنوخي اوله رق مومى اليه بونك بناسى طقسان يدى سنه هجريه سنده اتمام
ايتمشدر. يوز طقسان طقوز تاريخ هجريسنده دخى عباسيلردن مامون طرفندن تجديد اولمشدر.
بوگونه قدر موجود اولان بنا خلفاي فاطميه دن مستنصر بالله طرفندن تعمير واخيرا مصر واليسى
محمد على باشا طرفندن ترميم اولندى" (أفريقيا دنيلي، ص ١٥٥).

ويعتد محمد مهري مقياس النيل الأخرى فيقول: "مقياس أسوان" في الجانب الشرقى من جزيرة "ألفنتين" تجاه مدينة أسوان، وهو قديم العهد أيضا وينسب إلى زمن البطالمة، أى منذ ألف سنة ونيف هجريًا مدة من الزمان ثم جدد سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٧٠م، فى أيام المغفور له إسماعيل باشا الخديو الأسبق. و"مقياس حلفا" على شاطئ النيل الشرقى فى معسكر حلفا وهو حديث النشأة وبناء ودهوس باشا إذ كان محافظًا للحدود سنة ١٨٨٩م، وقد رأيت حديثًا فإذا هو عبارة عن سلم عادى قائم بين حائطين من الحجارة المنحوتة وفى رأس السلم حجر من الرخام منقوش عليه تاريخ إنشاء المقياس واسم منشئه.

و"مقياس بربر" على النيل الكبير و"مقياس أم درمان" على النيل الأبيض^(١). ويصف الرحالة سليمان شكرى مقياس جزيرة ألفنتين فى أثناء زيارته له قائلاً:

"وُحِّلَتُ العلامات المتعددة بحساب الذراع على عمود المرمز المقام فى وسط حوض واسع متصل بالنهر عن طريق المنافذ من جانبيين وأربع زوايا أقيمت فى هذه الجزيرة الواقعة على شاطئ مجرى النيل ذى الصخور الكثيرة المحكمة وكل علامة من العلامات المحككة على طول هذا العمود فى ارتفاع ست قبضات وكل قبضة ذراع بحساب ٢٤ قيراطًا جميعًا من الرباع أى ٤ سم"^(٢).

ويعتبر النيل من أطول أنهار العالم بعد نهر المسيسبى فى أمريكا الذى يبلغ طوله ستة آلاف وخمسمئة وثلاثين كيلومترًا، كما يقول محمد محسن^(٣).

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٢) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٥٤.

وعلى الرغم من ذلك فإن نهر النيل هو أعظم شأنًا من كل أنهار العالم كما يقول محمد مهري:

"وهو أطول أنهار الدنيا إلا نهر أمازون في أمريكا الجنوبية، فإنه أطول من النيل بنحو ٩٩٧ ميلًا، إلا أن النيل أتلد تاريخًا وأقدم آثارًا وأعظم شأنًا من نهر أمازون، بل ومن جميع أنهار الدنيا"^(١).

ج- مناخ مصر:

يعد مناخ مصر من الموضوعات التي حرص معظم رحالتنا الأتراك على الحديث عنها، حيث يعود بنا محمد محسن في كتابه "أفريقا دليلي" عند بحثه حول هذا الموضوع، إلى زمن الفراعنة، ويوضح حالة الطقس السيئة جدًا حينذاك، وما قام به الملك مينا من أجل تنقية هذا المناخ فيقول:

"طبقًا لرواية عن الملك مينا الذي أطلق عليه تاريخيًا «الفرعون الأول» بعد الأسر المقدسة التي سميت باسم «حورشسو»، فإنه عند دخوله مصر من آسيا، وما حول طور سيناء، كان المناخ سيئًا جدًا بسبب أنه منذ ظهور إقليم مصر السفلى (الدلتا المذكورة الآن) هي دائمًا على حالة من المستقعات والطين الذي جلبه النيل المذكور عندما يلتقي النيل في تلك الحدود، بينما يرتد خط (فرع) مستقيم عن مكان يسمى المطرية الآن، أي في الراوية القائمة الجنوبية من إقليم دلتا البحر الأبيض، وينحصر في اتجاه تمثال أبي الهول في الجيزة.

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٢٩١.

وطبقاً لما كُتب عن الأحوال التاريخية الخاصة
بالمملك المشار إليه، الذى شاهد هذا الحال، فإنه قد أنشأ
مياً، فنظم بذلك مجرى النيل بإنشاء سد من مسافة
ثلاثين ميلاً جنوب القاهرة الآن^(١).

وعن الصعوبات والنتائج المترتبة على ذلك، يقول محمد محسن:

"تحدث الروايات التاريخية التى تدور عن دفع
ضرر الحيوانات المفترسة التى تعيش فى المنطقة الحارة فى
تلك الأثناء مثل التمساح وفرس النهر، تحدث عن
وجود عدد منها فى فرع النيل بدمياط، وذلك من خلال
رحلة إلى مصر قام بها أحد المؤرخين، هو عبد اللطيف
البغدادى الذى يعد من رجالات القرن السابع الهجرى.
بالإضافة إلى أنه عندما ظهر واحد منها كذلك أمام
النصورة فى ولاية عهد محمد على باشا والى مصر، فقد
اقتن الصديق والصواب. وكان قد تأسس موقع بلدة
تنيس التى حازت على أهمية جغرافية فى تاريخ مصر،
وتضخمت أطرافها الشمالية من سنة إلى أخرى باستمرار
حتى قامت عدة جزر رملية فى سنة ٣٥٠٠ ق.م على
الرغم من ظهور أراض زراعية فى بداية سنة ١٠٣٤ قبل
الميلاد، أى فى عهد الأسرة الرابعة أيضاً^(٢)،

(١) محمد محسن: أفريقيا دليلى، ص ٢٤٤.

(٢) يقول محمد محسن: بوصره ده تمساح ونيل، إيغبرى كبرى منطقه حاره ده متعيش اولان حيوانات
مضره نك اورالجه دفع مضراته دائر اولان روايات تاريخيه يدنجرى قرن هجرى رجالتن عيس
اللطيف البغدادى مثللو مؤرخينن براذاتك مصره سياحتده نيلك دمياط فرعده بونن براندن بولنديغنه
دائر اولان سوزى ويرده مصر واليى محمد على باشا دور ولايتده منصوره اوكنده كذلك اندن
بررأس ظهور ايتش اولميله قرين صديق وصواب اولوب، اراضى زراعيه يى وازجمله زقازيق
قربنده بوسطه موقعى دخى دردنجرى عائله دورنده اعنى ميلاد دن ٤٠٣٤ سنه اولنده وجوده
كثير مكله براير شمال طرفلرى دائماً بيكن بيئه شيشه رك حتى قبل الميلاد ٣٥٠٠ سنه سنده بعض
قوم اطه لرى حاصل اولوب مصر تاريخنده براهميت موقعيه يى حانز اولان تنيس بلده سى موقعى
تأسيس ايتمشيدى* (أفريقيا دليلى، ص ٢٤٤ و ٢٤٥).

ومنها موقع بوسطة بالقرب من الزقازيق. وكانت قد اتخذت مركزاً للحكومة في عهد الأسرة السادسة، وقد صار هواؤها لطيفاً نقياً. وبدأت تصلح للزراعة تدريجياً. وعلى الرغم من ازدياد عدد المواليد بسبب تنقية الهواء، فقد كان في الهواء عفونة، وقد ازداد عدد الوفيات مع ظهور القحط الناتج عن انحسار النيل أحياناً عن الحد المعروف، كما أنه لم يكن من الممكن الاهتمام بالأمور الصحية المطلوبة^(١) لتنقية الهواء، بسبب انتشار الأمراض بصفة مستمرة، كذلك لا يمكن إخضاع المواليد طبقاً لقاعدة حفظ الصحة، بسبب اللامبالاة التي اعتادها مجموعة ما في زماننا بالنسبة إلى النظافة والمعيشة^(٢).

ومن الطبيعي أن تنعكس الحالة المناخية التي تكون عليها مصر وقت زيارة الرحالة، على ملاحظاته وآرائه، فعندما زار جناب شهاب الدين مصر، أبدى إعجابه بمناخها، ذلك المناخ الإفريقي كما يقول:

"وقد أشرقت الشمس مثل جذوة نار كروية
داخل ضياء أصفر بالأفق، ها هو الصباح، صباح إفريقيا
الربيعي الصافي"^(٣).

وعند حديثه عن طبيعة المصريين، رأيناه يربط بين هذه الطبيعة ومناخ مصر الحار الذي يؤثر فيهم فيقول:

"تكن طبيعتهم وأمزجتهم في أنهم عندما يمشون
أمام رياح الأمانى يركضون ثم يريدون غرس حياة

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٣) جناب شهاب الدين: حج يولنדה، ص ٩٥.

الكسل داخل خيمة بسيطة ورقيقة. ولكن أليس من الطبيعي هذا الاتجاه والميل عند قوم يعيشون داخل عالم رائع مخلوق من النور والحرارة؟"^(١).

فى حين أننا نجد خالد ضيا يسجل تعجبه من الأحوال المناخية التى رآها فى مصر، وبخاصة فى فصل الشتاء وقت زيارته لها، حيث يقول:

"تعد الأحوال المناخية لمصر فى موسم الشتاء من الأمور العجيبة جدًا، فبينما تُرى الشمس براقعة والسماء صافية والحرارة معتدلة مثل الربيع فى النهار، تظل البرودة سائدة بعد العصر وتزداد حتى منتصف الليل، ففي النهار، بينما تشعر بالحرارة إلى حد أنه لا يمكن الجلوس أمام الشمس، يكون باردًا إلى حد أنه لا يمكن الجلوس فى الظل فى نفس المكان والزمان"^(٢).

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٥.

(٢) يقول خالك ضيا: قيشين مصرده بولنا نلرجه بالتجربه معلوم مدرگه شمال روزكارلرى سرتجه اسر، موسم كانون ثانى اواخرى اولمقله برابر شكایت اينيله جك درجه ده سرين اولميان برگونك صباحنده أنجق سرين برروزگار وزن اوليوردي. الأقرانغه ساعت طقوز ده روزگار كسلدى، براق اولارق سمانك رنگى دگشدى، طورنجى بررنك پيدا ايتدى، سماءه كى صاريلق قناريه صاريسندن قويو طوپراق صاريسى رنكنه قدر مختلف رنكلره انقلاب اينرك تدریجا صارى سپس طرزنده هواده برکاشت پيدا اولمغه باشلدى. بوتحوالات الوان اثنا سنده اماكن، اشجار وكافه اشيا مختلف صارى رنكللى جاملردن گورينان بانوراما گبى برمنظره ارائه اينديوردى. قىالى اولان ينجره لرك اړه لقلرندن، مساماتندن اوطله نك ايچنى قوم قوقوسى، چول رايحه سى استيلايه باشلادى. قوقوايله برابر ثقلت هوا تدریجا تزايد ايتدى، تنفس اينديكمز هواده بيله اينجه قوم ذراتى بولنديغنه وتنفس اينتكجه جكرلرمزه طولديغنه شبهه قالمدى، بوگبى وقوعات جويه يى بيلنلر قيو وبجره لرينى قيايوب خانه لرنندن چيقيمور لرمش (مصور مصر خاطراتى، ص ٦١ و ٦٢).

ويحكى لنا خالد ضيا عن الانقلاب الجوى الذى حدث فجأة إثر هبوب رياح عاصفة رملية تغير فيها لون السماء الصافى إلى اللون البرتقالى فيقول:

"ومعلوم بالتجربة للمقيمين فى مصر أنه قُبُ عليها فى الشتاء رياح شمالية باردة، وقد كانت قُبُ ذات صباح رياح باردة فقط، غير أنها لم تكن باردة لدرجة الشكوى، على الرغم من أنه كان فى أواخر موسم كانون الثانى (يناير). وهبَّت ريح فى الساعة التاسعة، وتغير لون السماء الصافية، وظهرت باللون البرتقالى. وبدأ الاصفرار فى السماء يظهر بكثافة فى الهواء على شكل ضباب أصفر تدريجياً، وانقلبت إلى الألوان المختلفة حتى تبدلت إلى اللون الأصفر الفاقع. فى أثناء هذه التقلبات فى الألوان كانت الأماكن والأشجار والأشياء كافة تظهر بشكل مثل البانوراما التى تبدو من خلال زجاج أصفر. وكانت رائحة الرمل والصحراء تستولى على الغرفة من مساحاتها، ومن ثانياً النوافذ المغلقة، ويزداد الهواء ثقلاً مع الرائحة. ولا شك أن ذرات الرمل الرقيقة قد انتشرت فى الهواء الذى نتنفسه، وقد امتلأت صدورنا به كلما تنفسنا^(١). والذين يعرفون مثل هذه الحوادث الجوية يغلقون الأبواب والنوافذ ولا يخرجون من منازلهم"^(٢).

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦١.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٢.

وعلى الرغم من هذا، يصير خالد ضيا على الخروج ليعاين بنفسه هذه الظاهرة فيقول:

"وذهبت إلى الشارع من أجل فهم درجة كثافة الضباب. فكان من النادر جدًا وجود إنسان ولا يمكن أن يقال تخلو الساحات والأسواق من البشر. ففي كل لحظة كان الذين يذهبون خلف الوطنيين وهم مجموعات من الفلاحات وأزواجهن، وقد غطين وجوههن ورؤوسهن تمامًا بشيلاخن ومعطفهن الخارجية. وكان ضباب أصفر غامق قد لَوَّن كل جهة باللون الأصفر إلى حد أنه لا يمكن أن يُرى من بُعد مئة متر في الشوارع.

وكانت رائحة الصحراء خائفة غاضبة تغطي كل النواحي، وتبدأ ذرات الرمال الرقيقة للغاية في الدخول إلى غرف المنازل تدريجيًا. وبعد أن يستمر هذا الحال حتى الليل، يصفو الهواء تمامًا في منتصفه ويزول الضباب. وفي الصباح التالي قد تذبل الأزهار فوق الأشجار التي بقيت تحتها طبقة رملية ترايبية صفراء لزجة، وتصير البساتين في حالة من التلوث. وهذه الحادثة التي يطلق عليها اسم العاصفة الرملية تحدث في مصر عشرًا أو خمس عشرة مرة في السنة^(١).

ومن الرحالة من يقدم لنا أحوال مصر المناخية كما قرأها أو سمعها دون أن يروى أو يذكر انطباعاته، ومنهم محمد عزت وعبد الغنى سنى بك، فيقول الأخير عن مدينة الإسكندرية حينما زارها:

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٢.

"الحرارة الوسطى للإسكندرية ١٢° في كانون الثاني (يناير)، وهو أكثر الشهور برودة. وفي شهر آب (أغسطس) ٢٤,٧٧° وهو أكثر الشهور حرارة. والحد الأصغر ٨° والعظمى ٣١°، والأمطار نادرة، وتطول الأمطار فيها في شهور تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) وكانون الثاني (يناير)، وتهب رياح السموم التي يطلق عليها رياح الخماسين على عدة دفعات (مرات) عند انقلاب الربيع"^(١).

أما محمد عزت فيقول عن الأحوال المناخية لمصر:

"على الرغم من أن إقليم مصر والنوبة يعد من أكثر أقاليم الكرة الأرضية الحارة والجافة، فإنها (الأحوال المناخية) لطيفة ومستقرة للغاية، فمن الثابت عند التجربة أن الحرارة الوسطى لمدينة الإسكندرية ٢٥°، والقاهرة ٢٢°، وقنا ٢٦° ومدينة بت ٢١°. وليس من النادر أن تكون الدرجة الصغرى في مدينة القاهرة ٣° والعظمى ٤٠°. ونادر جدًا نزول الأمطار في تلك البلاد ويستمر نزول الأمطار المتقطعة لمدة عشرة أيام أو اثني عشر يومًا في السنة على مدينة القاهرة ولهذا السبب قد أنشئت مجموعة من مخازن الذخيرة كما كان في عهد يوسف عليه السلام، ويتم ادخار القمح والشعير والفول وغيرها من محاصيل السنوات الرمضاء وتوجد قطرات الندى في الليل أكثر في مصر السفلى"^(٢).

(١) عبد الغنى سئى بك: يمن يولئدة، ص ٣٦.

(٢) محمد عزت: يخى أفريقيا، ص ٥٤، ٥٥.

أما الرحالة محمد مهري فلم يزد في حديثه عن مناخ مصر على ما سبق، غير أنه ذكر في النهاية أن مناخ مصر هو الأفضل والمرجح بالنسبة إلى الصحة العامة، أما مناخ الصعيد فهو أكثر جفافاً وحرارة^(١).

وكذلك من الرحالة من يقدم لنا تفسيراً لبعض الأحوال المناخية، حيث يقول محمد محسن في كتابه "أفريقيا دليلي":

"وعلى الرغم من أن الأمطار تنهمر بلا انقطاع الآن على مصر السفلى (الدلتا الآن) نتيجة تبخر البحيرات وغيرها في ذلك الوقت، فإنه بجفافها تزداد الرطوبة في زماننا، وبخاصة أنه عند بناء وحفر القناطر الخيرية وقناة السويس المفتوحة في عصرنا، تسبب ذلك في تغير هواء مصر السفلى، وصار المناخ الآن في مصر حسب درجة القرب والبعد من النيل، إن لم يكن تابعاً لارتفاع الأرض وانخفاضها مثل البلاد الأخرى. بناء على ذلك، فإنه كلما بعدنا عن النيل ترتفع درجة الحرارة، وتزداد البرودة كلما اقتربنا منه، ونادراً ما تنخفض درجة الحرارة إلى الصفر في بعض ليالي الشتاء، كما أنها تصل إلى الأربعين في أيام الصيف"^(٢).

(١) محمد مهري: مصر سودان سياحتامه سي. ص ٢١.

(٢) يقول محمد محسن: "برده شمدي دلتا (مصر سفلى) ذه الآن ياغمقه اولان باران كوللرك تبخرات وسائره سندن اورالرجه ذه انلرك قوروميله اكرجه رطوبت وسائره زمانمزه خيلجه مندفع وخصوصيله عصرمزه گشاديديلان سويش قنالتك وقناطر خيريه نك بنا وحفرينه مصر سفلا هواسنك تغيرينه سبب اولمشدر. شمدي محسره هو انيله تقرب وياتياذ درجه سنده انولو يوقمه بلاد سائره گبی ارتفاع وانخفاض ارضه تابع دكلدر. بناء عليه نيلن تباع ايندكجه جيماق تقرب اولندكجه سرنيلك بولنور. ياز گونلري قرقه وارديغي وقتلر اوليني مثلو بعض قيش گيجه لريده بر لحظه صفره اينديگی نادرا واقعدر" (أفريقيا دليلي، ص ٢٤٥).

الفصل الثانى

القاهرة والإسكندرية فى كتابات
الرحالة الأتراك وما بهما من آثار

أ. القاهرة:

هى مصر والمحروسة وأم الدنيا وأم الأهرامات، كما يقول عنها محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلي"، الذى قدم وصفاً لموقع القاهرة، فهى تقع على الضفة الشرقية للنيل، يحدها جبل المقطم ومصر العتيقة والمطرية^(١)، وهى مقر خديوية مصر وأشهر مدنها كما يقول محمد عزت^(٢)، بل هى فى رأى سليمان شوكت أعظم المدن الواقعة فى قارة إفريقيا وأشهرها، حيث يقول الأخير عن تأسيسها وعمرانها:

"لقد تم البدء فى إنشائها فى سنة ٣٥٩ من قبل
جوهر الصقلى قائد جيش أبى تميم بن منصور المغربلى
الملقب بالمعز لدين الله العبيدى الذى يعد أول حاكم
للدولة الفاطمية التى تكونت فى مصر بعد وفاة أبى
القوارس خلف كافور الإخشيدي، وبدأ توسيعها اعتباراً
من عهد صلاح الدين الأيوبي واستحالت إلى مدينة فى
سبع سنين، وبالتدريج عَظُمَت شوكتها وعمرانها الآن،
ويقيم فى هذه المدينة المعمورة التى يبلغ حجمها سبعة
أميال تربيعاً، نحو ألف وخمسمئة وثمانين من الأجانب
والوطنيين"^(٣).

(١) محمد محسن: أفريقا دليلي، ص ١٢٠.

(٢) محمد عزت: يگى أفريقا، ص ٦٠.

(٣) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٩٢.

ويروى محمد محسن الأسطورة المشهورة المتداولة عن سبب إطلاق اسم القاهرة، وهي أنها اشتقت من صياح المنجمين القائل: "القاهر في برج الطالع".

شوارع القاهرة:

من الملاحظ أن أراء الرحالة الأتراك قد تباينت حول شوارع القاهرة فيذهب محمد عزت إلى افتقارها إلى النظام، مثلها في ذلك مثل باقي البلاد الشرقية^(١).

أما عبد الغنى سنى بك فعقد مقارنة بينها وبين شوارع الإسكندرية، ووجد بينهما فرقاً كبيراً، فشوارع الإسكندرية أكثر استقامة، وأرصفتها أكثر نظاماً وهي نظيفة بصفة عامة، ولا أثر فيها للغبار والتراب، بينما شوارع القاهرة، على الرغم من أنها أكثر اتساعاً، مختلفة من ناحية الاستقامة والنظافة، فالتراب يزعج الإنسان كثيراً.

والجدير بالذكر هنا أن عبد الغنى سنى بك يذكر أنه لن يتجه لعقد مقارنة بين شوارع القاهرة وإستانبول، لأن غبار إستانبول - كما يقول - قد فاق الحدود حتى إنه يضرب به المثل^(٢).

أما جناب شهاب الدين فقد كانت له فلسفته الخاصة به حينما أراد تصوير بعض الملامح العامة لأحياء القاهرة قديمها وحديثها. وتوضح هذه الفلسفة خلال

(١) محمد عزت: يخى أفريقيا، ص ٦١.

(٢) يقول عبد الغنى سنى بك: قاهره ايله إسكندريه ايره سنده ميمجه برفرق كندبنى درحال گوسته رييور: إسكندريه نك جاده لرى دها مستقيم، نوشه مه لرى دها منتظم، عموميتك باك، توزدن، طويراقتن اثريوق. حال بوكه قاهره نك جاده لرى دها واسع ايسه ده استقامت جهتنجه فرقلى وهله طهارتده بلك گرى. توزانسانى خيلجه از عاج ايدييور، فقط بوقيلس إستانبول ايله ياپميورم، زيرا إستانبولمرك توزلرى ضرب مثل اوله جق برمبذوليتده. (يمن يولنده، ص ٩٦ و ٩٧).

تصريحه فى بداية رسالته المعنونة بـ"من القاهرة" بأن جولته فى هذه المدينة سوف تكون بلا هدف، ولذلك يوجه جناب نصيحته إلى من يرغب فى السياحة فيها بأن يتخذ اللامبالاة الفلسفية رفيقاً له فى رحلته إلى هذه المدينة المشحونة بالآشياء الجديدة والطريفة^(١).

وبناء على هذه المقدمة التوضيحية، قام جناب بجولاته فى أحياء القاهرة قديمها وحديثها، ولكن ألا يمكن أن تكون لهذه الجولات أهداف عكس ما صرح به جناب فى البداية، وهذا ما يمكن أن نستشفه من خلال ما سجله لنا من ملامح وصور متناقضة ما بين القديم والحديث، بل إنه يدعو السياح أن لا يكتفوا برؤية الأحياء الجديدة التى يقطنها الأوروبيون، وبأن يتوجهوا إلى المناطق القديمة... ويكتفى جناب بتصوير الأحياء القديمة دون التصريح بذكر أسمائها، فهو يشير إلى قدم مبانيها التى صارت مجموعة من الخرابات فيقول:

"وقد أنشأ مورييس (أحد القراعة المصريين) بناءً ضخماً من حجر الجرانيت فى عاصمة كولتاك تا، وطبقاً للرواية التاريخية كانت حجرات هذا البناء ودهاليزها كثيرة وضيقة وملتوية وعسيرة جداً"^(٢)؛ إلى درجة أنه لم يكن من الممكن التجول بداخلها دون مرشد. هكذا أنشئت ونظمت أحياء القاهرة من قبل تلاميذ وأحفاد المعمارى الذى أنشأ ذلك البناء الشهير، واستخدموا قانوناً هندسياً مضطرباً ومحيراً فى تنظيم شوارعها وأحيائها، فدانماً الطريق يتجه إلى اليمين واليسار، والشوارع مسدودة غير نافذة، وتشبه الممرات قوقعة

(١) جناب شهاب الدين: المعاصر السابق، ص ١١٤.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٨.

الأذن، فهي منشئية ومعقدة ومتشابكة بعضها فوق بعض
مثل حزمة شعُر، فتظنون أنه شارع مسدود على الرغم
من أنه ممتد كثيراً، وتظنون نفاذ شارع ما، ثم بعد أربع
خطوات ترون أنه مسدود عند فناء منزل، أحياناً
لا تستطيعون رؤية مكان مائل مطلقاً فترجعون. خلال
هذا التردد، تلمح أعينكم طريقاً صغيراً ملتوياً بجانب
منزل، تستمرون، أحياناً يمر الجميع من تحت منزل
وتخرجون إلى طريق جديد. وقد تتجولون وتمشون
وترجعون، وفي الغالب تعودون إلى الشارع الذي مررتم
به من قبل، فمن المحال تحديد وفهم ومعرفة مدة تجوالكم،
وأي صرتم، وما الناحية التي تذهبون إليها^(١).

وحينما يقرر جناب زيارة منطقة الأوزبكية يسهب الحديث عن عدم تناسق
طرق القاهرة واضطرابها منذ تأسيسها في عهد الفراعنة، فيقول: إن المصريين
كانوا يحاولون التخفيف من أشعة الشمس النارية والملتبية كالنار بتغطية معظم
الطرق بأقمشة القلاع والأخشاب والأقفاص، فهي تغريل ضياء الشمس، فتتشر
ضياءاً معتدلاً رقيقاً فوق الحاضرين، وفوق هذه الأسقف الخفيفة رسومات غريبة
أحياناً وأحياناً توجد الستائر والتنورات، وأحياناً تساعد التشققات الكبيرة على مرور
كل الشمس^(٢).

وعند حلول الظلام خلال هذه الزيارة نجده يصور لوحة حزينة تجمع بين
الغروب والخرابات المتبقية فيقول:

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٨ و ١١٩.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٤.

"الآن حل المساء، فتشر المصابيح الكبيرة التي
تضيء على أبواب الجامع ضياءً رديئاً في الشوارع
الضيقة. وأحياناً يضاعف الظلام كآبة الطرق في النهار،
فعندما تعكس لون لوحة الغروب الحزين على حوائط
الخرابة المهدامة التي بقيت بين الانقراض، تنال الضواحي
ويصيبها أثر العزلة التي تحيط بخرابة مهجورة، وهناك
تأخذ شكلاً كما لو كانت قد أصابها إحدى كوارث
القرون الأولى. ويعتقد الإنسان أنه يشاهد لوحة ثمانية
الحريق الكبير الذي أضرمه نبيرون في روما"^(١).

والواقع أن هذه الرؤية السابقة لجناب كان يخص بها شوارع القاهرة
القديمة وبخاصة أحياء مصر القديمة والمطرية، ويتفق معه خالد ضيا حيث يقول
عن هذه الشوارع الضيقة:

"أما الشوارع الضيقة، وبخاصة أحياء مصر القديمة
فهى - مع الأسف - ضيقة جداً ومعوجة، ومعظمها
مسدود، وطرقها مرصوفة بالأحجار المكسورة الملساء،
وهذه الأحياء لا تخلو من الغبار ولا يوجد بها أثر للنظافة
بسبب انعدام الاهتمام بها"^(٢).

وعندما ينتهى جناب شهاب الدين من التجول فى شوارع القاهرة القديمة
الضيقة والرطبة والمظلمة بأقمشة القلاع والأخشاب والأقفاص، للوقاية من أشعة
الشمس الملتببة، نجده يهرع إلى رؤية أحياء القاهرة الحديثة، حيث يصف لنا ميدان
الأوبرا قائلاً:

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٢) خالد ضيا: مصر خاطراتي، ص ٨٦.

"يعد ميدان الأوبرا قلب حياة القاهرة الحديثة،
فبالقرب من هذا الميدان توجد جميع المحلات الكبيرة،
والفنادق الضخمة ومعظم الدوائر الرسمية. ويقع هنا
الزائرون الأجانب، وأيضاً توجد محلات البيرة والمقاهي
وبيوت القمار جميعها هنا. وعندما يتجول الإنسان هنا
مدة من الوقت في هذه الطرق المرصوفة والمنظمة
والواسعة والنظيفة يستطيع أن يأمل في رؤية نماذج من
شعوب القارات الخمس كافة"^(١).

وأبدى إعجابه أيضاً بالطريق المرصوف بالحصى عندما تجول في حديقة
شبرا^(٢)، فهو لا مثيل له، بل إنه شبه أحد شوارع القاهرة الحديثة بشارع مشهور
في باريس^(٣).

ويرى خالد ضياء أن أول شيء يلفت نظر السائح الذي يزور القاهرة هو
انتظام الطرق وجمالها غير العادي. وأن روعة هذه الطرق تغطي على ضيق
بعض شوارعها.

ويشيد - على سبيل المثال - ببعض أحيائها وشوارعها التي لا مثيل لها،
مثل شارع قصر النيل وميدان الأوبرا وطرق الجزيرة.

(١) يقول جناب شهاب الدين: "يغنى قاهره نك قلب حياتى اوبرا ميدانيدر. بتون بيوك مغازه لى، بويوك
اونتلر، دوائر رسميه نك اكثريسى بوميدانه مجاور در. زوار اجنييه بورالزده اقامت ايندرلر، بيراخانه
لى، قهوه خانه لى، قمار خانه لى بورالزده در. بوسمك منتظم، كنيس، تميز شوسه لى نى
طولا شدينى منتجه انسان قطعات خمسة اهانليك هيررتن برنمونه كورمكتن مينورا راوله بيلير"
(حج يولنده، ص ١٨٤).

(٢) تناولنا في الباب السابق وصف جناب لحديقة شبرا.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣١.

بل إنه ينادى بأن هذه الطرق التى أنشئت وأسست حديثاً الموجودة فى مدينة القاهرة وخارج القاهرة من الأجر أن تُحتذى حقيقة^(١) ... ويشير إلى أن المصريين يستعملون أسماء "الميدان والشارع والحارة والعطفة والزقاق"، كما أنه يتم تعليق الألواح الحديدية المحرر عليها أسماء الشوارع باللغتين العربية واللاتينية بطلاء أبيض وأرضية زرقاء قاتمة اللون بانتظام على ناصية كل زاوية وركن^(٢).

ويحرص خالد ضيا فى حديثة عن شوارع القاهرة على أن يبين لنا دور الإدارات المكلفة بتنظيم المدينة وتوسيع شوارعها ونظافتها وتشجيرها فيقول:

"لا يوجد فى مصر «أمانة المدينة» ودوائر البلدية، وكانت وظائف البلدية تقوم بها الدوائر التى تحوى الكتاب المكلفين بالأحوال الصحية وتنظيم المدينة وتنويرها وتنظيفها، وهى التى يعبر عنها بوزارة شؤون المنفعة العامة^(٣) .

حقاً إنه توجد إدارة مركزية ضخمة جداً (فى بولاق) خاصة بالتعمير الدائم وإنشاء الطرق من جديد، وبالوسائل الإنشائية والنقلية، وسائر المستخدمين والموظفين والمفتشين أصحاب المعاش. وتوجد شعبة أخرى يطلق عليها اسم «قلم الجناين» وهى مكلفة بالحفاظ على الأشجار الموجودة فى الحدائق والشوارع وانتظامها وتغييرها ومعالجتها إذا لزم الأمر^(٤) .

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ٨٢.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٤) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٣.

ثم يتعرض خالد ضيا للمشاق التي كانت الحكومة تتكبدتها قبل إنشاء المجارى والصرف الصحى فى مصر، فقد كانت الشركة المكلفة من قبل الحكومة هى التى تتولى مهمة تفريغ المياه فى مستودع أو مخزن على شكل صهرىج، وتجميع مجارى مياه كل منزل فى ظرف نصف ساعة دون أن تتشر أى رائحة كريهة خارج العربات ذات المستودع التى بها طلبمة. وعندما أرادت الدولة استكمال أسباب العمران، وذلك بإنشاء مجارى ضخمة تحت الأرض مثلما فعلت مدن باريس ولندن، اجتهدت فى تحصيل نصف مصاريف هذا المشروع عن طريق فرض الضرائب على الشعب، واضطرت إلى عقد قرض ضخم، يذكره خالد ضيا فى الهامش بأربعة ملايين ليرة.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا المشروع لم يتم إلا بعد فترة من الوقت^(١).

وعلى الرغم من انتقادات خالد ضيا لهذا المشروع ومدى عيوبه، فإنه يذكر صراحة أنه يتمنى أن يطبق نظام الطرق المرصوفة بالحصى فى تركيا كما هو معمول به فى مصر، وهى مخلوطة بالزفت والقطران، ومن مميزاتها أن جعلت هذه الطرق مستوية للغاية، وقد استعملتها مصر فى الميادين والشوارع وحتى الكبارى، وهى أيضا تريح كثيرا فى أثناء المشى والسير، بسبب أنها تتكون من الأسفلت، فلا يصادف بها أى عارضة أو أى جسم آخر، فضلا عن جمال منظرها وروعيتها^(٢).

ويحرص معظم الرحالة الأتراك على ذكر بعض الطرق التى أنشئت فى ذلك العصر من قبل الخديو إسماعيل أو عباس، ومن قبلهما محمد على باشا الذى اهتم بتوسيع الشوارع وإنشاء المباني وتنظيمها، حيث يقول محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى":

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٤.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٦.

"على الرغم من أن مدينة القاهرة تحوى العديد من المؤسسات النافعة والمباني العظيمة، فإن الممالك قد دمرها الكثير من رونقها القديم في عصر تمردهم، وظلت زخرفة هذه المباني وتنظيماتها تعاني الإهمال هكذا حتى آل الحكم إلى محمد على باشا، فأكملت شوارعها وتم توسيعها، وأنشئت المباني الأخرى، وبخاصة تم تنظيم وتسوية الأسواق والمباني في عهد الخديو إسماعيل باشا الخديو الأسبق وأنشئت المستشفيات والمراسد وعدد من الثكنات العسكرية ومسرح منتظم، وشوارع مثل شارع الإسماعيلية والتوفيقية والأوزبكية والعباسية. وأقيمت مكتبة منظمة للغاية تعد من أغنى مكتبات البلاد الشرقية فهي تجمع بعض النفائس والنادر، وتحوى ١٥٥٧٧٠ كتاباً عربياً و ١٨٢٥ تركياً و ٥٥٣ فارسياً و ٤٨ جاوياً، و ٨٣٧٨ إفرنجياً ومجموعها ٢٦٣٨٠ أيضاً أنشئت البيوت العالية والمزخرفة من قبل المخلصين، ومعظمهم من الأوربيين، وغرست الأشجار في بعض الشوارع الأخرى"^(١).

(١) يقول محمد محسن: "اشبهوا قاهره شهرى مؤسسات نافعه دن عبارت اولمق اوزره اوتنه دنبرو برطاقم مبانى عظيمه بى حاوى اولمقله كوله منلر دور تمرلرنده رونق قديمى خليلجه ضابع ايلديكى جينله مشار اليه محمد على باشنك واليلكنه قدر سائر صورته تزيينات وتنظيمات اويله نظر نفتى جلب ايله جك برحاله دكل ايكن مشار اليه طرفندن سوققلرى توسيع ومبانى سائره اتشاسيله وخصوصيله خديو اسبق إسماعيل باشا حضرلرى واليلكرنده اسواق ومبانينك تسويه وتنظيماتيله تزييناتى اكمال ايدلمش. خسته خانه لروصده خانه ومتمدد قشله لر وير منتظم ثياترو يابلمش وسوققلرينك إسماعيليه وتوفيقيه واوزبكيه وعباسيه تاملرنده اولترينه واقطار شرقيه ده الك رزنكين دينيله جك صورته اون بشبيك بسشيويزيتمش يديسى عربى وبيك سكرىوز يكرمى بشى تركى وبشيويز اللى اوجى فارسى وقزق سكرى جاوى. وسكرىوزك اوجىوز يتمش سكرى افرنجى اولمق اوزره جمعا يكرمى التى بيك اوجىوز سكرى بركتابى حاوى وبعض نفائس ونوادى جامع غايت منتظم بركتبخانه وسائر بعض ديكر جاده لره اغاجلرديكلمش ويرليلرله اكثريسى فرنكلر طرفندن اولمق بيوت عاليه ومزينه انشا اولنمشدر" (أفريقا دنيلى ص ١٢١ و ١٢٢).

ويسجل جناب شهاب الدين وكذلك خالد ضيا إعجابهما بالطريق الذي شيده الخديو إسماعيل فيصفه أولهما بقوله:

"وفي الحقيقة أن الطريق المؤدى إلى الأهرام من القاهرة جميل جداً: فأنتم تجدون أنفسكم تحت سماء شفافة على امتداد الطريق، وتمتعون بهواء صاف، فوق أرض مفعمة بحدوء مريح، وبين أشجار الأقاليا الجميلة، وبعد عبوركم النهر عن طريق كوبرى ضخم يطلق عليه اسم قصر النيل، متبعين فترة شمال الشاطئ تستشقون هواء نجيل البلح البارد وتشاهدون منارات القاهرة التى تلمح داخل ضباب الصباح، وتعبرون بمحاذاته حديقة الجزيرة والمتحف، ثم يعود الطريق فجأة، ويتجه إلى هياكل الأهرامات العظيمة على خط مستقيم.

وقسم من هذا الطريق الأخير واسع ومحاط بالأشجار، ورصيف كامل مرصوف بالحصباء"^(١).

ويحرص جناب على ذكر سبب تشييد هذا الطريق فيقول:

"وطبقاً للرواية، فهذا الطريق الطويل المرصوف بالحصباء، ويمتد طوله لعدة كيلومترات، كان قد شيده الخديو المتوفى إسماعيل باشا فى بضعة أيام، وجمع لذلك آلاف العمال، وسبب تشييده هو أن الإمبراطورة أوجيني التى قدمت إلى مصر لحضور مهرجان أقيم بمناسبة افتتاح قناة السويس، قد اشتقت إلى رؤية الأهرام. إن هذا

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٤.

الطريق متجه مباشرة إلى الأهرامات البعيدة بين حقول
مصر»^(١).

ويقول عبد الغنى سنى بك إنه منتظم جدًا، وقد زُيّن جانباه بالأشجار
الكثيرة^(٢).

ويشير خالد ضيا إلى خط ترامواى كهربائى ينتهى إلى الأهرامات، يصل
بين هذه النزهة وخارجها^(٣).

وأشاد خالد ضيا بطرق هليوبوليس التى أسست من جديد بالكامل، وهى
طرق مرصوفة بالحصىء المخلوطة بالقطران، ولكنها - للأسف - ليس بها مجارى
عامّة^(٤).

ونجد أيضًا الرحالة سليمان شكرى يسجل إعجابه وانبهاره بالمبانى الفاخرة
والمنازل الجميلة ومحلات التجارة المزخرفة والدكاكين العالية والكازينوهات
المزينة والشوارع النظيفة المبهجة التى تبهر الأبصار باستقامتها تحت ظلال
الشجيرات الداكنة، والميادين الواسعة الجميلة، والمضاءء بالأتوار الكهربائية،
والترامواى الكهربائى فى كل ناحية، وقد عددها بأحد عشر قسمًا: الوايلى
والأوزبكية وبولاق والموسكى وباب الشعرية والجمالية وعابدين والدرب الأحمر
والسيدة زينب والخليفة ومصر العتيقة.

ولم ينس سليمان شكرى أن يصف أرصفة الشوارع المفروشة بطبقات من
الأسمنت المنقوش والملون، وهى أرصفة واسعة على جانبي الشوارع المنتظمة،

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٤٥.

(٢) عيد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٨٨.

(٣) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٥.

(٤) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٦.

التي لا يُمَلُّ من النظر إليها .. وكذلك هناك بعض الأماكن المزدانة بـ«مالطة طاش» وبخاصة ممرات الترامواي والعربات التي تهبط وسط هذه الممرات الخاصة بالمشاة^(١).

ويضم عبد الغنى سنّي بك إعجابه كذلك بالمحلات الفخمة والمزخرفة جدًا والشوارع الواسعة المزدانة بتلك المحلات^(٢).

ففي حديثه عن المباني التي أُقيمت في منطقة هليوبوليس، والتي يطلق عليها المواطنون اسم مصر الجديدة، يشيد بهذا المكان الجدير حقًا بالزيارة، يقول عبد الغنى سنّي بك:

"توجد القصور الجميلة جدًا وتقدر بنحو خمسين قصرًا، متراسة في سلسلة من المنازل المستقل كل منها، ومحطة القطار الكهربائي، والتلغراف ومكتب البريد، ومقر البوليس، والكاзиноهات، وفندق هليوبوليس بالاس الذي يشمل أربعمئة حجرة وصالتين فخيمتين، ففيها نماذج من الروائع الإنشائية الحديثة. وكانت الشوارع الواسعة التي تفصل هذه المباني الفخيمة تزين جانبيها الأشجار، ويعد الطريق الذي يسمى شارع الأهرام نسبة إلى الجهة التي يتوجه إليها، من الأماكن الجديرة بالمشاهدة"^(٣).

(١) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٩٤.

(٢) عبد الغنى سنّي بك: المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣) يقول عبد الغنى سنّي بك: "مستقلّ خانه اولمق اوزره صره وارى بنا اينلمش اللى قدر غايبت لطيف كوشكلر، الكتر يقلى شمدوفر استاسيونى، تلغراف وبوسنه خانه، بوليس قره قولخانه سنّي، غازينو، بالخاصة (هليوبوليس بالاس) اولتى، كه ايكي جسيم سالونى، درت يوز اوطه يى شاملدر، بدابع انشانيه نك صوك مودللى اوله رق ميدانه كئيرلمش. بومبائى محتشمه يى فصل اين واسع جاده لر، هله اطرافى اغاجلرله تزيين اينلمش ومتوجه اولديغى سمتة نسبه (اهرام جاده سى) نسامى ويزريلن بولوار جدا شايان تماشادر" (يمن يولنده، ص ٧٠).

ويشير عبد الغنى سنّى بك إلى كيفية بناء هذه المباني التي بدأت في إقامتها شركة ما تأسست قبل ثلاث سنوات من تاريخ زيارته لمصر، ولم يذكر ماهية هذه الشركة هل هي وطنية أم أجنبية، وكان رأسمالها يبلغ ستة ملايين ليرة^(١)، ويشير أيضاً إلى أن معظم هذه المباني خالٍ من السكان وهؤلاء القلة القاطنة في تلك المنطقة هم من الأغنياء، على الرغم من وجود عائلات فقيرة أيضاً تسكن في مباني أصغر حجماً من مباني الأغنياء.

ويتعجب عبد الغنى سنّى بك من الشروط وكيفية سداد الأقساط السنوية التي تستمر عشرين أو ثلاثين سنة، وذلك من أجل امتلاك العقار. فما أعظم هذه التسهيلات كما يرى عبد الغنى.

ويقود عبد الغنى سنّى بك انبهاره بتشييد الشركة لهذه المدينة، إلى إطالة الحديث عنها في ما يتجاوز ثلاث صفحات، فهو يشيد بالطراز المعماري للمباني في هذه المدينة العظيمة التي شيدتها الشركة من العدم برأسمال قدره ستة ملايين ليرة في ظرف ثلاث سنوات! شوارعها مضاءة جميعها بالمصابيح الكهربائية وقد أدخلت بها مياه الصرف الصحي والمجاري العامة. تلك المدينة عمرت فوق أرض صحراوية من المحتمل توسيعها في المستقبل. كل هذا يجب أن يثير التعجب والدهشة... ولم يقف عبد الغنى سنّى بك عند هذا الإعجاب فحسب، بل إنه يتساءل لماذا لم تؤسس آثار مهمة على هذا النحو في تركيا! على الرغم من أنه لا حاجة إلى بذل جهود مضاعفة في الصحاري ووسط الرمال على هذا النحو ولذلك يقول متحسراً من هذا الوضع:

"فأرضنا تفيض بالحياة، والذهب والألماس
والجواهر والكنوز... لكن هيهات، فنحن لا نشجّع

(١) عبد الغنى سنّى بك: المصدر السابق، ص ٧١.

ولا يمكن لنا أن نشجّع على الاستفادة ببذل جهد قليل
في هذه الطبيعة المعطاءة، إلا أننا سوف نتلافى ما فاتنا في
عصر حريتنا إن شاء الله، وإن لم نستطع بلوغها فإن
الموت يتأسبنا بدلاً من الحياة^(١).

وفي نهاية حديثه، يقدم نصائحه من أجل ضمان سلامة الحياة بالنسبة إلى
الأتراك، فلا بد أن تستخلص دروس العبرة والموعظة العظيمة من تشييد
هليوبوليس، فهي تعد نتاج قوة اجتماعية عظيمة، أنشئت طبقاً لقواعد اقتصادية
متينة وأهم شيء بالنسبة إليهم هو فكرة الشركة وفكرة الاتحاد، ذلك أن أى شخص
- مهما كان غنياً - لا يمكن أن يجازف برأسماله في مشروع ما حيث يخشى
الوقوع في المهالك، وهو ما ينبغي أن يفعل. ولكن إذا انقسمت مسؤولية
هذا المشروع على مجموعة متعاونة كثيرة، فإنها تقلل احتمالات المخاطرة
إلى حد ما^(٢).

وإذا كان عبد الغنى سنى بك قد أشاد بالطراز المعماري للمباني الحديثة،
فإن من الرحالة من رأى أنها لا تمثل شيئاً سوى تميزها بالزخرفة فقط، حيث يقول
جناب شهاب الدين:

"ويهتز تاريخ المباني الجديدة فوق أنقاض القصور
الملئية بالغبار، ويغلب على هذه المباني الجديدة الاهتمام
بالزينة أكثر من المتانة، ففي الخارج تطرير قليل وعدة
نقوش، ولتكن خمسة أو عشرة نقوش، وينطبع على
الوجه الخارجى للبناء رغبات صاحبها وخيالاته ذات
الألوان المرصعة المختلفة، فهي تتميز بالدوق والظرافة في

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولده، ص ٧١، ٧٢.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٧٣.

منظرها الخارجى، فتظهر علامة من علامات الرقعة.
ويكفى المباني المصرية هذا القدر فحسب، فلا تبحثوا
فيها عن القوة والمتانة في الإنشاءات الغربية، فلا يدخل
ضمن الحسبان قوة تحمل المنازل لرياح الغد"^(١).

ومن خلال حديثه عن الطراز المعماري الحديث في مصر، يؤكد جناب
شهاب الدين نظريته عن الشعب المصرى وطبيعته من الناحية الفكرية، فهو يقول:

"يمكن القول إنه كان ضرورياً الاستدلال من هذه
الآثار المعمارية على اجتهد الشعب الفكرى. تعد الحياة
والموت هنا نوعاً من النوم واليقظة يتكرر يومياً. ويتم
النظر إلى كل أمور الحياة مثل رؤى ساذجة غافلة. وتبدو
أيام الحياة مليئة بمجموعة أحداث غير متوقعة. وتغضى
وينبغى أن تكون مرتقبة باستغراب دائم على مسرح
الحياة. ومن هم في أشد الاحتياج والذين يقضون عمرهم
المبهج في هذا الإقليم الحار، يتخيلون إيجاد باقة زهور في
أيديهم. وغالباً ما يستمر نوع من مسيرة الحياة المبهوسة
داخل الحوائط المشيدة من هذه الزينة.

والذين يعيشون هناك يتخيلون أنفسهم صباحاً
من أجل التجمع في المساء داخل خيمة وردية اللون

(١) يقول جناب شهاب الدين: "ابنيه جديده تاريخى كاشانه لرك انقاض برغبارى اوستنده تتريبور، بويكى
بنالرده متانتكن زياده زينت وار: طيشنده برانز ايشلمه، برقاج اويمه، بش لون نقش بولنسون،
صاحبك هوسات وخيالاتى رصايح گوناكون صورتده بنانك روى خارجيسنه انطباع ايتسين، منظره
ظاهره ده برخوق وظرافت، برنشئه رقت كولومسه سين ... ايشته بو قدرى ابنيه مصرىه ايجون
كافى گوروليور. انشا ات غريبه ده كى قوت ورسانتى بوراده ارامايكز، بوراده خانه لرك رياح
فردايه قارشى زور تحملى داخل حساب اولميور" (حج بولنده، ص ١١٤).

منصوبة على شاطئ واد فياض، فالعيش داخل سد صيني
قوى ومستحكم والقبض على مرآة الإسكندر للكاتب
القادمة ليست من أعمال أبناء المصريين، فطبيعتهم
ومزاجهم يكمن في أنهم عندما يمشون أمام رياح الأمانى
يركضون، ثم يريدون غرس حياة الكسل داخل خيمة
بسيطة ورقيقة"^(١).

ويحاول جناب أن يفسر تلك الطبيعة لهؤلاء القوم (المصريين) فيقول:

"ولكن أليس هذا الاتجاه والميل لدى قوم يعيشون
داخل عالم رائع مخلوق من النور والحرارة، يعد طبيعياً
جداً؟ وهناك مصادفة غريبة أيضاً: حتى وسيلة بناء هذه
المدينة كانت خيمة..."

ويفسر جناب هذه المصادفة بسرده واقعة فتح عمرو بن العاص مصر
فيقول:

"استولى عمرو بن العاص على قلعة بابل المشيدة
على جبل المقطم الواقع يمين شاطئ نهر النيل، وبعد أن
نال بسهولة تلك المنطقة المستحكمة التي بناها
الإيرانيون، تأكد انفتاح طرق الانتصارات الجديدة،
فأعطى جناب القائد الأمر بالتحرك تجاه الأمام. وبدأ
نصب الخيام، وعندما جاء الدور لخيمة القائد، بنيت
الأعشاش فوقها، حينذاك أقسم القائد أن تنقل خيمته إلى
مكان آخر، حيث قال: ألا يرعى الإله الأعظم مخلوقاً
التجأ إلى ظل ضيافته بأمان تام، ويمحى أى مسلم ويحفظ

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٥.

أى مخلوق حي؟ معاذ الله، ينبغي علينا أن نرعى هذه
الطيور. نحن مسافرون. فلتبقَ هذه الخيمة هكذا حتى
عودتى من الإسكندرية".

بقيت هذه الخيمة، حتى إنها تم تقويتها لتحتمل مقاومة بعض الكوارث
الجوية. هكذا أصبحت هذه الخيمة التى كانت عشاً لزوجين محبيين من الحمام، أول
ركن جميل فى مصر القاهرة، وحين عودة القائد أنشأ هناك مناطق كبيرة ومبانى
ضخمة ومدينة كاملة^(١).

ويتناول جناب شهاب الدين الطراز المعمارى المستخدم فى زمن عمرو بن
العاص، فيشير إلى أن الزخرفة كانت معادلة للصلاية والقوة فى البناء. ثم بدأت
الزخرفة تطنى على جانب الصلاية. وفى عهد أحمد بن طولون بلغت الزخرفة إلى
الحد الأقصى، ويذكر أنه قد أنشئ فى هذا العصر قصر لا مثيل له، وحفظت
الأشجار الموجودة فى حديقته كل واحدة منها داخل أغلفة معدنية، ومموهة بالذهب،
حيث كان الماء يصل إلى الأماكن الرقيقة جداً للغصون، وكانت تفور مثل الأزهار
من الرغاوى، وتطير كل الطيور الجميلة فى الدوائر المصنوعة من طلاء مزركش
وتغرد وتتوقف وتتلامس مناقيرها معاً. ويتم المحافظة على المعابد المرصعة
بوضعها داخل أقمشة ثمينة. وكانت الحيوانات المتوحشة تشكل لوحة صراع دموى
داخل سياج حديدى. كانت تشتمل على شرفة عالية ومشاهد من النيل والحدائق
المصرية وصحراء القاهرة والأهرامات والمنارات، فهى تشتمل على كل شىء
يحيط به البصر، خصوصاً أن هناك حوضاً واسعاً وإنشاءات تبلغ الخمسين،
ملوأة بالزئبق، ومحاطة بأعمدة من المرمر رؤوسها من الفضة، وقد امتلأ هذا
الحوض بالهواء فوق الزئبق، أحياناً يسبح فراش نعيم كبير، وأحياناً يظل واقفاً
مربوطاً بحافة الحوض بحبال حريرية. وفى الليالى المقمرة والمكوكبة يتمدد

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٦.

صاحب القصر على ذلك الفراش المرفه حينما يحيط الحوض الزنبقي كل السماء
المضيئة لمرآة حضنه بجلاء وتألق يخلب النظر^(١).

ويشعر جناب شهاب الدين بالتناقض الشديد بين الصمت الذي يطبق على
شوارع القاهرة الضيقة وغير المتناسقة، والضجيج الصارخ للأسواق وبخاصة تلك
القريبة من حي الأوزبكية، حيث يقول عنها:

"خرجنا إلى شارع متجه بناصيتين. يضح هذا
الشارع بازدهام صاخب، فكان كل شخص سواء كان
سيدة أو رجلاً أو طفلاً ينادى ويصرخ، والسيدات يعن
الخضراوات التي يحملنها فوق رؤوسهن، والأطفال
يلعبون معاً. وكان جزء من الخلق يتجول فقط، وتظهر
الأشياء التي ليس لبعضها صلة ببعض للبيع في المتاجر،
فمجموعات من السجاجيد تلمس أكواماً من البقسماط،
وأعمدة الطرايش تقف بجانب الأواني والأباريق الخزفية
البيضاء والحمراء مثل أعمدة المسلات، وتتصارع حزم
الموز مع صفوف الأحذية والخفوف وجهاً لوجه، وتتألا"

(١) يقول جناب شهاب الدين: "نشأته زينت ومنتنت متوازن قالدی. صكره زينت أهسته أهسته حصه متانتی
یونتمغه باشلادی. احمد بن طولونك اوغلی زماننده زينت حد اعظمته واصل اولدی: اوزمان برکشته بی
مثال قشما لوشمش که باغچه سنده کی اغاجلر آلتون یالیزلی برر غلاف معدنی ایچنده محفوظ ایمش،
صوار دالارک انش رقیق نقطه لرینه چیفلر، اور لرده کوپوکنن چیچکلر گجی فوران ایچرمش، مینائی
مزرکشنن بایللمش دقده لرانچنده بتون طيور لطیفه لوجلر، لوتر، منقار بر منقار تلاقی لکلنیرمش. مرصع
هیکلار، قیمتلر قماشلر ایچنده محافظه قیام ایچر، حیوانات وحشیه دمیر پارمقللر ایچنده قفلی برلوحه
مجانله تشکیل یلارمش، یوکسک بر بالتون مناظر نیلی، حدائق مصری، صحرائ قاهره یی، اهرلملری،
مناره لری، هرشی لحاطله نظارتنه آلیرمش، هله لالی تحفالی برحوض وسیع ولرمش که جیوه فله مملو،
وگوموشدن باشقلی مرمر ستونلرله محاط ایمش، بو حوض سیماب لوزرنده هو ایله طولو، بیوک بر فراش
نعیم گاه یوزر، گاه لیک خالاطرله کنار حوضه باغلی طوروش، مقمر و مکوکب گججه لرده، حوض
زیقی برنجلای نظر ریا فله بتون سمای مضمئی آیینه اغوشنه الیفی زمان صاحب کاشانه لوفرلش
نعیمه لوزنیر. (حج یولنده، ص ۱۱۷ و ۱۱۸).

الأقمشة الحريرية مع الغلايات والمراجل النحاسية جنباً
إلى جنب، وتنسحق بالات القطن تحت سلال الإوز،
وتظهر سلال الرمان أسنانها الحمراء فوق براميل الزيتون
الخشبية. في هذا المتجر يحرك خياط يترك فوق قطع
الملابس الصوفية، وعلى مسافة أبعد منه يتناثر الشرر من
سندان حداد، وعلى مسافة أبعد يدير صفّاح (مبيض
نحاس) الطنجرة يصقلها ويقلبها تجاه ضوء الشمس^(١)،
في متجر قريب يحرك بدويان مطحنة البن بعضلاتهما
القوية وعلى مسافة أقرب كاتب قبطن يبيض رسالة
سيدة عربية، وهناك حلاق (وهي كلمة تطلق على
المزين) يرغب الصابون على رأس لامع لقروى ذى الحية
سوداء^(٢).

ويبدى معظم الرحالة الأتراك اهتماماً خاصاً بوصف أحياء القاهرة
المختلفة وقد أحصاها الرحالة سليمان شوكت في كتابه "السياحات الكبرى" بإحدى
عشرة منطقة: الوايلي والأوزبكية وبولاق والموسكى وباب الشعرية والجمالية
وعابدين والدرب الأحمر والسيدة زينب والخليفة ومصر العتيقة. وهناك أيضاً
منطقتان مختلفتان عن حى الوايلي هما القبة والعباسية. وهو يصف حى الوايلي
بمناخه الرائع إذ توجد به عدة منازل عالية مبهجة للنظر أقامها الأغنياء والكبراء،
وبه أيضاً سراى القبة وهى من الأماكن الخديوية. وأقيم بالعباسية ثكنات عسكرية
ضخمة ومرصد عظيم^(٣).

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢١.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٣) يقول سليمان شكرى: "الوايلي، أوزبكية، بولاق، موسكى، باب الشعرية، جمالية، عابدين، درب
الأحمر، سيد زينب، الخليفة، مصر العتيقة، نامرندة أون برقس وسمت اعتبار ايديلور" (سياحات
كبرى، ص ٢٩٤).

بـ بولاق:

تعد بولاق - كما يذكرها محمد ميرى - إحدى المدن الصغيرة المشهورة منذ القدم وهى تقع فى شمال غرب القاهرة. وتوجد بها المنازل المكلفة بتخزين الحطب والفحم ومسبك الحديد والحبوب. بالإضافة إلى أنها مشهورة كمدينة إسلامية. كما أن بها ترسانة صغيرة للبواخر التى تبحر فى النيل، وورشة خاصة لسكك حديد مصر ومصانع المياه والتلج وطواحين النار المتعددة، وكان مصنع الورق قائماً بها، وكان خالياً من الآلات حينذاك، ويبلغ عدد سكان هذه المدينة ٨٠٠ ألف نسمة^(١).

واشتهرت بمكتبة ضخمة ومتحف، كما أنها أدت خدمات جليلة للعالم الإسلامى بمطبعتها، ويقول عنها محمد عزت إنها كانت ميناء^(٢) القاهرة.

مصر العتيقة:

تقع مصر العتيقة على الضفة الشرقية للنيل، وموقعها من القاهرة يحدد بمسافة عشرين دقيقة بالسير المعتدل إليها. وهى عبارة عن فضاء خالٍ من جبل المقطم وسفحه حتى شاطئ النيل. وكان يوجد بها قلعة تُسمى قصر الشمع كان يقيم فيه الأشخاص الذين كانوا قد أرسلوا إلى مصر ولادة من قبل إمبراطور الروم الشرقية أو النواب الذين يسمون بـ «شحنة».

(١) محمد ميرى: مصر سودان سياحتهامه سى، ص ٦٤ و ٦٥.

(٢) محمد عزت: يگى أفريقيا، ص ٦١ و ٦٢.

ويسرد محمد مهري خلال حديثه عن هذه المدينة تاريخ بنائها منذ مجيء عمرو بن العاص إلى مصر في عهد الفاروق عمر رضى الله عنه وفتح هذه القلعة، وكذلك نجد جناب شهاب الدين لا يذكر هذه المدينة إلا ويذكر معها أيضا معنى اسمها وقصة الخيمة التي كانت سببا في إطلاق اسم الفسطاط عليها^(١).

وكذلك نجد محمد مهري يذكر الحادثة السابقة، ويسترسل في حديثه عن مدينة أخرى سُميت العسكر بالقرب من مدينة الفسطاط، أسسها العباسيون ثم خربت بدورها، وظهرت مدينة أخرى سُميت القطنع.

وهذه المدن الثلاث (الفسطاط والعسكر والقطنع) هي اليوم - كما يقول محمد مهري - عبارة عن مدينة مصر العتيقة^(٢).

ويوجد بهذه المدينة جامع عمرو بن العاص الذى نال اهتماما كبيرا من الرحالة الأتراك، بالإضافة إلى وجود بضعة من المساجد خلاف جامع عمرو بن العاص، لم يذكرها محمد مهري دائما، واكتفى بالإشارة إلى وجود معابد قديمة وجديدة لم تمس بسوء منذ دخول الإسلام فيها بحكم أنه دين يحمى حقوق أصحاب الأديان الأخرى ويحمى أتباعها^(٣). وبها أيضا صهاريج المياه المتعددة المقوية التي أقامها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من أجل توصيل المياه من النيل إلى القلعة. ويشبهها محمد مهري بصهاريج مياه إستانبول التي هي دار خلافة العالم الإسلامي - كما يقول في كتابه - بالإضافة إلى وجود مبنى عالٍ أقيم على هيئة مقسمة، من أجل أن يكون خزاناً للمياه، وعلى مقربة منه أنقاض مدرسة لمصنع بارود أقامه الوالى الأسبق محمد على باشا، وبها كذلك كنيسة أرثوذكسية منسوبة

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٥٢.

(٢) للتفصيل فى هذا الموضوع، راجع كتاب محمد مهري: رحلة مصر والسودان.

(٣) محمد مهري: مصر والسودان سياحتهما، ص ٧٦.

إلى سان جورج. والجزيرة المسماة بالمنيل التي يطلق عليها اسم جزيرة الروضة، بها قصور بعض الأمراء وأغنياء مصر وحدائقهم^(١).

المطرية:

يصف محمد مهري موقع المطرية بقوله:

"هي بلدة واقعة في الشمال الشرقي من القاهرة على بعد تسعة كيلومترات منها. وكانت تابعة لمركز القليوبية والآن ألحقت بالقاهرة، وعدد سكانها ٣٢١٠ نسمة وقد اشتهرت بوقوعها على مقربة من خرابات مدينة عين شمس القديمة، أي هليوبوليس"^(٢).

ويضيف خالد ضيا إلى ما سبق قوله عن موقع المطرية:

"هي صحراء يابسة، لأن أرضها ترتفع عن سطح مصر بعشرين متراً ويُذهب إليها بالترامواي الكهربائي في أربعين دقيقة، وبالعبدة في ربع ساعة"^(٣).

والتلال التي تُرى على مقربة من المطرية هي خرابات بلدة عين شمس القديمة. ويروى أنه كان يوجد فيها في سالف الزمن تمثال كان البشر يزورونه بنية الحج، وأنه قد حدث بها واقعة يوسف وزليخا، حيث أمسكت زليخا بقميصه.

(١) يقول محمد مهري: "مصر سفلاة قليوبيه مشيرتينك قضاينده ايدي وقاهره نك طقوز كيلومتر وشمال شرقينده واقع و ٣٢١٠ نفوسى جامع اولان مطريه قريه سى (هليوبوليس) يعنى (عين شمس) شهر نديمك خرابه لرى ياتنده بولنمقله مشاردر" (سودان سياحتنامه سى، ص ٣٨٤).

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(٣) خالد ضيا: مصور مصر خاطراتي، ص ١٢٣.

وكذلك يروى أن فيثاغورث وأفلاطون وسولونيك كانوا قد تعلموا في مدرسة موجودة في المطرية^(١).

وبالقرب من المطرية أيضاً وعلى بعد كيلومترين تقريباً توجد مزرعة لتربية النعام لا يوجد غيرها في القطر المصري، ويوضح محمد مهري في النسخة العربية أن هذه المزرعة ملك لشركة أجنبية حيث يوجد بها عدد كبير من النعام يبيعون ريشه للسائحين وكذا يبيعون الواحدة منها بخمسين أو ستين جنيهاً فيربحون ربحاً وفيراً^(٢).

بالإضافة إلى أنه كان يستخرج من المطرية فحسب زيت البلسم بسبب شهرتها بالحدائق التي يزرع فيها أشجار البلسم^(٣).

وعلى أرض المطرية وقعت معركة كبيرة مع الفرنسيين سنة ١٨٠٠م كما يقول محمد محسن^(٤) ومحمد مهري، ويذكر الأخير أنه توجد بلدة أخرى تسمى المطرية بمديرية الدقهلية في الشمال الشرقي من مدينة المنصورة على بعد ٥٦ كيلومتراً منها وواقعة على ساحل بحيرة المنزلة.

ونظراً إلى ما اشتهرت به قرية المطرية من حسن موقعها ولطف هوائها، فقد أنشأ الأمير يوسف كمال باشا في الجهة الشرقية منها قصرًا عاليًا مشيد الأركان ومشرفاً على كل ما حوله ويستحق أن يسمى "قصر جهانما" وهو قصر من قصور ملوك آل عثمان ويفوق في الزخرفة والتزيينات والمتانة "قصر الخورنق" وهو قصر في بلاد العراق بناه المعمار الشهير سنمّار للنعمان أحد ملوك العرب.

(١) محمد محسن: أفريقيا دليلى، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) محمد مهري: رحلة مصر والسودان، ص ٣٨٤.

(٣) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٥٩.

وقد نظم محمد مهري قصيدة في وصف القصر المذكور مكونة من عشرين بيتاً،
يقول في مستهلها:

لم تَرَ أم الدنيا إلى يومنا هذا قصرًا ذا أهمة وبهاء
وسرور مثل هذا القصر

لو رآه البناء الشهير سنّار لحسده على بدیع
وضعه ويحق للرسام الشهير ما أن يغبط على حسن
نقوش إيوانه^(١)

ولقد لفتت المدينة الجديدة التي تأسست في هليوبوليس (عين شمس)،
أو كما يطلق عليها أيضًا "مصر الجديدة"، أنظار اثنين من الرحالة الأتراك، عبد
الغنى سنّى بك وخالد ضياء، وقد سبق أن تناولنا مدى إعجاب أولهما بتلك المدينة،
وما كتبه عنها^(٢)، متمنياً أن يطبق الأتراك فكرة الاتحاد في إنشاء شركة تتولى
إقامة المشروعات الضخمة.

وعلى غرار رؤية عبد الغنى سنّى بك لهذه المشروعات نجد خالد ضياء
ينظر إلى هذه القضية بنفس المنظور، فهو في البداية يشرح كيفية شراء هذه
الشركة لأراضى المدينة، ويعلن كذلك عن جنسيتها فيقول:

"كانت شركة بلجيكية مقرها القاهرة، قد
اشترت الموقع المذكور بأسعار الأراضى الخالية أى بسعر
كل فدان ليرة واحدة، وتبلغ تلك الأراضى عشرين
كيلومتراً. وهى تباع اليوم المتر المربع منها بأسعار مختلفة
أى من ليرة واحدة إلى ثلاث ليرات.

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٨٦.

(٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثالث ص ٢٣٠.

وكان قد تم البدء فى إنشاء مدينة عين شمس بعد أن تم مد خطوط الترامواى الكهربائى اعتباراً من الموقع الذى كان يطلق عليه سابقاً "الريدانية" و"العباسية" حالياً والمواقع خارج القاهرة، وبعد أن تلاقت خطوط القاهرة مع المدينة الجديدة وإنشاء طريق مرصوف بالقطران منتظم، وضمان وسائل النقل، وإعداد خطة المدينة فى صورة فنية وتأسيس الشوارع بمقياس واسع وإنشاء طرق مرصوفة بالقطران.

وبعد إتمام الأعمال الكهربائىة لكل الشوارع، وإقامة خطوط ترامواى كهربائى بتفرعاتها فى المدينة الجديدة بشكل يحيطها دائرياً، وافتتاح الصرف الصحى وتقسيم المياه المسالة، وتجديد الحدائق وزرع الأشجار^(١).

ويوضح خالد ضيا بعد ذلك الفوائد التى غنمتها تلك الشركة من وراء إنشاء هذه المباني التى آلت إليها بحكم أنها صاحبة الأرض.

وقد أقيمت المنازل الخاصة ذات الغرف الخمس أو الست الخاصة بالعائلات، والشقق الفخيمة المزخرفة بدرجة تصل إلى زخرفة الفنادق، وأنشئ

(١) يقول خالد ضيا: "مركزى قاهره ده بولنان بربلجقلى قومبانيه موقع مذكورى اراضى خاليه فيئاته يعنى هرفدانى برليزايه اولمق اوزره يكرمى كيلو مترو وسعتده اراضى صاتون ألوب بعد الاعمار اليوم مترو مربعتى برليزايه دن اوج ليرايه قدر مختلف فيئاتكوله صاتمقده در . بونك ايجونده اولاً قاهره نك خارجنده كائن اولجه ريدانيه واليوم عباسيه دنيلان موقعن اعتباراً الكترىقلى ترامواى خطلىرى تمديد وأبروجه منتظم برقطرائى شومه انشا اولنه رق قاهره ايله شهر جديريك خطوط مواصله، وسائط نقلية سى تأمين اولندقتنصكره فنى برصورتده شيرك بلانى احضار، وسطى بنجه طرفينى شومه اولمق اوزره غايت كينشى مقاييده جاده لرى تأسيس وقطرائلى شومه اوله رق بعد الانشا، يكى تأسيس اولنان شهرى الكترىقلى ترامواى خطى دائرا مادار احاطه ايده جك وجهله تفرعات انشانيه سى وهرجاده سنك الكترىقوله تتويراتى بعد الاتمام، مجارى مياهى كشاد، اساله ايديلان صوبى توزيع، بنجه لرى اعمار، اغاجلى زرع، طرحلى تأسيس وتزيين اولندقتنصكره مبانيك انشا انتة مباشرت اولتشنر" (مصور مصر خاطراتى، ص ١٣٤ و ١٣٥).

فندقان مزخرفان إلى أقصى حد، وفخيمان جدًا فقد أنشأنا بطراز رائع يشبه الأسلوب المعماري المعروف للسراي الحمراء الكائنة في الأندلس وكانت المباني الأخرى قد أقيمت^(١).

وبعد أن تم وضع أسس المدينة الجديدة بهذا الشكل من قبل الشركة التي قامت ببيع الأراضي الفضاء المتبقية إلى الراغبين في شرائها قطعة قطعة، قامت بتأجير المنازل الخاصة المقامة عليها.

ويفهم من ذلك أن هذه الفوائد قد أحدثت نتيجتين رائعتين:

أولاهما: استفادة صاحب المال من تزايد قيمة سعر الأراضي التي تقوم ببيعها.

أما الثانية: فقد استطاع أن يؤجر مساكن للعائلات الثرية بأسعار كبيرة.

وبنظرة مقارنة بين ما أحدثته تلك الشركة وما أحدثته الشركات التي تأسست في تركيا يتساءل خالد ضيا قائلاً^(٢):

"يا ترى تنجح الشركات التي ترمى إلى مسامعنا
أنها تأسست - والحمد لله - بالتدريج في تركيا والتي
رأينا رغبة معظمها في البقاء، إذا هي تشجعت بنموذج
مثل ذاك الذي حدث في مصر وبمقياس صغير، وغامرت
قليلاً بجرأة وقامت ببيع الأراضي الخالية التي تقع في
مناطق رائعة الجمال؟!"^(٣).

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٧.

آثار القاهرة فى كتابات الرحالة الأتراك:

(١) وصف الأهرام فى نصوص الرحالة الأتراك:

. لفتت أهرام الجيزة أنظار معظم الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حيث أفرد الكثيرون منهم أجزاء كبيرة لها فى كتب رحلاتهم. فقد ذكرها محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى" فتعرض فى حديثه عنها لسبب إنشائها وتاريخ بنائها قائلاً:

"من البديهي أن الأهرام كانت قد بُنيت لتكون مقابر، إذ إن قدماء المصريين يعتقدون فى حلول الأرواح حيث تتشكل الأجساد بأشكال الحيوانات أمثال الثور والكلب والخنفساء وبعض الطيور الأخرى، وبسبب أنهم يدعون أن النجوم والبروج لها تأثيراتها القدسية التى تتجلى بأشعتها على الحيوانات فكانوا يطلقون على معبوداتهم التى على هيئة ثور اسم «أيس» و«حوريس» وكانوا ينسبون إلى معبوداتهم هذه نجم الشعرى اليمانية وهى على شكل كلب يسمى «سوتى» أو «سوتيس» سادس آلهة الأسرة الأولى التى حكمت مصر، وقد اعتبر هذا النجم هو الحاكم المطلق. وكانت أسطح الأهرام الجنوبية قد بنيت بميل ثابت يقدر بنحو اثنتين وخمسين درجة ونصف تقريباً، بسبب أن خطوط الأشعة للكوكب المذكور تتساقط عمودياً على هذه الأسطح".

وكان يطلق كلمة "سوتي" على الملوك وهى من أسماء الأعلام فى الحروف الهيروغليفية ويفهم أن الرواية الأقرب إلى المنطق والخاصة بتاريخ بناء الأهرام أن يكون ذلك قبل أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمئة عام قبل الميلاد^(١).

وعن عدد العمال الذين قاموا ببنائها يقول محمد محسن:

"تعد أهرام الجيزة هى أكبر الأهرامات الموجودة فى مصر، والهرم الأكبر هو خوفو من الأسرة الرابعة (منفيس) والثانى خفرع والثالث منقرع، وقد بناها الفراعنة بشكل متناوب فى ثلاثين عامًا، وقد بلغ عدد من اشترك فى بنائها مئة ألف شخص".

ثم يختتم محمد محسن حديثه عن الأهرام بذكر محاولات الخليفة المأمون (وهو من الخلفاء العباسيين) فتح هذا الهرم الكبير، وفى النهاية تم فتح ثلثه بصعوبة عن طريق النار، وهى الفتحة الموجودة بحالتها الآن^(٢).

(١) يقول محمد محسن: "اشبههرملرك مقابر اولمق اوزره ياپملش اولد قلرى بنيبيدر، چونكه ارواح اعتقاندنه اولملريله اجساد اوزرنده اوكونز وكلب وضا وسائر بعض طيور وحيوانات اشعة لريله منجلى اولد قلرى نجوم وبروجك تأثيرات قدسية سماوية لرينه قاتل اولدقلردن اوكونز شكلنده كى معبود لرينه ابين وحورين يذكلرى گبى كويا خطنه مصريه بى ادارة اينن برنجى سلسله الابه نك التجيسى اولان سوتى ياخود سوتيس نام كوك شكلنده كى معبود لرينك اشبو شعراى يمانى يلديز ينه منسوب اولدينى وبويلديز حاكم مطلق عدا اولنوب طلو عيله برابر نيك فيضانه باشلايه رق غسرق بيله بهارك حلول ايتمكه اولمسنه مبنى كوكب مذكورك خطوط شعاعيه سى اهرامك جنوبى سطحلرى اوزرينه عمودا گلمسچون مذكور سطحلر بر ميل ثابت اوزرينه تقريبا اللى بگى بجق درجة ده بنا اولنمشدر. سوتى يعنى هيروغليف حروفنده اسماء اغلاكين اوله رق وملوكه اطلاق اينلمشدر. بونلرك تاريخ بناسى حقتنه اك زياده عقله قريب اولان روايت شعراى يمانينك عصرمزين حساب رجعى ايله گيذه گيذه هرملرك اوزرينه عمودا ضناسنك كاملا اصابت ايتديكى مرحك قديمك مصانف اولمى اقتضا اينن زماندركه بوده ارباب من ظرفنده عند الحساب ميلادون اوجيبك كورسنه اول اولدينى اكلا شلمقه در. (افريقا دليلى، ص ١٥٢).

(٢) محمد محسن: المصدر السابق ص ١٥٢.

أما محمد مهري فقد نقل كل الأفكار السابقة التي ذكرها محمد محسن بالحرف الواحد، وفي ما عدا ذلك فقد تحدث عن الأهرام الموجودة بمصر وأشار إلى أن عددها يتجاوز الستين، وهي ما بين صغير وكبير بجانب الجيل الذي يتعقب الضفة الغربية للنيل، فيوجد واحد في أبي رواش وأربعة في أبي صير وثمانية في سقارة وأربعة في دهنور واثنان في ذاتانية وواحد في ميدون واثنان في (بهمور) بجوار الفيوم ويشاهد بقاياها منهدمة^(١).

ومن الواضح في إشارته السابقة أنه لم يتعرض لأشكال هذه الأهرام بالشرح مما يوحى بأنه لم يقم بزيارتها.

أما عن أهرام الجيزة فقد اقتصر حديث محمد مهري^(٢) على الهرم الأكبر، حيث يقول عن سبب إنشائه بهذا الشكل وكذلك عدد حجراته:

"وترى المصناديق الرخامية التي تحتوى على
أجساد محنطة وهي توايت، داخل أكبر الأهرام الثلاثة
في الجيزة، التي يوجد ميل بنسبة ثابتة في أسطحها، وبين
الضلع الرابع لقاعدته الجهات الأربع، ويتضح أنه أقيم
من أجل أن يكون مقبرة بهدف ديني يتعلق باستنارتهم
للأجرام الفلكية السماوية. ويبين الأثر المطبوع للمرحوم
الفلكي محمود باشا الذي كان وزير معارف أسبق في
مصر سنة ١٠٦٢م، نتيجة الرصد الذي استغرق أربعة

(١) محمد مهري: سودان سياحته سي، ص ٦٥.

(٢) يفرّد محمد مهري في كتابه المترجم باللغة العربية أجزاء كبيرة في رحلته عن الأهرام، حيث يرتب حديثه عنها على ستة مباحث نقل فيها كل آراء من سبقه من الرحالة العرب والمعمّق قديماً وحديثاً. تحدث في المبحث الأول عن أسمائها ومأخذها (مصادرها) والثاني في من بنى الأهرام وتاريخ بنائها، والثالث في عدد الأهرام وممّ بنيت وكيف كان بناؤها، والمبحث الرابع في صفة الأهرام ومشتقاتها، والخامس في الفرض المقصود من بناء الأهرام والسادس في من تيجع على الأهرام وحاول فتحها أو أزال شيئاً منها وفي تاريخ ذلك.

أيام وليال، ذلك أنه عندما تصل نجوم شعراء اليماني
أقصى ارتفاع لها من تألق الكواكب الثابتة، فإن خطوط
أشعتها تضرب عمودياً على الأسطح الجنوبية للهرم.
ويقهم أن الكوكب المذكور من النجوم المقدسة وأن
الأهرام انبعث بناؤها على تلك الصورة بهدف الاستتارة
منها أيضاً^(١).

وينهى محمد مهري حديثه عن الهرم الأكبر بذكر قياس كل ضلع من
أضلاع القاعدة التحتانية لهذا الهرم، فهو يبلغ ٢٣١ متراً وعشرة سنتيمترات،
وعمق غطائه متر ونصف متر وارتفاعه بالكامل ١٤٦٠ متراً ونصف، وارتفاع
ميله أو ارتفاع جبهة مثلثاته ١٨٦ متراً ونصف، ومجموع الأضلاع الأربعة للقاعدة
المؤسدة ٩٣٠ متراً وأربعة وخمسون سنتيمتراً.

وتوجد في داخله ثلاث غرف: أولاها تحت الأرض ولم يدخلها أحد إلى الآن
لأن طريقها مغطى بالأحجار الرخامية الكبيرة، والثانية مثلها في سطحها تقريباً
وثالثتها يوجد بها مدخلان متشابهان، أحدهما من أجل دخول الهواء منها إلى اليمين
الذي يمر في مركزها، والآخر لنفاذ الهواء إلى الشمال.

(١) يقول محمد مهري: "جيزه ده كى اوج بيوك اهرامك اڠ بيوڠڠڠ قاعده سنڠ درت ضلعى جهات أربعة
ارائه وسطحلرنده ميلڠ برنسبت ثابتة اوزرينه بولنديڠى ودرورنده سوماكى صندقلرڠ أجساد
محنوطه بى محتوى تابوتلر ايجون اولديڠى گورولمكله بولنلرڠ استقارات اجراميه وسماويه مقصد
دينيسيله تربه اولمق اوزره ياپلنديڠى اڠلاشلوب حتى بيڠ الشمس ايكي سنه ميلاديه - سنه مصرده
اسبق معارف ناظرى اولان محمود باشا فلكى مرحومك درت گون درت گيجه ليتمش اولديڠى رصد
نتيجة سنى بين اثر مطبوعه نظراً كواكب ثابتة نڠ بارلاقلرندن شعراى يما نينك ارتفاع غايه سنه
وارنجه خطوط شعاعيه سى اهرامك جنوبى سطحلرنه عموداً چارمقده اوله رق گولمسى او عصمر
ده كوكب مذكورڠ نجوم مقسده دن واهرامڠ او صلورته بناسى ده اندن استتارده مقصدندن منبعث
بولنديڠى اڠلاشلمشدر." (سودان سياحتنامه سى، ص ٦٥).

وكذلك سدت هذه الحجرة بالأحجار الرخامية الكبيرة. وعند النزول قليلاً بالقرب من الحجرة الثانية يوجد قبر...^(١)، ثم يتوقف عن ذكر باقى كلامه مكتفياً بذكر رواية عن أحد علماء القبط ويدعى بايروس وهو أحد من كانوا فى معبد بجوار الأهرام سنة ٢٢٥هـ، ويستدل منها على أنه قد مر أربعة آلاف وثلاثمئة سنة منذ إنشائها^(٢).

أما جناب شهاب الدين، فقد بدأ حديثه عن الأهرام بوصف انطباعه حول رؤيته لها عن بعد فيقول: "تتضخم الأهرام الثلاثة التى تظهر وتختفى فى معظم الأحيان مثل أشباح سنجابية اللون، كل هرم منها يحيطه إطار من الرمال اللا نهائية بين أغصان رقيقة لأشجار الأقاسيا. تبدو حينذاك أسطح الأهرام ليست متساوية، بل على العكس فهى متعرجة وبها زوايا كثيرة، كأنها سلم ضخم مصنوع من صخور منفصلة من قاعدته حتى ذروته، درجاته واسعة وعريضة، ترتفع تجاه السماء بدرجة ارتفاع مائل مروع وغير منتظم، وعند رؤيتها من أماكن القاهرة المرتفعة، فإنها لا تستطيع أن تترك انطباعاً قوياً فى النفس، غير أنها تؤثر على جميع ملكات الحواس تأثيراً قوياً جداً عند رؤيتها على مقربة منها"^(٣).

حينئذٍ تتلقاه الأهرام بضخامتها، فنراه يصف انطباعه إزاءها بقوله:

"ثم تبرز تجاهكم الأهرام فجأة، وتبدو كأنها تسحق بضخامتها كل قوى التحمل وتبقى لكم السماء والمسافات والأفق، وكل شيء يظل مكوّناً من عظمة حجرية موشاة بالذهب بضياء الصباح تجاهكم، كأنه يؤلكم الجهود التى بذلتموها لإحاطة هذا الحجم بحوصلة

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٤٥.

خيالك، وبخاصة أن التفكير في عمر هذا الشبح الهندسي يبدو شيئاً محالاً عقلياً، وبالنظر إلى أحجام هياكل الأهرام، فهي مهيبه وذات معان مفيدة جداً وبالنظر إلى الذكريات التاريخية التي تستيقظ في الذهن، فهي مهمة ومحيرة؛ ألم تكن هذه الأعجوبة المشيدة التي وصلت إلى عنان السماء على شكل هندسي، هي في الواقع نقطة مركزية لجميع قيادات الحضارة المصرية؟ ألم تكن معظم الأحداث الجسيمة التي حدثت في تاريخ ما قبل القرنين تدور حول تلك النقطة المركزية؟^(٢).

ثم يتعجب جناب من فكرة تشييد هذا البناء الضخم وحشد هذه الصخور الجرانيتية العالية من أجل أن تكون فقط قبة لقبر فرعون، فهو يتساءل قائلاً:

"وأكوام هذه الأحجار العالية التي تطبق على أنفاس كل زائر مستنشق هواءً ثقيلاً من التعجب منذ الهولة الأولى، عندما يلاحظ أنها ليست شيئاً سوى قبة لقبر فرعون، فهي تظل أعلى وأرفع مقاماً، وأسمى منبعاً للفكر التحليلي سواء لمشيديه أو لمن قاموا ببنائه، كأنه مُعَمَّى معنوى؛ لماذا شيد؟ ولماذا انشغلوا به وحشدوا له هذه الصخور الجرانيتية؟ كل هذا مجهول، وجواب كل سؤال مبهم والإيضاح مستحيل"^(١).

(١) جناب شيايب الدين: المصدر السابق، ص ١٤٨ و ١٤٩.

(٢) يقول جناب شيايب الدين: كظاهرة أولاده هرزائري أغير برهواي تعجب ايجنده بوغان بويوكسك طاش بيغيني برفرو عناق قبه مزارندن باشقه برشي اولمديني دوشوفلنجه كرك بوني ياپديرانك، كرك باپاتلرك بتون ميلان روكي بر معماي معنوي كبي فكر تحليله قارشي كراتر وكردلکش قالبور نيچون ياپديرلمش، نيچون او غراشمشلا، بو غرائيت قايلاريني ييغمشلا؟ بتون مجهول، نا قابل ايضاح. هر سؤلك جوابي برخفاي سربسته (حج يولنده، ص ١٤٩).

وفى تصوير أدبى يقدم لنا جناب شهاب الدين صورة رائعة عن اتحاد كل من الصحراء والأهرام التى قاومت عبر الأزمان كل عوامل الهدم والتخريب فيقول:

”ويسحق هذا البناء المهيب الذى قارم منذ القدم
قبضة كل القوى المهاجمة والمخربة، روح الزائر بكل
المقاييس، وبالعكس فقد صارت لهذه الأكوام الجرانيتية
اليابسة العظيمة وسيلة للحياة، فالقفار القاحلة التى تظهر
كل شىء على هيئة نعش، قد اتخذت على العكس منها
شكلاً وإطاراً حياً ومناسباً جداً، فعندما تحدث الصحراء
والأهرام، تلكما القاحلتان تحقق عمر جمادى يحاول
الامتداد نحو الأبدية. وتستطيع الأكوام الحجرية حينذاك
أن تعيش فى الرمال تحت تأثير شمس هذه الديار المحرقة،
وقد أنقذها ارتفاع مواضع الأهرام من تراكم طبقات
النيل الطينية“^(١).

ويبدى جناب شهاب الدين استياءه من زحف البناء بالقرب من الأهرام، فهو يرى أنه ينبغى على هذه العجائب الدنيوية والأبنية المشهورة أن تبقى وحيدة شامخة هكذا بين خريز أمواج نهر النيل وسكون الصحراء البائدة، وأنه لا ينبغى أن تحاول الأبنية الجديدة الاقتراب منها، ولكن حماة الأبنية الجديدة الذين يتلفون جزءاً مهماً للإنسانية، يحطمون هذا الأثر الهام فقد شيد بالقرب منه فندق «مينا هاوس» وتشرب فيه الفتيات الشابات اليوم الشاي فى الساعة الخامسة، وتوجد مجموعة من ملاعب التنس المخضرة لمحبى أداء التمرينات العضلية.

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٥٢.

بل يذكر جناب أن شركة صناعية قدمت اقتراحاً بإنشاء خط ترامواى
معلق من قاعدة الأهرام حتى ذروته، ولكن الحمد لله أنه لم ينفذ.

وبعد ذلك يحكى لنا جناب حكاية صعوده إلى الهرم، وكيف أنه أجبر على
ذلك، فهو لم يكن فى الحقيقة من هواة تسلق هذه الصخور العالية، ولكنه غامر فى
الصعود، لأنه لم يستطع أن يتحمل نظرات الشفقة من أعين سائحتين كانتا تنظران
بإعجاب إلى صعود زوجيهما حتى قمة الهرم، وإن كان جناب فى النهاية يشير إلى
أن إحساسه بالعجز والنحافة هو الذى جعله يظن أنهما تنظران إليه تلك النظرة
وتفهمان أنه ليس رشيقيًا. على أى حال يوضح جناب عملية الصعود وما اعتراه
حينذاك من مشاعر وما أصابه من تعب فيقول:

"بعد الصعود إلى الهرم الأكبر أحد الأشياء التى
تجمع غرائب الدنيا دهشة وتعادل متعتها مع عذابها،
وإن أمكن المغامرة فى الصعود حتى الذروة فإن هناك
أشياء تنسى هذا الإمكان المخيف، ومن بينها الإرهاب،
حيث تتكسر جميع العظام، وتصل إلى درجة فرم جميع
اللحم"^(١).

ويشير جناب إلى مهمة حرس الأهرام بتعهدهم وظيفة صعود زائريه مقابل
مبلغ يتفق عليه، وهو عشرة قروش، حيث يشاور السائح رئيس القبيلة البدوية
المكونة من ثمانية أفراد، وعندما يقرر يأمر الشيخ اثنين من أفراد القبيلة ويظل
هذان الشخصان مسؤولين عن كل أمر. ويذكر جناب أن الشيخ قد رافقه باثنين
آخرين من البدو وانضم إليهما اثنان من العرب الوطنيين أيضاً، حيث يمسك
أحدهما إناء ماء أما الآخر فمهمته الإرشاد.

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٥٣.

ويشير جناب بعد أن يُفيض في وصفه لرحلة صعوده إلى الهرم بمساعدة البدو، إلى ارتفاع الهرم الأكبر الذي يبلغ مئة وسبعة وثلاثين متراً^(١).

ويوجز محمد عزت حديثه عن الأهرام بقوله: "إن الأهرام تبعث الحيرة والدهشة في العقول"^(٢).

وعند وصول عبد الغنى سنن بك إلى الأهرام، ومشاهدته لها من كثب، اتضح له فرق بين الصورة التي شاهدها في طوابع مصر البريدية، فالصورة التي يتزين بها طابع مصر يظهر فيها أبو الهول الكبير وخلفه الأهرام المنحوتة والمتلاصقة المتجاورة بدقة متناهية وانتظام للغاية، وكان عبد الغنى سنن بك يظن - على حد قوله - أنها قد حافظت على ذلك الانتظام حتى الآن، إلا أنه عندما شاهدها أدرك أنها شبيهة للصورة التي كانت تغالط العين على الرغم من تقليدها للحقيقة دائماً.

وهو يتساءل باستغراب: أين الأهرام التي تبدو في تلك الصور كأنها مستوية وجديدة وحديثة؟ فهي قد سميت حقيقة باسمها (فالهرم باللغة العربية يعنى الشيخ الهرم، يقولون أنت هرم بمعنى عجوز).

فقد برزت في أماكن كثيرة، الأحجام ذات الزوايا المجسمة والمنقوبة والمنحوتة مثل حوائط قلعة مرشقة بالمدافع.

وهو يستدرك ما قاله بتذكر أنه قد مر عليها ما يتجاوز أربعة آلاف سنة بقليل، وهي رغم ارتدائها ثوب الكهنة وتغضنها بتعاقب القرون المتوالية عليها، لن تتخلي عن إبراز مهابتها العظيمة للأعين^(٣).

(١) جناب شباب الدين: المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٢) محمد عزت: يكي أفريقيا، ص ٦٨.

(٣) يقول عبد الغنى سنن بك: "أشتهر أبو الهول بمتعاقبه نك، قرون متواليه نك، ضربه لريله خيربالانه خيربالانه، فلك قامجبلر يله دوكونله ثرمرده لشمس، كينه بر قيافته كيرمش اولان أهرام، اليوم أنظار اعتباره برمهايت محتشمه عرض ايتمكنن كرى قالمبور" (يمن يولنده، ص ٩٠).

ثم يذكر عبد الغنى سنى بك مقاييس الأهرام، التى يقدمها بأسماء أخرى فيقول عن الهرم الأكبر الذى أقامه خنوبس من فراعنة مصر: يبلغ ارتفاعه ١٣٧ مترًا، وجوانبه ٢٢٦ مترًا، وقاعدته ٥٢٦٠٠ متر مربع.

أما ارتفاع الهرم الذى شيده "كفرن" فيبلغ ١٣٦ مترًا، وارتفاع هرم مس رينوس ٦٢ مترًا.

وفى جملة مختصرة يشير إلى أن الأهرام قد أنشئت مغطاة بالأحجار الملساء وهو ما استنتجته بالنظر إلى داخل هذه الأهرام حيث تغطي الصخور أساسًا بهذا الشكل الأملس.

كما يذكر أنها مقابر خاصة بالأسر الحاكمة، وهى مجوفة القاع، وتوجد مواقع هذه الدوائر من المقابر فى عمق من قاعدة الهرم بنحو ٢٧ مترًا، ومن المدخل أربعون مترًا، والذى افتتحه المأمون الخليفة العباسى^(١).

ولا يسترسل عبد الغنى سنى بك كما فعل جناب شهاب الدين عند حديثه عن قيام بعض الأشخاص من القرويين بصعود الأهرام حتى قمته فى عشر دقائق مقابل بضعة قروش من المتفرجين واعتبر ذلك وسيلة للتسلية.

كما يعد عبد الغنى سنى بك هو الرحالة الثانى بعد خالد ضيا الذى ذكر رؤيته لأبى الهول حيث تجاهله الرحالة الآخرون ولم يشيروا إليه حتى من بعيد.

وعندما تهيأ لرؤية أبى الهول ركب الجمل بعد أن اتفق مع صاحبه على مبلغ أربعة قروش ذهبا وعودة، وقد استغرق الأمر عشر دقائق، ونزل بالقرب منه، وقد أبدى عبد الغنى إعجابه الشديد به، فجسده جسد أسد، ورأسه رأس امرأة، ولم يكن من حجر ذى قطعة واحدة مثل الذى رآه فى متحف مصر وفى

(١) عبد الغنى سنى بك: انمصدر السابق، ص ٩١.

الإسكندرية، وإنما كان مصنوعاً من الأحجار المصققة والمنحوت بعضها إلى بعض، وقد أصاب الخراب جسده بتأثير القرون.

وفى نهاية حديثه عن أبي الهول يذكر أن تاريخ إنشائه لم يكتشف بعد، وإن كانت قد وجدت الكتابات التي تشير إلى أن عمره من عمر الأهرام. فقد كان موجوداً بينما كان كفرن قد أمر ببناء هرمه، وكذلك يذكر أن معنى اسمه المييب المرعب، ويتجه وجهه إلى الشرق إلى مطلع الشمس، وإن كان مدفوناً تحت الرمال ثم تم رفعه فوق الرمال بسبب رؤية رآها طوتمس الرابع من الفراعنة^(١).

أما سليمان شكرى فيبدأ حديثه عن الأهرام بتقديم تعريف لها فيقول: "تعد الأهرام الواقعة بالقرب من فندق الجيزة من الآثار العتيقة، وعددها ثلاثة بعضها خلف بعض، أولها خوفو أو كيوبس من الأسرة الفرعونية التاسعة التي حكمت منذ اثنين وأربعين قرناً قبل الميلاد، وهذا الهرم هو مقبرته التي بناها، والثاني هو خافرا أو سنسوفيس سيدكيوبس، والثالث هو منكدرأ أو منشاور وقد شيد مقبرته. ويعتبر هؤلاء هم أول من أقاموا الأهرام في مصر"^(٢).

ويشير إلى أبي الهول بجملة مختصرة قائلاً: "يقع على مقربة من هذه الأهرام تمثال قديم هو أبو الهول الذي يطلق عليه أيضاً اسم سفتكس".

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٩٢، ص ٩٣.

(٢) يقول سليمان شكرى: "جيزه اوتلى قربنده واقع اهرامات، آثار عتيقة دندر بواهرام ملريكدىكرى أرق سنده لوج عند اولوپ برنجسيس ميلاد دن قرق ايكي عصر اقم حكمران طقوز نجى سلاله فرعونية دن كيوبس - ياخود خوفو - طرفنتن بنا ايلمه كندى مزارى در. ايكنجيس كيوبسك مخدومى سنسوفيس وياخود خافرا واوجنجيس منشاور ياخود منكدرأ طرفلرنتن كندى مزار لرى اوله رق يابدير لمشلردر". (سياحات كبرى، ص ٢٩٥).

ثم يذكر مقاييس الهرم الأكبر أنذى بناه كيوبس منذ ١٠٨٢ ق.م، فيقول إن ارتفاعه يبلغ ٤٨٠ قدمًا أى ١٥٠ مترًا، وكلما ارتفع البناء ضاق، وقد أقيم على ثلاث زوايا بالأحجار الجسيمة طولها أربعة أمتار وعرضها متران وسمكها متر ونصف ويشغل أراضى تسع بدايتها أحد عشر فدانا وتشمل ٧٧٤ قدمًا، وتنتهى قمتها بمساحة متر مربع، والأحد عشر فدانا هي ١٦ دونمًا ونصف دونم.

ثم يشير سليمان شكرى إلى أن عدد العمال والخبراء الذين اشتركوا فى بناء الهرم المذكور قد بلغ ١٠٠,٠٠٠ شخص يوميًا، وانتهوا منه فى عشرين عامًا وهو ما صرحت به التواريخ المصرية. أما الهرم الثانى فتبلغ مساحة قاعدته ٦٩٠ قدمًا مربعًا، وعلوه ٤٤٩ قدمًا. والهرم الثالث تبلغ مساحة قاعدته ٣٣٣ قدمًا، وعلوه ٢٠٣ أقدام.

أما خالد ضيا فقد أفرد جزءًا كبيرًا للأهرام فى رحلته، ذكر فيها كل التفاصيل الخاصة بها، والتى تدل على مدى تحرّيه الدقة فى تقديم صورة شاملة عن الأهرام، حتى إنه يصرح بأن الهدف الأساسى من زيارته لها هو إبعان النظر والتفكير عند مشاهدتها وعدم الاكتفاء بما تمنحه هذه الرؤية من ابتهاج مفرح وانتسراح داخلى، وكذلك كان هدفه أيضًا الخروج بنفسه بداية إلى تبة الأهرام متسلقًا درجاتها الحجرية، والدخول إلى الأهرام من المدخل الخاص والهبوط منه بعد أن يستخلص فكرة عن الموقع مدققًا وفاحصًا وناظرًا إلى ما حوله.

بالإضافة إلى أنه قدم لنا بانوراما شاملة عن الأهرام: تعريفها وأعدادها فى مصر ووصف دقيق للطريق المؤدى إليها، وهو فى ذلك يصور كل ما يمكن أن تلتقطه عيناه.

وفى تعريفه عن الأهرام نراه يقدم لنا أسماءها فى اللغات المختلفة، فيذكرها الأوربيون باسم "بيراميد" والعرب "بالأهرام" والأتراك باسم "تلال فرعون".

وهي تعد من الآثار القديمة والتاريخية القيمة جدًا، وهي أبنية حجرية شديدة بشكل هندسي خاص يعبر عنه باسم الأهرام التي يزداد الاقتناع الكامل بأنها قوية جدًا، حيث لا يمكن أن تكون قائمة منذ إنشائها وحتى اليوم دون أن يصيبها خلل في أساسها، وكأنه يظن أنها سوف تحافظ على متانتها إلى يوم القيامة. ولا شك أن هذه الركامات الحجرية العظيمة لم تقم على أرض جوفاء^(١).

وبعد أن ينوه خالد ضيا بازدياد قيمة هذا الأثر التاريخي وأهميته خصوصًا بعد أن تيسر قراءة الخطوط الهيروغليفية التي استعملها القدماء المصريون، وبعد أن صار عدد من الكتابات الحجرية في متناول اليد مع ظهور الاكتشافات الجديدة، فقد اتضحت حقائق الأحوال التاريخية للآثار الموجودة المتعلقة بالفراعنة، وبالتالي تزداد أهميتها...

بعد ذلك يذكر عدد الأهرام الموجودة بمصر، فيعدها بنحو تسعة وتسعين هرمًا، معظمها مبنًى على سلسلة الجبال التي تمتد موازية للنيل وبعض منها على الشاطئ الغربي لنهر النيل^(٢).

وعند وصول خالد ضيا إلى الأهرام، بهرته عظمتها وضخامتها، حتى إنه يصرح بعجزه عن التعبير عما يجيش بداخله من أحاسيس تجاه رؤيته لها، كما أنه لم يكن يستطيع أن يتخيل ولو بدرجة واحد من عشرة ولا واحد في المئة، ضخامة الأهرام الحقيقية، وهو يقر ويسلم بأنه أمام خارقة تاريخية طوعًا أو كرهاً، مقدراً الضخامة الحقيقية لمدى روعة إنشائها، ولذلك وبسبب عظمتها وأهميتها التي احتلتها نتيجة قدم بنائها، فإنه أفرد للتعريف بها ووصفها العديد من الصفحات فوصفها وصفاً دقيقاً يليق بمثل هذه المباني العظيمة الشأن، والتي ما دامت باقية فسوف تحافظ مصر أيضاً على قيمة حاضرها التاريخي وأهميته^(٣).

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتي، ص ٧.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٢.

(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٤.

وفى شرحه عن كيفية بناء الأهرام يذكر خالد ضيا أنها أثر تاريخى بنى فوق قطعة صخر سوداء مستوية صلدة، وهى تمثل قطعة من جبل اصطناعى. ثم يستفيض فى حديثه عن قيمتها التاريخية موضحاً عدم إمكانية معرفة كيفية وضع قطعة الصخور الضخمة المرتبة بعضها فوق بعض بانتظام معمارى، وكذلك فإن اكتشاف مفتاح قراءة الخط الهيروغليفى من قبل ضابط فرنسى فى قلعة رشيد سنة ١٢١٤ هـ يمثل أيضاً قيمة عظيمة من الناحية التاريخية، وقد تم قراءة الكتابة الحجرية على ثلاثة أوجه تحوى نفس المعنى والتعبير، أولها الهيروغليفيه التى استعملها القدماء المصريون، والثانى الديموطيقية التى استعملها الفنيقيون وقد اقتبسوها من الخط الهيروغليفى، والثالث اليونانية^(١).

ومما تقدم نلاحظ أن خالد ضيا لم يكن راحلاً متميزاً فحسب، ولكنه كان قارئاً ممتازاً ملماً بمعظم ما كتب عن الأهرام. كما كان صاحب نظرة خاصة، لم يكتفِ بما قرأه عنها من قبل، ولكنه حرص خلال زيارته للأهرام أن لا ينظر إليها بشيء من السطحية مطلقاً، ولذلك فقد جمع فى زيارته بين مشاهدته الفاحصة للأهرام من الخارج والصعود إلى قممها، ليس هذا فحسب، بل قام أيضاً بالولوج إلى داخلها، بحثاً عن أسرارها التاريخية.

وعلى النقيض من معظم الرحالة الأتراك - إن لم يكن جميعهم - يهتم خالد ضيا بالحديث عن أبى الهول، وبنفس أسلوبه السابق فى شرح ووصف المنطقة ككل، يقول:

(١) يذكر خالد ضيا معلومة جيدة هى أن طريقة قراءة وتلفظ مخارج الحروف الهيروغليفيه تتشابه مع اللغة القبطية المستعملة اليوم فى مصر، ولم يكتفِ خالد ضيا بذلك بل إنه أورد فى كتابه أيضاً الأبجدية الهيروغليفيه، وكيفية قراءتها بالحروف العربية والأوربية، انظر: مصر خاطراتى، ص ١٨ و ١٩.

"وفي زيارتنا الأولى قمنا بالتجول أولاً في منطقة الأهرام، وبعد أن شاهدنا صورها التي يعرضها محل تصوير متجول بجوار الأهرام، وشاهدنا أيضاً القصر الذى يروى أن الخديو إسماعيل باشا قد بناه في الزاوية التى تنظر إلى سهل التل الذى بنى عليه الأهرام، قصدنا مباشرة جهة تمثال أبى الهول مترجلين على أرض رملية تعوق السير والحركة، متجهين ناحية الجنوب من بين أهرام صغيرة خربة ناحية اليمين، ومن جانب أكبر الأهرام. وعلى الرغم من أن الأهرام بنيت على تبة فإنه يصادف في وسطها ميل يشكل وادياً يمتد تجاه سهل تمثال أبى الهول^(١).

ثم يصفه قائلاً: "هذا التمثال الذى أطلق عليه العرب اسم أبى الهول والأوربيون سفنكس، هو تمثال رأسه إنسان وجسده أسد، ظهر منحوتاً من قطعة صخر واحدة، ويشبه رأسه بالإنسان إشارة إلى العقل، وجسده بالأسد إشارة إلى القوة^(٢). وهو يقع جزئياً شرق الأهرام أو الجنوب الشرقى منها.

ويقدم لنا خالد ضيا مقياس أبى الهول، حيث يبلغ طوله ١٩,٩٧ متر وأنفه ٠,٧٩ متر وذراعه ١,٨٠ متر وفمه ٢,٣٢ متر، ووجهه يتجه ناحية الشرق، وقد أفسد الزمان وجه التمثال، ولم يستطع البقاء محفوظاً من تخريب الزمان.

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢١.

(٢) يقول خالد ضيا: "عربلرك أبو الهول وفرنكلرك اسفنكس دينكلركى بوهيكل يكباره برقيبا پزچه سننن يونتييله رق ميدانه گلمش باشى انسان ووجودى ارسلان رسمننن بر هيكلدر. باشك انسان مشايه عقله ووجودك ارسلانه تشيبينى قوته اشارت اولمق" (مصور مصر خاطراتى، ص ٢١ و ٢٢).

كما تحدث خالد ضيا عن المعبد القائم بجوار أبى الهول، الذى ظهر عن طريق الحفر، ويشيد خالد ضيا بمدى مهارة ودقة تسوية أعمدة المعبد ونحتها وحوائط المعبد المغطاة بالرخام الصوماكى الأبيض، وأرضيته المغطاة بالرخام الصوماكى الأحمر طولاً وعرضاً والمشيدة باعتناء خاص، حيث تظهر الأحجار التى يبلغ طولها ثلاثة أمتار أو ثلاثة أمتار ونصفاً، وعرضها متران بكثرة فى حوائطه ودهاليزه وأسقفه.

ثم يقدم لنا خالد ضيا قبل صعوده إلى قمة الهرم الأكبر تمهيداً تاريخياً حول بناء الأهرام الثلاثة (خوفو وخفرع ومنكاورع) اعتمد فيه على رواية تيودور السباح والمؤرخ هيرودوت، وعن خوفو يتحدث خالد ضيا قائلاً:

"بعد خوفو صاحب أكبر الأهرام الموجودة بمصر، وهو الفرعون الأول من العائلة المنفيسية الرابعة التى حكمت ٢٨٤ سنة اعتباراً من سنة ٤٦٢١ ق.م. وفى الأصل فإن الآثار التى خدمت تاريخ مصر بدأت اعتباراً من هذه العائلة الحاكمة، وقد أعد هذا الشخص - وهو محارب للغاية - مكان الأهرام فى عشر سنوات، ولعمل الغرفة السفلية عشر سنوات أخرى، وعشرًا أخرى من أجل إتمام ما فوقها، فأتم العمل بها فى ثلاثين سنة ومئة وثلاثين يوماً^(١).

وعن كيفية بناء الأهرام يشير خالد ضيا إلى أنه قد اتضح من الآثار التى كُتب عليها بالهيروغليفية أنها قد شيدت عن طريق قبيلة من العبيد تسمى "بنى عون".

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٢.

ثم يتحدث عن خفرع الذى حل مكان أخيه بعد وفاته، وبنى هرمًا بجانب هرم خوفو إلا أن الأماهى - طبقًا لرواية تيودور السياح والمؤرخ هيرودوت - لم يقبلوا دفن جسديهما (خوفو وخفرع) لعدم حبهم لهما لظلمهما.

ويذكر خالد ضيا خلال حديثه عن منكاورع بانى أصغر الأهرام، الحادثة التى تعرضت لها السفينة التى كانت تحمل جسده المحنط متجهة إلى إنجلترا، إلا أنه تم إنقاذ الجسد وغطاء التابوت وهو الآن فى متحف لندن^(١).

كذلك أضاف خالد ضيا فقرة هامة صحيحة عن وجود العديد من الآثار القديمة مدفونة تحت بعض التلال وجوانب الجبال، وقد تنبأ بذلك حينما تجول ببصره عبر الأهرام المتعددة التى بنيت مجتمعة أحيانًا ومنفردة أحيانًا أخرى، وهو يستدل على ذلك بوجود الآثار الهامة التى اكتشفت تدريجيًا عن طريق الحفريات التى أجرتها جمعية ألمانية أمام الهرم الثانى حينذاك، ثم ما لبثت أن توقفت عمليات الحفر والتنقيب بعد ذلك.

ويسجل خالد ضيا رؤيته للأهرام من خلال صعوده إلى قمة الهرم الأكبر، حيث يرى أن عملية الصعود والهبوط تكون دائمًا من الجوانب، إذ تكون الأحجار أقل ارتفاعًا وأوسع عرضًا، ويحدد خالد ضيا الأجرة التى يحصل عليها البدو العرب مقابل إرشادهم بمئة بارة يوميًا فى ما عدا الآحاد.

وعند الوصول إلى القمة يبلغ الاتساع ستين أو سبعين مترًا مربعًا، وقد ارتكز عمود قائم على ثلاثة اتجاهات منتصبًا على شكل عمود الراية، وارتفاعه ثمانية أمتار ونصف تقريبًا، وحين النظر إليه من أسفل يظن أنه بطول ذراع^(٢)، وحينما يذكر لنا ظهور الأطفال وهم يقدمون للسياح المياه ثم حصولهم على البقشيش وهم فرحون، لم يجعل هذا مادة للسخرية أو التهكم كما فعل جناب شهاب الدين فى مثل هذا الموقف،

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٦، ٢٧.

ومن خلال رؤيته لقمة الهرم الثانى يشير إلى أن ما تهدم منه كان بالضرورة من أجل الاستفادة من أحجاره، بل إنه اكتسب هذا الحال لسقوط الأحجار المجلاة والمنظمة التى تشكل الأسطح الخارجية له. ثم يذكر بعد ذلك محاولة فتح المأمون الهرم أملاً فى العثور على كنز داخل الهرم الكبير، وهو يصف ذلك المدخل الذى تم فتحه عن طريق النار، وهو على ارتفاع ثلاثين متراً تقريباً من الأرض فى السطح الشمالى، حيث يوجد باب واحد بطول متر واحد وعرض متر واحد. ولم يكتفِ خالد ضيا بارتقائه الهرم وما لاقاه فى سبيل ذلك من مشقة وتعب، بل واصل مهمته فى البحث عن أسرارهِ، وبذلك يكون خالد ضيا هو الرحالة الوحيد الذى أعطى لنا معلومات دقيقة عما رآه داخل الهرم، وهو يشير فى البداية إلى ضرورة ارتداء ملابس ذات طبقة واحدة لتسهيل عملية الولوج إلى الهرم، ثم يذكر ضرورة وجود المرشدين أيضاً، ثم يصف لنا كيفية الدخول إليه قائلاً:

"عند الدخول من المدخل، وعلى الرغم من ظهور بعض آثار الأقدام المطبوعة، التى ظهرت متأكلة من كثرة المرور عليها، والمصنوعة من الرخام الصوماكى الأحمر أو الأبيض الضخم جداً، والمنحوت بشكل منتظم جداً وبارتفاع وعرض متر واحد، فإنه يتم الدخول بشكل إمساك أيدى المرشدين من الخلف ومن الأمام والتزحلق قعوداً من الطريق أو الجرى مثل ميزان منتظم حيث لا توجد بها أماكن يمكن الإمساك بها فى حوائطه"^(١).

(١) يقول خالد ضيا: "مدخلتن گیرلنکده! ... بر متر وعرض وارتفاعنده بڭ منتظم صورتده تراش ایدیلرک اعمال ایدلمش غایت جمیم بیاض ویاقرمزى صوماکیلر دن معمول وکثرت مرور وعبور دن زمینى اشینمش قیاغان برحاله گلمش، ایاق باصه جق بعض ایزلر پیداولمشده ده دیوار لرنده طوتونه جق استاد محللری اولمیان منتظم بر اولوق گبی مجرا وباخود یولدن قعودا قایمن، اوگده وأرقه ده بولنان دلیللرک اللرنن طومتق صورتيله ایچرو گیریلور" (مصور مصر خاطراتى، ص ٢٩ و ٣٠).

ويشير إلى أنه طبقاً لوضع الهرم قبل سقوط الأحجار التي تشكل أسطح الهرم الخارجية، فإنه يرى أعطيته مثل رؤوس المسامير الضخمة المصنوعة من النحاس والحديد في الأماكن التي صادفت زواياها فوق الصخرة، يعنى أنهم ربطوا الصخرة التي يظن أنها سطح الأرض بالطبقات الأسفل منها، ثم يضيف قائلاً:

"داخل الهرم ظلام حالك. وعلى الرغم من عدم رؤية أى نافذة تبعث بضائها إلى أى مكان قط، أو منفذ أو منور يجدد الهواء، فإنه من المؤكد أن الهواء يجرى في داخله من خلال الثقوب الصغيرة التي في حوائط الغرف الموجودة به".

وجميع الطرق التي تتشعب وتطول بصور مختلفة اعتباراً من المدخل، توجد في ميل ٤٥°، ويكون الصعود والهبوط من أجل الانتهاء إلى مركز الهرم، وعند النزول حتى ٤٥° أو ٥٠ مترًا تقريباً من هذا الطريق الذى يميل بدرجة ٥٤° يظهر حائط مصنوع من الرخام الصوماكى المخلوط، حتى إنه يظن أنه قطعة واحدة.

وفى هذه النقطة يوجد ارتفاع يستطيع المرء فيه الوقوف على القدم، وهناك سلالم باتساع مترين. وعلى الرغم من وجود بئر مفتوحة مثل النافذة فى ناحية أسفل الحائط الكائن ناحية الميزان الذى دخلناه، فإنه لا يمكن الهبوط بداخلها لأنها مغلقة بقضبان حديدية محكمة^(١).

ولم يسلم خالد ضيا بكلام المرشدين حول هذه البئر حيث يقولون إن عمقها يصل إلى مئة متر، بل إنه يرى ضرورة أن تكون مدخلاً يهبط إلى الغرف الموجودة تحت الأرض، طبقاً لما ظهر من آثار فى الأهرام، وحينما أشعل

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٩ و ٣٠.

المرشدون الشمع، استطاع خالد ضيا رؤية أول مدخل فُتح بالتفجير عن طريق النار، فقد ظهر منهجماً بشكل غير منتظم، ومتسعاً جزئياً، ودائماً يميل من الأعلى إلى اليمين بمقدار متر واحد.

وكذلك يمكن الخروج من هنا عن طريق الترحلق ناحية الشمال بارتفاع مترين أو مترين ونصف تقريباً.

وهناك مدخل آخر يتم الدخول إليه عبر طريق صاعد مغطى بالرخام الصوماكى الضخم وهو مكون من الصخور المقطعة مثل الميزاب ويميل بمقدار ٥٤٥°، وطبقاً لهذا المدخل فإن الأشخاص ذوى القامات المتوسطة لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم تماماً على الرغم من أنه واسع إلى حد كبير ومرتفع فى جزء ما، ويعد الطريق الثانى هذا مخيفاً بالنسبة إلى الطريق الأول، ففي الطريق الأول ينير الضياء المنبعث من الخارج إلى المدخل جزءاً من الممر، إلا أن الطريق الثانى يخيم عليه الظلام المطبق. وعلى الرغم من ذلك فقد صعد فيه خالد ضيا برفقة المرشدين وهم بأقدام حافية، وعلى ضوء الشمعة المتخافت بدأت تظهر الأسقف الرخامية الضخمة، وقد لاقى فى سبيل ذلك أشد المعاناة، فقد تحمل الصعود منحنيًا بمقدار ٥٤٥°^(١) على طول الطريق الصاعد بمسافة أربعين أو خمسين متراً، بالإضافة إلى الحر الخانق وانعدام الرؤية نتيجة الظلام.

ومع وصوله إلى منتصف الطريق الذى بدأ يتسع بشكل عام، استطاع أن يتنفس مستريحاً بعض الشيء، وعلى الرغم من ضعف ضياء الشمعة الذى لم يكن يسمح برؤية السقف، فقد تمكن من رؤية المبنى، فقد كان مائلاً وموازيًا للطريق الذى صعد إليه بارتفاع عشرين متراً تقريباً، وظهر هيكل المبنى مائلاً ومرتفعاً بزاوية عمودية، يضيق فى داخله بنسبة معينة وقد وُضع بعضه متجاوزاً بعضاً

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣١.

بمقدار خمسة سنتيمترات بعد بنائه عمودياً، فهو مرتفع ارتفاع حائط رخام صوماكى ضخّم طويل، وقد لاحظ أيضاً حين الصعود إليه أنه يوجد مصب بئر باتساع متر واحد، وعلى هيئة نافذة قرب الحائط ناحية يمين الطريق، وقد بين المرشدون أنها تشبه تلك البئر التي رأوها فى الأسفل^(١).

وبعد توقف دقيقتين، استمر فى الصعود مرة أخرى، وتعقب طريقاً ضيقاً ينحسر بين السدود، وفى النهاية ومع وصوله إلى طريق أفقى ذى سقف منخفض وبعد خطوات عشر دخل إلى حجرة عرضها ستة أمتار وطولها عشرة وارتفاعها تقريباً ثمانية أمتار، وقد بنيت متناسقة للغاية فى كل ناحية منها، وهى من الجرانيت والرخام الصوماكى الأملس.

ولم يكن بها أى أثر للكتابة والرسم فى أى مكان قط، ولا نافذة أو منفذ يدخل ضوءاً أو هواءً بأى اتجاه على الإطلاق.

وقد انبهر خالد ضياء بضخامة الأسقف الداخلية، التى بنيت من الرخام الصوماكى، والتى تثير انبهار العقول^(٢).

ولم يكتفِ خالد ضياء برؤية هذه الحجرة فقط، وإنما أصر على رؤية الحجرات الأخرى، على الرغم من خطورة الصعود إليها وعدم رغبة المرشدين فى السير إليها، ومع إجبارهم على ذلك واصلوا الصعود بميل ٤٥° مرة أخرى، والسير بشكل منحرف، وقد بلغت به الدقة أنه اشترط قياس ما سوف يطؤون عليه من الأماكن. فبصعوده ناحية الشمال ظهر العديد من السدود التى تتسع بمقدار ٢٥ سم تقريباً والتى تزيد كلما ارتفعت. ويزداد ضيق الطريق مع كونه عمودياً، بالإضافة إلى انزلاق آثار الأقدام المطبوعة والظلام الحالك فى كل ناحية، واحتمال خطر

(١) خالد ضياء: المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢) خالد ضياء: المصدر السابق، ص ٣٦.

السقوط يَرِدُ في كل دقيقة، كل هذا يلقي المزيد من الأهمية لهذا الطريق، وعلى بُعد نحو عشرين خطوة ظهر طريق اتساعه متر واحد بسبب اتصال السدود، وبدأ الصعود يأخذ شكلاً مريخاً، وبعد الصعود بمسافة أربعين أو خمسين متراً، وصل إلى طريق أفقي، وبعد عشر خطوات ظهر ممر بطول وعرض متر واحد مثل مدخل الغرفة التي رآها قبل ذلك، ثم دخل غرفة أخرى بنفس الشكل وإن كانت متسعة قليلاً عنها، بالإضافة إلى أنه رأى في وسطها لحذاً منقوشاً من قطعة ضخمة من الرخام الأبيض الصوماكى، وهى ضخمة لدرجة أنه لا يمكن الخروج بها من المدخل. ويذكر أنه قد تم نقل بعض الحلقات الفضية والذهبية التى ظهرت فى أطراف وجسد المومياء التى استخرجت من داخل هذا اللحد وغطائه، وتوجد حفرتان قطرهما ١٥ و ٢٠ سم وسط أحد حوائط هذه الغرفة^(١)، ويستدل خالد ضيا على أن واحدة منهما يخرج منها الهواء، والأخرى يدخل فيها الهواء الصافى، إلا أنه لا يوجد أى أثر للضوء على الإطلاق.

ويخمن خالد ضيا وجود العديد من المومياوات فى كل لحد من اللحد الصخرية المتتالية من أعلى هذا المدخل، ذلك أنه استدلّ على ذلك من العشش الموجودة بالحائط والمتتالية من أعلى إلى أسفل ومن الأغصية التى كانت فوقها، فذكر أنها قبورهم.

ولم يكن طريق العودة بأقل خطورة من الصعود، ذلك أنه بعد أن أجبر خالد ضيا على العودة صارفاً النظر عن رؤية باقى الغرف نظراً إلى شدة الخطورة، لمس فى كل خطوة فى طريق عودته، خطر السقوط، واستحالة إنقاذ حياة من يقع، فلم يكن هناك أى متكأ يمكن الاستناد إليه بعد أن بدأ فى السير، فالطرق كلها منحدره.

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣٧.

وفى النهاية يتجسم أمامه الاصطدام بالصخرة ذات الرخام الجرانيتى الصوماكى الذى يسد الطريق فى نهاية الممرات، وكذلك التفكير فى العمق المجهول لنبع البئر المفتوحة فى نهايته، يجعله فى حالة رعب دائم، ومع ذلك واصل السير إلى المركز مسلماً نفسه لمهارة مرشديه، وما كاد يصل إلى المدخل الخارجى مع البدء فى الصعود من هناك حتى استراح قدر عشر دقائق مستشفاً هواءً صافياً وقد جلس على حجر جرانيتى يسمى "سلمة السلام".

وتدل مخاطرة خالد ضيا بالصعود إلى الهرم ودراسته من الناحية الخارجية وولوجه إلى داخل الهرم على مدى انبهاره بهذا الأثر وبعظمته وضخامته^(١).

وفى نهاية رحلته هذه، يقدم لنا خالد ضيا النتائج والتخمينات التى انطلقت فى مخيلته حول الغرف والممرات المختبئة فى داخل الهرم، فهو يشير إلى أن انحصار مخارج هذه الغرف فقط ناحية شمال المدخل يؤكد أن تكون هذه الغرف ومخارجها ومداخلها فى الأقسام الأخرى، وهو يقيس ما تم اكتشافه بالمصادفة لمدخل أحد الأهرامات الموجودة فى دهشور سنة ١٣١٢ عن طريق حفر بئر موجودة على بعد بضعة مئات من الأمتار من الأهرام، تم الدخول إليها من تحت الأهرام عن طريق المداخل الموجودة داخل البئر المذكورة.

(٢) وصف المساجد والمزارات فى نصوص الرحالة:

تعد المساجد والمزارات الأثرية من الأدلة المرئية الملموسة الخالدة التى تشهد أكثر من أى نتاج آخر من ثمار الحضارة الإسلامية العربية على أهمية التراث الذى قدمته هذه الحضارة فى النواحي الدينية والاجتماعية والعلمية والتعليمية والعمرانية والفنية.

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣٦.

والمساجد والمزارات فى القاهرة تمتاز بأنها أكثر عدداً وأعظم أهمية من نظائرها فى أى عاصمة من العواصم الإسلامية، وكذلك تمتاز بأن تواريخها تمتد فى حلقة متصلة من صدر الإسلام إلى الوقت الحاضر^(١).

ونظراً إلى صعوبة - بل استحالة - رؤية الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، لجوامع القاهرة الأربعمئة والتجول فيها - كما يقول جناب شهاب الدين - وبسبب أن تصويرها كل على حدة يحتاج إلى صبر كبير^(٢)، فقد اكتفوا برؤية المساجد الجامعة الهامة.

ولعل سبب اختيار هؤلاء الرحالة لهذه المساجد الجامعة يرجع إلى إبداعها المعماري والزخرفى القديم فضلاً عن قيمتها الأثرية العظيمة، والمعروف عن هذه المساجد أنها أعدت لصلاة الجمعة، أما المساجد التى تؤدي فيها الصلاة بصفة عامة والتى لم تعد لصلاة الجمعة فليس لها نظام معمارى خاص، ولا أحكام تخطيطية، ويصح أن تتخذ أى شكل مناسب من الأشكال.

من هذه المساجد التى يصورها هؤلاء الرحالة ما لم يتخلف منه غير آثار متناثرة من أعمدته وزخارفه وأصابه الإهمال والخراب، ومنها ما قاوم عاديات الزمان، وصمدت عمارته وزخارفه واحتفظ بمعظم عناصره.

ويعد جامع عمرو بن العاص وأحمد بن طولون من الجوامع التى حرص معظم الرحالة على زيارتها، وهذان المسجدان الجامعان العظيمان قد تخلفا عن القرون الثلاثة الأولى، أما جامع عمرو بن العاص فهو يمتاز عن سواه من سائر جوامع القطر المصرى بأنه الوحيد الذى عاصر جميع الحكومات التى قامت بمصر منذ الفتح العربى إلى الوقت الحاضر وشهد جميع التطورات التى حدثت خلال أكثر من ثلاثة عشر قرناً تغير فيها من حال إلى حال، فقد نشأ صغيراً متواضعاً ثم نما

(١) أحمد فكرى: مدخل إلى مساجد مصر ومزارعها، ج١، القاهرة سنة ١٩٦٧.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٠٣.

وكبر وازدهر حتى حاز لقب تاج الجوامع^(١)، وأخيراً شاخ وهرم حتى قارب الفناء، إلا أن شهرته التاريخية ما زالت ذائعة في الأقطار كافة، فلا يصل زائر إلى مصر حتى يبادر إلى زيارة هذا الجامع العتيق.

وعن أهمية هذا الجامع يتحدث خالد ضيا قائلاً:

"يعد جامع عمرو بن العاص الذي يجب الاهتمام بالمحافظة عليه، إذ إنه مدار شرف البلد، أول مسجد شريف أقامه عمرو بن العاصر في مدينة القسطنطينية التي تأسست كأول بلد إسلامي حين دخول مصر إلى الأيوبي الإسلامية"^(٢).

"يعد جامع عمرو من أقدم جوامع القاهرة، ويقع في القسم العتيق من المدينة وهذا الجامع القيم الذي تأسس منذ ثلاثة عشر قرناً هو خرابة اليوم ولكنه خرابة معمارية نفيسة"^(٣).

ثم يروى جناب القصة المعروفة عن اختيار عمرو بن العاص موضع القسطنطينية لإقامة الجامع فيقول:

"ويحكى المترجمون الذين يتفق معهم المؤرخون أن حضرة عمرو بن العاص في أثناء بحثه عن مكان مناسب لبناء هذا الجامع الشريف صادف المكان الذي وجدته

(١) أحمد فكري: المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٢) خالد ضيا: مصور مصر خاطراتي، ص ٦٣.

(٣) يقول جناب شهاب الدين: "جوامع قاهرة نكث اسكيسى شهرلك قسم قديمند كى "جامع عمرو" در. اون او ج عصردينيرى شايان بوجامع شريف بوگون برخرابه، فقط برنفسه معمارية خرابه سيند". (حج يولنده، ص ١٦٠ و ١٦١).

قطعة أرض موروثه لثيب يهودية، وأصررت هذه السيدة على الاحتفاظ بها وردت كل سعر وكل مكافأة، حينذاك قرر القائد الرجوع إلى الخليفة عمر الفاروق رضى الله عنه قبل اللجوء إلى الوسائل القهرية وأعمال السلب والنهب القاسية".

وفيفض جناب الحديث عن هذه القصة التى تنتهى بموافقة هذه السيدة التى تدعى قيسبة بنت مكتوم وإقامة أول مسجد فى الأراضى المصرية الإسلامية. أما خالد ضيا، فقد أوجز القول فى حديثه عن المراحل التى مر بها جامع عمرو منذ إنشائه حتى وقت رؤيته له فيقول:

"كان الجامع فى ما مضى قد أنشئ فى صورة عادية"^(١) على الرغم من أنه قد بنى وأنشئ تارة تجديداً وتارة أخرى توسيعاً فى عهود الخلفاء الأيوبيين والعباسيين وملوك الفاطميين والمماليك حتى وصل إلى الضخامة الموجود عليها الآن"^(٢).

ومن الناحية المعمارية لهذا الجامع، يتحدث جناب^(٣) عن أعمدته فقط نقلاً عن رواية المرشد فيقول:

(١) كانت مساحة جامع عمرو فى أول مرة ٥٠ ذراعاً مربعاً، وكان سقفه جريذاً وعمده من جذوع النخل، ثم توالى عليه زيادات كثيرة فى مختلف العصور، وحظى بالاهتمام والرعاية من الولاة والحكام الذين تناولوه بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف مساحته ست عشرة مرة (انظر: أحمد فكرى: المرجع السابق ص ٢٧٢).

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٤.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٦١.

"وعلى الرغم من أن جامع عمرو اليوم في حالة من الانهيار والسقوط قطعاً صغيرة، فإنه ليس عاجزاً عن إدخال التعجب والدهشة على روح الزائرين أيضاً؛ تحمل خمسون أو ستون عموداً من قطع الرخام السماقي أو الجرانيت القبة إلى الآن بكل عظمة وقد جُمعت هذه الأعمدة الجميلة التي بلغ عددها في ما مضى مئة وخمسين من المعابد القديمة، طبقاً لرواية المرشد، بل إنه قد أطلت الأعمدة القصيرة بتيجان أعمدة مختلفة، بسبب كونها ليست في مستوى ارتفاع واحد، ويرى اليوم قسم من تلك التيجان المنقوشة بين أنقاض الأعمدة المنهارة، وفي الداخل لا يوجد اليوم قنديل ولا حصير ولا سجادة، ويحس في كل شيء بحالة من البلى، إلا أن العمود الخاص الموجود جهة المحراب ما زال هو وعمودان في المدخل بنفس الحالة والجدّة^(١).

أما خالد ضيا فيقدم وصفاً أكثر دقة مما سبق فيقول:

"هذا الجامع الشريف هو جامع واسع سقفه مبني على خمسة صفوف من الأعمدة المرمر، وهي عبارة عن تسعة عشر عموداً في كل منها، ومفروش على أرضيته الملساء أحجار مقطعة منتظمة، ولا يوجد حائط في الجهة المقابلة لحائط القبلة. يوجد حول الجامع رمال في حالتها الطبيعية، ونخلتان وبعض من شجر السنط، وحوائطه مبنية على طراز عادي جداً، ومبيض بالجير، وعلى الرغم من أن المنبر مصنوع بأشكال منتظمة، من قطع خشبية صغيرة

(١) جناب شهاب الدين: المصنر السابق، ص ١٦٢.

يتشابه بعضها مع بعض بطراز عربي خاص، فإنه لا يمكن أن يعد ذا قيمة عالية، إذ إن هذا النوع من البناء قد كثر استعماله بوفرة في مصر، وعلى الرغم من أن جميع أعمدة الجامع من المرمر الأبيض فإن القريب جدًا منها من المنبر لونه غامق يختلف عن لون الأعمدة الأخرى، ومحاط بسياج حديدي محكم إلى أطرافه^(١).

ويذكر لنا خالد ضيا وكذلك محمد محسن^(٢) ميزة أخرى اشتهر بها جامع عمرو بن العاص، هي أنه اشتهر دون غيره بأنه الجامع الوحيد الذي كان الخلفاء والأمراء والملوك يصلون فيه الجمعة اليتيمة أي الجمعة الأخيرة في شهر رمضان. وهذه العادة استمرت حتى محمد علي باشا وأسرته من بعده إلى أن أبطلت سنة ١٩٥٢ فيقول:

"غير أن بُعد (أي الجامع) عن المدينة سبب في أن يحرم معظم المصلين من أداء الصلاة فيه، إلا أنه بسبب العادة الخديوية بإقامة صلاة الجمعة اليتيمة من شهر رمضان في هذا الجامع بمراسم تشريفية، فإنه يشرف

(١) يقول خالد ضيا: "بجامع شريف بهي أون طقوز ستونن عبارت بش صره مرمر ديرك اوزرينه بنا ايدلمش طاوانى دوز واخشاب، زمينه منتظم كمه طاش فرش اولمش واسع بر جامعدر، قبله ديوارنيك مقابل جيتنده ديوار اولميوب آچيقدرد. جامعك حويلسى حال طبيعده قوم اولسوب برايكسى خرما وبر قاچده اقسيا اغاجى واردر. ديوارلرى پك عاى بر طرزده ميني وبياض بادانه ليدر. منبر طرز مخصوص ده يابلمش ايسه ده مصرده بو طرز انشا هر نوع طوغرامه ايشلارنده مبنول اولديغچون پكده قيمتدار صايبيله ماز. جامعده كى ديركلرك كافه سى بياض مرمر اولديغى حالده منبره پك يقين اولان بردانه سى لونا ديكرارندن فرقللى اوله رق قوبو رنكليدر واطرافنه محكمجه تيمور پرمقلى چو يرلمشدر." (مصور مصر خاطراتى، ص ٧١).

(٢) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ٧٦.

البلدة المذكورة التي هي عبارة عن عدة منازل حقيرة،
وبضعة مصانع خربة للأواني الخزفية والمقام بها الجامع -
حضرة الخديو وقاضى قضاة مصر، والباشا المفوض
وهيئة الوزراء والوجهاء والأعيان مرة واحدة فقط في
السنة في اليوم المذكور قاصدين ذلك الجامع الشريف
بمراسم خاصة. وكان أخو الخديو محمد على باشا يرأس
نيابة عنه المراسم المذكورة بسبب وجود الخديو في
الإسكندرية في رمضان منذ سنة أو سنتين حسب
الموسم^(١).

ويلي جامع عمرو بن العاص في الأهمية والقدم جامع أحمد بن طولون^(٢)
كما يقول جناب، فيو أقدم جامع بعد جامع عمرو، ويعد أكبر جوامع القاهرة
المقدسة.

ويحرص معظم الرحالة أمثال جناب ومحمد مهري على ذكر القصة
المشيرة عن بنائه والهدف من إنشائه فيقول جناب^(٣) :

"وكان هدف مشيده هو تشييد شيء ضخم للغاية، غير قابل للانحيار وفُوضت
هذه الوظيفة لمعماري مسيحي^(٤) كان من ضمن المحبوسين، (وبعد أن أطلق سراح
المسجون خلع عليه بخلعة خاصة) منح مئة ألف دينار مقابل التكليف المبدئية،
وأوصى عند إنشائه هذا الجامع الذي لا مثيل له أن لا يكون هناك مادة قابلة

(١) خالك ضيا: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢) ابتداء أحمد بن طولون ببناء مسجده الجامع في سنة ثلاث وستين ومئتين.

(٣) يقول جناب شهاب الدين: "جامع عمرو بن صوكره الك اسكيسى "جامع طولون" در. أحمد بن طولونك
انشا ايثيريكى بوبناى مقسى جوامع قاهرة نك الك بويوكينر. (حج يولنده، ص ١٦٢).

(٤) ذكرت هذه القصة في كتاب المفريزى "خطط الجزء الثانى" نقلاً عن جامع السيرة الطولونية وهو أبو
محمد عبد الله البلقى مؤلف كتاب سيرة "أحمد بن طولون".

للاشتعال مطلقاً لا الخشب ولا الأعمدة، وأن يبنى من القرميد والجير فقط، وغير هذا لا يكون هناك أى أعمدة سوى عمودين ينصبان جهة المحراب فقط داخل الجامع الشريف. وقال ما يلي:

"إن أصاب الخراب ذات يوم كل المدينة بصورة شاملة إما بفيضان النيل وإما بحريق عام، ينبغي أن يظل دائماً الجامع الذى شيده أنا، وأرغب فى بناء مشيد على هذا الشكل"، وعلى هذا الأساس فقد قامت الدعامات فى المسجد جميعه مقام الأعمدة^(١).

ولم ينس الرحالة الأتراك الإشارة إلى أهم العناصر المعمارية التى تميز بها جامع بن طولون، وهى المنارة أو المئذنة لهذا الجامع التى تعد من أقدم المآذن المصرية، وهى ذات شكل فريد لا نظير له فى مصر. يشير خالد ضيا^(٢) إلى هذا الشكل الفريد والغريب الذى تتمتع به قائلاً:

"توجد سلام منارة الجامع الشريف الذى بناه
أحمد بن طولون فى مصر القديمة - وهو من ملوك
الجراكسة - فى الخارج، ومناراته تحتوى على زخرفة
أرابسك خارجياً بطراز يطلق عليه نفس الطراز تقريباً".

وكانت هناك رواية مشهورة حول كيفية بناء هذه المنارة حرص كل من خالد ضيا وجناب شهاب الدين^(٣) على ذكرها، حيث يقول أولهما:

"ويروى بخصوص هذه المنارة أن باني الجامع،
عُرف عنه عدم قيامه باللعب واللهو فى أى وقت من

(١) محمد مبرى: المصدر السابق، ص ٧٧.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٦٣.

حياته خلال جميع أفعاله وأحواله. وذات يوم اتخذ
الجالسون بالقرب منه فرصة انشغاله بقطعة ورق في يده
مستغرفاً، الفرصة لكي يحملوه على الاعتراف بانشغاله
باللهو. فسألوه عن سبب اشتغاله بهذه القطعة من الورق.

في الحال استجمع أمر نفسه، وقال: كنت أفكر
في أساس منارة الجامع الذي أقيمه، بأسلوب جديد،
لا يشبه المنارات الأخرى، وهو الموجود في التفسير
التالي.

واستدعى المعمار في الحال وأمره ببناء المنارة بهذا
الشكل الذي يراه في الرسم^(١).

ويروى محمد مهري استكمال أحمد بن طولون زخرفة المسجد وإنارته
فيقول: "ولما أتم بناء هيكل الجامع أخذ في زخرفته فبيضه وعلق فيه القناديل
الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على أفاريزه آيات من القرآن
الشريف لا يزال معظمها ظاهراً إلى هذا اليوم، وفرش الحصر وحمل إليه صناديق
المصاحف ونقل إليه القراء الفقهاء. ويقال إنه هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسه
وجعلها منفصلة برواق يحيط بالجامع، ويفصل المنارة عن صحن ثانٍ خارجي،
وقد هدم بعض هذه المنارة، إلا أن الناظر إليها لا يسعه إلا التعجب من عظمتها،
ويقال إن تجاه المنارة المذكورة الباب الكبير وجعل للجامع^(٢).

والمعروف أن المسجد أهمل إهمالاً شديداً في العصور الحديثة، وهذا ما
يؤكدّه خالد ضيا وجناب ومحمد مهري، يقول أولهم: "إن أمثال هذا الجامع الشريف
أيضاً في حالة من الخراب"^(٣).

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) محمد مهري: رحلة مصر والسودان، ص ٥١٠.

(٣) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٥.

أما جناب، فيمدنا بمعلومات عن هذا الجامع الذي قام بدور المدرسة خلال عصر إسماعيل، ثم لحقه الخراب وصار مأوى للمتسولين وقت زيارته له فيقول:

"الجامع الشريف اليوم مهجور خرب، من يدرى
ما هو الداعي الذي يكمن وراء تحول هذا البناء المتين إلى
مستشفى عسكري؟ ثم اتُخذ مدرسة للبنات خلال عهد
الخديو إسماعيل باشا المتوفى، واليوم صار جامع طولون
ملتقى للمتسولين، فالיום تحل الرسومات الرديئة الفظة
التي يخطها الأطفال المتسولون بقطع الفحم، محل الخطوط
الكوفية ذات الزينة الهادئة في الحوائط ذات الخطوط
الكوفية"^(١).

ويذكر محمد مهري^(٢) أن الحكومة قد استعملت الجامع مأوى للحجاج والفقراء
فيقول: "ومن يزُرُ هذا الجامع اليوم يَرُ خرابًا مهجورًا، وقد استعملته الحكومة مرارًا
منازل للحجاج والفقراء، فبنوا في قناطره فسدوها، وقد هدم بعض تلك القناطر
وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضأة ولا يزال أثر المنبر الخشبي باقيا وفي
جوار المنارة غرف يقال إنها كانت مصلّى أحمد بن طولون وذريته.

الجامع الأزهر:

سجل معظم الرحالة الأتراك رؤيتهم للجامع الأزهر، الذي يعد أول أثر
فاطمي بمصر، ابتناه جوهر الصقلي بأمر من المعز لدين الله الفاطمي ليكون

(١) يقول جناب شهاب الدين: "اليوم جامع شريف ده بوگون متروك وخرابدر: بوبناي متينى براره لق -
كيم بيلير هانكى احتياج اوزرينه خسته خانه عسكرى يه قلب ايتمشلر. دها صوكره متوفى اسماعيل
باشانك خنيويتى اثناسنده بر منرسه بنات خنمتى كوردرمشلر". (حج بولنده، ص ١٦٤).

(٢) محنت ميري: رحلة مصر والسودان، ص ٥١٠.

مسجدًا جامعًا للقاهرة الفاطمية ويقوم مقام الجامع الطولوني في القطائع وجامع عمرو بالفسطاط، ولهذا يعتبره محمد محسن من أقدم جوامع القاهرة بعد هذين الجامعين، وهو أكثرها اتساعًا ولذلك لُقّب بالجامع الكبير.

وعن تاريخ إنشائه يتحدث جناب شهاب الدين^(١) قائلاً:

"والجامع الشريف الذي رأيته في النهاية، هو الجامع الأزهر، وقد أنشأه من قبل قائد فاطمي (يقصد جوهر الصقلي) في جمادى الأول سنة ٣٥٩ هـ".

والمعروف أن هذا الجامع قد أصبح مدرسة للمذهب الشيعي وهو مذهب الفاطميين، ولهذا السبب - كما يقول محمد محسن^(٢) - أقام جوهر في الجامع المذكور بأمر الملك العزيز مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الأفق، وكان القصد الرئيسي من بناء هذا الجامع إقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في الدولة الإسلامية من ذلك العهد.

ويشرح محمد مهري^(٣) هذه القضية بالتفصيل قائلاً:

"كانت الشيعة قد قاست الأمرين تحت سلطة العباسيين من قتل ونفي، فلما تأتى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دولتها وأنشأت القاهرة معقلاً لجندها، والجامع الأزهر لتأييد مذهبها، لأن العامة لا تُحْكَم بمثل الدين. وكان المصريون يومئذ على مذهب الإمام الشافعي لأن هذا الإمام قضى أخريات أيامه بمصر ومات فيها وقرره معروف في ضواحي القاهرة. وكان

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢) محمد محسن: المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(٣) محمد مهري: رحلة مصر والسودان، ص ١١٤.

الفاطميون يعترفون بهذا المذهب أيضًا، وأما العباسيون فكانوا على مذهب أبي حنيفة، فتوافق الفاطميون والمصريون في المذهب فهان على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فقربوا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر أقطار العالم الإسلامي وأجروا عليهم الأرزاق وفرقوا فيهم الأموال، وكانت مجالسهم تعقد في الأزهر على عادة الفقهاء في ذلك العهد، فتزاحمت فيه الأقدام، وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بأبنية ينشئونها بجانبه ويوسعون دوره حتى أصبحت سعته الآن نحو ١٢٠٠٠ متر مربع، وكانت أقل من نصف ذلك، وتضاعفت أساطينه مرارًا وكان عددها يوم بنى ٧٦ أسطوانة متفرقة في أجزائه وصارت أبوابه تسعة^(١).

كانت أعطية الخليفة للفقهاء في أول الأمر على غير قياس أو ميقات. فلما أفضت الخلافة إلى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ هـ أمر وزيره يعقوب بن كلس أن يرتب للفقهاء أرزاقًا معينة، وأن يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع. وكانوا يأتون المسجد في بادئ الأمر لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة، فتخرجوا من القراءة إلى التعليم حتى أصبح الجامع مدرسة كبرى أكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والأمراء. ويقدر دخله السنوي اليوم بعشرين ألف جنيه^(٢).

(١) محمد مهري: المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) محمد مهري: المرجع السابق، ص ١١٥، كما يتحدث محمد مهري عن الإضافات التي أضيفت إلى الجامع الأزهر عبر العصور المختلفة، انظر الكتاب، ص ١١٦.

ويثنى معظم الرحالة على دور الأزهر وعظمته كأشهر جامعة إسلامية، بل إن خالد ضيا يشبهه بجامع الفاتح الشريف في إستانبول فيقول^(١):

"ونظرًا لانتحاذ هذا الجامع الشريف مقرًا يدرس فيه طلاب العلوم، كما هو الحال في جامع الفاتح الشريف بإستانبول، فقد أضفى عليه هذا التجمع لطلاب العلوم الذي يبلغ عشرة آلاف طالب يوميًا، مكانة خاصة بين المسلمين".

ويصفه جناب شهاب الدين مؤكدًا أهميته كأكبر مدرسة في مصر فيقول:

"يعد جامع الأزهر أكبر مدرسة في مصر، ومع أن زيارتنا للجامع الشريف صادفت وقت العطلة بسبب حلول رمضان، غير أنه يبلغ عدد طلاب العلوم هنا بعشرة آلاف طالب وفقًا للإحصائيات التي تجري كل عام"^(٢).

ولا يرى خالد ضيا أى اختلاف بينه وبين المساجد الأخرى من الناحية المعمارية، فهو مبنى على أعمدة ذات أصول معمارية عربية، ويكمن الاختلاف الوحيد في أنه يتميز باتساعه الرحيب داخليًا وخارجيًا.

كما أنه يشير إلى مسألتين مهمتين يختص بهما هذا الجامع فيقول:

(١) يقول خالد ضيا: "حالبوكه بو جامع شريف إستانبولك فاتح جامع شريفى گبی طلبه علومك محل تدرس ومقرتدریس اولمق، اطرافنده اولان مدرسة لرك وسطنده بولنمق حيثيله يومى اون بيك طلبه علومك اجتماعكا مى اولمش بو عبادتخانه يه بين الإسلام برقيمت مخصوصة بخش ايتمكه در" (مصور مصر خاطراتى، ص ٧٢).

(٢) جناب شهاب الدين: المصنر السابق، ص ١٦٣.

"ويلفت النظر في هذا الجامع الشريف نقطتان أساسيتان: أولاً أن الجزء الذي يعلو الشرفات في إحدى المنارات الثلاث قد بنى كأنه منارة مزدوجة، أما ثانيتهما فإنه بسبب أن ارتفاعه لا يتناسب مع السعة الداخلية له، فإن القسم الداخلى يصبح منخفضاً ومظلماً جزئياً"^(١).

وقد نبه جناب شهاب الدين إلى النقطة الأخيرة خلال زيارته للجامع فقال:

"ونوافذ الجامع الأزهر قليلة بالنسبة إلى مساحة الجامع السطحية التي تبلغ ثلاثة آلاف متر مربع تقريباً. وداخله ضيق ومظلم قياساً إلى سقفه الضيق، ولا سيما وهو لا يبدو مساعدًا على الإطلاق لإقامة عشرة آلاف من طلبة العلوم"^(٢).

وعلى الرغم من عدم اختلاف جامع الأزهر عن غيره من الناحية المعمارية، فإن معظم الرحالة الأتراك قد أثنوا على عمارته، فيصف جناب الجامع قائلاً:

"وعند الدخول من الباب الكبير جهة غرب الجامع الشريف، يبدو وكأنه ينفذ إلى سوق طويل؛ به الجزار وبائع الخضراوات والحلاق وبائع الدخان، وكلهم موجودون. وبعد عبور هذا المكان يلج الداخل إلى منطقة فناء الجامع، ثم إلى داخل الجامع الشريف،

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٦٤.

وهنا يتحول كأنه غابة من أعمدة من المرمر تبهر
الأبصار، فتحاول فتح مجارى الأعين من بين
عمودين^(١).

جامع السلطان حسن:

ومن الجوامع الهامة التى حازت إعجاب معظم الرحالة الأتراك جامع
السلطان حسن، فقد اتفقوا على وصفه بأنه من أجمل جوامع القاهرة وأكثرها إتقاناً،
يقول محمد مهري^(٢) :

"ومن آثاره (أبى الملك الناصر حسن) الباقية إلى
هذا العهد جامع فى الرملة مقابل قلعة الجبل فى القاهرة،
المعروف بجامع السلطان حسن، أو بجامع الحسنية وهو
من أجمل جوامع القاهرة وأكثرها إتقاناً واقتضى لبنائه
ثلاث سنوات أنفق عليه فى خلالها ما يساوى ستمئة جنيه
كل يوم، وقد جاء بالحجارة الكبيرة من أنقاض الأهرام
ونقش عليه الكتابات الكوفية والعربية فزادته رونقاً
وجالاً".

(١) يقول جناب شهاب الدين: "جامع شريفك غرب جيتته كى بويوك قابو دن كيريلنجه عادتسا اوزون
بريازار يرنيه چيقيليور: قصاب، سبزوانجى، بربر، توتونجى، هيسى موجود. بورانن كچيلد كنن
صوكره جامعك حوليسنه، دها صوكره اصل جامع شريف داخلنه گيريليور: بوراسى عادتسا مرممر
ستونلرنن يابيلش براورمان حالنده، گوز شائيربيور: ايكى ستون آره سننن برمجرى نظر اچمغه
چاليشيور" (حج يولنده، ص ١٦٦).

(٢) محمد مهري: رحلة مصر والسودان، ص ١٤٥.

وكذلك نجد جناب شهاب الدين^(١) يصفه بنفس الصفة السابقة فيقول:

"وإن كان جامع طولون أحد أهم جوامع القاهرة،
فإن جامع السلطان حسن هو أجملها".

أما خالد ضيا^(٢) فيقدم لنا وصفاً للجامع من الناحية المعمارية، وهو يرجع الطراز المعماري الذي بنى به هذا الجامع إلى زمن الملوك الجراكسة، مع أنه شيد في أواخر عهد المماليك البحرية ولا في عهد المماليك الجراكسة. يقول خالد ضيا:

"مع أن معمار الجوامع الخاصة بزمن الملوك
الجراكسة كان طرازاً عربياً أيضاً فإنها غالباً ما تتميز
بالقباب، ولم يكن لها أعمدة وأسقف خشبية، وكانت
هذه الجوامع تزين بشكل يومي بالهية، خصوصاً من
ناحية الارتفاع والاتساع. وانصبَّ اهتمامهم على
الزخرفة وإبراز المهارة الفنية الدقيقة لأغطية الأبواب
ونقوشها وسلاسل النوافذ ذات الثلاثة أو الأربعة
الطوابق والأبواب المرتفعة كبيرة الارتفاع كأنها ترتفع
من سطح الأرض حتى قمة البناء.

وبخاصة زجاج أعالي نوافذها الملون ذي
القيفساء المصنوعة من المصيص فهي تعد من الآثار
النفيسة والبيدية التي نتمنى حسن المحافظة على زخرفتها
وإعمارها. ومن أشهر الجوامع الشريفة التي تمتاز بهذا

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٦.

الشكل المعماري جامع السلطان حسن الواقع بجوار
القلعة الذي دُفن فيه السلطان حسن بن محمد الذي
توفي سنة ٦٦٣ هـ، في مقبرة بالقرب من الأثر^(١).

ويستطرد خالد ضيا في وصفه للجامع من الناحية الفنية والمعمارية قائلاً:

"وبسبب تأنيق زخرفته، فهو يعد من الآثار النفيسة
جداً، فمنيره ومحاربه مكتوب عليهما بالخط الكوفي
الجميل جداً ويزين حوائط الأقسام الداخلية. ومع أن
الباب أو النافذة الموجودة تجاه القبلة على شمال المنبر
بُنيت كمدخل مقبرة الجامع الأساسي، فإنها مغلقة اليوم.
وأغطية أو أجنحة الأبواب والنوافذ الموجودة خلف
سياج حديدي مزخرفة بشكل فني قيم، فهي مزينة بقطع
معدنية ذهبية منقوشة قيمة. ومن يزُر الجامع اليوم يره في
هيئة خاصة، فالزخرفات المعدنية المذكورة تعرف بأنها
نقوشات ذهبية وفضية وتغطي أمامها دائماً ستارة خاصة
مصنوعة من الجوخ الأخضر"^(٢).

(١) يقول خالد ضيا: "ملوك چراكسه زمانه مخصوص اولان جوامع دخی عرب طرز معمارینده ایسه ده
بوشکلرده داخلأ دیرک واخشاب سقف اولمبوب اکثری قیه لیدر. بونلر جامعلری توسیفاً نکل ارتقاعاً
برهیبیت وبر شکل مخصوص ویره رک تزیین ایلمشلردر. غایت یوکسک وعادتا سطح زمیندن تابنانک
ذروه سنه قدر کسب ارتقاع ایدن قبولرله اوج درت قات ینجره لرینک تیمورلری وقبولرک اوبسه
وقابللمه لرینک پک چوق صنایع دقیقه ابرازیله تزییننه اعتنالی و خاصة تبه ینجره لرینک الجیندن
یابیلان موزا یقلی مثلون جاملری الیوم أعمال وتعمیمی وموجود لرینک حسن محافظه سى عموم
معابد اسلامیه ایچون تمنی وارزو اینیله جک آثار نفیسه وبنیعه نندر. بو طرز واسلوب معماریده
اولان جوامع شریفه ننگ مشهورلری ٦٦٣ سالنده وفات ایدن سلطان حسن بن محمدک بنا و اتصالده
کی تریه ده مفتون اولینی قلعه جورنده کائن سلطان حسن جامعیندر" (مصور مصر خاطراتی، ص
٦٧ و ٦٨).

(٢) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٨.

ويسجل جناب شهاب الدين^(١) إعجابه بقبة الجامع ومنارته فيقول:

"تثير قبة هذا الجامع الشريف المهيبة - وهو في
ميدان رومية - ومنارته القوية ومناظر حوائطه الجميلة
ذات التيجان العالية، دقة النظر من الخارج أكثر، أما
داخله فهو أكثر جمالاً وإثارة للتعجب، ففي كل جوانب
الحوائط نحتت الآيات الجليلة بالخط الكوفي. لكن في
فخامة خارقة غير مألوفة وقد ملئت بالزهور في ضخامة
عجيبة بين الخطوط، ثم ينفذ من هنا إلى موضع المرقد.
ويستوقف النظر في هذا المكان دوار الاستغراق! تخيلوا
أنكم قد وجدتم أنفسكم تحت قبة ارتفاعها مئة متر
تخمينا، تتدلى حوائكم الأحجار المدورة على شكل
أقراص، والتي تبدو منهارة، وهي مشيدة بمهارة معمارية
فائقة، تتدلى من الحوائط على شكل ثريات، وأقام الحمام
بين نقوشه المعمارية عششه، وقد مالست تجاه الأرض،
وبدا أجمل جوامع القاهرة في حالة من الخراب تحت غبار
الإهمال أيضاً"^(٢).

(١) يقول جناب شهاب الدين: تصور اينكز كه على التخمين يوز متر وارتفاعه برقبه ألتنه بولنيورسكز، اطرافكزده ديوارلردن بويوك برقيارت معماريه ايله ساخته برسقوط حالنده گوسترلمش طاش كومجلى براوزبره سنيحات صورتنده صارقيور .. مع مافيه بوجامع بينظير ده ديكرلري گيى خرابه يوز طوتمش، نقوش معماريه آره سنده كوكرجينلر يووا يابمش، بتون اويمه لر يره ميل ايتمش، قاهره نك بواك گوزل جامعى ده غبار متروكيك ألتنه بر ديباجه خرابه حالنى ألمش... (حج يولنده، ص ١٦٥).

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٦٥.

ولكن مع حالته هذه فملاحم الشيخوخة هذه التى بدا عليها الجامع، لم تزده من وجهة نظر محمد مهرى إلا عظمة ووقاراً^(١).

ويسجل لنا عبد الغنى سنى بك عدم مقدرة على زيارة هذا الجامع، حيث كان يتم تجديده وترميمه حينذاك^(٢).

ويواصل كل من خالد ضيا ومحمد مهرى زيارتهما للجوامع التى بنيت فى زمن المماليك الجراكسة، فيسجل خالد ضيا رؤيته لجامع قايتباى قائلاً^(٣) :

"يعد جامع قائد باى أو قايتباى من أكثر الجوامع الرائعة من ناحية هبتها الخارجية، التى تم تشييدها فى زمن الملوك الجراكسة. ويروى أن المشار إليه قايتباى قد أنشأ حائطاً وقبة تدور حوله برؤيا (ويقصد رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم) مشيراً إلى الروضة المطهرة، خلال حكمه فى مصر، ولقب بالملك الأشرف سنة ٨٧٢ هـ. ويوجد فى قبره حجران من الرخام السماقى عليهما أثر قدم النبى صلى الله عليه وسلم".

ومن خلال زيارات معظم الرحالة الأتراك للمساجد التى يوجد فيها مشاهد آل البيت، نجد أنهم يركزون على ذكر ما يحيط بها من روايات تاريخية، مع إيجاز شديد فى وصفها من الناحية المعمارية والفنية.

فعن مسجد الإمام الحسين يسترسل محمد محسن^(٤) فى ذكر الروايات المتضاربة حول مقام رأس الحسين التى يقول بعضها إنه نقل إلى القاهرة ودفن

(١) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٧٦.

(٣) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٧.

(٤) محمد محسن: المرجع السابق، ص ١٤٣.

بها. والسبعض الآخر يقول إنه دفن في الشام مع جسده المبارك، ثم يذكر خالد ضيا^(١) الاحتمال الأقوى وهو أنه قد وضع في سرداب ذي قبة ألحقت بالقب من الجامع الشريف، وعن التجديدات التي أدخلت على المسجد يقول خالد ضيا:

"وقد زُين وتم تجديده وتوسيعه تبرُّكا من قِبَل
أشخاص كثيرين. ويتضح من الكتابة المدونة بخط جلي
على المحراب أن التجديد الأخير قد صادف زمن الخديو
المرحوم توفيق باشا، ويروى أن الخديو اللاحق قد جاء
إلى المقصورة المتصلة بالمقبرة المباركة والجامع الشريف
من أجل الزيارة في معظم الأحيان. ويؤكد ذلك أنه قد تم
فرشه باهتمام فائق".

ومن المعروف أن المشيد الحسيني قد أنشئ عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م في
العصر الفاطمي على رأس الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.
أما مسجد السيدة زينب بنت فاطمة رضي الله عنها، فقط تحدث عنه
خالد ضيا: "ومن الجوامع الأخرى جامع السيدة زينب بنت فاطمة رضي الله عنها
وقد دفنت فيه، وهو مبني على الطراز المعماري المصري، وقد تم بناؤه بشكل
نهائي سنة ١١٧٤ من قبل (قازطاغلي عبد الرحمن كتخدا) الذي وفق في عمل
الكثير من الأعمال الخيرية في مصر، إلا أنه بقي على حاله بسبب استيلاء فرنسا
على مصر في أثناء الشروع في أعمال ترميمه من قبل طنبورة جي عثمان بك
سنة ١٢١٣. وبعد إخراج الفرنسيين، وعلى الرغم من أن المشار إليه قد أمر

(١) خالد ضيا؛ المرجع السابق، ص ٦٧، ويعد كتاب محمد محسن من المصادر الهامة التي اعتمد عليها خالد ضيا.

بتجديده على حساب الحكومة العثمانية الجلييلة سردار أكرم يوسف ضيا باشا، فإنه لم يكن من الممكن الشروع فى إعمارہ.

وفى زمن ولاية خسرو باشا تم إعمارہ مع الزخرفات اللازمة فى أواسط ربيع الثانى سنة ١٢١٧ بالشروع فى توسيعه بمعرفة ذو الفقار كتخدا^(١).

ويبدى خالد إعجابه بأخر تجديد له فيقول:

"أما آخر تجديد له فقد أحدث الاعتناء بالزخرفة
والفرش بشكل يتلاءم مع البناء المشيد بأسلوب معمارى
جديد مقبول بمصر خلال فترة المرحوم الخديو السابق
توفيق باشا، أحدث هذا الاهتمام روحانية أثلجت
الصدور، وهو يعد مقام زيارة للخاصة والعامة"^(٢).

ومن الجوامع التى حرص خالد ضيا على زيارتها جامع الإمام الشافعى
حيث يصفه قائلا:

"ومن الجوامع المشهورة من ناحية طراز الإنشاء
وزخرفة المنارة والقبة خارجياً والحوائط داخلياً الجامع
الشريف المقام به القبر الشريف للإمام الشافعى"^(٣).

ومن المعروف أن هذه القبة قد شيدها السلطان الملك كامل محمد الأيوبي
عام ٦٠٨ هـ/ ١٢٢١م على ضريح الإمام الشافعى.

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) يقول خالد ضيا: "صوتك تميميرى ايسه خديو سابق توفيق، بلشا مرحوم زماننده خطه مصريه جه مقبول اولنان اسلوب جديد معمارى وجهله بنا اينلمش وبنا ايله متناسب اوله جق صورته تزيين، تلوين وتفريشنه اعتنا اولنمش اولينمنن جامع شريف مذكور زيارتگاه خواص وعولم حقيقه صدره انشراح ويره جك درجه ده روحانيتلى در" (مصور مصر خاطراتى، ص ٦٥).

(٣) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٧٠.

أما جامع محمد على فقد رآه خالد ضيا مشابهاً لجامع نور عثمانية، حيث يقول:

"وقد روعى في بنائه أن يناظر جامع نور عثمانية
تماماً، وأن يشبه نفس ضخامته، فضلاً عن زخرفته".

ثم يصف خالد في إيجاز زخرفة هذا الجامع قائلاً:

"وبالإضافة إلى تذهيب الممر والأجزاء الخشبية
وتلوينها، فقد كانت الهيئة العامة لحائط الجامع في
الداخل والخارج في شكل يخطف الأبصار، بسبب أنها
مصنوعة من الممر الأبيض المجزع"^(١).

ويسجل كل من خالد ضيا وعبد الغنى سنى بك^(٢) إعجابه بالقناديل
الكهربائية التي تم تركيبها في الجامع بدلاً من القناديل المشعلة بزييت الزيتون، التي
كان الأتراك لا يزالون يستخدمونها في جوامعهم. يقول خالد ضيا:

"ومع أن وسائل الضياء عبارة عن قناديل معلقة
مثل ما هو موجود في جامع نور عثمانية، فقد وضعت
مصابيح كهربائية داخل هذه القناديل في الأيام الأخيرة.
وقد كان تنوير شرفات المنارة والكتابات كهربائياً في كل
جامع أصلاً، ويعد طرازاً للتنوير به جمال في الحقيقة، من
المأمول تطبيقه على المساجد الإسلامية".

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) يروي عبد الغنى سنى بك أنه حينما أراد التحويل إلى ساحة مسجد محمد على الخارجية وجد جندياً إنجليزياً
واقفاً أمام نورية إنجليزية صغيرة بالقرب من الباب الخارجي لساحة المسجد. ثم عند دخوله إلى الباب
الداخلي لساحة طلب منه موظف أعطاه حذاء برباط أجرة دخول المسجد، وقد كتب على التذكرة لجنة حفظ
الأثار القديمة بتعريبه وترجمتها باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وقيمة التذكرة قرشان.

أما عبد الغنى سنى بك فيقول:

"وما أعجبنى أكثر هو وجود قناديل كهربائية
كثيرة جداً تبهر الأبصار، بدلاً من القناديل المشعلة بزيت
الزيتون الموجودة حالياً عندنا".

كما لاحظ عبد الغنى سنى بك أنه قد زين ما بين نوافذ الجامع الخارجية
بأشعار مدح للبانى "محمد على باشا" تحاكى "قصيدة البردة" المكتوبة بحروف
بارزة على المرمر أيضاً بين نوافذ الجامع الداخلية^(١).

ويصف عبد الغنى سنى بك مدخل الجامع وقبر محمد على وأعمدته الداخلية
ومناراته، وكذلك الساعة والفسقية فيقول:

"والجامع مزخرف إلى حد ما، وعند الدخول إليه
من ناحية الشمال، يوجد قبر محمد على باشا الذى أحيط
بمقبرة من قصص حديدى ضيق وعلى تابوته توجد كتابة
شعر تركى فى الجانب العلوى من المقبرة، والأعمدة
الداخلية من الجامع من رخام المرمر الذى يطلق عليه اسم
"أكباترا" وحوائطه الداخلية من هذا المرمر أيضاً، ومناراتها
الجامع جميلتان، وقد زاد من رونق الجامع وزخرفته الساعة
الكبيرة التى أهداها لوى فيليب ملك فرنسا إلى محمد على،
والفسقية المبنية على طراز لطيف جداً"^(٢).

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "الكثيرة خوسمه كيدن: بزده حالا موجود اولان زيتون ياغى قنديللى
يرينه بوراده غايت نظر ربا بيغلرجه الكترينق قنديلرينك قاتم اولماسى در.... جامك ايچ بنجره لرى
أرد لرى ينه مرمر اوزرينه چيقمه جك ايله يازلمش "قصيدة برده" ايله طيش بنجره لرينك أرد لرى ده
بانينسك (محمد على باشانك) منا يحنى حاكى اشعار ايله تزيين اينلشم" (يمن يولنده، ص ٦٧ و ٦٨).
(٢) عبد الغنى سنى بك: المرجع السابق، ص ٦٧.

ويصف خالد ضيا مقبرة محمد على بأنها مقبرة مزخرفة وفخمة، وقد أوصى محمد على بدفنه داخل هذا الجامع^(١).
ويسجل عبد الغنى سنّى بك قدوم الخديو إلى هذا الجامع مرتين أو ثلاث مرات في السنة لأداء صلاة الجمعة^(٢).

(٣) وصف متحف الآثار "متحف بولاق"

اهتم ثلاثة من الرحالة الأتراك بتقديم وصف شامل لمحتويات "متحف بولاق" وهم جناب شهاب الدين وخالد ضيا وعبد الغنى سنّى بك.

ويبدى أولهم إعجابه بذلك المبنى الجميل المقام على شاطئ النيل، ولكنه يأسف لضياح أغلب الكنوز القديمة وانتقالها إلى أوروبا، وذلك على الرغم من وجود نفائس عظيمة تجعل الإنسان ينسى خلالها كل الأفكار الجسيمة.

ويحدثنا جناب عن هذه النفائس، وهى عبارة عن هياكل بشرية أمر بدفنها ملوك العصور القديمة فى زاوية بعيدة من صحراء لا نهاية لها، كما يحوى هذا المتحف تماثيل حجرية ومعدنية وغير ذلك، إذ إنه يوجد تماثيل جميل صنع من الخشب، لم يكن من الممكن تحديد هويته، إلا أنه بسبب تشابهه بشيخ القرية، فقد أطلق عليه اسم شيخ البلد^(٣).

وعلى الرغم من تصريح جناب لعدم فهمه لعلم الآثار القديمة، فقد حرص على ذكر ما سمعه من المرشد، فيقول:

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) عبد الغنى سنّى بك: المرجع السابق، ص ٦٧.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٥.

"كانت توجد خواتم الملكة أحتوب التى عاشت قبل ثلاثين أو أربعين قرناً، وكذلك سلاسلها وسوارها وأقراطها وقلاداتها، وكلها من اللؤلؤ ومن الميناء المطلى ومن الذهب، ومطرزة برقة وجمال يصعب تقليده، وفى الحقيقة فقد كانت أشياء جميلة جداً تلك التى كانت تزين بها هذه المرأة قبل ميلاد الكليم. وفى ما عدا هذا، توجد التماثيل التى بقيت من عصور الأوهام والخرافات كانت تشغل مكانة مهمة جداً. ومن بينها ما هو مصنوع من الجرانيت والتماثيل الكبيرة مصنوعة من البرونز. وتوجد التماثيل الصغيرة الخضراء مثل الزمرد والزرقاء مثل الفيروز المصبوبة من ميناء رقيق، وتبدو فى ناحية السيدات المصريات الفرعونيات مع أمشاطهن وإبرهن وخواتمهن وفى ناحية معاطفهن. ومقامرات العصور القديمة مع الشطرنج، وتظهر فى ناحية جميع الآلات والأدوات مع عملات العصور السابقة وتوجد هنا وهناك تماثيل أعظم القرون الأولى بعضها قاعد والآخر واقف، وبعضها فى يديه بردية مليئة بالكتابات، وبعضهم من يضم يديه إلى صدره باحترام كأنه يصعد للراحة الأبدية، وبعضهم قدم رجله اليسرى بخطوة بطيئة، كأنه كان يريد الدخول إلى عالم الحياة من جديد"^(١).

(١) يقول جناب شهاب الدين: "وراده قرالجه "آح-حوتب" ك اوتوزقر قرق عصر اول باشايان بوقادينك يوزوكلرى، كوستكلرى، بيله زيكلرى، كويه لرى، كرد نلقلى وارمش، همسى ده اينجين، مينه دن، آلتوندىن يانلمش، ناقابل تقليد برقت و ظرافتله ايشلنمش، حقيقه يك كوزك شيلر. او قادين بونلر لسه ميلاد كليمن اول صولسليزمش ... بونلردن باشقه ادوار ظنون واياطلندن قالمه هياكل اصنام يك مهم برموقع اشغال اينديوردى، بونلر آره سنده غرانيتدن. طونجندن يانلمش بيوك هيكللر، رقيق مينه دن دوكلمش فيروزه گيى ماوى، زمرد گيى يشيك كوچك، صنملر واردي ... بريرده طراقلرى، ايكنه لرى، خاتملرى ايله اسكى نسوان مصريه، بريرده زارلرى، شطرنجلرى ايله ازمئه قديمه قمار بازلىرى، بريرده بتون آلات وادواتى ايله ادوار سابقه عمله سى كوروليوردى ... اوتسه ده بريرده اعظم قرون اولى هيكللرى كه بعضيلرى قيامده، بعضيلرينك السنده بازىلرله طولو برپاييروس، بعضيلرى حضور ابديته جييبورمش گيى الترينى حزمته كوكسفه قاووشدرمش، بعضيلرى برخطسوه سنگين ايله يگيدن عالم حياته گيرمك ليستيورمش گيى صول اياغنى ايلرى آتمش.." (حج يولنده، ص ١٣٥ و ١٣٦).

ويبدى جناب إعجابه الشديد بتمثالين مصنوعين من الحجر المصبوغ،
"فيهما فى ضخامة طبيعية، ويعود أحدهما إلى الأميرة نفرت والآخر إلى زوجها
أو أخيها الأمير أحتوب وقد اكتشفا مؤخرًا، وأخرجا على الرغم من أنهما صنعا
قبل سنة من الأهرامات العظيمة، والغريب أنه لم يظهر عليهما أى أثر للتلف
والخراب فى أطرافهما على الإطلاق. فقد كانا تامّين وجديدين كأنهما قد نُحِتَا
بالأُس، وكان يتجلى فى أعينهما المصنوعة من زوجى كرة بلورية شعاعات من
ضياء مدهش ومذهل كأنهما حقيقتان توحيان بمنظر حى خادع. ثم مومياءات
الفراعنة مع توابيت أولاد الفراعنة، وإن كانت هذه الآثار القديمة تبدو مجهولة
الهوية داخل التواءات لا نهاية لها، فإنها جديرة بالتعجب والدهشة. فبالى هذه
الدرجة كان صمودهم للعديد من مئات القرون".

وعلى الرغم من الإفادة التاريخية والدروس الأخلاقية التى استخلصها جناب
من مشاهدة هذه المناظر القديمة - كما يعلن فى رسالته - فإنه يذكر أن هذه
المناظر كانت جميعها متسخة فى محنطة وكذلك يحنط كل شىء معها فليست
نقوشهم وأجسادهم هى التى تحنط فقط، وإنما تحنط ألبستهم وأحذيتهم وطعامهم
وباروكاتهم واللحوم والخضراوات والفواكه، حفظوا كل هذا^(١).

ويحدد خالد ضياء موقع متحف الآثار الإسلامية والعربية أمام دائرة محافظة
القاهرة فى شارع محمد على وهو متحف مكون من ستة طوابق مع صالون فى
الطابق العلوى تحوى كل أنواع الخطوط الإسلامية التى اشتهرت فى كل العصور،
وبمدى خالد إعجابه الشديد بمدى الاعتناء بتذهيب كتابة القرآن الكريم وتزيينه ويشير
إلى تلك الخطوط بدءًا من الخط الكوفى ونهاية بالخط التركى حيث يشير إلى روعة
موقعه الفريد خصوصًا لدى الزائرين وقد بهرتهم رقة أسلوب تحريره وجماله وطريقته
زخرفته، ويقرر بعد أن يشاهد كل الخطوط الإسلامية أنه لم يكن هناك من يعتنى

(١) جناب شباب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٦.

بحسن الخط سوى الأتراك والإيرانيين كما أنه من المعترف به أنه لم يكن بين الخطوط الإسلامية ما يمكن أن يتفوق على الخطوط التركية والإيرانية.

ففى قسم الخطوط الإيرانية توجد آثار قيمة تشهد بحسن خطها، ومن بين ما رآه خالد ضيا كتاب فارسى ألفه رسام إيرانى يدعى مانى يتفوق حتى على رفائيل المشهور، الذى يعد أستاذًا عظيمًا لدى الإيرانيين. كما شاهد المسكوكات التى كانت متداولة فى مصر منذ دخولها الإسلام، كما يشير إلى وجود بعض الآثار الجلدة النادرة ونماذج لأصول التجليد، وهذا برهان جيد لمدى تطور صناعة التجليد منذ القدم، وهناك نماذج أخرى موجودة بكثرة فى المتاحف العثمانية بإستانبول^(١).

وقد علقت على الحوائط الأربعة لهذا الصالون صور مجسمة رسمت بالزيت لمحمد على وإبراهيم باشا والخديو إسماعيل وتوفيق وعباس وضعت داخل إطارات مكلفة فى قطع فخمة للغاية.

أما باقى أدوار المتحف فيجمل خالد ضيا فى وصف محتوياتها بأنها عبارة آثار إسلامية تشمل المحراب والمنبر والباب والمصنوعات الخشبية مثل النافذة والمشربية والأوانى النحاسية والأدوات المنزلية ومن المصنوعات الحديدية السيف وبعض الأسلحة المتبقية عن بعض الممالك وبعض الأوانى الزجاجية والتحف والأباريق^(٢).

أما عبد الغنى سنى بك فقد قدم صورة تفصيلية عن محتويات متحف الآثار القديمة المكون من طابقين، وهو مبنى ضخم، يرى بالطابق الأرضى التماثيل الضخمة والمهيبة وكل الآثار الثقيلة المصنوعة من الحجر والمرمر. فمثلاً رأى فى القاعة انوسطى تماثيل للفراعنة (نيتوقريس وأمه نوتيس) وتمثال رمسيس الثانى وهو مصنوع من الجرانيت الأحمر.

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٧٤ و ٧٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٧٦.

أما فى الطابق العلوى فىصرح عبد الغنى بأنه لم يكن أمامه سوى التجول والمشاهدة فقط وذلك لعدم استطاعته أن يفهم ما يراه.

وفى ذلك الطابق العلوى قسم لفت نظره توجد به مومياءوان لفرعون والدته، ولا تزالان على حالتهما، فالأسنان والشعر موجودان لم يفسد أى شىء على الإطلاق، وهما يرقدان فى لحديهما^(١).

أما محتويات الأقسام الأخرى فهى نماذج صغيرة لسفن وعساكر وزخارف ذهبية وفضية وصور على لوحات مومياءات أوان وأباريق، وتختلف الأنواع من أوان منزلية، ومقاعد سفرة للأكل من المرمر إلى تمساح وقرود وقطة وذئب ومومياءات الطيور والأسماك^(٢).

بعض نماذج الآثار المسيحية بالقاهرة:

الآثار المسيحية فى منطقة مصر القديمة:

وخلال وصف جناب شهاب الدين لشوارع مصر القديمة يشير إلى الأهمية الكبيرة التى تحتلها الكنيسة القديمة التى كان يقيم فى مخزنها العائلة المقدسة للمسيح عليه السلام فى فترة طويلة، تلك الأهمية التاريخية هى التى تجذب السائحين إليها، ونادرًا ما يعود الزوار الذين يفدون إلى القاهرة دون رؤيتها.

ويبدى جناب تعجبه من ادعاءات المترجمين بأن المسيح قد عمّد فى البئر الموجودة داخل تلك الكنيسة، على الرغم من أن الوثائق التاريخية تشير إلى أنه تم تعميد السيد المسيح فى نهر الأردن الموجود فى أرض فلسطين^(٣).

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٨١ و ٨٢.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨٠.

المطرية:

وبجوار مصر القديمة توجد قرية تسمى المطرية يقول عنها جناب:

"بدأت شهرتها بشجرة جميز كبيرة بما إذ إنه
- طبقاً لرواية الكتاب المقدس - حينما جاءت السيدة
مريم مع ابنها المسيح تخلصاً من تعقب اليهود استظلت
تحت شجرة الجميز تلك، وظلت فترة مختفية تحت ظلالها.
وتخلصت من قبضة هيرود ملك اليهود^(١). وتوجد هذه
الشجرة داخل حديقة منتجة لأشجار البلسم، وتزرع
الآن حول تلك الشجرة التاريخية زهور الميلاد الحارة
وهي غاية في الجمال"^(٢).

ويبدى جناب ومحمد مهري^(٢) تشككهما في أن تكون هذه الشجرة هي الملجأ
لعائلة المسيح، ويتساءل أولهما: هل قدر لهذه الشجرة أن تحيا ذلك العمر المديد
الذي يبلغ نحو ألفى سنة، أم أنها شجرة أخرى مغروسة في الأرض لنفس الجنس؟
كما يتعجب محمد مهري من قُسُ النصارى الذين يبالغون للزائرين بهذا
العمر الطويل لها الذي يخالف كل المعايير لعلم النبات، ولكن على الرغم من هذا
- كما يذكر جناب - فإنها تحظى باحترام خاص من السائحين الأجانب، فهم
يتكبدون المشاق والصعاب ليس من أجل شيء سوى رؤيتها، وينقل جناب على
لسان سائح أيرلندى قوله:

(٥) هيرود كان الملك الحاكم وقت ميلاد السيد المسيح عليه السلام وقد توفي سنة ٤ م.

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨١، ومحمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٨١.

"جئت من أيرلندا، وتكبدت المشاق والصعاب
من أجل هذه السياحة وكان الهدف من رحلتي عبارة عن
رؤية الشجرة الموجودة في المطرية. وإنني لا أشفق على
تعبي مطلقاً اليوم، إذ إنني سوف أستطيع أن أنقل غصناً
صغيراً من تلك الشجرة إلى بلدي، فهذا الغصن أعظم
قيمة من كل تكاليف رحلتي. وتبدو لي الطبيعة في مصر
قذرة، فالمبانى التاريخية مزعجة مملّة. أتيت لرؤية الشجرة
فقط ورأيتهما، وسوف أعود ممتوئاً وسعيداً".

ويوجد بالقرب من تلك الشجرة ينبوع مقدس يبجله السياح النصارى فى
المطرية، ويتدفق الماء الذى يقذف إلى الخارج بساقية الحديقة. ويشرب الزائرون
ويغسلون أيديهم ووجوههم. إذ يقال إن الثياب المباركة للمسيح قد غُسلت وصُفيت
بها هنا^(١).

وقد اختلفت نظرة الرحالة للمسلة المقامة فى هليوبوليس، وهى على بعد
خطوات من المطرية، فلا يبدى جناب شهاب الدين أى إعجاب أو حماس كبير
لرؤية هذا الأثر من قرب، بل اكتفى بتحية ذلك التذكّار من بعد وهو يؤكد فى أكثر
من موضع جهلة بعلم الآثار العتيقة، ومن هو فى مثل حالته سوف يقف فاغراً فاه
وجاهلاً أمام الأحجار القديمة، وفى اعتقاده التافه أنها نسيج عنكبوتى معمر مغطى
بأشكال هيروغليفية غريبة، وهى تبدو بلا معنى وقبيحة كأنها فاترة العاطفة
باردة^(٢).

(١) يقول جناب شهاب الدين: "خرستان سياحلرث مطريه ده حرملته تلتى ابتكلى شيلرن برى ده او
أعاج جوارنده كى بر أبازمه در، بو أبازمه نك بيلديكمز بر بوستان دولابله چيفاريلان صوي بوتحتة
اولوقن هر زانرك شرفنه برأز أقتديريلور، زيارتجيلر صوي ايجيورلر. بونكله اللرينى، بوزلرينى
بيقايورلر. چونكه جناب روح الليك مبارك چماشير لرى بوراده ييقاندينى مرويدر" (حج بولنده، ص
١٨٢).

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨٣.

أما محمد مهري فيذهب في رأيه عن هذه المسلة التي تخلفت من زمن الفراعنة إلى أنها تظهر حينذاك منافستها للمسلة المقامة في ميدان السلطان أحمد بإستانبول، حيث إنها تفوقها من حيث الارتفاع إلى الضعف تقريباً^(١).

أما خالد ضيا، فيصف المسلة بأنها من قطعة واحدة من الصوماك الأحمر القرمزي المكتوب عليه بالهيروغليفية، أما تلك التي أحضرت إلى إستانبول ونصبت في ميدان السلطان أحمد فقد أحضرت في زمن الرومانيين^(٢).

بدالإسكندرية:

جذبت الإسكندرية - كمدينة عريقة - أنظار الرحالة الأتراك، وشد أكثرهم أمر النظر والتحقيق في تاريخها وماضيها العريق. فقد كانت توجد بها مدينة تسمى "راقودة" منذ عهد الفراعنة، وعند استيلاء الإسكندر الأكبر على مصر سنة ٣٣٢ ق.م بناها باسمه في البرزخ الواقع بين بحيرة مريوط والبحر الأبيض، ونقل إليها مركز العاصمة بعد أن كان في ممفيس، وذلك بعد أن تم توسيعها وزخرفتها إلى أقصى حد، كما أحضر إليها أيضاً مسلات عديدة وباقي الآثار من أطلال المدن القديمة، هذا وقد تم نقل بعض هذه المسلات في الفترة الأخيرة إلى روما والقسطنطينية. وقد أسس فيها بطليموس بن لاغوس الأول (من ملوك البطالمة) دار الفنون التي كان يدرس فيها الإلهيات والفلسفة والرياضة والطب والطبيعة، كما أنشأ مكتبة عظيمة زخرت بالكثير من الكتب النادرة والنفايس العلمية^(٣)،

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٣) يقول محمد محسن: "ملوك بطالمة بن لاغوس أولك اوغلي بطليموس طرفنتن بوارده بردار الفنون تأسيس اولنه رق الهيئات وفلسفه ورياضيات وطب ايله طبيعيات تزييس اولنوردی. بورانن پڭ جوق اكابر وفحول يتشنيگي گي پڭ جوق كتب نادره ونفايس علميه بي جامع اولمق اوزره مشار اليه طرفنتن برده عظيم ومكلف برکتبخانه اتشا وگشاد ايدلمشیدی" (أفريقا دليلي، ص ٢٠٩)

بالإضافة إلى أنها خرّجت العديد من العظماء والفحول. ويعبر إلى ذاكرة جناب شهاب الدين كل الفلاسفة القدماء أرسطو وبطليموس والمعابد القديمة والمكتبات القديمة والفنون والشعوب القديمة. ولا ينسى كذلك ذكر أنطوان وكليوباترا، هذين العاشقين المشهورين، وقد أهداها أنطوان المكتبة التي أقام بالقرب منها عمود السورى.

والخلاصة أن الإسكندرية قد احتلت مركزاً عظيماً في عهد البطالمة، بسبب وجود دار الحكمة بها ومركزها التجارى والثقافى^(١).

وفى حديث محمد مهرى المستفيض عن المدن العديدة التى أطلق عليها اسم الإسكندرية يعتمد على العديد من المصادر العربية والأجنبية، حيث يقول إن أشهر هذه المدن هى تلك الموجودة بمصر وهى من أعظم المدن المصرية بعد القاهرة. وتقع على البحر المتوسط على مسافة ١١٢ ميلاً من القاهرة (٢٠٠ كيلومتر) إلى الشمال الغربى فى ٣١ درجة و ١١ دقيقة من العرض الشمالى و ٢٨ درجة من الطول الشرقى^(٢).

ويذكر جناب أن الإسكندر الأكبر قد بناها فى ذلك الموقع الممتاز على ساحل إفريقيا، من أجل إقامة مرساة وسط بين الهند واليونان فى الزمان القديم.

وكان الرومانيون القدماء يطلقون اسم "الساحل الأبيض" على الإسكندرية، وهى فى الواقع - كما رآها جناب - تبدو من بعد مثل خط أفقى منتظم بلون الرمل الأبيض^(٣).

ويحدد محمد مهرى الموقع القديم للإسكندرية حيث كانت تقع على لسان أرضى بين البحر وبحيرة مريوط وتبدو قمته المتجهة ناحية الشمال على هيئة جزيرة^(٤).

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٨.

(٢) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٣٨٥.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٥١.

(٤) محمد مهرى: مصر سودان سياحتهامه سى، ص ٣٨٦.

ويؤكد جناب ومحمد مهري أن هذه البلدة العتيقة التي تعاقب عليها اليونانيون ثم الرومانيون ثم المسلمون، وأخيراً انتقلت إلى يد العثمانيين العادلة، قد حافظت - على الرغم من تعاقب هذه الأزمنة - على حضارتها، وذلك لأهمية موقعها الجغرافي والسياسي، فعلى الرغم من التخريب الذي تعرضت له مع الأحداث المهمة التي مرت بها خلال ألفى عام منذ تاريخ بنائها وحتى ذلك العصر الحاضر، فقد استطاعت أن تحافظ على عمرانها حتى ذلك الوقت.

ولهذا السبب فقد احتل الحديث عن موقعها الهام مكانة بارزة في الكتب التاريخية والمؤلفات القديمة والصحف الحديثة^(*).

وعن أحياء الإسكندرية قديماً يذكر محمد مهري أنها كانت تنقسم إلى أربعة أحياء وشارعين واسعين، يمتد أحدهما من الشمال إلى الجنوب والآخر من الشرق إلى الغرب، وكانت الجهة الغربية مخصصة للعامة، وهم باسم راخوتيس، وكان هذا الحي يمتد حتى البحيرة من شاطئ مرفأ "أونوست" وبداخل راخوتيس يوجد المعبد المشهور "ساربيس" الذي خرب بأمر من الإمبراطور تيودور. وبجانب هذا المعبد المشهور كانت توجد المكتبة المعروفة التي أهداها مارك أنطوان إلى كيلوباترا.

والقسم الشرقي للكبراء وهو باسم "بروضوم". وكانت السرايات والمعابد الضخمة وآثار العمران الأخرى في قسمها الثاني. وكان فيها أيضاً "المزيوم" وهو بناء ضخم للمعارف والآداب والمكتبة الممتازة^(١).

ويطلق جناب على القسم الثاني اسم "ويهبون" التي لم يبق منها أي تذكار سوى عمودين حجرين، وهما في فرنسا وإنجلترا^(٢).

(*) كثر الحديث عن الإسكندرية ومكانتها وما بها من آثار في الصحف الصادرة في تلك الفترة، وخير مثال على هذا ما صدر من مقالات متعددة حول هذا الموضوع في جريئتي "ثروت فنون" و"خزينة فنون" وغيرهما من الصحف والمجلات.

(١) محمد مهري: مصر وسودان سياحتهما سي، ص ٣٨٦.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٨.

ويذكر محمد محسن أن الإسكندرية في عهد البطالمة والرومانيين كانت مدينة عظيمة بين الشرق والغرب وبلاد العجم والعرب، وكان يبلغ عدد سكانها نحو تسعمئة ألف نسمة، ويروى أن كرسى الحكم كان في الإسكندرية، ويؤكد محمد محسن صحة هذه الروايات وصدقها^(١)، ويتفق معه في الرأي محمد مهري حيث يوضح فقدان أثينا والبلاد اليونانية الأخرى أهميتها بعد وفاة الإسكندر، فأصبحت الإسكندرية مركزاً للحضارة اليونانية، وقد جمع فيها العلماء والحكماء من كل مكان بتشجيع البطالمة وحمائهم لهم. فكانت العلوم والفنون تنتشر من هناك إلى كل مكان في العالم^(٢).

ويذكر محمد عزت أن الإسكندرية كانت عاصمة مصر في عصر البطالمة، ويشير إلى أنها كانت مركزاً للعلوم والفنون أيضاً^(٣).

ولا ينسى هؤلاء الرحالة ذكر حال الإسكندرية في أثناء حكم العرب، فعندما فتح عمرو بن العاص هذه المدينة سنة ٢٠ هـ وصفها في رسالة كتبها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذكر فيها أن عدد أهلها يصل إلى ٤٠٠٠٠ يهودى وأن بها أربعة آلاف حمام، ويدل هذا على عظمة المدينة وكثرة أهلها. ولكن هبطت مكانة الإسكندرية إلى المرتبة الثانية خلال حكم العرب لها كما يذكر محمد مهري، ويروى أن تعداد سكانها بلغ ستمئة ألف نسمة خلال حكم مروان بن عبد العزيز، على الرغم من الدمار الذى لحق ببعض مناطقها، واستمر التدهور والانحطاط يلازمان الإسكندرية في عهد الجراكسة والمماليك وحتى عند الفتح العثماني كانت في حالة من التدهور، فقدت خلالها أهميتها التجارية إلى أن جاء عهد محمد علي باشا^(٤).

(١) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ٢٠٩.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٥١.

(٣) محمد عزت: يبحر أفريقيا، ص ٥٢.

(٤) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

وقبل الدخول إلى ما رواه بعض الرحالة عن عصر محمد على وإنجازاته في مدينة الإسكندرية، لا بد من الوقوف على رأى هؤلاء الرحالة فى ما نسب إلى القائد عمر بن العاص من إحراق مكتبة الإسكندرية، وهو ما نفاه كل من محمد محسن وجناب شهاب الدين، حيث يؤكد أولهما أن الحقيقة تظهر للعيان بديهياً عندما ينظر إليها بحياء مجرد من أغراض الروايات التاريخية المتعصبة، ولذلك نجد محمد محسن يبحث فى هذه القضية ويدرسها من الجوانب كافة، فيقول:

"أولاً: جاء جول سزار إلى الإسكندرية سنة ٤٧ ق.م مع عساكر الروم التى كانت فى صحبته وحاصرها، وطبقاً لما أظهرته الكتب التاريخية من تفاصيل، فقد ابتدر بتضييق الخناق على المدينة وما حولها، وفى أثناء الحصار أجبره المحاصرون وضيّقوا عليه فى مكان يقع بالقرب من المكتبة المذكورة، وهو فى حالة سيئة، فكانت وسيلة النجاة فى اضطرام النار فجأة فى جميع المنازل القريبة من محل وجوده، وأراد أن ينقذ نفسه من بين انتشار هشيم النار، وهكذا احترقت المكتبة المذكورة الموجودة بالقرب من المكان الذى اندلعت فيه هذه النار مع المنازل المشتعلة.

ثانياً: كانت محاصرة عمرو بن العاص والزبير للإسكندرية قد حدثت بعد ستمئة ميلادية، وتثبت الروايات التى تذكر التواريخ الخاصة بمحاصرة جول صدق هذه الحقيقة، بسبب وجود اختلاف فى ما يقرب من سبعة قرون بين الوقت الذى صادف فيه محاصرة المسلمين لها وتاريخ احتراق المكتبة"^(١).

(١) يقول محمد محسن: "ثانياً عمرو بن العاص إله حضرت زبيرك إسكندرية بى محاصره لرى ميلادى التى يوز بوقدر سنه صكره وقوعه كشميدى. زولك ابتدغى محاصره حقتده تاريخارث وبرديكى روايات وكتبخانه نك احتراقى تاريخيله بوراسنك مسلمانلر جانبندن محاصره سنك مصادف اولسدينى زمان اره سنده بدى عصره قريپ برتفاوت موجود اولينغندن شوجال حقيقتى اثباته كافيدر" (أفريقسا دليلى ص ٢١٠).

وعن حال الإسكندرية في عهد محمد علي وخلفائه، يقول محمد مهري:

"وعندما آل الحكم إلى يد محمد علي باشا، لم يكن عدد سكانها يزيد على ستة آلاف نسمة، وقد عمل المشار إليه محمد علي باشا على إعمارها من جديد وتوسيعها، وبسبب دوام خلفائه على القيام بإعمارها وترتيبها فقد بدأت هذه المدينة تكتسب رونقها القديم من جديد، وازداد عدد سكانها ازدياداً كبيراً خلال نصف قرن"^(١).

وقد قدرهم محمد محسن بـ ٣٣٠٣٩٠٦ نسمة وخمسة آلاف أجنبي^(٢)، أما سليمان شكرى^(٣) فيقدرهم بنحو ٣٢٠,٠٠٠ نسمة، ويميل بعض الرحالة إلى تصوير ما تلقطه عيناه فور وصوله إلى الإسكندرية، وعندما وصلت الباخرة التي كانت تقل جناب شهاب الدين من مدخل مرفأ الإسكندرية، صور لنا جزيرة الفنار وهي ترسم القوس الخارجية لدائرة المرسى وعلت على الأرض مدة بأطلال حجرية يطلق عليها "ابتاستاد".

وقد رأى جناب عن اليمين القصر المهجور لسعيد باشا المتوفى، وبضعة تلال صغيرة من الرمل تكاثفت بينها أشجار البلح، وعلى اليسار يبدو شاطئ الرملة، وهو متنزه صيفي، ويظهر بينهما أصل مدينة الإسكندرية، وبعد دخول الباخرة إلى المرفأ بين الساحل وجزيرة الفنار، لاحظ جناب صعوبة دخول السفن لهذا الموقع في أثناء هبوب أى عاصفة. وفي ناحية من المرفأ توجد أبغية ضخمة وقيمة تشبه بمخازن ذخيرة الفراعنة القدماء. وفي ناحية منه يوجد قسم من ساحل المدينة. تصارخ جلبية المطارق وأصوات المناشير وصرير البكر فى إبهام ممتزجة بالسواد، فينشأ عن كل هذا أنين الحياة"^(٤).

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٥٢.

(٢) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ٢١١.

(٣) سليمان شكرى، سياحات كبرى، ص ٢٨٥.

(٤) جناب شهاب الدين: حج يولده، ص ٦٧، ٦٨.

كما ينقد جناب وضعا آخر لاحظته فى هذا الميناء، هو تزاخم المرشدين السياحيين ودفعهم غير اللائق للمسافرين، فهم يدخلون حجرات السفينة ويجذبونهم من ملابسهم ويدفعونهم ويضربونهم، أحدهم يمسك بشمسية السائح، والثانى بعصاه، والآخر بقبعته، يلوكون بشفاههم اللغات الإيطالية والرومانية والإنجليزية والفرنسية والتركية والعربية، يمدح أحدهم فناده والآخر زوارقه وآخر مطعمه وترجمته، وكان واحد منهم يقول إنه يعرف المناطق المصرية أفضل من أى شخص ويقول إن نسبه يصل إلى الفراعنة القدماء لأن أجداده مصريون. وآخر يوضح أنه يعرف جميع آثار مصر العتيقة مثل جيب معطفه بداية من اطلاعه على التاريخ القديم لها. وهم يتجولون بين المسافرين ناشرين رائحة عرقهم العفنة.

ليس هذا فحسب، بل يصور جناب هؤلاء المرشدين وهم يجذبون المسافرين ويأمرونهم بتتبعهم فيسارعون بحمل فراشهم وصررهم دون أن يصغوا إلى رأيهم حتى إن أحد المسافرين يعبر عن هذا الوضع بقوله: "فى كل مكان يتقدم المسافرون والحمالون فى الخلف، وهنا يحدث العكس"^(١).

أما عبد الغنى سنى بك، فقد أثار اقتراب الباخرة من ميناء الإسكندرية مجموعة من خواطر مرحلة الطفولة فى خياله، ذلك أنه تذكر مكوته بها ثلاثة أيام هو ووالدته وأخوه الكبير وسنه آنذاك ست أو سبع سنوات، وكانت الباخرة قد مرت بالإسكندرية وهى فى طريقها إلى سورية.

وكان هذا دافعا مشوقا له برؤية المناظر التى سوف يراها هناك التى سوف تداعب خواطره تلك.

ولكن ما إن حلَّ عبد الغنى سنى بك بفندق فرنسا حتى هبَّت رياح غير معتادة على الإسكندرية، استغرقت ثلاثة أيام، لم يستطع خلالها أن يفعل أى شىء سوى البقاء فى الفندق، ثم تجول بعدها فى شوارع المدينة وميادينها^(٢).

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٦٩، ٧٠.

(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٣٤.

وموانى الإسكندرية لها وضع آخر لدى سليمان شكرى^(١) ، ذلك أنه يرى أن وقوع رأس القلعة بين رأس التين والرملة وكذلك رأس التين بين فم النيل والقلعة قد حاز وضعًا ساحرًا جعل هيئة محيط السواحل ومنظرها يشبه أطراف المدينة الثلاثة بقوس قزح، وهذه المشاهد المثيرة جعلت الموانى الثلاثة تبدو على شكل هلال جميل... وكان الميناء الكبير الذى ترد فيه المراكب الجسيمة وإدارات الفئار ورسومات الإدارة الصحية كان يقع بين فم النيل ورأس التين.

ويهتم معظم الرحالة الأتراك بالحديث عن تطور مدينة الإسكندرية الذى كان يزداد يومًا بعد يوم - كما يقول محمد مهري - منذ حكم محمد على باشا وخلفائه، ولعل أهم ما لفت أنظار هؤلاء الرحالة، هو حفر قناة المحمودية، لازدياد الحركة التجارية^(٢) ، وعن افتتاح هذه القناة وما ترتب عليه من فوائد للإسكندرية يقول جناب شهاب الدين:

"وكما يفهم من اسمها، فقد افتتحت هذه القناة في عهد حضرة السلطان المغفور له المرحوم السلطان محمود خان، فقد جرى البحث آنذاك عن معبر طبيعي للمحاصيل الداخلية لمصر، وقد أريد به ربط القاهرة بالإسكندرية، وكانت قد فتحت هذه القناة في ظرف سنة بإنفاق ربع مليون فرنك"^(٣).

(١) سليمان شكرى، سياحات كبرى، ص ٢٨٦.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٥٣.

(٣) يقول جناب شهاب الدين: "استمدت اكلاشيله بيله جگى اوزره بوقنال خاقان جنتمکان سلطان محمود خان حضرتلری زماننده اچلمشدر. اوزمان قطعه مصریه نك محصولات داخلیه سنه برمعبر طبعی ارانمش. قاهره یی إسكندریه یه ربط ایتمك ایستلمش. بوقنال یدى بچق مليون فرانق صرفيله برسنه ظرفنده كشاك ایدلمش ایدی" (حج يولنده، ص ٧٩).

ومن غير الواضح ما رواد جناب عن تعرض الإسكندرية - قبل افتتاح قناة المحمودية - لفترة تقع خلالها في ليلة من النسيان فوق هذه المدينة كما يقول، فجميع مكنتاتها تغادر ساحة الحضارة وهي كتلة من رماد نار الجهل وتعصب اليهود... ثم تتحرر المدينة بعد فترة مؤقتة من ظلام النسيان حيث تبدأ فيها الجهود مرة أخرى والتجارة والحياة من جديد^(١).

بالإضافة إلى أن جناب لم يشر من قريب أو بعيد إلى مؤسس هذه القناة، وهو محمد على الذي لم يرد ذكر اسمه مطلقاً في هذا الموضوع. وكذلك لم يشأ أن يذكر ما قام به إسماعيل من إنشاء حديقة النزهة على ترعة المحمودية واكتفى بوصفها فقط.

وعلى العكس من جناب نجد محمد مهري حريصاً على ذكر اسم محمد على وإنجازاته المتعلقة بمدينة الإسكندرية وبخاصة حفر ترعة المحمودية التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى السلطان محمود الغازي. بل إنه نظم قصيدة حول تاريخ افتتاح ترعة المحمودية، وإن كان من الواضح جداً أن الغرض منها ليس مدح محمد على باشا، وإنما مدح السلطان محمود فحسب^(٢).

وكذلك يوضح محمد مهري ما نتج عن حفر هذه القناة من فائدة للإسكندرانيين، حيث تم توصيل المياه العذبة من المحمودية إلى المدينة بواسطة إحدى الشركات الأجنبية، وهذا ما تم القيام به في عهد الخديو إسماعيل، ويشرح محمد مهري أنه لم يكن للإسكندرية ماء للشرب من قبل حفر ترعة المحمودية فحفرت قناة جرى فيها ماء النهر إلى المدينة، وكانت المياه تجمع في مغارات مبنية في قلب الأرض، وكان بناؤها من الأمور العجيبة في الإسكندرية، ويرى منها الآن ما قبته معسودة بصفين من الأعمدة، إلا أنها فقدت رونقها مع مرور الأيام،

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٩.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

بالإضافة إلى عدم نظافتها، فكان يلقي فيها الحيوانات الميتة ونرى فيها أنبىة وعظاماً وجيفاً بشرية، ولذلك فهي غير عذبة، وتسبب الكثير من الأمراض الجلدية^(١).

وكانت سرايات الإسكندرية ومحلاتها العمومية من أهم الأشياء التى جذبت أنظار معظم الرحالة الأتراك، فيشير محمد محسن إلى وجود قصر جميل عظيم التكلفة فى رأس التين وقد أنشئ فى عصر المرحوم محمد على باشا^(٢).

ويصفه محمد مهرى قائلاً: "تتقسم سراى رأس التين البديعة إلى دائرتين كبيرتين يتوسطهما ميدان فسيح كثير الأشجار. الدائرة الأولى من أثنى سرايات العالم وأعظمها وأبدعها يقيم فيها الخديو للنظر فى مصالح البلاد ومهماتهما وهى كثيرة الدوائر والقاعات وكلها غاية فى الإتقان مبلطة بالمرمر والرخام ومنها ما هو مرصع بالذهب والصدف وخشبه من الأبنوس وأثاثها فاخر ولا سيما القاعة الجميلة التى تقام فيها الاحتفالات الرسمية فإن حيطانها مغطاة بحلل القصب الثمينة وأرضها منقوشة بقطع دقيقة من الجوز والأبنوس والصدف والبقس. قيل عُدَّتْ أكلافها بعدما أنشأها محمد على فتبين أنها لو بلطت بليرات لكانت مصاريفها دون مصاريف تلك الأخشاب. وأما الدائرة الثانية فهى للحريم ولها باب كبير مكتوب عليه تاريخ بنائها سنة ١٢٤٦ هـ. وهناك إلى جهة المدينة دائرة الضباط والأعوان. وإلى جانب المنارة صف من المدافع وقربها حمّام بحرى متقن جداً.

وهناك سرايان أخريان يذكرهما محمد مهرى هما سراى القبارى فى ناحية القبارى وهى من أملاك طوسون باشا، والسراى المعروفة بنمرو ٣ وهى لطوسون باشا أيضاً وكتاتهما عظيمة بديعة^(٣).

(١) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١١١.

(٣) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٤٤٤.

ويوضح سليمان شكرى مدى العمران والانتساع الذى شهدته الإسكندرية آنذاك، ويدل على هذا انقسامها إلى سبعة مراكز وأحياء: الجمرك، والمنشية، واللبن، ومينا البصل، والقطارين، ومحرم بك، والرملة^(١).

أما محمد محسن^(٢) فيقسم أحياء الإسكندرية إلى قسمين: الأول يختص بالحي الأوروبى الذى لا يختلف عن المدن الأوروبية الجميلة، ويوجد فى شرقها، ويقول سليمان شوكت إن بها الكثير من القصور البديعة والمباني العالية مثل عمارة المونغرانو، وإدارة البنك العثمانى والبورصة والمحافظة والمحكمة المختلطة وسرايات المنتزه والرملة ورأس التين^(٣)، وعدد من الجوامع الشريفة الكبيرة والمكتبات المتعددة. وأما القسم الآخر فتوجد به ترسانة أقيمت على ميناء الجهة الغربية أى القديمة، وبها عدد من الأحواض والحدائق العامة المتعددة، والميادين المزخرفة والمنتزهات.

ويُعَدُّ ميدان المنشية من أكثر الميادين التى تحدث عنها الرحالة الأتراك، فساحة المنشية تعرف بالساحة العظيمة، وهى مرصوفة على شكل بيضة طولها ٥٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعاً وعلى جانبها طرق وأسواق فسيحة يعلوها بيوت جميلة، وفى سنة ١٨٧٣ أقيم فى وسط المنشية تمثال لمحمد على نكراً لأياديه البيضاء على مصر فهو الذى قام بنزيبها بالأحواض والنافورات والأشجار، وقام بتعميرها.

وتوجد فى أول المنشية من الجهة الشمالية قهوة أوربا، وتحتوى على غرف كثيرة لقراءة الجرائد والمباحثات وفى صدارتها قاعدة جدرانها وسقفها مرايا^(٤).

(١) يقول سليمان شكرى: "جمرك، منشية، اللبن، مينا البصل، القطارين، محرم بك، رملة نامرليه يدى سميت ومركزه إيرلمسى وسعت وعمرانك درجه سنى غوسترر" (سياحات كبرى، ص ٢٨٥).

(٢) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ٢١٢.

(٣) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٨٦.

(٤) محمد مهري: رحلة مصر والسودان، ص ٣٥٢.

ويتفق جناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك على انعدام وجود أى فرق على الإطلاق بين مدينة المنشية وأى مدينة أوربية، حيث تتميز بالمباني الضخمة والمحلات الفخمة والأرصعة المنتظمة والترامواى الكهربائى والمقاهى والحدائق والمعابد.

إلا أن جناب يرى أن ما يفرقها عن أوربا هو أهلها فهم مختلفو الألوان وكثيرو الضوضاء جداً^(١).

ولا يكتفى عبد الغنى سنى بك بعقد مقارنة بين أحد أحياء الإسكندرية وأوربا، بل إنه عقد مقارنة عقلية بين الإسكندرية وأثينا فيصف أثينا من حيث رفاهيتها وسعة العيش فيها بأنها فى الحقيقة - على الرغم من أنها مدينة جميلة وحديثة ومنظمة - تبدو على حال من "فقر داخل غنى" من وجهة نظر أى شريك اعتاد الرخاء تماماً.

إن المباني عالية، والشوارع واسعة والمحلات مزخرفة... لكن داخل تلك الفخامة لا يمكن أن يُخفى أى فقر وجوع وجهيهما. قبل أى شىء تصادف الأعين الدراخمت الورقية تلك، وتمثل هذه الأوراق المالية ذات المنظر الكريه والمشمئز التى تشبه خرقة بالية قديمة قدرة وملوثة، أكثر مظاهر السلوك الملموسة التى تحيل مثل هذه الثروة الفقيرة إلى ما يشبه المقولة "تعلق الأزهار رؤوس أوراقها على ظهرها".

ويحاول عبد الغنى سنى بك بشتى الطرق أن يثبت فضل العثمانيين على اليونانيين - وهو ما لا يعنينا فى هذا الموضع - ثم يذكر بعد ذلك الإسكندرية التى لا تختلف عن أى مدينة شرقية فى رخائها، على الرغم من أنها مثل أى مدينة أوربية تماماً فى عمرانها. فعندما تقع عين الإنسان على هذه المدينة لا يشعر بأى

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٨٨.

فقر ولا بأى جوع، وفيها أيضًا يتم التداول بالعملات النحاسية والنيكلات الصغيرة لا بالعملات الورقية، ولكنها تدل في نفس الوقت على الثروة والغنى لا على الفقر، كما أنه استرعى انتباهه شيء لم تألفه عيناه - كما يقول - ولم يستطع أن يراه في أثينا، على الرغم من حدائتها وأناقيتها، ألا وهو سير التراموايات الكهربائية في شوارع المدينة كافة تقريبًا، بالإضافة إلى عمل ثلاثة قطارات مزدوجة يتوالى مجيء بعضها وراء بعض على الفور^(١)، وفي نفس الوقت أجرتها رخيصة جدًا مهما كانت الوجبة التي تذهب إليها، وهى عشرة مليمات، وجميع التراموايات تعمل بالكهرباء، أما في أثينا فتعمل التراموايات الكهربائية وقطارات البضائع^(٢).

ويبدى عبد الغنى سنى بك إعجابه الشديد بأرصفة الإسكندرية المنتظمة حيث تبدو بانوراما نشاط الحياة فيها أكثر جمالاً، وترى فيها نفسها فوق الشوارع الواسعة المرصوفة بهذه الأرصفة في صورة أكثر روعة ووضوحاً.

كما يمثل اختلاف عناصر السكان وتعددتها أحد الفروق بين هاتين المدينتين كما قلنا من قبل حينما تناولنا موضوع الأجناس.

ويبين سليمان شكرى أنه قد رُصفت أحجار مالطة المربعة الكبيرة الحجم فعرضها وطولها خمسون سنتيمتراً، والميادين الواسعة والمحدودة بالأماكن العالية ذات الجوانب الأربعة، والشوارع المنتظمة التي تمتد على مرمى البصر فى اتجاه واحد، وبين الكازينوهات البراقة والمحلات الفخمة والدكاكين المزينة والمباني الجميلة تحت الظلال الباردة جدًا لأوراق أغصان الأشجار الوارفة الخضراء المزهرة التي تغرس يميناً وشمالاً.

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "إسكندرية ده، گوزمك آليشاماش اولدينى، حتى يگىلى، شيقلييله برابر اتينه ده گوره منيگم برحال دقتمى بالخاصة جلب ايتدى: الكتريق تراموايرينك، شهرک همان بالعموم جاده لرينى دولاشمه سى، برده همان دقيقه ده اوچ جيفت واغونك متوالينا ايشله مه سى" (يمن يولنده، ص ٣٥).

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٣٥.

أما القسم الذى يقع فى جهة ميدان شارع شريف باشا المتجه إلى حى يسمى رقم ثلاثة من المنشية، فقد كان مرصوفاً بطبقات صينية منقوشة على الأرصفة على الجانبين، تشبه بمخالطة القار أو الأسفلت اللون السماوى^(١).

وطرق مدينة الإسكندرية - كما يراها محمد محسن - منتظمة ومزينة بالمحلات والمخازن ومبانيها ذات الأحجار الأوربية، وكانت تُسقى وترش بالماء عن طريق الوابور الذى تتكلف به شركة من قناة المحمودية وكذلك كانت تملأ من هذا الماء الأحواض والنافورات التى فى الحدائق العامة الصغيرة^(٢).

ويشير عبد الغنى سنى بك إلى الدليل الذى أصدرته محافظة الإسكندرية حيث يرد فيه كل ما تقدمه من خدمات تعكس مدى اهتمامها بصحة المواطن المصرى، والأجنبى كذلك، فشركة المياه تخدم المدينة خدمة جليلة بمياهها البراقة الصافية جداً، وتظهر المحافظة اهتماماً كبيراً بالصحة العامة، ولذلك فقد هبط متوسط الوفيات خلال الفترة ١٩٠١ - ١٩٠٥ إلى ٣٢,٣ فى الألف بالنسبة إلى الوطنيين، وإلى ١٦ فى الألف بالنسبة إلى الأجانب.

وكذلك تضمن الإسكندرية لزائريها الأسباب المختلفة للاستفادة والتمتزه، فهى تملك حلبة سباق ومحلات الرقص والنياتروهاات والفرق الموسيقية والفنادق الممتازة^(٣).

(١) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٨٦.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٣) يقول عبد الغنى سنى بك: "إسكندرية ببلدية دائره سى طرفندن منتشر (رهبر) ٥ نظراً: صو قومياتيه سى، غايث براق، صاف صوبيله شهره پڭ بويوك خدمت ايندييور. بليده ده، صحت عموميه يه فوق العاده اعتنا گوسته ريبيوركه بوسايه ده (١٩٠١ - ١٩٠٥) سنه لرنده كى وفياتگ وسطيمسى، يرليسر ايجون بيگده (٣٢,٣)، اجنييلر ايجون بيگده (١٦) يه اينمشدر. إسكندريه زائرلرينه اسباب مختلفه استفاده وتتمزه تأمين ايتمكده، قوشو يرينه، اويون محللرينه، تياترولره، قونسرلره، مكل اوتلره مالک بولنمقده در" (يمن يولنده، ص ٣٦).

وينقل محمد مهري وسليمان شكرى^(١) ما ذكره محمد محسن^(٢) عن وجود مزارات أضرحة أولياء الله داخل الإسكندرية مثل ضريح أبى العباس المرسى وياقوت العرشى ومرقد الإمام اليوصيرى صاحب البردة والسيد دانيال، وجابر الأنصارى وجعبر وهما من كبار الصحابة، وقد اكتُشف فى جنوب غربى المدينة حجرات متعددة هى كمقابر القدماء تحت الأرض.

آثار الإسكندرية فى كتابات الرحالة الأتراك:

وعن آثار ملوك البطالمة الأخرى، يشرح محمد مهري قائلًا:

"وقصر الملوك البطالمة مزين بمسنتين قديمتين، لا تزالان موجودتين إلى الآن وتعرفان بإبرتي كليوباترا. إحدهما قائمة والثانية ملقاة على الأرض. أما آثار بروخيوم فهى قرب شعبة الترعة القديمة التى تصب وراء باب رشيد. وكان قبالتها إلى الجهة الغربية على مسافة من السوق المنحرفة فى موقع قرية راقودة القديمة الهيكل المبني من الرخام الأبيض المسمى «سرايوم» باسم «سرايس» أحد آلهة المصريين وصاحب جهنم لديهم. وكان ذلك الهيكل قائمًا على رابية مهدمة (ثيلوفيلوس بطريك الإسكندرية سنة ٣٩١ للميلاد). أما عمود سفيروس فكان فى نفس ذلك الموقع ويعرف باسم عمود «بومبيوس» وهو باق إلى الآن ولكنه أقيم بعد الأنبيسة المتقدم ذكرها^(٣).

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٢٩٣.
وسليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٢١٣.
(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٦٠.
(٣) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٤٤.

ويبدى جناب أسفه الشديد لما آل إليه هذا العمود (عمود بومية) الذى نقله الرومان إلى داخل مصر والذى كان مدرسة للفلاسفة قديماً، فقد رآه جناب واقفاً على خدمة كريمة ومشمزة بدرجة كبيرة، بل إن هذا الشعور بالاشمئزاز من منظر هذا العمود الكريه قد لازمه حتى بعد عودته إلى الفندق، فقد أحزنه هذا المنظر كثيراً.

ومن ثم، لم يستطع جناب أن يفسر لنفسه كيف دفن فى هذا المكان خصوصاً المتوفين من جيش نابليون فى مصر^(١).

ثم نجد جناب يتحدث بعد ذلك عن تبرير عدم سعادته برؤية هذا العمود بطريقة أخرى فيقول:

"فى الحقيقة يمكن أن يكون هذا العمود جديرًا بالزيارة بالنسبة إلى محبى الآثار العتيقة، إذ يمكن أن يتلذذ من دراسته بأن هذا العمود ارتفاعه عمومًا مئة وأربعة عشر قدمًا، وأن أصله يشكل قطعة حجرية واحدة طولها تسعون قدمًا وقطرها تسعة أقدام. ومن المحتمل جدًا أنه صار من معبد ساريس، ويمكن أن يتعلم من مثل هذه التفاصيل التاريخية والهندسية الكثير، لكن الذين يرغبون فى القيام بجولة للترفيه فى البلاد التى يصادفونها فى أثناء الطريق يفرحون كثيرًا، أما أنا فلم أكن سعيدًا على الإطلاق".

ويقدم محمد مهري وصفًا دقيقًا لهذا العمود فيقول:

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٩.

"أما عمود السوارى فهو المعروف بعمود
بوميوس فى مصر وقد أقامه تذكراً لجند ديوكليتيانوس
وطول هذا العمود مع رأسه ٩٨ قدماً إنجليزياً، أما طول
نفس العمود فهو ٧٣ قدماً ومحيطه ٢٨ قدماً، و٨
قراريط وقطر الرأس ١٦ قدماً وقيراطان وصناعته
بدیعة" (١).

ويعصرح سليمان شكرى بأنه لم يستطع أن يرى الآثار القديمة سوى عمود
السوارى الذى يشبه حجم العمود الحجرى الذى يوجد فى "درسعادت" وطوله ٢٩
متراً. وكان ثلاث قطع قديمة، إلا أنها قد رحلت إحداها إلى لندن والأخرى إلى
مدينة نيويورك (٢).

ومن آثار الإسكندرية القديمة الباقية إلى أيامنا هذه العمود المربع المعروف
بمسلة فرعون، وهى إحدى المسلتين اللتين كانتا قديماً أمام هيكل قيصر وتعرفان
بإبرتي كليوباترا، وقد أهدتها الحكومة الخديوية إلى دولة إنجلترا فنقلها الإنجليز إلى
لندن عام ١٨٢٧م.

ومن آثار الإسكندرية أيضاً المسلة التى نُقلت إلى كنيسة القديس يوحنا فى
رومية والمسلة التى نُقلت إلى القسطنطينية ووُضعت فى ميدان جامع السلطان
أحمد.

وعن آثار البطالمة ركز معظم الرحالة الأتراك حديثهم على منارة
الإسكندرية باعتبارها إحدى عجائب الدنيا الثمانى، كما يقول محمد عزت، وإحدى
عجائب الدنيا السبع كما يقول جناب ومحمد مهري.

(١) محمد مهري: المصدر السابق: ص ٣٥٢.

(٢) يقول سليمان شكرى: تَكرّمى طقوز مترو طولنده ودر سعادتده كه ديكلى طاش قالينلغنده اولان "عمود
السوارى" دن بشقه آثار عتيقه گوره مدم. بونلر وقتيله اوچ دانه ايكن بريسي لوندره به ديگرى نيورق
شهرينه آشيرلمشلردر" (سياحات كبرى، ص ٢٩٣).

ويشير محمد محسن إلى أنه كانت توجد عليها مرآة من الحديد كانت تحرق من بعيد سفن العدو بانعكاس أضواء الشمس عليها. ولا توجد دلائل على ثبوت ما رواه ابن جبير وبعض الكتب التاريخية الأخرى من أنه كان قد أقيم عمود على هيئة منارة في هذا المكان وأنشئت قبة خشبية عليها من قبل أحمد بن طولون، إلا أنها سقطت بسبب الإغصاء، وخرب بعض أجزائها في زمان الظاهر بيبرس، وهو من المماليك البحرية، وبينما تم ترميمها بعد ذلك، فإنها بسبب اندثارها تماماً بمرور الزمان، أقيم بدلاً منها فنار الإسكندرية الذي يرى الآن من بُعد عشرين ميلاً^(١).

وعندما وصلت الباخرة التي كان يستقلها جناب أمام جزيرة الفنار أشار إلى أنه لم يبقَ تذكّار من ذلك الأثر النادر الآن سوى مكان حجرى يزيد فيه نوبات من أمواج البحر الأبيض^(٢).

ويقول محمد مهري عن هذه المنارة التي كانت تهتدى بها السفن، إن بطليموس فيلادلفوس قد بناها في جهة الشمال الشرقى من جزيرة فاروس، وكان علوها نحو ألف ذراع ويقال إن ما أنفق على بنائها في تلك الأيام يبلغ نحو أربعة ملايين فرنك إلا أنها اندثرت بمرور الأيام.

وينقل محمد مهري^(٣) الكثير من الروايات التاريخية التي ذكرها ياقوت وابن الأثير وابن زولاق حول وصف هذه المنارة، وفي نهاية حديثه يذكر أن محمد على أقام المنارة الحالية العجيبة لتهتدى بها السفن ليلاً لأن أراضي البلاد المصرية كانت وطيئة لا تكاد تتكشف من بُعد ثلاثة فراسخ، وقد سجل سليمان شكرى إعجابه الشديد بهذه المنارة المرتفعة جداً.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١١٣.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٣) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٥٣.

ويشير أيضاً محمد مهري إلى أن بطليموس فيلادلفوس سابق الذكر كان قد أنشأ ميناءً بين الجزيرة والمدينة. وانقسم ميناؤها إلى جزأين، وكان قد أقام باباً يفتح ويغلق من أجل الاختلاط بينهما، وبمرور الزمن اتخذ هذا الميناء شكل شبه جزيرة صغيرة أو رأس بسبب زيادة الرمال التي يصبها البحر والنيل، واتحاد الأرض بالجزيرة. وكان قد تم نقل المدينة إلى شبه الجزيرة هذه.

ويوجد اليوم القسم الذي يطلق عليه حي المدينة التركي فوق هذا البرزخ بالكامل، والحي الأوربي شرق هذا الساحل.

وعن الفنار وهذين الميناءين يقول محمد مهري في موضع آخر:

"يوجد ميناءان أحدهما قديم والآخر حديث، في جانبي رأس هذه المدينة المذكورة التي أسست فوق رأس ممتد تجاه شمال لسان ضيق يفصل بحيرة مريوط عن البحر، ويوجد فنار لكل واحد من هذين الميناءين"^(١).

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

الفصل الثالث

وصف مدن الوجه البحرى

تمهيد:

تنقسم مصر من حيث طبيعة أراضيها إلى قسمين كبيرين: الوجه القبلي، والوجه البحري. وخلافاً لذلك فقد اعتبرت ثلاثة أقسام: مصر السفلى، ومصر الوسطى، ومصر العليا، كما أطلق على الجهة البحرية الرواتب والجهة القبالية النبارى.

وأشهر مدن مصر السفلى: الإسكندرية، ورشيد، ودمياط. وفي مصر الوسطى: القاهرة، والسويس، وبورسعيد. وفي مصر العليا: أسيوط، وأسوان.

هكذا يوضح سليمان شكرى^(١) النوع الأول من تقسيم الأراضي المصرية، وهو ما يعرف باسم التقسيمات السياسية. وقد اعتمد عليه أيضاً الرحالة محمد عزت^(٢) في وصفه لمدن مصر، أما معظم الرحالة الآخرين فقد اتجهوا إلى التقسيم الملكي، فقد كانت الأيالة المصرية الملكية تنقسم إلى سنجاق أى أربع عشرة مديرية وست محافظات طبقاً للاصطلاح المحلى. والمحافظات ما هي إلا المديريات التى تقع على شاطئ البحر وتكون فى الداخل أى فى الإقليم الزراعى، باستثناء محافظة القاهرة فقط فهى بعيدة عن الشاطئ.

وعدد المديريات فى الوجه البحري ست وفى الوجه القبلي ثمانى مديريات، أما مراكز المحافظات فهى مدن القاهرة والإسكندرية ودمياط وبورسعيد والسويس والعريش.

(١) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٣١٥.

(٢) محمد عزت: يكي أفريقيا، ص ٦٠.

ويشير سليمان شكرى^(١) إلى أن المدير هو المتصرف المالك، أما المحافظ فهو يتقلد وظيفة آلاى بكى، وكان الأول يهتم بالإدارة الملكية للسناجق والثانى يرعى البندر الكبير الذى يتولى مسؤوليته. وكانت الأراضى المصرية قد حددت وقسمت إلى أحياء وقضاءات متعددة بأسماء المديريات والمراكز والبنادر.

ومن الرحالة من بدأت رحلته لمديريات الوجه البحرى من الجنوب ثم إلى الشرق ومنه إلى الغرب مثل محمد محسن، ومحمد مهرى، ومنهم من بدأ بالمديريات التى تقع فى الناحية الغربية ثم اتجه إلى الشرق فمنه إلى الجنوب مثل سليمان شكرى.

مديرية القليوبية:

وقد حرص هؤلاء الثلاثة عند معرض حديثهم عن مديرية القليوبية على أن يحددوا موقعها الجغرافى، فمى تقع فى جنوب الوجه البحرى، وهى أصغر المديريات الواقعة على فرع النيل الشرقى، وهى بين مديرتى المنوفية والشرقية، وتنقسم إلى ثلاثة مراكز: طوخ ونوى وقليوب. ويذكر محمد محسن أن ثانى هذه المراكز هو شبرا التى يوجد مركزها فى خزانية وأشهر قراها شبرا الخيمة وشبين القناطر والمرج وخصوص وتتكون من مراكز بركة الحج والمطرية ومنية النرج وسرياقوس المشهورة بإنتاج العسل والخانكة وأبو زعل، ويقدم لنا محمد محسن نبذة تاريخية أو جغرافية عن أشهر هذه المراكز^(٢).

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٢) يقول محمد محسن: 'اينجيسى خزانية نام محله مركزى بولنان شبرى مركزيدر اشهر بلادى شبرى الخيمة شبين القناطر ومرج وخصوص وخانكة وابو زعل وسياه شكر قامش بالى جيقارمقله مشهور اولان سريا قوس' (إفريقا دليلى، ص ١٢٧ و ١٢٨).

و الواقع أن شبرا الخيمة التي يقدر عدد سكانها بأربعة آلاف وخمسمئة وثمانين والتي تقع على شرق ساحل النيل والتي أضيفت إلى مركز نوى - قد حازت إعجاب سليمان شوكت، ففيها كثير من الأبنية الفاخرة ومنازل جميلة وحدائق رائعة وقصور عالية. كما يصف الطريق الممتد من هذه القرية المذكورة حتى القاهرة بأنه مرصوف بالحصباء وتنتشر على طول جانبي الطريق أشجار اللنج والجميز التي تبهّر الأبصار^(١).

ومن بين ما ذكره عن شبين القناطر أنه قد وُضع أساس لإقامة جسر ضخم بها يوم الخميس الموافق الثاني من ربيع الآخر سنة ١٢٦٣هـ، من قبل محمد على باشا، وبمعرفة مهندس فرنسي، وتكلفت ما يقرب من مليوني ليرة، وتم الانتهاء منها في زمن تجاوز عشر سنوات. وكان هذا الجسر قد انقسم إلى الوجه البحري عن طريق قنوات متعددة تمتلئ بالماء بواسطة هذا الجسر.

ويشير في نهاية حديثه التاريخي عن الخانكة إلى أن محمد على كان قد أنشأ فيها داراً للتعليم خاصة بأطفال عائلته وأطفال الأمراء الكبار الآخرين، وقد أكمل فيها عدد كبير من الأشخاص تعليمهم ومنها أرسلوا إلى فرنسا لإكمال دراستهم وقد أصبحت الآن قرية عادية وفقدت عمرانها القديم، وانعدمت الرغبة حتى في الالتحاق بمدارسها الأوروبية، على الرغم من أنها لم تكن قد فقدت مكانتها حتى آخر ولاية المرحوم عباس باشا.

ويروى عنها أيضاً أنه كان بها قصر الملك ناصر في الجهة الشرقية منها وكان بحدائق هذا القصر أنواع من الأشجار جلبت من الشام، وتم إنشاؤه سنة ٧٢٥، وأصابه الخراب تدريجياً بعد ذلك.

ويوجز قوله عن بركة الحج بأنها كانت متنزّهاً للسلطين منذ القدم، ويقال إنها بقيت منذ عهد الفاطميين^(٢).

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

كما أشار سليمان شكرى إلى اشتهار قرية سرياقوس بقصب السكر وعصير العنب الذى يزرع فى أراضيها وبعسلها الرائق البياض واللذيذ، ويبلغ عدد سكانها أربعة آلاف وأربعمئة وأربعين وعشرين نسمة وهى على بعد ساعة واحدة من طوخ بمسافة اثنين وثلاثين كيلومتراً. ويذكر أيضاً قريتي كمير الصفا وكفر النصارى القريبتين من بنها وقرية سرياقوس المذكورة، قد لُقبَت هذه المديرية بـ "بنها العسل" بسبب شهرتها بجودة العسل وشدة حلاوته وكانت تُسمَّى قديماً منذ عهد الفرعنة باسم حاتا حيرات، وأترپيس منذ عهد اليونانيين، وفى العهد القريب كانت تسمى تل أترپب، ثم بنها العسل.

بالإضافة إلى أنه يشير إلى وجود جسرین من الحديد أُقيم أحدهما على النيل من أجل طريق القطارات والآخر مرصوف بالحصباء. وقد وُحِدَ هذان الجسران أراضى مديريتى بنها والمنوفية الواقعة غرب الدلتا^(١).

أما مركز طوخ فقراه هى طوخ^(٢) وطما وطحلة وحنث والجزيرة وبلتان ودجوة وعمار الكبرى ومنية الكنانة وبرشوم الكبرى وبرشوم الصغرى وفجول الرمان ومرصفة، وتتكون قليوب من أبو الغيط وبسوس وسنديون وقلقشند وطنان وفم البحر وواجهور الكبرى أو واجهور الورد بسبب إنتاجها الورد بكثرة^(٣).

ويحرص محمد محسن على التنويه بأن قلُقشند كانت مسقط رأس العديد من الشيوخ منهم الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن والشيخ عبد الوهاب الشعرانى

(١) يقول سليمان شكرى: "بَرى سوسه ديكرى شمندوفر طريقى ايجون نيل اوزرينه ياييلان ايكى عدد جسيم دمير كوبرى بنها ايله غرينه دوشان دلتاده واقع منوفيه مديريتلى اراضيسنى يكد يگريله بر لشنير مشندر" (سياحات كبرى، ص ٣٢٨).

(٢) يذكر سليمان شكرى أنه بسبب كثرة القرى التى تحمل اسم طوخ فقد ميزت بما أضيفت إليه كما يلى: طوخ الملحق (القليوبية) - طوخ القراميص (الشرقية) - طوخ الأقلام (الدقهلية) - طوخ دلقة (المنوفية) - طوخ فريد (مديرية الغربية) .. ص ٣٢٧ و ٣٢٨.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٢٩.

المدفون فى باب الشعرية والشيخ محمد الحجازى المشهور بالقلشقندى، وكذلك كانت واجهور الكبرى منشأ وجود الشيخ عطية الأجهورى الذى شرح رسالة أبى زيدى^(١).

مديرية الشرقية:

تقع على قناة السويس بين مديرتى القليوبية والدقهلية، ويصنفها محمد مهرى بأنها محدودة من الغرب بمديرية القليوبية وهى محصورة من الجنوب والشرق بالبادية. وهى ستة مراكز: بندر الزقازيق وكفر صقر وفاقوس وهيا ومنيا القمح وبلبيس^(٢). ويصف سليمان شوكت أول هذه المراكز - وهو حديث العهد حيث ظهر منذ خمسين أو ستين سنة كما يقول محمد محسن وهو الزقازيق - بأنه من أجمل المدن المصرية من حيث جمال موقعه وحسن نظامه، وقد أسس فى عهد محمد على باشا أى فى العهد الحديث^(٣)، ويحدد محمد محسن ظهور هذه القصبه منذ ست وخمسين سنة، وبها قرى تل حوبن وبنايوس وكفر الحمام والتلين وبندى ومنية الراضى، وتوجد بجوار الزقازيق ببوسطة وهى من بقايا حطام مدينة قديمة كانت مركز الأسرة الـ ٢٨ الفرعونية.

والمركز الثانى منيا القمح والقرى الملحقة به الصفيين وشبلنجة وسكسمون وزنكلون وسعيدين وشبرا العنب وأبراش وشرويدة^(٤)، ويزيد محمد مهرى القطيفة العزيزية وطاروط.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) محمد مهرى: مصر وسودان سياحتهامه سى. ص ٣٦٨.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

أما المركز الثالث فهو بلبس، وهي مدينة قديمة كما يصفها محمد محسن ومحمد مهري، فيذكران نبذة عن تاريخها منذ فتح العرب لها على يد عمرو بن العاص، ثم الأمويين والعباسيين والفاطميين، حتى كانت الحوادث التي ألمت بمصر سنة ٨٠٦ سببا لخراب هذه المدينة، ولما دخل بونابرت مصر رمم حصونها^(١).

ويحدد محمد محسن القرى التابعة لها وهي مشتول والسوق وإنشاص الرمل وشبرا النخل والزوامل وحفنى وسقط الحنا وبردين والزربية وسنيكة، ويشير محمد محسن إلى أن حفنى وسنيكة كانتا مسقطى رأس لشيخين جليلين، ففي الأولى كان ظهور الشيخ دردرى، وفي الثانية الشيخ زكريا الأنصارى.

كما أن سقط الحنا كانت مشهورة بإنتاج الحنا^(٢)، ويقدر سليمان شكرى عدد سكان سقط الحنا بألف ومئة وخمس وسبعين نسمة.

والمركز الرابع هو ههيل، والقرى التابعة لها هي الصوالح والعلازمة والعوامرة والعباسة وهدرية ورنه ومنية العز والتل الكبير^(٣)، ويحدد محمد مهري عدد هذه القرى بـ ٣١ قرية، ولا يذكرها. ويثير ذكر التل الكبير العديد من المواقف المهمة وكذلك المعركة المشهورة التي دارت فيها رحاها^(٤).

ويقدر سليمان شوكت عدد سكان هذه القرية بثلاثة آلاف وثلاثمئة وست وثلاثين نسمة وهي تعرف بأرض غسان ووادي الطمبلات في التوراة، كما يشير إلى أن معظم أهالي هذه المديرية من مهاجري مورا المسلمين.

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٦٨ و ٣٦٩.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٣١.

(٣) سليمان شوكت: المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٤) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٣٣.

والمركز الخامس فاقوس وقراه التابعة له: العرين وأبو كبير وصال الحجر والصالحية^(١)، ومن بين ما ذكره محمد محسن عن قرية الصالحية أنها كانت مركزاً للجنود العثمانية زمن دخول جيش نابليون في مصر^(٢).

مديرية الدقهلية:

ويحدد محمد مهري موقعها بدقة قائلاً: تقع هذه المديرية على الساحل الشرقي من البحر الأبيض وعلى يمين الفرع الشرقي من النيل الذي يمر بدمياط، وهي محدودة من الشمال الغربي بمديرية الغربية، ومن الجنوب الشرقي بمديرية الشرقية ومحاطة بالبحر من الشمال الشرقي^(٣).

وهي تنقسم إلى ستة مراكز: الأول هو المنصورة التي لم يتخلف أى من الرحالة الأتراك عند ذكرها عن تقديم خلفية تاريخية منذ تأسيسها على يد الملك الكامل ناصر الدين بن محمد وحصنها بالقلع سنة ٦٠٦ هـ.

وما يهم البحث في هذا الموضع هو ما وصفه سليمان شكرى عن هذه المدينة التي تبعد عن القاهرة بمئة وأربعين كيلومتراً وتقع على يمين فرع دمياط، ويقدر عدد سكانها بستة وثلاثين ألفاً ومئة وإحدى وثلاثين نسمة، فمناخها رائع جداً، وشوارعها منتظمة وأسواقها ممتازة وهي لا تختلف في عمرانها واثرائها عن مدينة الإسكندرية^(٤). والواقع أن سليمان شكرى لم يزر المنصورة مرة واحدة بل

(١) سليمان شوكت: المصدر السابق، ص ٣٢٧.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٢٢.

(٣) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٧٠ و ٣٧١.

(٤) يقول سليمان شكرى: مركزى فرع دمياطك صاغنده واقع وقاهره يه يوز قرق كيلومتر وبعيد واوتوز التي بيك يوزاوتوز بر نفوسلى منصوره شهريدر. بومملكك هو اسى غايت لطيفى موقعى. دلگشا چارشو وپازارى مكمل سوقاقرى منتظم زنگينلكى معمورىتى إسكندريه شهرندن فرقسزدر" (سياحات كبرى، ص ٣٢٤).

كرر ذلك عدة مرات، إذ يصرح بأنه فى كل مرة من مجيئه لها كان ينزل بفندق يقع فى مقابلة محطة عثمان آغا الأسبارطى، وكان خلالها يلمس مدى الخدمة والراحة المقدمة له، وبحكم نزوله فى هذا الفندق، فقد ذكر أن بها أحد الأغنياء الوطنيين هو حسن أفندى البغدادى قد أقام بجوار هذا الفندق المنازل المنتظمة والمحلات الضخمة، وأسّس حيًا ممتازًا باسم الحسينة وأقاموا بهذا الحى منارة مرتفعة وجامعًا شريفًا مزينًا ومبنى طينيًا...

ويصف لنا سليمان شكرى هذا الرجل بأنه سيد فاضل وفطن عمره ثلاثون عامًا يعلو وجهه نور فياض وذو لحية وشعر أبيض كأنه فى السبعين من عمره. ويصل إعجاب كاتبنا بهذا الرجل إلى أنه دعا الله سبحانه وتعالى أن يكثر من أمثال هذا الرجل الساعى لإعمار الملك، والمالك لأعمال الخير. ويسجل سليمان شكرى إعجابه الشديد بمدينة المنصورة فيشبه الجزء الذى يقع على شاطئ نيل المنصورة بشاطئ سن بباريس فهو لا يختلف عن مدن أوربا على الإطلاق، كما يسجل إعجابه بأروع أحياء البلد وهو مجمع الأغنياء والكبراء الذى يوجد به المنازل العالية والكازينوهات والفنادق المظنونة والمحلات الفخمة والشوارع العريضة الواسعة فى رصيف الميناء المحكم المنتظم المبنى على شاطئ النيل الذى يمر شمال المدينة^(١).

والقرى المتعلقة بهذه المدينة هى: سندوب ونقطة وسلكة وشها وسلمون، والمركز الثانى هو منية السمنود، وأشهر قرأها: منية العامل وبرهموس ونوسا البحر ونوسا الغيط وصهرجت الصغرى وطنامل الشرقية وطنامل الغربية.

(١) يقول سليمان شكرى: 'أوربا شهرلرندن أصلا فرقى اولميان منصوره نك نيل كنارينه دوشان قسمى پارسك سن' ساحلنى اكديرر. شهرك شمالندن گجن نيل كنارينه مبنى محكم ومنتظم ريختيم اوزرنده كه گنیشى جاده، بيوك مغازه لرك، مظنن اوتلرك، مفرح قرأتخانه وغازينولرك، عالى منزللرك بولندقلرى اغنيا وكبارنك مجمعى، مملكتك اك منتخبلر' (سياحات كبرى، ص ٣٢٥).

أما المركز الثالث فهو ميت غمر، وكتبها خطأ محمد محسن "منية الغمر" ومن القرى التابعة له دقادوس وكوم النور ودونريط وصيرجت الكبرى والبيوم والمغاش الكبرى وكفر شكر وكفر مقدم^(١)، ويعددها محمد مهري بتسع وستين قرية^(٢).

ويشير محمد محسن إلى سبب تسمية قرية البيوم بهذا الاسم، إذ يرجع إلى أنها كانت منشأ للعالم صاحب الطريقة البيومية وهي متشعبة من الطريقة العلمية البدوية، وهو بيري شيخ على بن الحجازي بن محمد البيومي (سنة ١١٠٨).

والمركز الرابع هو السنبلابين، ومن قراها الملحقة بها طوخ الأقلام ودير النجم وجميزة برغوث وسقط زريق والبلمون وتمى الأمديد وكفر الطنبور الجديد التى يروى أنها كان بها مخازن أقيمت للذخائر الاحتياطية التى ادخرها سيدنا يوسف عليه السلام وقت القحط الشبير.

والمركز الخامس دكرنس، وأكبر قراها المتعلقة بها: البسراط وبرمبال والجمالية والدراكة وأشمون الرمان (التى يقال إنها كانت بلدة عظيمة محاطة بسور قديما فهي بقية من أنقاض مدينة مندرسة كان بها كرسي الحكم منذ عهد الأسرة الثامنة والعشرين الفرعونية والتى هُدمت من قبل المتوكل العباسي).

ومن القرى كذلك المنزلة والمطرية، ويوجد فى المنزلة جسر يصل بين القريتين الموجودتين فى هذه القرية^(٣).

والمركز السادس فارسكور، التى كانت مسقط رأس لعلماء فضلاء مثل محمد بن موسى العبيدى وهو من مشاهير الفقهاء، وتقى الدين الذى كتب رسائل متعددة عن شرح الهيئة، وقاضى القضاة محمد تقى الدين وابنه، وغيرهم.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٣٨ و ١٣٩.

ويتكون هذا المركز من قرى بدواى وباط كريم الدين والزرقا والشطوط ودقهلة وعزبة البرج وتنبس.

ويختلف كل من محمد محسن ومحمد مهري في عدد قرى مديرية الدقهلية، فيقول الأول^(١) أنها أربعمئة وثلاث وأربعون قرية، والآخر يقول^(٢) إنها أربعمئة وإحدى وعشرون قرية.

مديرية المنوفية:

هذه المديرية واقعة بين الفرعين الغربى والشرقى للنيل ومتصلة بمديرية الغربية، ومركز حكومتها شبين الكوم. وهى تنقسم إلى خمسة مراكز: شبين الكوم والمنوفية وتلا وأشمون وقويسنا. ويقسمها محمد مهري إلى أربعة مراكز فقط^(٣).

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان المركز الأول بعشرين ألفا وسبعمئة وخمس نسمات، وهى تبعد عن القاهرة بمئة وأربعة عشر كيلومترا^(٤).

ويحدد عدد قراها محمد مهري باثنتين وستين قرية، والمركز الثانى (المنوفية) بخمس وستين قرية، ويذكر محمد محسن من هذه القرى جزى وزرقان والشهدا والواط وسرسنا وزاوية القبلى، وهى مشهورة بصنع الحصير الجميل والقيّم.

والمركز الثالث تلا، وفيه قرية الدلجمون وطوخ الدلكة وبو العز. والمركز الرابع أشمون، وفيه ٦٦ قرية منها سمدون وجريس وطلبا وبهواش وفيشة الكبرى.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٣) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٤) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٤.

والمركز الخامس: قويسنا، وفيه ٦٢ قرية. ويذكر محمد محسن هذا المركز بأنه يتكون من مركز يلج وجمز وروالتينون وشنوان وتلواتة وقلة الكبرى^(١).

ويصرح سليمان شكرى بأنه لم يتمكن من زيارة أى موقع من أراضي هذه المديرية التى تمتد من طنطا وحتى القناطر الخيرية، على الرغم من أنه كان يمر عدة مرات من أراضي هذه المديرية^(٢).

مديرية الغربية:

تتصل هذه المديرية بمديرية المنوفية عبر البحر الأبيض والمديرية الواقعة بين فرعى النيل الشرقى والغربى^(٣)، ويحدها شمالاً البحر الأبيض وشرقاً وغرباً فرعا النيل وجنوباً مديرية المنوفية.

ويختلف الرحالة الأتراك الثلاثة محمد محسن ومحمد مهري^(٤) وسليمان شكرى فى عدد مراكز هذه المديرية فيقول الأول إنها ثمانية مراكز وثلاث محافظات: طنطا والمحلة الكبرى وكفر الشيخ والسنة ومحلة منوف وزفتا وطلخا ومندورة وكفر النوات وفوة والبرلس، أما محمد مهري وسليمان شكرى فيذكران أنها أحد عشر مركزاً: طنطا وكفر الشيخ والسنة ودسوق وزفتى وكفر الزيات وطلخا وفوة وشربين (بلقاس) والمحلة الكبرى والبرلس.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٢) يقول سليمان شكرى: "طنطا احاطه سندن قناطر الخيرية به دكين ممتد بومديريت اراضيندن شمندو فرله دفاتله كجمشى ايسه مده مناسبث دوشمد يكى جهتله هيچ بريرنده اكلنمدم (سياحات كبرى ص ٣٢٤)

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤١.

(٤) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٧٧.

وتعد طنطا بلدة عظيمة - كما يصفها محمد محسن - فقد دفن بها السيد أحمد البدوي وهو من مشاهير أولياء الله الكرام، ويحرص كل من محمد محسن ومحمد مهري على إعطاء نبذة عن حياة ذلك الإمام. أما سليمان شكرى فكتب عن جامع السيد البدوي أنه يعد مركزاً لطلبة العلوم مثل حال الأزهر في القاهرة، وكان يتم تعيين آلاف الطلاب الميتمين باكتساب العلم والعرفان وتقنين معاشهم من أوقاف السيد البدوي، مجتمعين حول حلقات التدريس لأساتذة أفاضل لهم اليد الطولى في العلوم الدينية والعصرية (الذنبوية)^(١).

وعند زيارة سليمان شكرى هذا الجامع سمع من خادم الضريح حكاية لا أهمية لذكرها، ولهذا الجامع منارتان وستون عموداً من المرمر، وبالقرب منه توجد مدرسة تسع ثلاثة آلاف طالب، كما أن بهذه المدينة (طنطا) جوامع متعددة ومساجد، وبها مبانٍ عالية وعدد سكانها ستون ألف نسمة^(٢).

ويسنّب محمد محسن^(٣) ومحمد مهري القول في منشأ مولد السيد البدوي وغيره من الموالد التي تقام في طنطا فيقول: إن الأصل في مولد السيد البدوي على ما نقل المرحوم عبد الله باشا فكرى في جغرافية مصر على الجواهر أنه لما تُوِّفِّي حدث لهم بعد أيام عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوداً، قال: ويؤخذ منه أن مولد النبي صلى الله عليه وسلم تزامن مع وفاة السيد في ١٢ ربيع الأول، وعن بعض المشايخ أن الأصل في ذلك أن أتباعه لما سمعوا بوفاته حضروا إلى طنطا بأتباعهم ليعزوا خليفة الشيخ عبد المتعال وكانوا كثيرين وطنطا لا تسعهم فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير، وأقاموا ثلاثة أيام فلما أرادوا الرحيل ركب معهم الشيخ عبد المتعال متبعاً فقالوا له هذه عادة مستمرة نحضرها هنا كل

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٣.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٢.

عام في هذا الميعاد إلى ما شاء الله، فاستمرت هذه العادة فنشأ منها المولد الكبير. وكان في الأصل ثلاثة أيام ولم يزل يزداد إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن، كما ماشى ركوب الخليفة في آخر المولد ركوب الشيخ عبد المتعال مشيعاً لهم.

وأما منشأ المولد الصغير - كما يقول محمد مهري^(١) - فهو أن الشيخ الشربيني أحد مشايخ الطائفة الأحمدية حضر للزيارة مع تلامذته وأتباعه في غير وقت المولد، فأقام بهم أياماً في ذكر وعبادة ثم اتخذ ذلك عادة سنوية. ومن دأب أصحاب الطرق أنه متى وقع لهم شيء مرة اتخذوه عادة، فلما كان هذا المولد عُرف بالمولد الشرنبلالي... وأما المولد الرحبي فهو منسوب إلى الشيخ الرحبي من مشايخ الطريقة الأحمدية. وكان لا بد له أن يجدد العمامة التي على مقام السيد فاتخذ لها مقداراً كافياً من الشاش المصبوغ باللون الأخضر وحضر به مع جماعته ومريدوه فدخلوا طنطا في جمع حافل من المشايخ والمريدين وفي أيديهم جماعة معهم الشاش المُعدُّ للعمامة فصار ذلك إلى الآن عادة معتادة. ويعرف هذا المولد بمولد لف العمامة وتجدد فيه العمامة كل عام.

ويوضح محمد مهري أن هذه الموالد الثلاثة قد قررت مواعيدها بالشهور القبطية رعاية لأوقات النيل والرى ولا تغير مواعيدها إلا بأوامر الحكومة، فالمولد الكبير في أول شهر مسرى والصغير في برمودة والرحبي قبل الصغير بنحو مئة يوم وهو مولد صغير بالنسبة إلى غيره أما المولدان الآخران فيكون فيهما من الاحتفال والزحام ما لا يفوقهما فيه غير موسم الحج^(٢).

أما المركز الثانى (كفر الشيخ) فأشهر قراه قلين وأريمون وبلتاج ومحلة القصب والوزيرية وسخا.

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٧٧.

والمركز الثالث السنطة، وأشهر قراها الجعفرية والقرشية وقويسنا وطوخ
طنبشا ومحلة الروح^(١).

وقد سجل سليمان شكرى ملاحظات صغيرة عن هذا المركز خلال زيارته
القصيرة له، فيقول عن السنطة إنها جنوب طنطا على بعد ٣٢ كيلومتراً منها
ويصفها بأنها تمتاز بموقع جميل وعدد سكانها اثنان وثلاثون ألفاً وثلاثون، وفي
سفره من القريشين إلى السنطة يقول إن بينهما ثلاثة كيلومترات.
ويقول أيضاً إن أراضي السنطة الواسعة هي مزرعة للخديو إسماعيل باشا
السابق^(٢).

والمركز الرابع هو دسوق، وقراه المشهورة هي شباس الشهد، وشباس الملح
وسنهور المدينة والصفافية. وبلدة دسوق واقعة على الساحل الشرقي للنيل الموصل
إلى رشيد وفيها مقام السيد إبراهيم الدسوقي ويقام له المولد^(٣) في كل سنة يجتمع
فيه كثير من أهل الطرق. وقد وُلد فيها سنة ٦٠٤ وعاش ٧٦ سنة ودفن فيها.

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان هذا المركز بمئة ألف وتسعمئة وثمان
وثمانين نسمة، وعدد ملحقاتها ٣٨ ناحية و ٢١١ عزبة، كما يذكر أنها تبعد عن
طنطا بستة وستين كيلومتراً، ويُدرّس في الجامع الشريف المتصل بضريح إبراهيم
الدسوقي العلوم العربية والشرعية الإسلامية^(٤).

والمركز الخامس زفتى، وقراه الشهيرة الرحابية والعريزية وشبرا الماس
وسنباط وسند البسط وتفهنة العرب ودمنهوور الوحش وشبرا النجوم التي وُلد فيها

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٤) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

الشيخ إبراهيم السقا سنة ١٢١٢ هـ وهو من أشهر أفاضل العلماء بالجامع الأزهر وكتب الحاشية على شرح العقيدة للباجورى من مجلدين وشرح التوحيد لمحمد البلخى ومناسك الحج فى المذاهب الأربعة والحاشية على تفسير أبو السعود.

والمركز السادس طلخا، وقراه الشهيرة بطرة وأفنيس وأبنود ودفيرة وبهوت وبهيت الحجارة.

ويحدّد سليمان شوكت موقع مدينة طلخا، فهى تقع فى الجهة المقابلة للمنصورة على الساحل الشمالى للنيل، وهى على بعد ثلاثة وخمسين كيلومترا من مديرية الغربية ويبلغ عدد سكانها أكثر من خمس وتسعين ألف نسمة وعدد ملحقاتها خمس عشرة ناحية وست وثمانون عزبة وقرية، وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى الصحابى طلحة (رضى الله عنه) حيث دُفن بها. وحرُفت فى النهاية إلى طلخا^(١).

ويوضح سليمان شكرى أيضا مدى سهولة الانتقال بين طلخا والمنصورة عن طريق نهر النيل الذى يربطهما بكوبرى القطار، كما يوجد على طول رصيف الميناء العديد من المراكب الموجودة به دائما وبأجر عشرين درهما. وقد سجل إعجابه بهواء طلخا الصافى الذى يأتى من الشمال، وبمنظر الخضرة على جوانبها^(٢).

والمركز السابع كفر الزيات، وقراه المشهورة القصابة وكفر الدوار وصان الحجر، ويشاهد فى القرية الأخيرة كل من الأنقاض المتراكمة لبلدة عظيمة كانت

(١) يقول سليمان شكرى: "تيلك صولنده يعنى شماله دوشان ساحلنده ومنصوره نك مواجهة سنده واقع طلخا كندندن اللى اوچ كيلو مترو آره لى اولان غريبه مديريتته مربوط قضا مركزيدر. كندنيه ملحق اون بش ناحيه وسكان آننى عزبه وقرية سى ايله برابر طقسان بشيك كسور نفوس عموميه سى اولان طلخا شهرنده حضرت طلحه رضى الله عنه مدفون بولندقلرى ايجون اولجه مشار اليك نامى ايله بنام اولمشدر. اولوپ اخيرا تحريفه اوغرامشدر" (سياحات كبرى، ص ٣٢٥ و ٣٢٦).

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٥ و ٣٢٦.

موجودة حينذاك منذ أن كان بها كرسى سلطنة العائلة الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين والثامنة والعشرين من عائلات الفرعنة.

والمركز الثامن فوة، وقراه الشهيرة مطوبس وأبيانة وغيرب الوقف وغيرب الخليج وجزيرة الحفزا. ويصف محمد محسن فوة بأنها كانت من أعظم المدن، وهى على ساحل النيل وكان اسمها "ميتليس"، ومع مرور الوقت وتراكم الرمال تحول مجرى النيل فدخلت فى النيل ومُحى أثرها. وكان المرحوم محمد على باشا فى مبدأ توليته بنى فيها مصنعا لعمل الطرايش والأقمشة، وبكل أسف تخربت من بعده.

والمركز التاسع شربين، وقراه المشهورة بسنديلة وأبو ماضى ورأس الخليج وكفر البطيخ، وظهر من قرية شربين المذكورة الشيخ العلامة محمد بن أحمد الشربينى من علماء القرن العاشر وكان طبيبا فى الجامع الأزهر ومن مؤلفاته التفسير المسمى بتفسير الشربينى^(١).

والمركز العاشر البرلس. والمركز الحادى عشر المحلة الكبرى. والمركز الثانى عشر الذى يضيفه محمد مهرى هو مركز شبين الكوم وكذلك مركز تلا^(٢).

ويحدد سليمان شكرى المسافة بين المحلة الكبرى وطنطا بسبع وعشرين كيلومترا، ويوجد بها معبد قديم لليهود، ويسمى الخوضه، وبسبب أنهم وجدوا فى هذا المعبد نسخة من التوراة محررة قديمة على جلد غزال، فإنهم يزورون المعبد ويتعبدون مجتمعين كل سنة من كل صوب. وعدد سكانها واحد وثلاثون ألفا وسبعمئة وإحدى وتسعون نسمة. وعدد ملحقاتها ٦٢ ناحية و١٩٣ عزبة. كما أنها (المحلة الكبرى) كانت مسقط رأس كل من عبد الرحمن المحلى الشافعى الذى ألف عددا من الكتب، والعلامة جمال الدين محمد بن أحمد المحلى الذى توفى فى ٨٦٤ هـ بعد أن تفضل بتفسير القرآن من أول الكهف حتى آخر القرآن^(٣).

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٦.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٩.

مديرية البحيرة:

تقع في الجبهة الغربية من فرع النيل الغربى بين بنغازى ومديرية الجيزة والبحر الأبيض، ويحدد محمد مهرى^(١) وسليمان شكرى موقعها بدقة، فهي محدودة من الشمال بالبحر الأبيض ومن الغرب بالصحراء التى تمتد إلى حدود بنى غازى ومن الجنوب بمديرية الجيزة ومن الشرق أيضا بمديرية الغربية والمنوفية ومحاطة بهما. وهى تنقسم إلى سبعة مراكز يتصل بعضها ببعض. الأول مركز دمنهور وكان اسمها "خوريس" وهو اسم معبود لقدماء المصريين معناه "ينم النهور" كما روى عن المشتغلين باللغات القديمة. ومدينة دمنهور على بعد ٦٢ كيلومترا من الجنوب الشرقى للإسكندرية و ١٤٠ كيلومترا من الشمال الغربى لمصر وهى تقع على التربة الواصلة إلى رشيد وعلى خط السكة الحديدية الموصل من الإسكندرية إلى مصر وعلى فرع السكة الحديدية الموصل إلى رشيد ودسوق، فهى نقطة يتجمع فيها ثلاثة الخطوط المذكورة. وعدد سكانها يحده محمد مهرى بخمسة وعشرين ألف نسمة، وسليمان شكرى^(٢) باثنتين وثلاثين ألف نسمة.

وأهم قراه المشهورة العطف وسمحراط ودروط ومحلة الأمير ومحلة بشر وفزارة ودفينة وإتكو.

(١) يقول محمد مهرى: شمالاً آمد دكيزله غرباً بنغازى به ممتد اولان چول ايله، جنوباً جيزه مديريتيله، شرقاً دخى منوفية وغربيه مدير يتتريله محدود ومحاطدر. بومديرتيك منقسم اولديغى يدي مركز دن برنجيسى اولان دمنهور مركزى اولوپ لغات قديمة مصريه نك تدقيقله اشتغال اينلره گوره قسماي مصريونك معبود لرندن اولان (خوريس) اسمنه نيم النهوردن معرب إسكندريه نك ٦٢ كيلومتر شرق جنوبيسنده وقاهره نك ١٤٠ كيلومتره شمال غربيسنده دمنهور شهرى ... (سودان سياحتنامه سى، ص ٣٧٤ و ٣٧٥).

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

والمركز الثانی شبراخیت، وقرأها الملحقة بها ٧٨ أشهرها نكلا العنب والظاهرية وشتت الأنعام وإيتای البارود والرحمانية.

والمركز الثالث النجيلة، وعدد قراها الملحقة بها ٧٥ قرية أشهرها كوم حمادة وبيبان وخريثا وكفر بولین وشابور والخطابة وكفر الفيض وأبو الحارى والطرانة.

والمركز الرابع الدلنجا، ويتشكل من اليهودية والحيرين وجبارس والطود وسقط الملوك.

والمركز الخامس أبو حمص، وتتركب من قرى البركة وكفر الدوار والقافلة والبقلون والجرادات وحوش عيسى. ويحدد محمد مهري عدد القرى بـ ٥٧.

والمركز السادس إيتای البارو، وعدد قراها ٨٢ قرية.

والمركز السادس كفر الدوار، وعدد قراها ٣٦ قرية، وتعد واحة سيوة^(١) من وجهة نظر سليمان شكرى تابعة لهذه المديرية، وعاصمتها جغبوب وعدد سكانها سبعة آلاف ومئتان، وهى مقر الشيخ السنوسى المشهور، كما أنه يعد من أشهر الشيوخ الأفاضل الذين كانوا يدرسون العلوم الدينية والدينية فى الجامع الكبير لهذه المدينة التى كانت تعبر بها قوافل الحجاج المغاربة ويعبر عن اللغة التى يستخدمها القبائل التى تسكن فى هذه المنطقة بلفظ "سلح"، وبسبب أن هيئتهم تشبه المغاربة وطبائعهم تشبه عربان البادية فقد أطلق عليها "دمنهوور الوحش".

ويبلغ عدد قرى مديرية البحيرة ٤١٦ قرية^(٢).

(١) محمد مهري: المصدر السابق: ص ٣٧٦.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٧.

الفصل الرابع

وصف مدن الوجه القبلى

تنقسم مديريات الوجه القبلى إلى ثمانى مديريات، أولاها مديرية الجيزة، وتقع فى مواجهة مصر العتيقة على ساحل النيل الغربى متصلة بمديرتى البحيرة وبنى سويف^(١). ويحدها من الشمال القناطر الخيرية ومن الغرب صحراء ليبيا ومن الشرق النيل^(٢).

ويصف سليمان شكرى حدود هذه المديرية بالسعة فهى تمتد شرقاً حتى مصر العتيقة وغرباً حتى جنوب بنى سويف مارة بصحراء ليبيا والنيل بدءاً من جنوب مديرية البحيرة. وتنقسم إلى أربعة مراكز هى إمبابة والجيزة والعياط والصف ومركزها مدينة الجيزة التى يبلغ عدد سكانها ستة عشر ألف نسمة وثمانمئة وخمسين، وتقع شمال شاطئ النيل وبجوار تلال فرعون، وهى تبعد عن محطة القاهرة بثلاثة عشر كيلومتراً^(٣).

ويحدد محمد مهرى عدد قرى الجيزة بسبع وأربعين قرية، وتقع الأهرام الثلاثة وتمثال أبى الجول فى الجيزة^(٤).

وتنقسم مدينة الجيزة - كما يقول محمد محسن - إلى أربعة أقسام: القسم الأول البدرشين وهى فى الجانب الغربى للنيل تمر سكة الحديد بينها وبين النيل

(١) محمد محسن: أفريقيا دليلي، ص ١٤٨.

(٢) محمد مهرى: سودان سياحتامه سى، ص ٧٨.

(٣) يقول سليمان شكرى: "جيزه منيرتينك حدودى شرقاً مصر العتيقة وغرباً منيريه البحيرة نك جنوبندن باشلايه رق نيل ايله جبل غربى وليبيا سلسله لرى اره سندن بالمرورنى سويف احاطه سنك جنوبنه دكين ممتد وغايت واسعدر. بواحاطه - امبابه - الجيزه - العياط - الصف ناملرندن نرت مركزه تقسيميا اداره اولنمقده در." (سياحات كبرى، ص ٣٣٠).

(٤) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٧٩.

وفى قبليها جسر سقارة^(١)، ومما يذكره محمد مهري نقلاً عن بعض التواريخ أن محلها فى الأصل جزيرة، ويقال إنه كان بها قصر لزليخا امرأة العزيز فى عهد الملك الريان فلما وضع يوسف عليه السلام يده على خزان الأرض وخرج يوماً فى موكب للنزهة على البحر قابلته زليخا وقالت: سبحان من أذل الملوك وأعز العبيد! فقال لها: من أنت؟ فقالت: زليخا. فقال لها: أصبح "البدر-شين". فسميت بهذا الاسم إلى الآن^(٢).

كما يذكر شكرى^(٣) أن إلقاء والدته موسى عليه السلام لطفلها فى النيل مستخدمةً التابوت قد حدث فى هذه المدينة المذكورة، كما أن أراضى الجيزة قد ارتبطت بالقاهرة عن طريق كوبرى إمبابة المشهور.

ويحتوى القسم الأول هذا قرى أبو النمرس والحوامدية وأبو صير ودموه وجزيرة الروضة وحلوان والمعصرة وطرة وسقارة ومنية الرهينة^(٤).

ويوضح سليمان شكرى^(٥) أن المسافة بين الحوامدية والجيزة هى اثنا عشر كيلومتراً وعدد سكانها ٢٤١٥ نسمة، أما سقارة فتبعد عن مركز العياط الواقع على بعد ٤٥ كيلومتراً من الجيزة بخمس ساعات، وبها العديد من الآثار العتيقة.

أما القسم الثانى فهو أوسيم ومدينتها بولاق التى تقع فى الشمال الغربى وتبعد عن القاهرة بعشرين دقيقة على ساحل النيل الشرقى. ويبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة. ويتكون هذا القسم الذى يتخذ إمبابة مركزاً له من قرى إمبابة وناهيا والمنصورة ووردان.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ١٦١.

(٥) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

أما القسم الثالث فهو جزيرة الواقعة على الساحل الشرقى للنيل بجوار العياط، ومن نواحيها قرية دهشور ومن أكبر قرأها، كذلك المحرقة والمزاريق فى الساحل الغربى وهى على بعد ساعتين منها، ويقول سليمان شكرى إن قرية دهشور تبعد عن مركز العياط بنحو ساعة وربع.

والقسم الرابع أطفيح الواقعة على ساحل النيل الشرقى وأشهر قرأها صول والبزىل والمسير وأسكر والصف وغمارة الكبرى والكرانية والجزيرة الشقرى.

أما المركز الثانى من مراكز مديرية الجيزة فهو مركز إمبابة، الذى كان ذا أهمية فى القرون الوسطى؛ كان فيها معابد عظيمة وأصنام كبيرة، ولما حارب الرومان مصر فى زمن قسطنطين واستعمل السيف لنشر الدين المسيحى، ولم يكن للمسيحيين كنائس مختصة بهذا الدين، هدم وخرب المعابد التى كانت فيها منذ الفراعنة، وأخذ ما فيها من الأشياء النفيسة وجعلها مزاراً وصرفت لنشر الدين المسيحى. ويبلغ عدد القرى الموجودة فى هذا المركز ٤٧ قرية^(١).

ويشير سليمان شكرى^(٢) إلى أن قرية كرداسة التى تبعد بمسافة ساعة إلا ربعا من مدينة تاج الدولة، وهى مركز إمبابة، تزرع البطيخ الحلو الذى يبيعونه بافتخار قائلين "بطيخ كرداسة" فى مصر.

والمركز الثالث مركز العياط، ويحتوى على ٤٧ قرية وتتبعه المتأنية، ويوجد فى مقابله من الجهة الشرقىة للنيل جبال الرشراش، ويحكى محمد مهرى أنه كان فى معية دولة الأمير يوسف كمال باشا حينما قصد تلك الجهة لصيد حيوان يسمى "البدن" وقد أعطاه بعد صيده للعربان البدو الذين طبخوه وأكلوه بشئىة،

(١) محمد محسن، محمد مهرى: ص ١٦١ و ٢٥٠.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

وما يعنينا هنا هو وصف محمد مهري لقرية ميت رهينة وهي من ملحقات العياط التي سبق ذكرها، فنجوارها من النخيل ما يزيد على عشرين ألف نخلة^(١) وفي الجهة الشرقية منها يشاهد بقايا مدينة ممفيس الذي يسهب محمد مهري القول في تاريخها القديم، غير أنه يذكر سبب تسميتها بهذا الاسم وهو أنه حذرا من وقوع عصيان في أثناء فتح مصر أخذوا منها مئة شخص "رهنا".

والمركز الرابع هو أطفيح على الساحل الشرقي للنيل، بينما يذكره محمد مهري بأنه مركز الصف، وملحقاتها ٣١ قرية. ويروى أن موسى عليه السلام ولد في إحدى هذه القرى سنة ١٧٥٥ ق.م. ومن ضمن هذا المركز قرية أطفيح وكان اسمها القديم أفروود وبوليش وكان في هذه القرية صنم برأس الحيوان وجسم الإنسان يعبدونه وأحيانا يجعلونه على شكل بقرة وابنها يرضع من ثديها ويسمونه إيزيس، وكانوا يعبدون صنما آخر ينسبونه إلى كوكب الزهرة^(٢).

ويروى أيضا أن محمد على باشا قد قام ببعض الاحتياطات بتدابير الانضباط في هذه القرية بعد أن تخلص من المماليك، وذلك بسبب أنها كانت ملجأ لجماعات الأوباش في القاهرة^(٣).

(١) يقول محمد مهري: "أوجنحى قسم: العياط قسمندر. ملحقاتي ٤٧ قرية در. بوقريه لركڤ قراي مشهوره سندن (العياط) قصبه سي داخلنده (المتانية) قرية سنك قارشو سنده نيلك جهت شرقيسنده واقع (رش راش) نام محلث طاغلارينه مخصوص (بدن) نامي ويريلين برحيوان واردر. برنس يوسف كمال حضرتلرينك دست صيادانه سندن اوراده كي بدوي عربان، بوحوانك اتندن بيشيرمشلر. جيزه نك (العياط) قسبي ملحقاتندن اوله رق بالاده ذكرى گجن قريه لردن (ميت الرهينة) نام قريه يه اشلي منفيس بلده سنك نائبه اندارسي دينيله بيلير. بوقريه جوارنده يكرمي بيك اغاجي محتوي برنخلستان بولنديغي گبي ... (سودان سياحتنامه سي، ص ٨٢).

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٣

(٣) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٨٤.

مديرية بنى سويف:

تقع على الساحل الغربى ما بين مديرية الجيزة والمنيا، فيحدها شمالاً الجيزة، والفيوم غرباً، والمنيا جنوباً^(١).

وهى منقسمة إلى ثلاثة مراكز: الأول مركز بنى سويف ويحتوى على ٦٠ قرية ومن بينها قرية تسمى طحابوش^(٢) يقول عنها محمد محسن إنها تقع غرب شاطئ النيل (الساحل الغربى من النيل)^(٣).

وهناك أيضاً قرية أهناس وهى من ضمن قرى هذا المركز، وتقع شرقى بحر يوسف وغربى النيل وكانت مقر سلطنة العائلة التاسعة والعاشرة من الفراعنة مدة ثلاثمئة سنة وذلك قبل الهجرة بـ ٣٩٨٠ سنة وقبل الميلاد بـ ٣٣٥٨ سنة، وهذه الرواية تحققت من الاستكشافات الأخيرة أيضاً. ويروى أن السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام أقاما فى هذا البلد إلى أن مات هيرود^(٤).

ويقدر سليمان شكرى^(٥) عدد سكان بنى سويف بـ ١٨٢٢٩ نسمة ويقع مركزها على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً من القاهرة.

المركز الثانى ببيا الكبراء، وأشهر قراه البرانقة وزاوية الناوية. والمركز الثالث الواسطى، ويبلغ مجموع ملحقات المركزين الثانى والثالث ١٨٣ قرية. ومن

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٥) يقول سليمان شكرى: "قاهرة نك يگرى دوت كيلومتر وبعنده واقع دن سكر بيك ايكى يو زبگرى طقوز نفوسلى بنى سويف شهيدىر". (سياحات كبرى ص ٣٣٠).

قرى المركز الثالث (الواسطى) الميديم وأشمنت وقيمن العروس وبوصيو الملحق والميمون. وكانت القرية الأخيرة مسقط رأس برهان الدين الذى توفى سنة ١٠٧٩ وهو من فحول علماء العلوم النقلية والعقلية وكتب حواشى وتعليقاً على شرح التلخيص للبيضاوى.

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان ببا بـ ١٢٧٥٠ نسمة وتبعد بنحو اثنين وعشرين كيلومتراً عن مدينة بنى سويف التى يسجل إعجابه بعمرانها الذى وصل إلى درجة كبيرة بفضل موقعها على الطرف الشمالى من النيل وهو موقع جميل جداً، وكذلك مناخها اللطيف.

مديرية الفيوم:

تقع فى الجهة الغربية من بنى سويف، فى منطقة واسعة بعيدة عن ساحل النيل وواديه. يحدها من الشمال الجيزة ومن الجنوب المنيا، ولهذا فهى محصورة بين المديريات الثلاث.

وأراضى هذه المديرية الواسعة منخفضة عن سطح مياه النيل فى وقت فيضانه ٣٠ متراً وفى المواسم العادية ٢٧ متراً، ومن ذلك يُعلم أنها أكثر انخفاضاً من جميع أراضى مصر. ويمر من وسط مركز الفيوم ترعة تسمى بحر يوسف نسبة إلى منشئها يوسف عليه السلام. وكانت رديئة الهواء غير نظيفة ورطبة لانخفاضها ومياهها الراكدة قبل أن يقوم يوسف عليه السلام بالإصلاحات والتخطيط الباقى بعض آثاره إلى الآن، حتى صلح هواؤها وتحسنت أراضيتها ومزروعاتها بواسطة تجفيف المياه التى كانت بها وجعل لها قناة تجرى فيها المياه تحت المبانى المقامة، وذلك لرى الأراضى، وركب عليها طواحين تدور بقوة المياه حتى إنه مع عدم الفيضان ونقص مياه النيل وحصول القحط كانت محصولاتها كافية لسد احتياج الجهات الأخرى^(١).

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٢.

وهذه المديرية تنقسم إلى قسمين: الأول مركز الغرق وهى قرية كائنة فى الجبل الغربى وأمامها وادٍ متسع يسمى الريان وهو نسبة إلى ريان بن الوليد المعروف بفرعون يوسف، ويوجد فيه كثير من الآثار القديمة^(١).

ويذكر محمد محسن أن المركز الأول هو طينار الموجودة فى أطهار، وأشهر قراها العجميين والغرق، وكذلك تعد قرية اللاهون من القرى المشهورة بها، وفيها قنطرة ذات عين واحدة فى نقطة تفرع بحر يوسف وبجوارها توجد خرابات لابرن، وفى شرق بحر يوسف يوجد بحر موركس ومعناه "معبد فم البحر"، وكان يطلق عليها باللسان اليونانى القديم "لابوراموت"، ويقال إنه كان فى هذا الموقع سراى مقسمة إلى ستة أقسام فى الجهة اليمنى وستة فى الجهة اليسرى ومداخلها متوازية ومتقابلة بعضها لبعض ويتوصل إليها بواسطة اثنى عشر شارعاً وفيها ثلاثة آلاف حجرة منها ألف وخمسمئة فى الطبقة الأولى وألف وخمسمئة فى الطبقة الثانية، بخلاف الصالونات، وفى نهايتها يوجد أهرام مزينة بأشكال عجيبة، وهذا كان مخصصاً لاجتماع الحكماء وموظفى الحكومة للتشاور فى أمور الدولة. ومن ضمن ما اشتملت عليه جملة سراديب تحت الأرض يتوصل منها إلى أهرام داخلها مقابر مدفون فيها مومياوات الذين بنوها.

ويشاهد فيها الآن تلال تدل على تلك الآثار التى هُدمت حتى إن كانت النقوش والكتابة التى عليها مسحت لا يمكن قراءتها.

ولملوك العائلة الثانية عشرة بالفيوم جملة آثار، وبالأخص أمنحتب، وهو الفرعون الثالث من نفس الأسرة، تنسب إليه آثار مهمة. ومن ضمن أعماله أنه كان يخزن مياه النيل فى المنطقة المنخفضة التى سبق ذكرها حتى إذا نقصت مياه النيل يصرفها لرى الأراضى، وتبين ذلك من اكتشاف الآثار القديمة.

(١) محمد ميرى: المصدر السابق، ص ٨٧.

وكانت توجد بحيرة لتصفية بحر يوسف بجوار قرية وجرى وأبو صير ودفنوا، وهناك قريتان معروفتان باسمي "البصية" و"الرمان" مشهورتان بحسن نسيج الصوف وبجودة الرَّمَان.

المركز الثاني مركز سنورس، ومركز إدارته "دار الرماد"، وقراه الشهيرة هي سنهور وأبو كساه وسيلة والمعصرة والدودة. وبداخل هذا المركز يوجد قصران قديمان أحدهما يسمى قصر قارون والثاني قصر كافور^(١).

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان قرية أبو كساه بـ ٨٢٨٥ نسمة، ويحدد بعد المسافة بين اطا وسنورس بساعة وربع ويقدر عدد سكان سنورس بـ ٣٧٧٣، وتقع شرق بحر يوسف بنحو أربع ساعات من مدينة بنى سويف^(٢).

مديرية المنيا:

ويحدها شمالاً بنى سويف وجنوباً أسيوط، وشرقاً الجبل الشرقى، وغرباً الجبل الغربى. عاصمتها المنيا، وتمتاز عن غيرها من المدن فى انتظامها وحسن موقعها ولطافة هوائها وكان هارون الرشيد من (خلفاء العباسيين) أرسل إليها خصيب بن عبد الحميد لتحصيل الأموال الأميرية لذا سُميت بمنية الخصيب^(٣).

ويقال لها من الجهة الشرقية "زاوية المتين"، ويوجد فى الجبل المشرف عليها جملة مغارات فيها رسوم ونقوش مما كان قدماء المصريين يُجْرُونَه بشأن الرسوم الدينية وما يتعلّق برسوم الملاحة فى البحار.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٦ و ١٦٧.

(٢) يقول سليمان شكرى: بنى سويف شهر نزلت ساعت ٥،١ لى وبحر يوسفك شرققده واقع ٣٧٧٣ نفوسلى سنورس مركزينه بريجق ساعت اوزاق اطا ٨٢٨٥ نفوسلى ابوكساه قريه لرنده (سياحات كبرى، ص ٣٢١).

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢١.

وتنقسم إلى أربعة أقسام: الأول مركز المنيا وملحقاته ٤٤ قرية، وأشهر قراه الواقعة شرق النيل: دمشير والمطاهرة وبله وأبو قرقاص وقرية طهنسا وهي على بعد نصف ساعة من غرب ساحل النيل، ويوجد أيضا في الجبل الشرقي المقابل لناحية أبو قرقاص مغارات مشهورة بإصطبل عنتر وقرية بلنصورة الواقعة في شرق ساحل بحر يوسف والمشهورة بجمال نخيلها، ويقدر سليمان شوكت عدد سكان مركز المنيا بـ ٢٤٢٣٥ نسمة، وهي على بعد ٢٤٨ كيلومترا من القاهرة^(١).

ويعتبر محمد مهري أبو قرقاص^(٢) المركز الثاني لهذه المديرية التي يقسمها إلى ستة أقسام لا أربعة كما ذكر محمد محسن، أما سليمان شوكت فيقسمها إلى سبعة مراكز: الفشن ومغاغة وبنى مزار وسالموط والمنيا وأبو قرقاص والصبة.

والمركز الثاني هو قلو سنة، وهي في المعصرة في الجانب الغربي للنيل، وقراها المشهورة بردنو وسلموط ومطاي^(٣).

والمركز الثالث بنى مزار، ويقع في الجانب الغربي من النيل، وقراه الملحقة به شرونة الموجود فيها مرقد مقام الشيخ إبراهيم شلتامى (من السادات الحنفية)، وهي الطريقة الخلوتية، ويقام بها مولد في كل سنة يجتمع فيه كثير من الأهالي، ومن قراه أيضا شلقام والجرنوس وبوجرج والقيس.

ومن أقدم بلاد مصر بلدة (قرية) بهنسا التي قسموها الآن إلى قسمين أحدهما البهنسا الشرقية والثاني البهنسا الغربية، فالأولى على شرق بحر يوسف والثانية جهة الغرب ويقام بها كل سنة موسم للشهداء الذين استشهدوا فيها مدة الفتح الإسلامى، ويكثر البيع والشراء في مدة هذا الموسم.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٨٩.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣١.

ومما يذكره محمد ميري أن ملحقات المركز السابق يدرجها ضمن مركز سمالوط لا بنى مزار الذى يحدد موقعه فى قلوبسنا فى المعصرة غرب النيل ويعدد ملحقاته بخمس وأربعين قرية.

والمركز الرابع مركز الفشن الواقع غرب ساحل النيل، وقراه المشهورة مغاغة وسلاقوس وسفط العرفا.

ويحدد محمد ميري عدد قراه بـ ٣٨ قرية، كما يعتبر قرية مغاغة مركزاً مستقلاً بذاته ويحتوى على ٤٥ قرية، ويحدد سليمان شوكت بُعدها عن الفشن بثمانية وستين كيلومتراً وتبعد الفشن عن المنيا بثمانية وثمانين كيلومتراً وتبعد بنى مزار عن مغاغة بخمسين كيلومتراً وسمالوط عن بنى مزار بستة وعشرين كيلومتراً^(١).

ويعتبر سليمان شكرى^(٢) الواحات البحرية تابعة لهذه المديرية، ويوجد بهذه الواحات مدن البايوطى - عدد سكانها ١٧١٤ والزبو - عدد سكانها ٨٥٨ - والقصر - عدد سكانها ١٧١٢ - وتبعد عن السويس بخمسمئة ألف متر غرب البحر الأحمر، والمنديشة، عدد سكانها ١٧٩٨.

مديرية أسيوط:

يحدها شرقاً وغرباً الجبل الشرقى والجبل الغربى وشمالاً المنيا وجنوباً جرجا، وبذلك فهي تقع بين مديرتى المنيا وجرجا، على الطرف من حافة الجبل الغربى إلى الخلف قليلاً من الساحل الغربى للنيل.

(١) محمد ميري: المصدر السابق، ص ٩٠.

(٢) يقول سليمان شكرى: كروندة ١٧١٤ نفوسلى البايوطى و ٨٥٨ نفوسلى الزبو، وبحر احمر ك غربنده وسويشن بشى يوزبيك مترو بعيد و ١٧١٢ نفوسلى البقر و ١٧٩٨ نفوسلى منديشه قصبه لرى بولنان واحات البحرية دخى بومديرنه تابعدر. * (سياحات كبرى، ص ٢٣١).

وتوجد فى أطراف الجبل الغربى المذكور مغارة كان المصريون القدماء يدفنون الأموات فيها، وقسم من هذه المغارة كان يخصص لدفن الحيوانات التى يقدسونها، وتدل النقوش التى على جدرانها على كيفيات المريخ وإحضار الذبائح بعد أن انتشرت النصرانية فى الإقليم المصرى^(١).

وفى قسم من هذا الجبل المذكور توجد مغارات تسمى "إصطبل عنتر" بها نقوش وتماثيل قديمة، وفى الفترة الأخيرة حدث بعض المعارك بين محمد على باشا وبعض الجراكسة المطرودين من مصر، وتم التصالح بينهما فيها بوساطة العلماء.

ويوجد فى مدينة أسيوط جامع عظيم فيه مقام الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشهير بمؤلفاته التى بلغ عددها ثلاثمئة تقريباً، وُلد فى هذه المدينة سنة ٨٤٠ هـ. وكذلك وُلد فيها أسعد بن المذهب بن أبى المليح المشهور بابن محاث صاحب "حجة الحق على الخلق" و"قوانين ودواوين" و"نظم كلية ودمنة"^(٢).

وتنقسم هذه المديرية إلى سبعة مراكز (ويقسمها محمد مهري إلى ستة مراكز): المركز الأول أسيوط، وقراه المشهورة الحمراء والدونية وشطب وقرقااص وموشة والزاوية ودرونكة والمعطى، وتقع أسيوط غرب ساحل النيل، وفى إشارة إلى تجارة هذه المدينة يصفها سليمان شكرى بأنها مدينة جميلة تقع شمال النيل^(٣).

والمركز الثانى أبنوب الحمام الواقعة شرق النيل، وقراه المشهورة الواسطة والحمام والمعصر والمعابدة، ويحدد محمد مهري عدد هذه القرى باثنتين وخمسين قرية.

والمركز الثالث أبو تيج ويقع غرب ساحل النيل (الساحل الغربى للنيل)، وقراه المشهورة النخيلة والزراوى ودير الجنادلة ودوير وبويط والكوم الأحمر.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٨ و ١٦٩.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٩٠.

(٣) سليمان شوكت: المصدر السابق، ص ٣٣٢.

وبريا والغنائم والصوفا^(١). ويقدر سليمان شكرى عدد سكان قرية الزرابى بألف وثمانمئة وسبع وأربعين نسمة، وهى تقع على بعد ساعتين من مركز أبو تيج، وعدد قرى هذا المركز ٣٧ قرية.

والمركز الرابع منفوط، وأهم قرراه العثامنة والحوانكة والأنصار ونزالسى جنوب وبنى قررة والقوصية والتمساحية والسنبور التى ولد فيها محمد بن محمد الأمير سنة ١١٥٤ وتُوفى سنة ١٢٣٢، وهو صاحب مؤلفات كثيرة جدًا فى الهندسة والحكمة والفقہ المالكى.

وكذلك قرية بنى عذى التى ولد ودفن فيها الشيخ صالح سباعى والعارف بالله أحمد بن محمد بن محمد الديردى صاحب المؤلف المشهور "أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك" و"التجريد فى التوحيد"، وكذلك الشيخ على بن أحمد مكرم الله الصعيدى وهو من مشاهير الزهد والتقوى والعلم^(٢).

ويحدد محمد مهرى عدد قرى هذه المديرية بأربع وخمسين قرية.

والمركز الخامس ديروط الواقعة فى الجانب الغربى للنيل، وقرراه المحيطة به ديروط وأم النخلة والمنظرة وبيلاو وبويط ودلجة ودشروط، وعدد قرراه ٥٨ قرية. ويوجد به ستة جسور منتظمة ظهرت بتكلفة منتهى ألف من أجل توزيع المياه على جداول بأسماء الإبراهيمية والساحل ودرر وبحر يوسف وحوض ولحامى.

والمركز السادس ملوى، وأهم قرراه بنى عمران وأنصنا والروضة وخفن والمعصر ونواى وساقية موسى وأشمونين، وجميعها يقع على الساحل الغربى، ويقدر سليمان شكرى عدد سكان أشمونين بسبعة آلاف وسبعمئة وتسع وعشرين نسمة. ويشير أيضا إلى أنها كانت أعظم مدائن القطر المصرى قديما، ثم فقدت

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٢) سليمان شكرى، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

عمرانها القديم ومكانتها العظيمة تمامًا. وكانت الملكة كيلوباترا التي انتحرت سنة ٦٥٢ ق.م والتي كانت آخر من حكم من الملوك البطالمة، قد بنت هذه المدينة^(١)، ولذلك يقول محمد محسن إن في المغارات الضخمة التي يروى أنها أنشئت من قبل كيلوباترا آثارًا عتيقة أخرى.

ومن الروايات التي ينقلها محمد محسن أنه قد ولدُ بقرية خفن مارية والدة إبراهيم عليه السلام ابن سيد المرسلين. ويوجد بها مغارات ضخمة جدًا يقال إنها أنشئت من قبل كيلوباترة في أشمون، ويوجد كذلك العديد من الآثار القديمة، ومن هذا المكان أيضًا تصل الطرق إلى الفيوم بواسطة بهنسا، وإلى الواحات الواقعة في الجهات الغربية.

كذلك يقدر سليمان شكرى عدد سكان الروضة وبها مزرعة الخديو بـ ٧٧٢٥ نسمة، وتبعد عن مركز ملوى بثمانية كيلومترات.

ويحدد محمد مهري عدد قرى هذا المركز باثنتين وخمسين قرية.

والمركز السابع البدارى وعدد قراه ٣٠ قرية، أما المجموع الكلى لقرى هذه المديرية فيبلغ ٢٨٠ قرية^(٢).

ويرى سليمان شوكت أن الواحات القبلية تتبع هذه المديرية وتوجد بها ست عشرة قرية وعدد سكانها ٢٤٣١ نسمة. ويحدد المسافة بين أسويط والواحة المذكورة بست ليالٍ بالجمال من فوق الجبل الغربى. وتتقسم هذه الصحراء إلى قسمين: "الواحات الداخلة والواحات الخارجة. وتشمل الأولى اثنتى عشرة قرية، وعدد سكانها ١٧٠٩٠، ومركزها قرية موط وعدد سكانها ١٣٤١، أما الواحات الخارجة فتشمل أربع قرى وسكانها ٤٥٣٩ نسمة ومركزها قرية وباريس، وعدد سكانها ١٤١١ نسمة^(٣).

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٢) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٤.

مديرية جرجا:

تقع بين مديرتي قنا وأسيوط، ويحدها الجبل الشرقى والجبل الغربى شرقاً وغرباً، وكذلك شمالاً الجبل الشرقى وأسيوط، وجنوباً الجبل الغربى ومديرية قنا.

ويختلف الرحالة أيضاً فى عدد مراكز هذ المديرية، فيذهب محمد محسن إلى أن عددها سنة مراكز، أما لدى محمد محسن وسليمان شكرى فهي خمسة مراكز.

وأول هذه المراكز سوهاج التى تقع بالقرب من النيل، وأشهر قراها أخميم وشندويل وجزيرة شندويل، ويصف محمد محسن قرية أخميم بأنها كبيرة إلى حد ما وهى فى شرق النيل على مسافة ثلاثة آلاف خطوة، وكان الرومان واليونان يسمونها بأنابوليس اعتماداً على الشمس، ويوجد بها الآثار القديمة المنقوشة التى تكثر بمديرية جرجا عنها فى أى مكان^(١)، وهو ما يؤكد سليمان شكرى الذى يذكر أن عدد سكانها ٢٧٩٥٣ نسمة، وهى على بعد ثلاثة أرباع الساعة من سوهاج، وتقع يمين شاطئ النيل، وظهر فى هذه المدينة أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم "ذو النون المصرى" الذى توفى سنة ٢٤٠، ويقدر سليمان شكرى عدد سكانها بأربعة عشر ألفاً وخمسمئة واثنى عشرة نسمة، وهى تبعد عن القاهرة بأربعمئة وسبعين كيلومتراً. ويصفها بأنها مدينة جميلة تقع شمال ساحل النيل، وبسبب وقوعها وسط المديرية وجمال موقعها هذا أمر الخديو السابق سعيد باشا بنقل مركز مديرية جرجا إليها بعد أن كانت جرجا هى المركز منذ القدم، ولم يتمكن سليمان شوكت من رؤية آثار قديمة فى هذه البلدة سوى دير الأقباط^(٢). ويبلغ عدد قرى هذا المركز ٥٩ قرية.

(١) يقول محمد محسن: "اشبه اخميم قصبه سى نيلك شرقته واورچيك خطوه قدرده اوزاغنده بيوكجه برشهر

اولوپ روما ويونانيلى بورابى شمس اسناد ايله باتابوليس تسميه ايتمخلرايدى الك بيوك طاشلى وكثرتله نقشلى اثار قديمه بورالرده يعنى جرجا منيريتده هريردن زياده اولوپ" (أفريقيا دليلى، ص ١٧١).

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٤.

والمركز الثانى البلينا، وتقع غرب النيل، وأشهر قراها العرايات المدفونة وهى على بعد ثلاث ساعات من البلينا وكانت قديماً مدينة عامرة اسمها أبيدوس، فقد صارت عاصمة حكم العائلة الأولى التى حكمت قبل خمسة آلاف وستمئة وست وعشرين سنة من الهجرة، والعائلة الثانية التى حكمت ثلاثمئة سنة ويوجد بها مقابر بعض الملوك الفراعنة من العائلة الرابعة عشر التى حكمت ثلاثة آلاف وستمئة وثمانية أعوام، والرابعة التى استمر حكمها قبل أربعة آلاف وثمانمئة وسبع وخمسين سنة من الهجرة ويوجد بها ثلاثة تماثيل كبار من الآثار القديمة، الأول هو أستيوس وهو ثانى الأسرة التاسعة عشرة الذى استولى على آسيا الصغرى شرقاً والحبشة جنوباً، والثانى ينسب إلى سيزوستريس أو رمسيس الثانى وهو من أعظم الفراعنة.

وقد كشفت تلك الآثار سنة ١٢٧٦ هـ عن رسوم ملكية فى بعض الأماكن تحوى بعض الرسوم^(١)، ويقدر سليمان شكرى عدد سكان هذه القرية بثمانية آلاف وخمسمئة وثلاثين نسمة، بالإضافة إلى أن من بين قرى هذا المركز أيضاً قرية البينيا وكانت قديماً ملتقى للشعراء والظرفاء، فكانت بمثابة سوق عكاظ مصر^(٢).

والمركز الثالث جرجا التى تقع غرب النيل، وأشهر قراها البربا، وعدد قرى هذا المركز ٥٤ قرية.

والمركز الرابع طهطا، وتقع فى الجانب الغربى من النيل على بعد كيلومتر واحد تقريباً منه، وأشهر قراه التى تبلغ ٤١ قرية قرية جهينة، وقد ولد فى هذا المركز سيد الطهطاوى الذى شرح درر ومرافى الفلاح، وتوفى فى ١٢٣١.

(١) محمد مهري: المصدر السابق، ص ٣٢٧.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٧.

والمركز الخامس طما على الساحل الغربى للنيل، ويشمل ٣٦ قرية أهمها
عثمانية وأم الدمة.

أما المركز السادس الذى يذكره محمد محسن فهو بـلصفورة التى تسمى
المشينة على الساحل الغربى من النيل أيضاً، وأهم قرأه العربية وكريشة^(١).

مديرية قنا:

تقع بين مديرتى جرجا وبندر إسنا، ويحدها شمالاً جرجا، وشرقاً وغرباً
الجبل الشرقى والجبل الغربى وجنوباً أسوان.

ويقسم محمد محسن هذه المديرية إلى أربعة مراكز، بينما يقسمها محمد
مهري وسليمان شكرى إلى ستة مراكز.

أول هذه المراكز قنا شرق النيل وأهم قرأه البلاخى وندرة وقفت والشرفا
فى غرب النيل، ويبلغ عدد سكان قنا سبعة وعشرين ألفاً وأربعمئة وثمان وسبعين
نسمة وتبعد عن القاهرة ٦١٢ كيلومتراً ويعبر بها خط القطار الذى يؤدى
إلى الشلال.

وكان يوجد فى قرية دندرة سقف قصر حجرى منقوش عليه منطقة البروج
قديماً ثم أخذه الفرنسيون حين احتلالهم وأرسل إلى متاحفهم حيث يوجد الآن^(٢).

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٢) يقول محمد محسن: "اشبهو مديريتكم اربعة منقسمه سندن اولكيسى اولان قنا قسمنى نيلىك غربنده
البلاص وندره وقفت وشرقا قريه لرى تشكيل اينوپ بونلردن دندره دن وقتيله موجود واوزرنده منطقه
البروج منقوش بولنان برسقف قصر طائسنى فرانسزلر استيلالرى هنگامده الوپ گوتورمش اولقلرنندن
الان كندى موزه لرنده در" (أفريقا دليلى، ص ١٧٢).

ومما يذكره محمد محسن أنه حدثت فتنة عظيمة أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي في قفط أيضاً، وتم إخمادها بعد أن أعدم الكثير من متسببيها، وقد دفن بقنا العارف بالله السيد عبد الرحيم بن أحمد القناوى الذى تُوُفِّي سنة ٥٩٢ هـ.

وثانى مراكز هذه المديرية قوص، وتقع على بعد ٣٥٠ متراً تقريباً من الساحل الشرقى للنيل. ويفهم من الآثار القديمة الموجودة فيها أنها منسوبة إلى كيلوباترا. ويقال إن كلمة "قوص" باللغة المصرية القديمة معناها الدفن، ويروى أنه كانت فيها قبيلة تستغل بصناعة تدفين الملوك، وذكر أبو الفدا في تاريخه أن بندر قوص كان مركزاً لتجارة الهند والحبشة والحجاز واليمن، وكانت آيلة إلى الخراب مع أنها كانت تعد في الدرجة الأولى بعد القسطنطينية، وبعد إعمارها مرة أخرى فى سنة ٤٠٠ هـ صارت من أكبر المدن المصرية.

ويملك أهالى هذا المركز مهارة فائقة فى الإمساك بالعقارب والأفاعى، ويحرص معظم الرحالة الأتراك على ذكر المشاهير الذين ظهروا فيه، ومنهم بهاء الدين زهير القوصى. الذى دُفن فى مقبرة بالقرب من مقابر الإمام الشافعى. وكان بهاء الدين القوصى قد فر فى فترة من الفترات إلى نابلس ثم عاد فى النهاية بعد أن تغيرت السياسة الداخلية.

وكذلك نشأ فيها الإمام تقي الدين محمد المعروف بابن الدقيق العبيدى صاحب العديد من المؤلفات القيمة، ودُفن فى أطراف جبل المقطم.

بالإضافة إلى سراج الدين ومسى المعروف بأبى البقا وهو من رجال الفضلاء، ظهر سنة ٧١٦، وعبد الرحمن محمد القوصى ومحمد بن عيسى الأخمينى، وظهرا فى سنة ٦٥٣، وإبراهيم بن عبد المغيث القوصى وهو من العلماء، سنة ٧٢٧، وأحمد بن عيسى القوصى من العلماء المتبحرين سنة ٧٩٢، وظهر فيها أيضاً نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد الذى شرح "البحر المحيط فى شرح الوسيط" و"كافية بن الحاجب" و"الأسماء الحسنى" وهو من قرية قمولة^(١).

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٦.

وأشهر قرى مركز قوص دمامين ونقادة على الساحل الغربى ولوقصور، ويصف سليمان شكرى مركز قوص بأنه كان أعظم مدن مصر فى الأزمنة القديمة، وتبعد قرية نقادة عنه بثلاثة أرباع الساعة، وعدد سكانها ٦٧٨١ نسمة وبينه وبين قنا واحد وثلاثون كيلومتراً.

والمركز الثالث هو فرشوط الواقع فى الجهة الغربية للنيل وعاصمته نجع حمادى، ويعكس سليمان شكرى هذا الوضع، فتكون نجح حمادى هى المركز وفرشوط ملحقة به وتبعد عنه بثمانية كيلومترات وعدد سكانها ١١٩٣٥ نسمة، وكذلك قرية بهجورة التى تبعد عن المركز بنصف ساعة وعدد سكانها ٩٩٥٧ نسمة، وقرية سمندوت تقع شرق ساحل النيل بأربعة كيلومترات، ومن ملحقات فرشوط أيضاً قرية النصر، وفى سمندوت تربي الحيوانات الجميلة جداً. وتبعد قرية القصر بنحو مئة وخمسين خطوة فى الجهة الشرقية للنيل، واشتهر أهلها بالفروسية^(١).

والمركز الرابع هو دشنا الواقعة شرق النيل.

والمركزان الخامس والسادس هما الأقصر وإسنا كما ذكر سليمان شوكت، ويعتبر محمد محسن المركز الأخير (إسنا) مديرية مستقلة بذاتها، فهى تقع بين قنا والشلال الثانى للنيل، وعاصمتها إسنا وتقع فى الساحل الغربى^(٢).

ويذكر سليمان شكرى^(٣) أن مركز إسنا مشهور بلطافة مناخه ومبانيه العالية ويبعد عن قنا بمئة وتسعة عشر كيلومتراً وملحقاته ١٨ قرية و ٩٣ عزبة، وعدد سكانه ٨٤٥٨٨ نسمة.

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٥.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٣) يقول سليمان شكرى: قنايه يوز اون طقوز كيلو مترو بعيد اولوپ لطافت هوا ومباني عاليه جه مشهور اسنا مركزى دخی بر مقلو آثار عتيقه فاخره ايله مملوء در. اسنانك ملحقاتى اون سكر ناحيه وطقسان اوج عزبه ايله اتیان وابعاديہ سکنه عمومیه سى ٨٤٥٨٨ نفوس اولوپ... (سياحات كبرى ص ٣٣٥).

أما محمد محسن فيقسمها إلى خمسة أقسام، أولها عبارة عن قريتين هما أرمنت ومطاعة. والقسم الثاني هو إدفو، والثالث أسوان ويقع شرق النهر على مدخل الشلال الأول للنيل، ويعتبر أيضا هنا بداية مدار السرطان. وأشهر قراه أبريم وعنفش والدرر التي تقع شرق النيل في جنوب أسوان. ويتضح من الكتابات الموجودة على تمثال رمسيس الثاني أنها مكان قديم ينسب إلى الشمس.

وكذلك من القرى سكوت وأبو سنبل وناحية الشلال، وهي في غرب النيل، وسكان قرية أبريم هم الذين تم نفيهم من مصر أو هم من البربر الذين أخبروا أنهم ذوو أصل تركي اختلطوا مع الوطنيين، وكانوا قد نفوا أيضا من دار السعادة إلى هذا المكان قديماً^(١).

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٧.

الفصل الخامس

تقويم أهم الآراء التي وردت في كتابات الرحالة الأتراك

إذا كان من الضروري الرجوع إلى كتب الرحالة الأتراك لمعرفة ما كتبوه عن مصر خلال فترة زيارتهم لها، فإننا مطالبون أيضًا بأن نرجع إلى ما كُتب عن مصر بأقلام أهلها أولاً ثم بأقلام بعض الرحالة الغربيين المحايدين، وقد حرصت على أن أقدم مصادر أصيلة لمؤرخين شاهدوا أحداث تلك الفترة^(١)، وفي محاولة

(١) هذه المصادر هي:

- ١- شاوربم ميخائيل: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث. الجزء الرابع بولاق سنة ١٣١٨ هـ - سنة ١٩٠٠ م.
- ٢- إسماعيل سرفنك: حقائق الأخبار عن دول البحار. الجزء الثاني، المطبعة الأميرية سنة ١٣١٢ هـ.
- ٣- على باشا مبارك: الخط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج١، ج٢، ج٣، ج٤، ج٥، ج٦.
- ٤- محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م.
- ٥- تقويم النيل: أمين سامي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ - سنة ١٩١٦ م، الجزء الثاني، الجزء الثالث (المجلدات الأول والثاني والثالث).
- ٦- مصر في عهد الاحتلال الإنجليزي، والمسألة المصرية، الألماني هو سيوهنس وزير مصر سنة ١٣١٤ - سنة ١٨٩٧ م.
- ٧- ضبط النيل: السير مردوخ مكدونالد: مستشار وزارة الأشغال العمومية الجزء الأول، طبع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٢٠.
- ٨- فيليب جلاد: قاموس الإدارة والقضاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج٥، ج٦.
- ٩- أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن، الجزء الأول، مطبعة مصر، سنة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٤ م.

أما الرحالة الغربيون فما لا شك فيه أن مصر قد تدفق عليها أعداد هائلة من الرحالة من مختلف الجنسيات في القرن التاسع عشر، ولكن تم اختيار عدد من الرحالة الفرنسيين والإنجليز المحايدين، وإن كان من الملاحظ أن كتابات الرحالة الفرنسيين أفضل وأدق إلى حد كبير من غيرهم، وبخاصة في تلك الفترة، كما أن لكتاباتهم تعاطفا كبيرا مع نصرة المضربين في مصر، واهتماما كبيرا بوصف الطبقات الاجتماعية المختلفة، ويمكن تلخيص ذلك بتغلغل هؤلاء الرحالة في المجتمع المصري أكثر من غيرهم، في حين نجد الكثرة الغالبة من الإنجليز متغطسة متعصبة تنظر إلى الشرق بعامة وإلى مصر بخاصة نظرة التعالي والازدراء، وما تتطوى عليه من اتجاهات سياسية فلم يهتموا بتقديم صورة دقيقة عن مصر وأحوالها، باستثناء قلة منهم أنصفوا مصر في كتاباتهم عن المصريين مثل لويس ليدى داف جوردين في رسائلها عن مصر التي سجلت فيها روح انتماسح التي تسود بين المسلمين والمسيحيين في الاحتفالات الوطنية، وقد تم الاطلاع عليها، وكذلك هناك كتاب ألفه المستر ألفريد سكاون بلنت وهو سفير إنجلترا في القاهرة في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢، وقام بتأليف "التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر" وراجعته ووافق على ما فيه الشيخ محمد عيده، ونشر في مطبعة البلاط الأسبوعي سنة ١٩٢٨.

لتقويم ما أورده هؤلاء الرحالة الأتراك في كتاباتهم، وقياس آرائهم على ضوء هذه المصادر الأصلية.

ولن تستند هذه المحاولة إلى عقد المقارنات بين كل كتاب من كتب الرحالة الأتراك وهذه المصادر، بل سوف تعتمد على تجميع كل نقاط التشابه والاختلاف في كل جانب من الجوانب التي أوردها هؤلاء الرحالة، وذلك لزيادة الإيضاح والانتقال من مستوى التحليل إلى مستوى التجريد.

أما أوجه التشابه فتتصدر في ما يلي:

أولاً: الجانب الاقتصادي:

(أ) الزراعة:

بالنظر إلى المعلومات التي أوردها كل من محمد محسن في كتابه "أفريقيا دليلى" ومحمد مهرى في "سودان سياحته سي" وسليمان شكرى في "سياحات كبرى" وخالد ضيا في "مصور مصر خاطراتى" بشأن النشاط الزراعى ومحاولات محمد على باشا إنماء ثروة مصر الزراعية، ثم ازدياد الرقعة الزراعية بعد محمد على واستخدام التقنيات الحديثة كما أوضح محمد مهرى وسليمان شكرى، نجد أن هذه المعلومات قد جاءت بلسان حال الواقع وما صورته لنا مصادرنا السابقة^(١).

(١) للتفصيلات انظر: أمين سامى باشا - تقويم النيل - الجزء الثانى من ص ٢٤٦ إلى ص ٥٧٢، وعلى باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر - القاهرة، الجزء الأول ص ١٨٧.

ومن ناحية أخرى، نجد أن بعض الرحالة الغربيين - وبخاصة الفرنسيون - مثل فولنى وكادلفين قد اتفقوا مع رحالتنا الأتراك في الإشادة بثروة مصر الزراعية في تلك الفترة^(١).

ومن الرحالة الأتراك من تجاهل ذكر أى من التطورات التى حدثت بمصر فى تلك الفترة وهو جناب شهاب الدين، فهو لا يعول كثيراً على تجديدات محمد على وجهوده فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة وفى بناء الدولة الحديثة، أو الحديث عن أحفاده، فهذا ليس موضع اهتمامه. ومن السذاجة بمكان أن نعلل ذلك باعتبار أن "شخصية" تتعلق بالمؤلف واهتماماته فحسب، ومن الممكن أن يكون السبب مجرد التعبير عن رفض أى محاولة للتحديث والتغيير فى بلد كان تحت السيطرة العثمانية فى وقت ما، فقد مرت مصر فى القرن التاسع عشر بتغيرات سياسية كبيرة، ولم تعد تقريباً ولاية تابعة للدولة العثمانية.

(ب) التجارة:

وبالنسبة إلى التجارة، نجد نفس الأمر فى حديث الرحالة الأتراك فى ما يتصل بها، فإننا نجد تطابقاً بين هؤلاء الرحالة والمصادر العربية والأوربية التى نقيس عليها وبخاصة ما ذكره كل من محمد محسن ومحمد مهري وسليمان شكرى ومحمد عزت وعبد الغنى سنى بك عن ازدهار التجارة وجهود محمد على فى اتساع دائرة التجارة الخارجية، وازدياد ثروة مصر من التجارة الداخلية فى عهد خلفاء محمد على، وإنشاء العديد من الموانئ التجارية، وكذلك إنشاء الخطوط

(١) أما الرحالة الفرنسيون، فقد تم اختيار الكثيرين منهم (مثل فولنى وكادلفين وميشو وشولشييه وشارل بلان وغيرهم مما سياتى ذكرهم فى ثنايا البحث)، أما ما رجعنا إليه من الكتب الأوربية بلغاتها الأصلية فهو:

1- Gerard de Nerval: "Voyage en Orient Paris, 1929.

2- Theophile Gautier: 'Orient vol II Pairs. 1930.

3- Jean Marie Carré: Voyageurs et écrivains Français en Egypte. Vol. II, Paris, 1934.

الحديدية بين القاهرة والإسكندرية في عهد الخديو عباس، التي سهلت تنظيم التجارة الداخلية ثم امتدادها في كل مكان بمصر في عهد الخديو إسماعيل. ومشروع قناة السويس والتوسع في مد الخطوط التلغرافية ومكاتب البريد في مصر^(١).

وغنى عن الذكر أن الرحالة يختلفون في ما بينهم تبعاً لثقافتهم، فنحن عندما نرى الرحالة الغربيين يتحدثون عن الخطوط الحديدية التي تم إنشاؤها بمصر، يتفاوتون مع رحالتنا في النظرة والرؤية، فبينما يناقش هذه المسألة الرحالة الأوروبيون^(٢) على أنها قضية سياسية في المقام الأول نجد معظم رحالتنا الأتراك يفردون صفحات طوالاً للحديث عنها، حيث إنه يعد أول خط حديدي أنشئ في الشرق قاطبة. ويبدون إعجابهم بها، ورأينا أن السلطان عبد العزيز تملكته الدهشة عندما استقل القطار من الإسكندرية إلى القاهرة، إذ إنه لم يكن قد رأى القطار من قبل. وقد أشار شاوربم ميخائيل إلى أن من أسباب زيارة هذا السلطان لمصر أن رجال السلطنة قد زينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار.

(ج) الصناعة:

كذلك نجد تطابقاً في تسجيلهم عن الصناعة وتطورها خلال هذه الفترة، حيث شهدت مصر تطوراً في مجال الصناعات الكبرى وإنشاء العديد من المصانع والمعامل.

(١) للتفاصيل في هذه النقاط راجع: أمين سامى باشا تقويم النيل، الجزء الثاني، ص ٥٨١، والمجلد الأول من الجزء الثالث، ص ١٣، ص ٤٢، والمجلد الثاني من الجزء الثالث ص ٤٣٥، ص ٤٣٦، وكذلك إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، الجزء الثاني ص ٢٦٦، ص ٢٦٧، وكتاب "مصر في عهد الاحتلال الإنجليزي والمسألة المصرية" تأليف الموسيويهنس رزور الألماني وهو محرر جريدة الكوريه ديجيت "الرائد المصري" ص ٤ "المقدمة".

(٢) انظر آراء كل من شولشييه وكادلفين وشارل بلان حول هذه المسألة في كتاب د. إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، القاهرة سنة ١٩٩٥، ص ٣١٦.

ثانياً: الجانب الاجتماعي:

لم تكن حصيلة مطالعتنا في الجانب الاقتصادي تعبر عن صورة دقيقة للواقع، وتصوير صادق لمصر، إلا أنه في الجانب الاجتماعي لن يكون هناك سوى انطباعات وتفسيرات ذاتية يستقيها الرحالة من عواطفه تجاه ما يشهد، وليذا سوف نحاول أن نلمس صدق آرائهم من خلال كتابات بعض الرحالة الغربيين، وبعيداً عن بعض مصادرنا السابقة التي لم تشر من قريب أو بعيد إلى هذه الناحية.

ففي حديثهم عن طبقات المجتمع المصري نرى اتفاقاً واضحاً بينهم وبين معظم الرحالة الفرنسيين - مثل شولشييه وشارل بلان وميشو - ^(١) على سوء أوضاع طبقة الفلاحين ومعاناتهم من الفقر والسخره التي فرضت عليهم، وقد أظهر الطرفان تعاطفهما مع هذه الطبقة.

أما الطبقات الأخرى، فقد اختلفت اتجاهات الرحالة طبقاً لتنوع اهتماماتهم. غير أننا نجد أن تجاهل الرحالة الأتراك ذكر طبقة الأتراك، وتغافلهم عن وصفها ربما يرجع إلى أن سيل الأتراك الذي انهمر على مصر خلال عهد محمد على وخلفائه أخذ في الانحسار بعد ذلك، فلم يكد القرن التاسع عشر يبلغ نهايته حتى كانت تلك الفئة قد انحسرت في أسرة محمد على بفروعها المختلفة، وبعض العائلات التركية التي تلوذ بها.

كما أن توقف جلب المماليك منذ عهد إسماعيل، حرم تلك الطبقة من المورد البشري الذي يضمن لها استمرار النمو.

ثم زاد اضمحلال شأن الأتراك - كفئة اجتماعية - بعد الاحتلال البريطاني (١٨٨٢) منذ أصبحت الوظائف الحكومية الكبرى من نصيب الأوروبيين بعامّة والإنجليز بخاصّة ^(٢).

(١) انظر: إلهام محمد على ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين، ص ٢٤١ و ٢٤٢.
(٢) انظر: د. رؤوف عباس: تطور المجتمع المصري في القرن التاسع عشر، دار النهضة المصرية.

أما الأعراف والعادات المصرية التي وردت عند الرحالة الأتراك، ففي حديث خالد ضيا عن الزواج ومراسم الاحتفال به، نراه يفصل الصورة التي يرسمها عبد الرحمن الراجعي عن حفلات الأفراح في ذلك العصر، حيث كانت لها بهجة بالغة، فقد كان السراة والأعيان يتفنون في تفخيمها وتعظيمها ويتنافسون في مظاهر البذخ والإسراف فيها، وبلغ بعض هذه الأفراح من البهاء والروعة ما جعله أحاديث الناس، يتناقلونها جيلاً بعد جيل، أما أفراح الخديو إسماعيل، فحدث عنها ولا حرج وبخاصة الأفراح التي أقامها احتفالاً بزواج أنجاله الأمراء^(١).

وكذلك في حديث خالد ضيا عن مراسم الجنازة، ونقده العادات السيئة التي يتبعها المصريون من استئجار الندابات وصراخين وصبغ الوجوه بالنييلة، فقد ذكرها أحمد شفيق باشا في كتابه "مذكراتي في نصف قرن"، ويوضح أن هذه المظاهر الفاجعة كانت تبدو في الطبقات المتوسطة والدنيا، وظلت هذه العادة حتى ألغيت بأمر الخديو توفيق^(٢).

وفي تصوير خالد ضيا لمراسم الاحتفال بسفر المحمل، قدّم صورة دقيقة لما شاهده.

أما وسائل اللّجو في مصر، التي أفاض في الحديث عنها معظم رحالتي الأتراك، فيشير عبد الرحمن الراجعي إلى أنها بدأت تغزو مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد شهدت تلك الفترة نهضة فنية تشمل الظواهر المعروفة بالفنون الجميلة، وهي تتناول الموسيقى أو الغناء والتمثيل والرسم والتصوير والنقش والزخرفة والعمارة.

(١) عبد الرحمن الراجعي: عصر إسماعيل، ص ٢٩٨؛ وانظر أيضاً: أحمد شفيق: مذكراتي في نصف

قرن، الجزء الأول سنة ١٣٥٢ هـ - سنة ١٩٣٤م، مطبعة مصر، ص ٧٣.

(٢) انظر: أحمد شفيق باشا: المصدر السابق، ص ٧٤.

ويرجع الرافعى أسباب هذه النهضة الفنية إلى أن المجتمع المصرى فى عصر إسماعيل بخاصة، كان ميالاً إلى المرح والحبور، وكان إسماعيل ذاته طروباً محبباً للتمتع بالملهى والمسرات، وهذه الميول هى غذاء النهضة الفنية^(١).

وفى موضع آخر يذكر الرافعى أن ميل المجتمع المصرى إلى المرح والحبور يرجع إلى الثراء والرفاهية، ثم إلى انتشار التعليم، ومن هنا ظهرت النهضة الغنائية وازدياد إقبال الناس على سماع الأغانى والموسيقى وارتقت أساليب الغناء وارتقى الذوق الموسيقى فى المجتمع^(٢).

ولم تكن مصر تعرف من الموسيقى قبل عصر إسماعيل سوى الأساليب والتواشيح القديمة.

غير أننا نجد جناب شهاب الدين يوضح أن المصريين لا يقبلون على سماع الموسيقى الغربية، فالحان أوبرا عايدة التى كانت تعزفها الفرق العسكرية الموسيقية لم تستطع أن تجذب الأهالى عند زيارة جناب لحديقة الأوزبكية، وقد وضحنا فى ما سبق نظرات كل من خالد ضيا وعبد الغنى سنى بك فى ما يخص الغناء بمصر وهى تفسيرات ذاتية ووجهات نظر شخصية.

أما وسائل اللهو الأخرى مثل الأوبرا، فمن المعروف أن دار الأوبرا قد بناها الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٩ بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس، وتم بناؤها فى خمسة أشهر وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه، وقد مثلت فيها أول أوبرا اسمها "ريجوليتو" فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وعهد إسماعيل إلى الموسيقى الإيطالى الشهير فيردى أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا، فقام مارييت باشا الفرنسى بوضع رواية عايدة ومثلت لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة

(١) عبد الرحمن الرافعى: المصدر السابق، ص ٢٥١.

(٢) عبد الرحمن الرافعى: المصدر السابق ص ٧١.

١٨٧١^(١)، وقد أشاد بها معظم رحالتنا الأتراك وبنوه خالد ضيا بعدم مقدرة أى شخص على الذهاب إليها إذ إن العامة لا تخصص لهم أماكن فيها.

أوجه الاختلاف:

الجانب السياسى:

لا نكاد نلمس الكثير من أوجه الاختلاف إلا فى بعض المواقف القليلة جدًا، التى عبّر فيها بعض الرحالة الأتراك عن رأيه الخاص بحكام مصر فى تلك الفترة، وهو سليمان شكرى الذى صرح بعدم تقبله لحكم محمد على وأسرته، ولن نكرر هنا ما تم وصفه لهذا الحاكم وأفراد أسرته، إلا أنه من المؤكد أن هذا الحاكم قد أجمع مؤرخونا ومعظم الرحالة الغربيين على أنه المؤسس الحقيقى لنهضة مصر الحديثة والسالك بها سبيل التقدم والنجاح، فقد كان نقطة تحول مهمة فى تاريخها^(٢).

الجانب الاقتصادى:

هناك أيضًا ملحوظة بسيطة أو اختلاف فى ما أورده الرحالة سليمان شكرى بشأن استفادة الفلاح المصرى من الثروة الزراعية التى حققتها مصر فى تلك الفترة، ولكن بالنظر إلى مصادرنا يتضح عكس هذا، فقد ظلت طبقة الفلاح تعاني

(١) عبد الرحمن الرافعى: المصدر السابق، ص ٢٠٥، وكذلك انظر شاروبيم ميخائيل: الكافي فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الرابع، ص ١٤٦.

(٢) انظر آراء كل من أمين سامى باشا فى كتابه تقويم النيل الجزء الثانى فى الخاتمة حيث يشير إلى أن ما قام به محمد على باشا قد انتشل فيه محمد على مصر من وهدة الأنماط إلى الدرجات العالية، وكذلك أراؤه عن أفراد أسرة هذا الحاكم فى المجلد الأول من الجزء الثالث، والمجلد الثانى من الجزء الثالث والمجلد الثالث من هذا الجزء أيضًا، ص ٤٣٥، انظر كذلك كتاب عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، وعصر إسماعيل، الجزء الثانى ورأى الموسيو هنس رزنى فى كتابه: مصر فى عهد الاحتلال الإنجليزى والمسألة المصرية، ص ٤.

من الفقر والحاجة، وبخاصة بعد أن أرهقته الضرائب، التى غالبًا ما كان يعجز عن دفعها.

أيضًا هناك بعض الآراء الشخصية التى أدلى بها الرحالة جناب شهاب الدين والتى تخص الحياة الاجتماعية فى مصر، والتى فضلت الرد عليها من خلال بعض المصادر، وكذلك أوردت بعض التأثيرات الأوروبية التى وقع تحت سيطرتها من خلال قراءاته لبعض الرحالة الفرنسيين.

تأثر جناب شهاب الدين ببعض المؤلفات الفرنسية:

على الرغم من التفاوت فى الأسباب والدوافع بين الرحالة الأتراك، والرحالة الغربيين^(١) الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فإنها جميعًا تعبر عن جاذبية مصر كمهد للحضارة القديمة وكبلد خصب غنى، وكموقع جغرافى فريد.

ولقد أثر بعض مؤلفات الرحالة الغربيين - وبخاصة الفرنسيون - على أحد هؤلاء الرحالة الأتراك، وهو جناب شهاب الدين، حيث حظيت المؤلفات الغربية - ولاسيما الفرنسية - بجل اهتمام جناب شهاب الدين، فقد أتاحت له فترة وجوده فى فرنسا قبيل تأليف كتابه "حج يولنده" فرصة الاطلاع على الأدب الفرنسى فأنجذب إليه وترسّم اتجاهاته الحديثة ومذهبه، حتى إنه لم يتردد فى أن يبرز قراءاته لبعض المؤلفات الفرنسية - فى أدب الرحلات - لأدباء زاروا مصر إبان القرن التاسع

(١) مما لا شك فيه أن دوافع الرحالة الأوروبيين نحو مصر مركبة ومتشابكة، تمتاز فيها كثيرًا النزعات التنويرية والمعرفية والحضارية الاستكشافية والتطلعات التوسعية الاستعمارية وشهوة المغامرة، وقد تغلب عليها نزعة الهروب من المدينة وصراع الحياة فيها، والشوق إلى حياة الماضى فى "الشرق" مصر.

انظر: الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، د. ناجى نجيب، بيروت ١٩٨٣، ص ٧٠.

عشر وقاموا بتصوير انطباعاتهم ومشاهداتهم المختلفة، ويشير إليها جناب في إحدى رسائل "حج يولنده" قائلاً: "اهتم كثير من أدباء الغرب والشرق بتصوير هذا الإقليم المزدهر (أى مصر) ولا سيما جيرار دونرفال^(١) وتيوفيل غوتيه^(٢)

(١) ولد جيرار دونرفال في باريس ٢٢ مايو سنة ١٨٠٨، واسمه الحقيقي "Gerard labrunie"، والده من سكان جنوب فرنسا، استقرت عائلة والدته - وهى سيدة من الشمال - فى Valois، وقد التحق والده بخدمة جيوش نابليون فى ألمانيا وتبعته زوجته إلا أنها قتلت سنة ١٨١٠ وتكفل خاله أنطوان بوشير بتربيته. وانضم جيرارد إلى مدرسة مشار لمائى مع صديقه تراوفيل غوتيه. وقد تأثر جيرار فى طفولته بترجم سير القديسين الفرنسيين فى أرياف فالورا "Valois" واشتهر بمحاولاته الأدبية الأولى التى نشرها وهو لم يزل تلميذاً وهى اثنتان، إحداهما: مراثى وطنية فى مجد نابليون، والأخرى 'مجمع العلماء أو أعضاء لا يمكن وجودهم' وهى كوميدى انتقائية. وقد أخذ الاسم المستعار جيرار دونرفال من اسم مزرعة تابعة لعائلة والدته وعلى الرغم من أنه كان تلميذاً فى الطب فقد كان متردداً بكثرة حول الندوات الأدبية. وهو مثابح ملتعب للمذهب الرومانسى، وارتبط بجميع كبار الأدباء البوهيميين والعسائين، فعاش حياة غريبة حيث فاق الحلم لديه الحقيقة، ساح كثيراً فى فرنسا وفنلندا وإيطاليا وألمانيا والنمسا وقد زاد شغفه التعميس بالممثلة جوى كولون من حدة اضطرابه، وفى سنة ١٨٤١ تعرض لأول نوبة جنون فحجز لدى عيادة د. Blanche. ويحكى فى رحلة له فى مصر وسوريا وتركيا سنة ١٨٤٣ رحلته المصورة فى الشرق (١٨٥١)، وقد مزج فيها الخيال بالذكريات الحقيقية، وقد وُجد مشنوقاً فى سور حديدى فى شارع Lavicille-Lanterne سنة ١٨٥٥. وله العديد من المسرحيات والقصائد.

(٢) تيوفيل غوتيه أديب فرنسى وُلد فى نارية فى ١٣ أغسطس سنة ١٨١١، قدم باريس لدراسة فن الرسم، دخل فى مرسوم ربول (١٨٢٩ - ١٨٣٠) وأقام فى نفس الوقت صداقات حميمة مع شباب مدرسة الأديب الرومانسى ومنذ ذلك الوقت تخلى عن الرسم من أجل أن يقترب بالأدب، وصار رئيساً لجماعة الشعراء الشباب الذين اجتمعوا فى درب "ديونيه". وقد أثارت ندوته الأدبية الصغيرة الإعجاب. نشرت أولى أشعاره فى عدة مجلات، وقام بالعديد من الرحلات فى إسبانيا (١٨٤٠) والجزائر (١٨٤٥) وفى إيطاليا والقسطنطينية (١٨٥٠ - ١٨٥٢) وفى روسيا (١٨٦٠). له العديد من المؤلفات منها إسبانيا (١٨٤١) وشباب فرنسا (١٨٣٣)، وكوميدى الموت (١٨٣٨)، والشرق. ويعد من أكثر الرومانسيين المعرفين ويعتبر فى نفس الوقت قصصياً بارعاً، فكتبه - مثل "الضابط للفرنسى" و "قصة المومياء" - حازت مكانة ممتازة.

وإدمون أبو^(١) وبير لوتي^(٢)، وهم من مشاهير أرباب المؤلفين الفرنسيين الذين ألفوا كتبًا لا تنسى حوله^(٣)، وعلى الرغم من أن جناب شهاب الدين قد ذكر اهتمام "أدباء الشرق" بتصوير مصر، فإنه لم يحدد اسم واحد منهم كما حدد أسماء بعض أدباء الغرب بكلمة "لا سيما" مما يدل على مدى ارتباطه بالأدب الفرنسي وتأثره به. وينبغي علينا إلقاء الضوء على مواضيع تلك المؤلفات الفرنسية قبل أن نتناول

(١) آدمون أبو (١٨٢٨ - ١٨٨٥): أديب فرنسي، وهو تلميذ قديم لمدرسة المعلمين السامية ومدرسة أثينا، فقد شرع في دراسة بعنوان "اليونان المعاصرة" سنة ١٨٥٢، وبقصة "قولا" سنة ١٨٥٥. ومن بين مؤلفاته التي حازت شهرة واسعة "زيجات فرنسا"، و"ملك الجبال" سنة ١٨٩٧، و"ألمانيا" سنة ١٨٥٧ و"زيجات الرين" (١٨٦٨) و"القلاح" الذي نشر أولاً في مجلة العالمين تحت عنوان "أحمد الفلاح" (فبراير سنة ١٨٦٩).

(٢) بير لوتي: أديب فرنسي ولد في روشفور سنة ١٨٥٠، وهي بلدة على ساحل المحيط. اسمه الأصلي جوليان فيود Julien Viand، وقد انتسب لوتي الذي كبر مع خريز الأموال في سنة ١٨٦٧ إلى البحرية، وبدأ يتجول في العالم على ظهر سفينة حربية. فرأى جزر المحيط واليابان والسفغال والهند وإستنبول. وبعد النجاح الشائع لمؤلفه الأول أزيادي Azyade سنة ١٨٧٩، كتب حاشية طويلة للحكايات والقصص سنة ١٨٨٠ أعاد طبعها تحت عنوان زواج لوتي Lemariage de Loti سنة ١٨٨٢، وقصة فارس من فرسان الجزائر سنة ١٨٨١، وأخى ليف سنة ١٨٨٣ وصائد الجزيرة سنة ١٨٨٦، ومدام كريستان سنة ١٨٨٧، وإلى المغرب سنة ١٨٩٠، وقصة طفل سنة ١٨٩٠، وكتاب الشفقة والموت سنة ١٨٩٠، وشبح الشرق سنة ١٨٩٢، والفوتى سنة ١٨٩٣، والصحراء سنة ١٨٩٥، وبرد الجليل سنة ١٨٩٦، ورامنتشو سنة ١٨٩٧، والأيام الأخيرة في بكين سنة ١٩٠١، وإلى أصفهان سنة ١٩٠٤، وفك السحر سنة ١٩٠٦ ورائر تركيا سنة ١٩١١، وتركيا المحتضرة سنة ١٩١٣، ومنحة الشباب سنة ١٩١٩. وقد أطلق عليه أصدقائه مخلصه "لوتي" وهي كناية عن زهرة في الهند بهذا الاسم لأن طبيعة لوتي كانت لطيفة ومحبوبة أيضاً مثل تلك الزهرة وهي من جنس البنفسج، وقد نال الملازم الشاب نجاحاً باهراً بأول كتبه وفتحت له أبواب الأكاديمية إلا أنه ظل في وظيفته كضابط بحرية. وتعد "رحلة الصين" واحدة من رحلاته الأخيرة. ويعد بير لوتي واحداً من المبتكرين وهو يتجه إلى الأخلاقية في بعض مؤلفاته وهو في نفس الوقت يريد أن يقدم في مؤلفاته تجليات اضطراب العالم. توفي سنة ١٩٢٣.

(٣) حج يولنده: جناب شهاب الدين، ص ٦٧.

مدى تأثر جناب بها. قام جيرار دونرفال برحلة بحرية إلى الشرق حيث أبحر فى أول يناير سنة ١٨٤٣ من نهر منتو، وعبر مضيق مسينا حتى وصل إلى مالطة ومنها إلى سوريا وفى ١٦ يناير سافر إلى الإسكندرية حيث استقر بها حتى ٣١ يناير، ثم سافر من الإسكندرية إلى القاهرة فى ٦ فبراير ومكث بها نحو ثلاثة أشهر زار خلالها القسطنطينية وهليوبوليس والجيزة وشبرا والأهرامات، وأقام أولاً فى فندق دومرغ، ثم فى منزل مستأجر فى حى القبط، والتقى الجاليات الأوروبية فى الحى الأوروبى، ونزل دلتا النيل فى الثانى من مايو حتى وصل إلى دمياط ثم عبر حتى بيروت، ومنها إلى القسطنطينية وقبرص ورودس وأزمير وبيرة ومالطة ونابولي، وعاد إلى باريس عن طريق اليونان فى أول يناير وبدأ عام ١٨٤٤ فى تحرير ونشر مقالات "رحلة إلى الشرق" التى ظهرت أولاً سلسلة فى المجلات^(١).

أمّا تيوفيل غوتيه فقد ألف كتابه "الشرق"^(٢)، وموضوعه يتلخص فى أنه أبحر فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٦٩ حتى وصل أولاً إلى الإسكندرية ووصف طرقها وبنائاتها وأقام فى فندق الإنجليز، وفى اليوم التالى استقل مع زميله فلوبير وماكسيم دى كامب القطار فى رحلة إلى القاهرة، أفاض خلالها فى وصف مناظر الريف وتصوير حياة الفلاحين وأكواخهم ووصف النيل. وحينما وصل إلى القاهرة أقام فى فندق شبرد، وأدهشه ما رآه فى القاهرة التى تحدث عنها من قبل جيرار دونرفال وغوستاف فلوبير وماكسيم دى كامب^(٣)، ومن خلال شرفة فندق شبرد دوّن ملاحظاته ومشاهداته مصوراً حركة الشارع وما رآه من الحمير والفلاحات بجلاليتهن الزرقاء والبديوات بزيهن ونقابهن. هذا ما شاهده فى القاهرة فقط، ألف آدمون أبو قصته "الفلاح" وهى قصة اهتم مؤلفها بملاحظة عادات المصريين وتصوير مظاهر حياتهم من ناحية، وينقد من ناحية أخرى الأوضاع السياسية

(1) Gerard de Nerval "Voyage en Orient: Paris. 1929 Page 10.

(2) Theophile Gautier, L'Orient, Vol. II.

(3) Jean-Marie Carre "Voyageurs et ecrivains Francais en Egypte vol. II. le Caire 1956. Page 208.

والاقتصادية والاجتماعية... قضى آدمون أبو شهرين في مصر، لم يضيع منهما دقيقة واحدة، فشاهد وأصغى ولاحظ وحلل ووصف⁽¹⁾.

أبحر آدمون أبو في ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٦٧ حتى وصل إلى مارسيل، واقترب من الإسكندرية في ٤ يناير سنة ١٨٦٨ وقضى بها ثمانية ساعات، ثم وصل إلى القاهرة في ٦ يناير، وبعد يومين في العاصمة تجول في الدلتا عدة مرات وعاد إليها مرة أخرى في ١١ يناير ليبحر في اليوم التالي إلى صعيد مصر. واستمرت الملاحة في النيل حتى أسوان من ١٢ حتى ٢٨ يناير. وكانت عودته أسرع، حيث وصل إلى القاهرة نحو ٨ فبراير حيث مكث بها ثمانية أيام. وقابل في أثناء رحلته العديد من الشخصيات المصرية والفرنسية منهم أرام بك سكرتير الخديو وصهر نوبار باشا رئيس مجلس الشورى وراتب باشا القائد الأعلى.

اتجه بيير لوتى إلى الشرق في أثناء تجولاته التي قام بها حول العالم، فألف كتابيه "شبح الشرق" سنة ١٨٩٢، و"مصر"، وزار في أثناء رحلته إلى مصر الأهرامات، والقلعة، وعدداً من المساجد، فوصف الأزهر وجامع محمد على والمتحف المصري، ووصف ضواحي القاهرة وشوارعها. وقد أفرد فصلاً من فصول كتابه لدراسة النصرانية المهجورة.

ويظهر جلياً تأثر جناب شهاب الدين بهذه المؤلفات الأربعة سواء من ناحية الأسلوب أو المضمون، فهو بالإضافة إلى ترسمه نفس الأماكن التي تجول فيها هؤلاء الأدباء في مصر، قد تطبع أيضاً بآرائهم التي أدلوا بها في كتبهم، فكأنه لم يكن يشاهد مصر بعينه هو، ولكن من خلال أعينهم، فحينما يرى تيوفيل غوتيه الإسكندرية ويصفها قائلاً: "وبكل شراهة نظرنا ما حولنا، قابضين في الهواء على أصغر معلومات بيانية لا تحمل إطلاقاً انطباع هذه اللحظة الأولى. فالإسكندرية

(1) Jean Marie Carre "Voyageurs et ecrivains francais en Egypte: vol. II. Page. 277. vol II. P 270.

ليست مدينة شرقية تمامًا، وإنما تحمل طابعًا لم يقل عنه المسافرون، وعلى الرغم من وجود الأشكال الأوربية التي تتظاهر برعونة بأنها منازل جميلة، فإننا نشعر جيدًا بأننا في إفريقيا^(١).

ويلتقط جناب هذه الرؤية ويعبر عنها قائلاً: "أطلقت ذلك الحكم بمجرد أول تأثير: هنا (أى الإسكندرية) لا هو غرب، ولا شرق، ولا جميعه أوربي، ولا جميعه إفريقي، فهنا مختلط، وهى شىء وسط"^(٢)، ويصف زخرفة منازل الإسكندرية التي يغرم بها الإسكندريون فيقول: "الجميع فى منازل هذه البلدة (الإسكندرية) وفى المحلات وفى الأسواق وفى الميادين كأنه شعر منمق. إلا أن هذه الزخرفة لا تزال حتى الآن ظاهرة جدًا، فهى شىء مصطنع، فقدت مميزاتها المصرية تقريبًا، فجميعها لم يستطع مظهره الأوربي أن يبرز فى الميدان، فهى مثل النعامة لا هى تشبه الجمل ولا الطائر"^(٣).

وكما لاحظ تيوفيل غوتيه انتشار مرض الرمد فى القاهرة فيقول: "بعد مرض الرمد ظاهرة متكررة وخطيرة فى مصر، والحكايات التى تحكى بخصوصه لا تطمئن على الإطلاق"^(٤)...

فيظهر جناب هذه الظاهرة ويوضحها فى أثناء تجوله فى شوارع الإسكندرية: "وبسبب أن ثلاثة أرباعهم (أى سكان الإسكندرية) مصابون بأمراض العين فهم يتصادمون ويتصارخون"^(٥). ويرى أيضًا النساء وهن مصابات الأعين فيقول: "أمام هذه المساكن الحفيرة تنزل النساء أحيانًا إلى شاطئ القناة (المحمودية) وهن مصابات الأعين وقد ارتدين جلابيب زرقاء طويلة، ويملأن آباريقهن بماء النيل"^(٦).

(1) Theophile Gautier: L'Orient Vol. II. Page 142.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٣.

(٣) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٧.

(4) Theophile Gautier: L'Orient, vol. II Page: 152.

(٥) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٣.

(٦) المصدر السابق: ص ٨٠.

ويستعين جناب شهاب الدين بروية تيوفيل غوثيه حينما يصف شاطئ قناة المحمودية ويلاحظ التناقض الواضح بين حالتيهما فيقول غوثيه: "شملت الناحية المقابلة لبحيرة مريوط بيئة من الحدائق الغزيرة بالنباتات، وترسم متنزهات تجار المدينة الأغنياء والموظفين والقناصل ألواناً زاهية مع زرقة السماء وألوانها الحمراء أو الصفراء مع الألوان البيضاء الناصعة. وعلى البعد ترسم الأحجبة الثقيلة المتوجهة إلى فوة أو إلى رشيد عن طريق قناة المحمودية زواياها فوق الخطوط الزراعية وظهرت وسط البسيطة. وهذا الأثر الذي يدهش دائماً العين يصادف غالباً ضواحي ليدو ودوردرش وحارلم... ويتغير منظر البلاد عند التوقف لدى الماء المر، وهو ليس بتغيرات تدريجية ولكنها تغيرات مباغتة، فهناك قحولة مطلقة، وهناك خصوبة زاهرة.. وتسبب لكم مقدمة قرى الفلاحين التي تصادفونها على يمين وشمال الطريق انطباعاً غريباً... فهي عبارة عن أكوام من أكواخ وعشش مبنية بالأجر وموصولة بالوحد، ويعلو السقف المنبسط أحياناً أبراج صغيرة مجصصة بالكلس للحمام"^(٤)، ويرى جناب شهاب الدين نفس هذا التناقض: "يعد يمين ساحل القناة (المحمودية) واحداً من أجمل متنزهات الإسكندريين. تمر من أمام العربية وهي تسير داخل ظلال أشجار الأفاقيا (السنط) المعطرة اللطيفة على طول الساحل، الأشجار التي لا مثيل لها والمصايف الفذة.. في بعض الحدائق تتكاثر الأشجار إلى درجة لا تستطيع العين معها أن تتفد إلى جوانبها الأخرى. فالجميع هنا هو عالم من الظل والخيال، علاوة على ذلك انظروا إلى الساحل الآخر للناحية المقابلة. ها هو قد ظهر تجاهكم تعارض من جديد: فهذا الساحل المفعم جمالاً ويساراً، والساحل المقابل هو البداية الحقيقية لظهور الأرض المصرية، هو خراب وحقير، فقرى العرب الفقيرة في تلك الناحية عبارة عن أكواخ طينية اصطف بعضها بجانب بعض، ومن عشب مجذب متراكم فوق مكعب طيني"^(٢).

(1) The. Gautier: L'Orient, vol II. Page 157: 160.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٩ و ٨٠.

وكما رسم غوتييه لوحة عن الريف المصرى من خلال نافذة القطار وهو فى طريقه إلى القاهرة وأراد أن يكون رسماً، فى كل لحظة ويتسلى برسم بروفييل للأفق من منظر الزرع وقوافل الجمال وأكواخ الفلاحين ومنظر الصحراء كما هو واضح من قوله: "كان منظر البلاد دائماً هو نفس المنظر: زراعة القطن (والقمح) والذرة ممتدة على مدى البصر... يتوالى على الطريق موكب لا نهاية له من الجمال والبغال والحمير والبقر والماعز الأسود والمشاة يعطى انتعاشاً يفوق الحد لهذا المنظر الريفى الأفقى الهادئ... وفى مرات أخرى كانت هناك أكواخ وعشش الفلاحين تعلوها أبراج الحمام المليسة بالكلس والمصفوفة الواحدة بجانب الأخرى مثل خلايا النحل"^(١). ويصف الصحراء بقوله: "تتقدم رمال الصحراء بأمواجهها المجدبة كما لو كانت بحراً"^(٢)...

فإن جناب حاول أن يبرز عناصر هذه اللوحة أيضاً حينما استقل القطار كذلك فيقول واصفاً الطريق: "الآن يسير القطار وسط أراضٍ مزروعة مستوية: هناك حيث يحصد الزرع الأخضر... وعلى مسافة بعيدة فى أصغر أرقام، وكذلك على مسافة أبعد... وفى النهاية نرى قافلة من الجمال يتعقب بعضها البعض بخطوات متأنية صبور جداً... ثم يحمل خط سنجابى اللون فى الأفق النهاية لهذه المناظر الناضرة وتبدأ القفارى... السماء صافية وتستمر الصحارى وتدوم على شكل بحر من الرمال واسع على امتداد مرمى البصر"^(٣). ويصف أكواخ الفلاحين قائلاً: "فى الواقع أقيمت هناك منذ سنوات عشش مصفوفة بعضها بجانب بعض كثيرة جداً، كانت كثيرة جداً إلى درجة أنها كانت تشكل قرية. وكانت الأبنية المكونة من هذه العشش أكبر من قفارى خلايا النحل وأصغر من الأكواخ العادية"^(٤).

(1) The. Gautier: L'Orient. vol II P. 176-177- 178.

(٢) المصدر السابق: ص ١٨٣.

(٣) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) المصدر السابق: ص ١١١.

وهناك أيضًا بعض الآراء التي ساقها جناب شهاب الدين في كتابه "حج يولنده"، تشابهت مع ما أورده بعض الرحالة الأوروبيين، من ذلك ما رآه من كسل المصريين بصورة عامة - كما رأينا^(١) من قبل - ويفسر هذه الظاهرة بأنها نتيجة المناخ وشدة الحرارة الملتهبة، وهو في ذلك يردد ما ذهب إليه إدوارد وليم لين في قوله: "وحرارة الصيف مرهقة، بحيث تسبب نوعًا من الارتخاء..."^(٢).

بالإضافة إلى أن المصريين - كما يقول جناب - يميلون إلى شرب الدخان. ويقول أيضًا بريس دافيد: "الكيف معروف في مصر وتركيا، وهو يجعل المصريين أكثر تراخيًا وخمولاً، فنجدهم لا يشعرون بالقلق ويشعرون بالراحة، فهم لا يصبح لهم من لذة إلا في الإحساس بأنهم يعيشون في تتابع التمرجات التي يريمها الدخان المنبعث من تبغ اللاذقية".

ويستدرك ريس دافيد القول إن عدد المدمنين قليل في مصر لحسن الحظ^(٣).

وإذا كان جناب شهاب الدين قد تعجب من مساكن الفلاحين فقد تعجب شو لشيه^(٤) منها أيضًا فيقول: "ويعيش الفلاح في مساكن من الطين منخفضة مظلمة ولا يمتلك سوى حجرة واحدة تؤويه مع أولاده وزوجته والحيوانات التي يمتلكها"^(٥).

(١) انظر: الفصل الرابع من الباب الثاني من الكتاب.

(٢) ناجي نجيب: الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق: ص ٨٠.

(٣) إلهام محمد على ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٥، ص ٣٠٠.

(٤) شولشييه: فكتور شولشييه زار مصر في عام ١٨٤٥، شن حربًا ضد تجارة الرقيق، وقد كتب في مقدمة كتابه أن الهدف من الكتاب هو دراسة أحوال الرقيق، ورغم أنه أشاد بالحضارة الإسلامية فقد شن هجومًا عنيفًا على نظام حكم محمد علي.

انظر: إلهام محمد على ذهني: المرجع السابق ص ١٠٢.

(٥) إلهام محمد على ذهني: المرجع السابق، ص ٢٤٥.

وقد تعرض جناب لمظاهر الفقر والتسول، وكذلك تعرض أيضا لمظهر من مظاهر الانحلال الخلقي والأدبي بين أهل وشعب الإسكندرية، ولنترك جناب يشرح هذا المظهر، الذى صادفه فى الشارع الذى يوجد فيه الفندق حيث يقيم فيقول:

"فندق بونار جدير بالتزكية من كل الوجوه، إلا أنه به مخذور ألا وهو الشارع الذى به الفندق، فهناك على جانبي هذا الطريق الواسع تمامًا خمارة، حيث تقوم السيدات الشابات اللاتي يخدمن هناك بإغراء العاب والقادم، كل بلغته هو، وليس بقليل من يستجيب لمن من الرجال السذج، ولم تقتنع هؤلاء السيدات الوقحات بدعوتكن شفاهة فقط، وإنما يمكنكم من أذرعكم فى وقاحة ويجذبكن إلى الداخل ويوصلكن إلى زواياهن.

وإن ذهبت إلى الإسكندرية ونزلت فى فندق بونار، فإننى أنصحك بأن لا تتجه للخروج من باب الفندق سواء إلى اليمين أو إلى الشمال، وإنما تخرج من وسط الطريق، وإن وصلت إلى ميدان المنشية فسوف تسمع من كل لسان جملة: تعال هنا"^(١).

صراحة، ابتليت مصر فى القرن التاسع عشر بهذا الانحلال الخلقي، بل انتشرت الدعارة فيها بصفة رسمية إلى حد اعتراف الحكومة بها. وهكذا تحولت النساء فى مصر إلى بضاعة مزجاة لإشباع الشهوات الجسدية، ولكن لا بد من التساؤل: ما الأسباب والدوافع التى أدت إلى انتشار هذه الدعارة فى مصر؟ أو بلفظ آخر: كيف وصلت حال المرأة المصرية إلى ما وصلت إليه من رق واستغلال؟!

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٨٤.

يرجع كلوت بك سوء حالة المرأة الشرقية من الناحية الأدبية فى مصر القرن التاسع عشر إلى سببين:

السبب الأول: إطلاق حرية الرجال فى تطليق زوجاتهم دون قيد أو شرط، مما جعل المرأة الشرقية عرضة للتشرد فى أى لحظة دون سابق إنذار ودون أدنى تعويض لهن.

السبب الثانى: استحالة التحاق هذه النساء فى ذلك العصر المتأخر بالوظائف العامة، على عكس المرأة الأوروبية، التى كانت مساوية للرجل فى ميدان هذه الأعمال.

وقد ترتب على هذين السببين حرمان المرأة الشرقية من أى مورد رزق شريف تتكسب منه، والتجاوزها بالتالى إلى الدعارة.

ورغم أننى لا أن أذهب إلى ما قاله كلوت بك من آراء حول هذا الموضوع فإنه يمكن القول إن الحياة الخاصة بالمجتمع المصرى قد ورثت الكثير عن الأتراك فى تلك الفترة:

- فى ما يتعلق بقضية تعدد الزوجات.

- وإبعاد المرأة عن التعليم، والإقلال من شأنها وقصر حياتها على خدمة البيت.

ويربط البعض^(١) بين الإسراف التركى فى الاستكثار من النساء فى الحريم، وانتشار الدعارة فى مصر، حيث أدى هذا الاستكثار إلى قلة عدد النساء الكافيات لزواج سائر رجال الشعب فى مصر.

(١) انظر: عبد العظيم رمضان - الحياة الاجتماعية للأتراك فى مصر، رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤، ص ٢٥٠.

ورغم تحريم الدعارة في الشرائع السماوية كافة، وعلى الرغم من جهود
والى مصر حينذاك لإبطال هذه الدعارة العلنية في مصر عن طريق إلغاء
الضرائب الرسمية التي كانت تجبيها الحكومة عليها إذ ذاك، فإن الدعارة لم تبطل
من مصر في القرن التاسع عشر قط، وكل ما في الأمر أنها صارت دعارة سرية
بعد أن كانت علنية رسمية^(١).

(١) المصدر السابق، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

خاتمة الفصل

يتضح ممّا سبق أن كتابات الرحالة الأتراك فى الناحية الاجتماعية والاقتصادية كانت أقرب جدًّا إلى الصحة، وأيدها أغلب المصادر، فى ما عدا قول سليمان شكرى عن مدى استفادة الفلاح المصرى من الثروة الزراعية التى شهدتها مصر فى تلك الفترة وكذلك آراؤه الخاصة بحكام مصر، غير أننا قد لاحظنا أيضًا أن حصيلة المعلومات التى قدمها أولئك الرحالة فى مجال الاقتصاد هى صورة دقيقة للواقع وجاءت مصورة للبلاد، كأننا طالعنا الحياة الاجتماعية حتى بدت الانطباعات والتفسيرات الذاتية التى يستقيها المؤلف من عواطفه تجاه ما يشهد. ومن نافلة القول أن جميع الرحالة الأتراك والمصادر العربية والأوربية التى قُست عليها كانت متفقة تمامًا من الناحية الجغرافية باعتبارها مسلمات طبيعية لا تتغير.

الخاتمة

حاول هذا البحث أن يستشف صورة مصر فى كتابات عدد من الرحالة الأتراك، إبان فترة هامة من فترات تاريخها خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وأن يقف كذلك على الأمور أو الموضوعات التى تطرق إليها هؤلاء الرحالة، أو القضايا التى أولوها اهتمامهم.

ولم يعتمد البحث على رحالة بعينة أو اثنين من أولئك الذين زاروا مصر فى تلك الفترة، بل حرص كل الحرص على أن يضم أكبر عدد ممكن من كتب الرحلات التركية، سواء المقتصرة على وصف مصر، أو تلك المؤلفات التى زار أصحابها مصر ضمن رحلاتهم إلى البلاد التى كانوا يقصدون الذهاب إليها، حتى يتسنى لنا أن نتعرف من خلال كتاباتهم انطباع كل منهم، والوقوف على توجهاتهم العامة كل على حدة، فضلاً عن أن دوافع تلك الرحلات كانت تختلف من رحالة إلى آخر، الأمر الذى أتاح فرصة تنوع مادتها ومناهجها وثرائها.

ومع هذا، يجب أن يؤخذ فى الاعتبار ضرورة النظر إلى كل هذه المؤلفات ككل متكامل، والجمع بينها بنظرة شاملة - مع الالتزام بنصوصها - فى محاولة لتحليل أوجه هذه المؤلفات وموضوعاتها.

ونستطيع أن نستخلص بعض الملامح والسمات الآتية، التى نتصف بها تلك المؤلفات:

لنبدأ أولاً بمحمد محسن، الذى يعد مؤلفه "أفريقا دليلى" مرجعاً أساسياً اعتمد عليه من جاؤوا بعده. والظاهرة الواضحة أن محمد محسن قد توسع فى ذكر ما

يخص مصر، دون غيرها من البلاد الإفريقية، وهذا شيء طبيعي بحكم عمله بها. ويتميز كتابه بخاصيتين هامتين:

١- اتباعه منهجاً علمياً - فى أغلب الأحيان - كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى لمصر بصفة خاصة، وهو يعتمد كثيراً على الهوامش، وذلك لتفسير ما يقابله من المصطلحات والظواهر التى أوردها بمتن الكتاب، وكان يخرج فيها عن الوصف الجغرافى الجاف، ونستشف منها مشاهدته الشخصية لكثير من الأماكن التى أوردها فى كتابه، ويتحدث محمد محسن عن إقليم مصر بما أنه إحدى ولايات الدولة العثمانية، طبيعة أرضه ومناخه، وحدوده الطبيعية وثرواته الطبيعية من ماء ونبات وحيوان ومعادن، وتوزيع السكان والتقسيمات الإدارية، ونلاحظ الاهتمام بالجانب الاقتصادى لمديريات الوجه القبلى والبحرى، سواء من الناحية الزراعية أو الصناعية أو التجارية.

كما سيطرت على محمد محسن - من ناحية أخرى - ثقافته التاريخية، فقد تتبّع تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة وحتى فتح العثمانيين لها، الأمر الذى جعل من مؤلفه كتاباً فى الجغرافية التاريخية.

إن محمد محسن - على الرغم من مجيئه إلى مصر وبقائه بها فترة تكليفه - لم يهتم بالرحلة لذاتها، وما ينجم عنها من أحداث ومواقف، قدر اهتمامه بوصف المكان الذى قصده وصفاً جغرافياً، ولم تظهر شخصيته، إلا فى مواضع قليلة فى حواشى الكتاب، وبشكل غير مباشر.

وإذا كان أدب الرحلة هو "رواية التفاعل بين الذات والآخر" فإن كتاب "أفريقيا دليلي" هو مؤلف يتصف بالموضوعية، عكس مادة الرحلات، فهى ذاتية، علاوة على ذلك فإن هدف المؤلف - كما يوضح فى المقدمة - هو وضع كتاب يهتم أولاً بتقديم معلومات جغرافية وتاريخية.

وفى ظل هذا الإطار ذاته من المعلومات الجغرافية، يقدم لنا محمد عزت كتابه "يكي أفريقيا"، ولكن بصورة مصغرة، والخاصية التى يتميز بها هذا المؤلف أنه قدم بعض المعلومات الجديدة التى لم يذكرها عن الأحوال السياسية وأصول الحكم فيها موجزًا القول فى وصفه الأوضاع التجارية والزراعية والصناعية.

وإذا كانت المؤلفات الأولى التى ظهرت فى مجال الرحلة إلى مصر فى تلك الفترة قد احتفظت بسمتها الأساسية، وهى أنها كتب فى الجغرافيا، فإنه قد ظهرت بعد ذلك كتب تدرج تحت فن أدب الرحلة وتشمل خمسة مؤلفات:

- يمن يولنده: عبد الغنى سننى بك.

- حج يولنده: جناب شهاب الدين.

- مصور مصر خاطراتى: خالد ضيا.

- سياحات كبرى: سليمان شكرى.

- سودان سياحته سى.

ولعل السمة الأساسية التى تصف بها الكتب الثلاثة الأولى فقط - أنها جاءت خلواً من ذكر أى تفاصيل جغرافية وتاريخية، بل ومن الأبحاث السياسية، عكس الكتابين الآخرين، ولكنها جميعاً تنتمى إلى فن الرحلات، حيث تمثل الرحلة الموضوع الرئيسى لها، وتفرّد كل رحلة منها بشخصية مستقلة، إذ إن أصحابها تنوعت اهتماماتهم بتنوع ما يبدو لهم من مشاهدات وخرائب: ولا شك فى أن أياً من هذه الكتب يعد من الوثائق التى يعول عليها لمعرفة أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية فى تلك الفترة التى عاشها أصحابها، وإن كان الجانب الاجتماعى هو السمة المشتركة التى اهتمت بتسجيل الكتب السابقة، غير أنه يؤخذ على بعضهم نظراتهم الانطباعية وملاحظاتهم العابرة عن المجتمع المصرى، حيث لم تتوفر فيهم القدرة على معاشته بالقدر الذى يسمح لهم بتقديم صورة شاملة عنه، ومن

أمثلة هؤلاء عبد الغنى سنى بك، وجناب شهاب الدين، حيث استأثر الجانب الاجتماعى بالجزء الأكبر من اهتمامهما، ومع هذا لم يتفاعلا معه، بل كانا يصدران حكماً عاماً على الشعب المصرى فى بعض المواقف التى تعرضا لها. وبخاصة جناب شهاب الدين الذى كان ذا قدرة على النقد الاجتماعى الساخر فقد كتب عن كل موقف اجتماعى يقابله رد فعل سواء بالإنتكار أو السخرية. بل إنه كان يطيل الوقوف عند هذه المواقف، مستغرقاً فى وصفها (فقد تعمق فى وصف مشاهد التسول والفقر وتجارة الرق الأبيض)، ولعله فى ذلك كان متأثراً بما قرأه عن مصر فى المؤلفات الفرنسية، التى اتضح أنه نقل عنها بعض المواقف التى أوضحناها من قبل. وما يثير الشك أيضاً فى صدق بعض السليبات التى صورها لنا جناب أن معاصراً له (خالد ضيا) سجل فى كتابه "مصور مصر خاطراتى" مدى انبهاره وإعجابه بما وصلت إليه مصر من تقدم وازدهار فى تلك الفترة، بل إن كتابه يعتبر كأنه تقرير عن مدى تفوق مصر فى الكثير من المجالات ويمكن أن تستفيد تركيا من ذلك النموذج الرائع الذى حدث فى مصر، ويتم تطبيقه أو تحذو حذوها. وهذه الأمنية يصرح بها عبد الغنى سنى بك أيضاً فى العديد من المواقف التى لمس فيها تفوق مصر على تركيا. غير أن جناب شهاب الدين نجح فى تحقيق الترابط بين أجزاء رسائله، وهى تمثل يوميات يتم تدوينها مباشرة وقت حدوث الرحلة، وفقاً لترتيب زمنى ومكانى، وكذلك فإنه كان أدبياً يميل نحو الأسلوب القصصى، فضلاً عن أنه يعد من أبرز من عبر عن الاهتمام بالجانب الإنسانى فى الساحة المصرية.

ولقد نزه الرحالة الأتراك فى ما عدا جناب وعبد الغنى سنى بك كتاباتهم عن كل سوء، فلم يهتموا بذكر السوآت الأخلاقية لسكان مصر، بل إن واحداً منهم وهو سليمان شكرى قد انتهى إلى أن: عدَّ المصريين جديرين بالشفقة والرثاء، لا بالامتهان والازدراء، ذلك أنهم - فى كثرتهم - فلاحون كادحون يكابدون المشاق فى صبر شديد.

وكذلك كان محمد مهري في رحلته المسماة "سودان سياحتنامه سي" إنساناً صادقاً وراحلاً صادقاً، نقل ما شاهده دون محاولة للكذب، والشئ الذي يُحمد له أنه كان يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة، وطالع العديد مما سجله المؤرخون العرب، ومن ثم استطاع أن يفسر الحاضر على ضوء الماضي.

ولعل ما خلصت إليه الدراسة في الفصل الخامس الخاص بتقويم كتابات الرحالة الأتراك عن طريق مقارنتها بأوثق المصادر العربية والأجنبية التي ألفت في نفس هذه الفترة المدروسة، وجماعة الاتفاق في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والاختلاف في القليل جداً في المجال، يضيف إلى ما سبق جديداً أتت به هذه الدراسة.

المصادر والمراجع

أ) المصادر التركية (العثمانية):

- (١) ثريا، محمد: سجل عثمانى، المجلد الرابع، مطبعة عامرة، استانبول سنة ١٣٠٨ - ١٣١١.
- (٢) حبيب، إسماعيل: تورك تجد دادبيياتى، استانبول، ملى مطبعة سى، ١٣٤٠هـ.
- (٣) سامى، شمس الدين، قاموس الأعلام، ٦ - درسعادت سنة ١٣١٥: قاموس تركى درسعادت سنة ١٣٢٧.
- (٤) سنى بك، عبد الغنى، يمن يولنده، استانبول سنة ١٣٢٥.
- (٥) شكرى، سليمان، السياحات كبرى، بتروسبورغ ١٩٠٧.
- (٦) شهاب الدين، جناب: حج يولنده، استانبول سنة ١٣٣٤.
- (٧) ضيا، خالد: مصور مصر خاطراتى، استانبول سنة ١٣٢٦.
- (٨) عزت، محمد: يكى افريقا، استانبول، استبان مطبعة سى، سنة ١٣٠٨هـ.
- (٩) محسن، محمد: افريقا دليلى، القاهرة، مطبعة جريدة الفلاح سنة ١٣١٢.
- (١٠) مهرى بك محمد: سودان سياحتنامه سى، استانبول سنة ١٣٢٦.

ب) المصادر التركية (الحديثة):

- (1) Banarli, Nihad. Sami: Resimli Turk edebijat Tarihi. 1st, Mill; Egitin Basimevi, 1971.
- (2) Habib, Ismail: Tanzimattan beri Fdebyate Tarihi, 1st. (aglayan Basemevi, 1963).
- (3) Kabakle, Ahmet. Turk-edciyati Tarihi Cilt 1. 1st. enderunkitabevi, 1974.
- (4) Levend, Agab Sirri: Turk edebiyati. Tarihi giris. Ankara. Turk Tarihi Kurumu Basimevi, 1984.

جـ، المصادر والمراجع العربية:

- (١) أقيوز، كنعان: معالم الأدب التركي الحديث: ترجمة د. محمد هريدى، ود. عزة الصاوى، القاهرة سنة ١٩٨٧.
- (٢) جلاذ، فيليب: قاموس الإدارة والقضاء، المطبعة الأميرية، القاهرة.
- (٣) جوردن، ليدى دف، رسائل من مصر: ترجمها على الكاتب، القاهرة، ١٩٨٤.
- (٤) ذهني، إلهام محمد على (دكتورة): مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين (١٨٠٥ - ١٨٧٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.
- (٥) الرازى، محمد بن أبى بك بن عبد القادر: مختار الصحاح، بيروت (د.ت).
- (٦) الرافعى، عبد الرحمن: عصر محمد على، دار المعارف، سنة ١٩٨١.
- عصر إسماعيل، الجزء الأول، والجزء الثانى، دار المعارف،
سنة ١٤٠٢ هـ، سنة ١٩٨٢ م.
- (٧) رزنى، هوسيوهنس: مصر فى عهد الاحتلال الإنجليزى والمسألة المصرية، مصر
سنة ١٣١٤ هـ، سنة ١٨٩٧ م.
- (٨) رفعت، محمد: مصر والدولة العثمانية: دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين
الطرفين، سنة ١٨٤٠ - ١٨٦٣، القاهرة سنة ١٩٥٥.
- (٩) سامى باشا، أمين: تقويم النيل، الجزء الثانى، والثالث (المجلدات الأول والثانى
والثالث)، المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ - سنة ١٩١٦ م.
- (١٠) السروجى، محمد محمود: مصر والمسألة الشرقية فى النصف الثانى من القرن
التاسع عشر، إسكندرية سنة ١٩٦٨.
- (١١) سرهنك، إسماعيل: حقائق الأخبار عن دول البحار، ج٢، المطبعة الأميرية سنة
١٣١٢ هـ.
- (١٢) سليمان، أحمد السعيد (دكتور): تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة،
دار المعارف، مصر سنة ١٩٦٩.
- (١٣) شفيق باشا، أحمد: مذكراتى فى نصف قرن: الجزء الأول، مطبعة مصر سنة
١٣٥٢ هـ - سنة ١٩٣٤ م.
- (١٤) ضيف، شوقى: الرحلات، دار المعارف سنة ١٩٧٦.

- (١٥) عباس، رؤوف (دكتور): تطور المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر، دار النهضة العربية (د.ت).
- (١٦) عنان، محمد عبد الله: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٥٠هـ - سنة ١٩٦٩م.
- (١٧) كلوت بك: لمحة عامة عن مصر، القاهرة، ج١، وج٢.
- (١٨) مبارك، على باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدتها وبلادها القديمة والشهيرة، ج١، وج٢، وج٤، وج٥، وج٦، القاهرة سنة ١٩٦٩.
- (١٩) مصطفى، أحمد عبد الرحيم: علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٧.
- (٢٠) مكدونالد، السير مردوخ: ضبط النيل، الجزء الأول، المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٢٠.
- (٢١) الموافى، ناصر عبد الرازق: الرحلة فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، القاهرة سنة ١٩٩٢.
- (٢٢) ميخائيل، شاروبيم: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الرابع، بولاق سنة ١٣١٨هـ - سنة ١٩٠٠م.

د) المصادر والمراجع الأجنبية:

- (1) Carré, Jean Marie: Voyageurs et ecrivains Francais en Egypt, Vol. II. Paris, 1934.
- (2) Gautier, Theophile: L'orient, Vol. II, Paris, 1930.
- (3) Nerval, Gérard de: Voyage en Orient Paris, 1929.

المؤلف فى سطور

سامية محمد جلال

- أستاذ اللغة التركية وآدابها بقسم اللغات الشرقية، جامعة القاهرة، كلية الآداب، فرع اللغات الإسلامية.
- لها العديد من الكتب المترجمة والأبحاث المنشورة فى مضمار الدراسات التركية.

ومن الكتب المترجمة المنشورة عن اللغة التركية:

- ١- حج بولنده (= على طريق الحج): جناب شهاب الدين، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م
- ٢- مصور مصر خاطراتى (= ذكريات مصورة عن مصر): خالد ضياء الدين، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦م
- ٣- قيزلر آغاسى (= آغا البنات): أحمد رفيق، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
- ٤- خط وخطاطان (= الخط والخطاطون): للمؤلف حبيب أفندى بيدابيش، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠م

كتب مترجمة تحت النشر:

- 1- The Emergence Of Modern Turkey: Bernard Lewis, London, 1960.
- 2- Kahire kitabi: Fatih Okumus, Ist, 2006.

ومن الأبحاث والدراسات المنشورة:

١- نحيفى وبردة البوصيرى "دراسة تحليلية مقارنة لترجمة البردة ومعارضتها، مجلة الدارسات الشرقية، العدد السادس والثلاثون، يناير ٢٠٠٦م

٢- النزعة الصوفية فى أشعار عثمان خلوصى الدارندوي، رسالة المشرق، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثالث والرابع ٢٠٠٨م

٣- مقدمة كتاب "الخط والخطاطون" - حبيب أفندى بيدابيش، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠م

٤- ديوان عائشة التيمورية - دراسة أسلوبية، مجلة كلية الآداب، جامعة عين شمس يوليو ٢٠١٠م